

عابد المصرى

(رواية حقيقية)

عابد المصرى .. رواية

كتبها/أمامة على الصادق

.....

الطبعة الأولى .. يونيو ٢٠١٠

الناشر: الكاتب

.....

تصميم الغلاف:

ريهام سهيل

.....

حقوق الطبع محفوظة للكاتب

موبايل: ٠١٢٧٩٧٠٠٣٢

عابد المصري

(رواية)

كتبها/ أسامة علي الصادق

إهداء

إلى هذا البطل الذي لم ينل حظه من التكريم كما يجب .. فقد أهمله الإعلام وتجاهلته الأقلام .. لم ترحمه الأحداث والخطوب ، ووقف ضده حظه العاثر .. ورغم ذلك كان ناكراً لذاته من أجل وطنه .. مخلصاً في أداء عمله الصعب من أجل تراب بلده .. حريصاً على تنفيذ مهمته رغم المشاكل التي تعرض لها وتواء منها الجبال .. وتتصهر من لهيبها القلوب .. لقد فاق ما واجهه كل احتمال .
ولأن صوته لم يكن عالياً أو مسموعاً فقد طوته صفحات النسيان .. فالأصوات درجات :

١- الجرحي الذين يتكلمون يمكن أن يحصلوا علي بعض المجد والفخار
٢- الشهداء .. وحيث إنه لا صوت لهم فيكتب عنهم عنوان "شهداء حرب أكتوبر" ونصب تذكاري للجندي المجهول لا ينظر إليه أحد إلا حين يقوم بزيارته شخصية مهمة

٣- النوع الأخير والذي لا صوت له .. لماذا؟ لأنه لا يستطيع الشكوى فهو لا يطالب بحقه ولا يتكلم وفي الصفحات التالية سوف نتحدث عنهم

إن كل ما سوف تطالعه بالصفحات التالية هي حقائق واقعية حدثت زماناً وقرباً من المكان مع استبدال لبعض الأسماء لمن قام بها حرصاً مني علي سرية المعلومة ولهم من شعب مصر كل تقدير وتكريم وإحترام ، لقد أصبحوا من المرابطين والذي تحدث عنهم دين الإسلام الحنيف.

بعد أن انتهيت من كتابة كتابي الأول "الناس والحرب" عن تجربة ذاتية

عن حروب مصر المعاصرة وهي بالترتيب "حرب عام ١٩٦٧ وحرب الاستنزاف الدامية وحرب أكتوبر المجيدة عام ١٩٧٣" وكان هذا في منتصف عام ٢٠٠٧ .. بعدها شعرت بأن ضميري قد هدا وارتاح لشهادة شاهدها وأثرت في نفسي من أحداث لوطننا الحبيب مصر ولأبنائها من الشباب من جنود القوات المسلحة لفترة تزيد عن ست سنوات.

كان تأثير هذا الكتاب شديداً وفعالاً علي شباب مصر من الجنسين ونظراً لعدم عثوري علي دار تقوم بنشر الكتاب رغم تحملي نفقات النشر حيث إن تلك الدور تخشي العقاب من المسؤولين بالدولة وبالتالي فقد تحملت الطباعة والنشر والتوزيع ، وكانت تلك هي التجربة الأولى لي وتحملت من أجلها المزيد من التوتر النفسي والعصبى والمادى لاستعادة أحداث تلك السنوات العجاف التي مرت علي تاريخ مصر الحديث.

طيب من خاطرى وخفف من الأم المعاناة للطبع والنشر والتوزيع الاتصالات التي قام بها الشباب إعجاباً وتقديراً للموضوعات التي كتبت عنها بل رفعوني إلى عنان السماء وجعلوا مني بطلاً ربما لا أستحقه حيث كانت البطولات التي تمت لا يستحق فخرها ومجدها سوى جنودى الأبطال سواء في سيناء أو خلال حرب الاستنزاف ونهاية بحرب أكتوبر.

بعد هذا هدا بالى واعتقدت بأننى قد انتهيت من الكتابة عن أعمال الشباب الخالد في ميدان القتال والبطولة .. فما قمت به قد تم ولا جديد لدى ولكن هواية الكتابة والنشر تصبح في بعض الأحوال مثل المكيفات ولا يستطيع البعض تركها لهذا اتجهت إلى كتابة الرواية الاجتماعية الطويلة عن موضوعات تحدث بالمجتمع وتؤثر فيه ، لكن جد جديد جعلنى أعود للحديث عن بعض الأعمال

الفذة خلال الحروب مع إسرائيل والتي حدثت لصديق وزميل لي تعرفت عليه فجأة في ظرف غير طبيعي.

لن أطيل عليكم وسأبدأ في سرد الأحداث التي حدثت لصديقي والذي تخيرت اسمه الأول "عسايد" متجاهلا لقب العائلة ولنبدأ الحكاية مع البطل عابد في سرد الأحداث التي وقعت له سواء حدثت له بالصدفة البحتة أو حدثت نتيجة لقيامه بتنفيذ أوامر وتعليمات القادة له ، لقد وجدت في أحداثه تجربة ثرية ومثيرة بل موضوعات شيقة تدفع بهم شباب الجيل الحالي أو أجيال المستقبل للثقة بالنفس ولتعلموا بأن مصر مازالت بخير وبها العديد من النماذج المشرفة ، ولهذا سوف أترككم مع صاحب التجربة ليتحدث عنها ؛ حيث قمت بتسجيل كل ما قاله لي حتى لا أغفل أي شيء ولو صغير أو قليل القيمة فما اعتبره بسيطاً اعتبره البعض من شباب الجيل المعاصر بأنه شيء يستحق الذكر ، هذا الجيل الذي ظلم مرتين ، المرة الأولى حين تم إخفاء عنه كل ما قام به الآباء والأجداد من أمجاد في ميدان المعركة مكتفين بأمجاد عظماء التاريخ الفرعوني والإسلامي وكأنها رسالة تخبرنا نحن جميعا بأننا أصبحنا لا نستطيع القتال ومجابهة العدو ، ويكفى الجرعة التي نحصل عليها من أبطال الماضي أما أبطال الحاضر في العصر الحديث فقد طمست شخصيتهم ومحت عنتريتهم وبسالتهم ، أما المرة الثانية التي ظلم فيها هذا الجيل هو أنه لن تتاح له الفرصة ؛ لأن يقاتل العدو رغم أن العدو مازال واقفا أمامنا يستفز مشاعرنا ويكفى أن يتحدث بعض مسؤولي العدو بأنه من الواجب تدمير السد العالي ، قس على هذا الكثير ، لقد ربطتنا إتفاقية السلام بحبل لا فكاك منه إلا بحاكم يأتي ويلقى بها في سلة المهملات حتي نعد العدة التي أمرنا بها الله في كتابه الكريم حيث قال سبحانه وتعالى:

وَأَعْبُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
يُوفَىٰ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) صدق الله العظيم

والآن نتحرك لتقليب صفحات هذا البطل المصري الصامت والذي انزوي
بين جدران منزله يرفع أسرته ويعمل عملا شريفا خاصا رغم أن عمره قد
قارب علي السبعين لكن تحت الحاجة وضالة المعاش الذي حصل عليه كان لا بد
أن يظل قويا علي مستوى قدرته وعمره .. أرجو أن تستفيدوا من تجربته تلك
فقرأة التاريخ عبرة ودرس وهي تعتبر من أهم دروس الحياة ؛ لأنها تجارب
إنسانية حقيقية خاصة ما حدث منها أثناء الحروب والأزمات.
والله الموفق.

الكاتب

الجزء الأول

من هنا كانت البداية

عابد

مساء الخير شباب مصر .. لكم مني تحية طيبة صادقة وقبل أي حديث أعرّفكم بنفسى ، اسمي محمد عابد واسم الشهرة "عابد" ، أنا من مواليد مدينة الإسكندرية العريقة ، تخرجت فى الكلية الحربية فى صيف عام ١٩٦٢ حيث كانت الآمال تراودنى بالعمل باليمن بعد التخرج وقد أصبحت ضابطا ومازال القتال يدور علي أشده هناك رغم أن بعض الزملاء كانت رغبتهم للعمل باليمن طمعا في الدخل المرتفع المتمثل في بدل السفر وخلافه ولكنى كنت لا أفكر في هذا الأمر مما دفع ببعض الزملاء بأن أطلقوا علىّ وش فخر.

بعد أن انتهيت من تدريبي الراقى المتخصص بمدرسة الصاعقة أقبل أحد القادة العسكريين المشهود لهم بالكفاءة وُبعد النظر والذي توقف أمامى ونظر إلىّ ملياً ثم خاطب القادة ممن يجلسون بجواره علي المنضدة الرئيسية قائلاً:
- الواد ده باين عليه ح يعمل حاجه .. بُنيان جسده قوى ومقتول العضلات ويقف أمامى معتزاً بنفسه ، ده ينضم للمخابرات الحربية مع توصية بأن يعمل في الأماكن الخطرة أو علي الحدود مع الأعداء.

سمعت حديثه الواضح للجميع كما سمعه زملائي المتواجدون معي في انتظار التوزيع علي الوحدات سواء البحرية أو المشاة أو قوات الصاعقة أو المخابرات الحربية ، نظر إلىّ القائد مبتسماً متسائلاً:

- هيه؟ وإلا لك رأى تانى؟

- تمام يا أفندم .. أوامر سيادتك تصدر للتنفيذ

أعجب الرجل برد فعلى التلقائى الإيجابى فنهض مصافحاً مودعاً لى بالتوفيق

فيما أنا 'مقبل عليه ، هكذا غادرت قاعة الاجتماعات وتسلمت خطاب التعيين متوجها إلى إدارة المخابرات الحربية ، 'كنت سائرا بالطريق إلى مبنى الإدارة وأنا في قلق ، فأنا أرغب في القتال وهذا متوفر في وحدات المشاة أو الصاعقة ، كنت أخشى العمل بالمكاتب وأدعو الله بالا أعمل بين جدران أربعة.

بإدارة المخابرات الحربية استقبلني رئيس فرع شؤون الضباط وبعد ترحيب فاتر نظر إلى مستفسرا

- طبعا عايز تشتغل في أحد مكاتبنا المنتشرة بالبلد؟

- الحقيقة غير كده ، أنا عايز أعمل بوحدات مقاتلة .. نظر إلى الرجل بضيق متسانلا:

- وليه مش عاجبك العمل بالمكاتب؟

- الحقيقة يا فندم اللي بيعملوا في المكاتب عاملين زى الموظفين ومش بأفكر أنهم طباط .. ناس مدلعه ، اكفهر وجه الرجل الذي كان برتبة الرائد مما دفعه للصراخ في وجهي ملقيا على عبارات واتهامات بانني لسه بتاع إمبارح وجاي أعمل فيها روميل وصاح في وجهي بأن أترك المكتب وأنتظر بالخارج.

وقفت خارج المكتب صامتا مندهشا لثورة الرجل ، بعد قليل أقبل على مساعد "صول" وسلمنى خطاب التوزيع إلى الجهة المحددة لى ، لم أقرأ الخطاب ولكنى سألته لماذا حضرة الرائد زعلان ووشه انقلب؟ هز الرجل رأسه متحدثا:

- ده كلام يتقال يا فندم .. نازل نقد وتوبيخ في اللي بيعملوا في المكاتب .. طيب ما الراجل بيعمل في المكاتب.

غادر الرجل المكان بينما انهمكت في مطالعة الخطاب فإذ بى متوجها للعمل مع مكتب الاتصال بقطاع غزة مع جيش التحرير الفلسطيني ، أصابني الضيق

لأننى سوف أعمل بمكتب .. دخلت علي الرائد دون إذن وأديت له التحية العسكرية دون أن يبادلنى مثلها متجاهلاً وجودى وعرضت عليه رغبتى ولكنه لم ينتظر حتى أنتهى من كلمتى وأشار إلى بيده بأن أغانر المكتب وأنفذ الأمر والاعتراض معناه المحكمة العسكرية.

غادرت المكتب صاغراً وأثناء سيرى بممرات الإدارة التقيت بأحد الضباط والذي بدأ من حديثه بأنه ابن نكته ويعشق الضحك ، سألتى ما الذى يضايقنى فعرضت عليه مشكلتى ، ابتسم قائلاً ولا يهملك روح نفذ الأمر ومش هتقعد في المكتب ممكن تقعد بره وهات كرسى وخليك في الهواء وبكده تكون بتعمل خارج المكاتب وأعقبها بضحكة كبيرة دفعتنى للضحك أيضاً.

شعرت بأن ما قاله هذا الضابط هو حكمة من حكم الحياة وفن من فنون التعامل الإنسانى مع الآخرين فأنا لن أستطيع الصمود أمام القيادات وما على سوى التنفيذ ، توالت على ترتيبات الإعداد لكى أتوجه إلى قطاع غزة لتسلم مهام عملى في مكتب المخابرات الحربية ، لم أكن أعلم ما يجب على أن أعده لتقلد مهام عمل جديد ملقى على ولم يسبق لى العمل بالقوات المسلحة في منطقة تعتبر بأقصى الشرق بل تعتبر في بلد عربى وهى فلسطين المحتلة ، توكلت على الله وجمعت كل أغراضى كأننى مسافرٌ لرحلة طويلة وقبل السفر توجهت إلى الإسكندرية والتقيت بأسرتى التى أسعدها خبر عملى الجديد والذى أجهل كل شئى عنه لكنهم كانوا في ثقة باننى سوف أنجح في أى عمل يوكل إليّ.

غادرت القاهرة مستقلاً قطار الشرق والذي تحرك من محطة مصر في الصباح الباكر وعبر محطات كثيرة بدءاً من طوخ وقلوب وبنيها ومنيا القمح والزقازيق وصولاً إلى الإسماعيلية والتى ظل رابضاً بمحطتها فترة طويلة

انتظار الموعد العبور من فوق كوبرى الفردان الذى يربط ما بين الضفتين الشرقية والغربية لقناة السويس.

تحرك القطار وعبر من فوق كوبرى الفردان والذي يقع شمال مدينة الإسماعيلية ، كنت سعيدًا وأنا أشاهد هذا الكوبرى الحديدى والذي يشبه كوبرى إمبابية ولكنه أقل منه حجما ، كنت أشاهد البواخر العملاقة علي بعد عدة كيلومترات وقد ربطت بالمخطف المثبت علي الشاطئ حتي تمام عبور القطار وبعدهُ يفتح الكوبرى حتي تعود الملاحة للبواخر ، كان تصميم الكوبرى علي هيئة جناحين والفاصل بينهما تمر منه البواخر ، كنت سعيدا بتلك التجربة وغمرتني الفرحة والنشوة وأنا أجلس بداخل القطار بالدرجة الثانية فليس به سوى درجتين وهما الثانية والثالثة ، كنت أتابع المناظر المحيطة من شباك القطار ومن حين لآخر يُقبل علي الجرسون بداخل القطار عارضا علي الركاب ما يحمله من مشروبات وسجائر وخلافه ، كان الجرسون يعشق عمله ويقدم خدمة راقية وسريعة ويتحدث همسا حتى لا يزعج بعض الركاب الذين خلدوا في نومهم وقد تعالت أصوات الشخير الصادرة من الأفواه.

كنت أشاهد بعض الجبال المرتفعة ما بين الشاهقة الارتفاع والأقل ارتفاعا وقد يصل ارتفاع أية قمة منه لمسافة لا تقل عن ثلاثمائة متر ، وهذا يعني ارتفاع عمارة لا يقل عدد أدوارها عن مائة دور وهذا لم يكن متواجدا بمصر أي في القاهرة أو الوجه البحري ، كما لفت نظري بعض قطعان من الجمال التي ترى قريبا من شريط السكة الحديد ، كانت الجمال بأعداد كثيرة ملقطة للنظر ، كما كانت تضاريس المنطقة مختلفة ما بين الجبال بارتفاعاتها المختلفة وما بين الهضاب سواء كانت من الرمال أو من الزلط المختلط بالرمل أو هضاب رملية

صافية دون وجود أحجار أو صخور بها كما كانت ألوان تلك الهينات والهضاب والجبال تنعكس علي نفسي بالسرور والغبطة ورغم أن المحيطين بي مازالوا مستغرقين في نومهم وبدا عليهم أنهم قد سئموا من رؤية تلك المناظر وقد تعودوا علي مشاهدتها مرات عدة فغالبيتهم ضباط أعلي منى رتبة.

قبل هبوط الظلام علي سيناء وصل بنا القطار إلي محطة العريش للسكك الحديدية ، وهى آخر الخط ونهاية المطاف ، ترجلت من القطار وغادرته وأنا أشاهد الركاب الذين يهبطون إلي رصيف المحطة ، كان باديا علي جميع الركاب بأنهم من العسكريين أو الموظفين التابعين للدولة ، تحركت علي رصيف المحطة محاولا تفادى الزحام وغادرت الرصيف ووقفت بداخل المحطة أطالع بنظري اليافطات المنتشرة علي الجدران حتي شاهدت بغيتى وهو مكتب الشرطة العسكرية والذي توجهت إليه وبداخل المكتب استقبلنى رقيب فقدم لي التحية العسكرية الواجبة وأخبرته بجهة عملى ، وهنا أشار إلي أحد الجنود طالبا منه أن يبلغ سائق سيارة مكتب مخابرات القطاع "قطاع غزة" بأن حضرة الضابط المنتظر وصوله متواجد بالمكتب.

بعد قليل حضر السائق وأدى التحية العسكرية وغادرنا مكتب الشرطة العسكرية وسار خلفى موجهها لى إلى موقع وقوف السيارة ، ركبت السيارة وقادها الجندى متوجها شرقا في اتجاه القطاع ، كان الظلام يلف المنطقة فقد تعدى الوقت الساعة الثامنة مساء ورغم هذا كان ضوء القمر منتشرا من حولى وبالتالي كنت أشاهد بعض المناظر الطبيعية للأرض المحيطة بالطريق وفي بعض الأحيان أشاهد وأسمع أصوات مياه البحر الأبيض حين يقترب الطريق من الساحل.

وصلت بنا السيارة إلى القطاع منتصف الليل ، ترجلت منها متبعا خطوات الجندي السائق متوجها إلى مكتب القائد الذي استقبلني استقبالا طيبا مرحبا بي وجلس معي بعض الوقت ثم نهض واصطحبني إلى مبني الاستراحة وأشار إلى الحجرة المخصصة لي ، بعد قليل أقبل أحد الجنود يحمل صينيه عليها الطعام والشراب ، ودعني القائد طالبا مني تناول وجبة الطعام بحرية وأمر الجندي المرافق بأن يقدم لي كل عون أحتاج إليه ، بعد مغادرة القائد اتجهت إلي دورة المياه الملحقة وحصلت علي حمامي ثم عدت وتناولت طعامي حيث كنت أشعر بالجوع منذ غادر القطار مدينة الإسماعيلية أي منذ عشر ساعات تقريبا ، انهيت طعامي وتفقدت الحجرة المخصصة لي والمزودة بسرير صغير ودولاب وعدد من الكراسي ، أبدلت ملابسي بملابس النوم والقيت بجسدي المتعب من أثر طول الطريق الذي قطعته من القاهرة حتى وصلت إلي القطاع.

لم أشعر بالوقت الذي استغرقته في النوم لكنني تنبهت علي سماع أصوات بخارج الحجرة فنهضت من نومي ونظرت من خلال النافذة فشاهدت بعض الجنود وبعض السيارات أمام مبني الاستراحة وحركة وعمل وبدا واضحا بأنني تأخرت في النوم حيث نظرت في ساعة يدي فشاهدت عقارب الساعة تقترب من العاشرة ، قمت بالإجراءات المعتادة لكل صباح من نظافة وزيارة دورة المياه والوضوء وانهيت الصلاة ثم ارتديت ملابس العمل متوجها بكل نشاط إلي المبني المقابل حيث الرائد/ فوزي قائد مكتب المخابرات بالقطاع والذي استقبلني بالأمس.

دخلت عليه المكتب حيث كان مشغولا بالتوقيع علي بعض الأوراق ، أديت له التحية العسكرية فرد بمثلها وأشار إليّ بالجلوس حتي ينتهي مما في يده ، بعد

قليل أنهى عمله وخلال ذلك كنت أتفقد جدران المكتب والأثاث
كان المكتب بسيطا في أثاثه ولكنه يتميز بالنظافة والعناية و
النباتات من أنواع أشجار الظل وبعض الزهور الجميلة في الو
غادر المكتب ضابط الصف الذي كان يعرض علي الر
البوستة عن هذا اليوم ، أشار إليّ الرائد فوزى بمرافقته
وأخبرني أثناء سيرنا بأنه أجل موعد تناوله للطعام حتى "نأكل
علي حد قوله" ، جلست أمامه بقاعة الطعام وأقبل جنديان يقم
حديث وتبين لي بعد ذلك بأن الرائد/ فوزى وضع لجنوده نظ
من الضبط والربط أو نوعية الطعام حيث أعد لهم جدولاً عن
يقدم في كل وجبة وكل يوم بحيث لا يخالفه أحد.

كان الطعام شهياً وبكميات ، لاحظت أن الرائد/ فوزى يت
وخلال ذلك كان يحدثني عن المنطقة وعن طبيعة عمل الم
سوف أكلف بها كما زودني بالكثير من المعلومات عن طب
أبناء فلسطين محذراً لي من بعض التصرفات والأفعال التي قد
وتسبب لنا بعض المشاكل في التعامل بيننا ، كان الرجل ه
بأسلوب الند للند وكأنني في نفس رتبته مما أدخل السعادة إلي
بأنه يحترم شخصي ويقدر فكري وأنتى إنسان وزميل.

غادرنا المكتب وبعد قليل أقبلت سيارة جيب عسكرية فأ
من الخلف بينما جلس هو بالمقدمة بجوار السائق ، لاحظت أن
حين لقائه ببعض الأشخاص بأن حديثه معي أمام الآخر
والاحترام حيث كان يقدمني لأفراد الوحدة بعبارة حضر

يستكمل حديثه ، أثناء الجولة شاهدت مدينة غزة الجميلة النظيفة ذات الأبنية البيضاء وبدا علي سكان القطاع الرقي والاهتمام بنظافتهم الشخصية خاصة السيدات وهن يرتدين الملابس من أحدث الموديلات والبعض من النساء يرتدين ملابس طويلة فضفاضة من المنتشرة بين سيدات البنو وكان باديا عليهن مستوي عال من الجمال وكنت ألاحظ البسمة دائما علي الوجوه البيضاء المخضبة بحمرة الشباب والشعر الطويل الذي تحركه نسيمات الهواء القادمة من البحر.

توالت الأيام والشهور وقد أصبحت أعلم كل شئ عن طبيعة العمل والتي لن أتطرق إليها بالتفصيل ولكنني كنت مكلفا بالعمل كضابط اتصال مع جيش التحرير الفلسطيني بالإضافة إلى تدوين أية ملاحظات بالقطاع تخص الناحية الأمنية والعسكرية ، كان يعمل معي من الجانب الآخر أى الفلسطيني النقيب/ سلمان أحد ضباط جهاز المخابرات الحربية الفلسطينية ، تقاربت مع هذا الضابط الذي كان دمئ الخلق ومحباً لوطنه فلسطين ، كان "سلمان" يقضى وقتا طويلا يتغزل في وطنه ويطير مع أحلامه إلى عنان السماء متخيلا لحظة التحرير وما سوف يقوم به أبناء فلسطين من عمل لنهضة بلدهم.

توطدت العلاقة معه كثيرا وفي إحدى المرات عرض عليّ زيارته في منزله ، وافقت دون تردد رغم أن الرائد/ فوزى حذرنى من أى تصرف مماثل لهذا دون أن أخبر النقيب/ سلمان ولهذا لم أتردد في قبول الدعوة لأن المرجع لى هو الذى قدم الدعوة ، بمنزله الجميل الثقيت بأسرته ؛ زوجته الصغيرة الجميلة وابنته فاطمة ذات الأعوام الثلاثة ، رحبت بى زوجته وقدمت لى الكثير من الأطعمة ذات المذاق الرائع وأنهتها بالطوى التي تجيد إعدادها.

بعد فترة من العمل بالقطاع أصبحت لا أشعر بالغربة أو الاضطراب كما

سخرت من نفسي حينما تذكرت طلبى من مسئول شئون ضباط المخابرات الحربية برغبتي بعدم العمل بالمكاتب ، لقد كان العمل ميدانيا بكل جدارة وعشقتة ولهذا تفننت في القيام به وهذا قربنى أكثر من الرائد/ فوزى الذي صارت علاقتى به قوية جدا مما جعله يتحدث معى ببعض أمور اجتماعية تخصه ، أصبحت الصديق الوفى والزميل الملاصق له رغم وجود عدد من الضباط يعملون معنا وهم أقدم منى رتبة ، انصب هذا الشعور وتلك العلاقة علي إجابة العمل الذي نقوم به ، في كل إجازة أحصل عليها كنت أرغب بالعودة ثانية لعملى حيث كان يشبع طموحى وأحلامى.

مضت الأعوام وقد تعدت الأعوام الأربعة ودخلت بالعام الخامس ، رقيت خلال تلك الفترة إلى رتبة الملازم أول وها أنا أنتظر بضعة شهور وأحصل علي رتبة النقيب مما دفع بالمقدم/ فوزى الذي رقى بالعام الماضى إلى أن يخبرنى بأن إدارة المخابرات سوف تستبدلنى بضابط آخر خلال النشرة العسكرية القادمة في الأول من شهر يوليو عام ١٩٦٧ أصابنى هذا الخبر بالضيق وكيف لي التصرف ، لقد عشقت هذا المكان وأرغب بأن أظل به إلي نهاية خدمتى بالقوات المسلحة لكن الرغبة شيء والقانون العسكرى شيء آخر ، كنت أفكر وأبحث عن حل لتلك المشكلة ولكننى لم أعثر على أى شئى يبدهد هذا الضيق بل أن المقدم/ فوزى أخبرنى بأنه من غير المنطقى أن نعدل في أوامر القيادات فهذا غير مشروع فنحن نتلقى الأوامر للتنفيذ وليس للتعديل أو الاعتراض ولهذا استكنت وأنا أترقب موعد النشرة العسكرية القادمة في شهر يوليو كأننى أنتظر وصول خبر سئى وكلما انصرمت الأيام ازداد قلقي وتوترى.

حدث ما لم يكن في الحسبان

منتصف مايو من هذا العام ١٩٦٧ توتر الحال وزال الهدوء وحل محله الاضطراب وسرعة العمل وسرعة وصول الأوامر والتعليمات الكثيرة الجديدة في معناها والمتضاربة في بعض الحالات لكن وتيرة العمل والجهد ازدادت بطريقة غير مسبوقة وبدا هذا واضحا علي الجميع بما فيهم أفراد وقيادة جيش التحرير الفلسطيني.

بعد عدة أيام من إعلان حالة الطوارئ بالقوات المسلحة المصرية وتنفيذ الكثير من الأوامر والإرشادات طلبني المقدم فوزى للمثول أمامه بمكتبه فأسرعت إليه وهناك وجدته علي أهبة الاستعداد للتحرك حيث كانت سيارة القيادة التي يستقلها وبعض اللواري تقف بالفناء أمام المكتب وداخلها جميع ضباط المكتب وبعض ضباط الصف والجنود بأسلحتهم وهم يرتدون خوذة الميدان.

نظر الرجل إليّ مليا وبكلمات مقتضبة أخبرني قائلا: (الحكاية ح تطلع بجد وحنارب وكل الأخبار الجاية من مصر "القاهرة" بتقول كده .. القيادة كلفتني بفتح عدة نقط مراقبة علي الحدود من نهاية خط الاتصال بقطاع غزة مع حدود مصر إلي منطقة الحدود الدولية علي موقع العوجة بمنطقة أبو عجيبة .. أنا سايب لك المكتب ودايما خليك على اتصال بالإخوة الفلسطينيين ويمكن القاهرة تبعت لنا دعم من الضباط وضباط الصف وأنا طلبت عدد منهم علشان ندعم مكتب القطاع .. المهم الحكاية يمكن تاخذ وقت وخليك في شغلك والأجهزة اللاسلكية تفضل مقفولة والبطاريات تعيد شحنها وتختبر حالة الأجهزة من وقت للثاني

يمكن وقت اللزوم نلاقي أي جهاز عطلان كما هي العادة وخذ مكانى في القيادة ومعاك العدد القليل من الصف والجنود ولم أفراد المكتب حولك.

صافحني واندفع خارجا من المكتب وقفز بداخل السيارة الجيب ثم أشار إلى فاتجيت نحوه مسرعا وهنا أمسك بكتفى بقوة قائلا: (عايز عينيك تفضل مفتحه وودانك تفضل مطرقعه ورأسك مصحصحه لأن أولاد الملاعين اليهود شطار في الغدر كمان سجل كل الإلى يوصلك من عملاننا بعمق إسرائيل وسيب الرسائل بتاعتهم توصل ومش تعلق عليها وكل يوم تبعث ظرف بالمعلومات لمكتب مخابرات القنطرة شرق .. فاهم يا عابد مش ح أوصيك وربنا معاك والبس أنت والرجاله الخوذة وسلاحكم معمر ومعاكم كل خزن الذخيرة الإحتياطي .. يا للا يا بطل ورينى همتك وإن شاء الله نتقابل علي خير).

أديت التحية العسكرية واندفعت السيارة التي يستقلها القائد وخلفها اللواري الثلاثة وحببت عني رؤيتها بوضوح من آثار الغبار الناتج من تحرك السيارات ، كان باديا من حديث وتعليمات المقدم فوزى خطورة الموقف وبالتالي انتقل هذا التوتر إلى وبالتالي وصل إلى معاونين معى ، هكذا وجدت نفسى في يوم وليلة مسئولاً عن مكتب القطاع بمفردى دون خبرة ولا أملك جرأة المقدم فوزى الذى كان لا يخشى أي تصرف يقوم به حيث كان دائم النشاط ويحصل علي المعلومات دون انتظار أى تعليمات ، لقد كان الرجل سابقا دائما ولا ينتظر رد الفعل علي ما يحدث معنا أو فى مواجهتنا وكان تصرفه هذا مدعاة للتقدير من قيادات جيش التحرير الفلسطينى والمنظمة.

انتهى شهر مايو ونحن مازلنا نتلقى التعليمات الكثيرة المترددة والتي أوصلتنا إلى حالة من عدم معرفة ما سوف يحدث هل سنحارب أو ننتظر أن

يقوم الإسرائيليون بالحرب أو الحكاية تهوئش في تهوئش وفنجرة بُق زي ما ولاد البلد بيقلوا.

كان واضحا أمامي ومن مصادر المعلومات بداخل الأرض المحتلة أو إسرائيل بأن العدو يعد العدة للحرب وكنت أقوم بإيصال تلك المعلومات أولا بأول إلى قيادتنا بالقنطرة شرق والتي تضايقت من تلك المعلومات فأرسلت بمذكرة عاجلة تطلب مني ألا أبالغ فيما يقوم به العدو وعلينا أن نتبع المثل الذي يقول "بشر ولا تنفر" !!

صدمتني تلك العبارة وفكرت بأن أرسل لهم بتقرير يقول إن الأمور علي ما يرام وليس في الإمكان أبدع مما كان وأن الوضع حلو زي ما بيقل محمد عبدالوهاب "فيك عشرة كوتشينه في البلكونة" ولكني خشيت أن أتعرض للمساءلة بأنى أسخر من القيادة أو تيجي الطوية في المعطوبة وتقوم الحرب وتحدث خسائر وأصبح أنا كبش الفدا وبأننى تركت العمل لأسخر من قيادة مكتب مخابرات القنطرة ولهذا أثرت السلامة مواظبا علي إرسال التقارير.

كان واضحا بأن الأعداء سوف يقومون بحرب أو على الأقل بعملية عسكرية في مواجهة القطاع وقد أبدى بعض الضباط الفلسطينيين عددا من الملاحظات المؤيدة لمكتب مخابرات القنطرة وأن الحكاية تهوئش والموضوع ح ينام ويصبح علي فثوش وبلاش تشغل بالك ، شعرت بأننى المخطئ بين الجميع ولكن من ستر ربنا معى أن النقيب/ سلمان الفلسطينى الذي كان حلقة الوصل بين الجيش المصرى والفلسطينى أيد كل ما تحدثت عنه وأخبرنى بأن اليهود لا يعدون العدة في مثل تلك الأحوال إلا ويقومون بعملية هجومية والحكاية ح تولع بعد يومين أو ثلاثة.

كان الرجلُ مُحققاً في استنتاجه لأنه في صباح يوم الاثنين الخامس من شهر يونيو عام ١٩٦٧ قام العدو بالهجوم علي الجيش المصري وقد سبقه هجوم جوى كاسح علمت بأنبائه نهاية اليوم وأن هذا الهجوم أنهى علي قواتنا الجوية ودمرها تدميراً كاملاً والهجمات البرية علي قدم وساق لكن القطاع لم يتعرض لهجوم بل تعرض لحصار من الغرب وأصبح محصوراً بين الجيش الإسرائيلي شرقاً وغرباً وشمالاً البحر الأبيض.

لقد ترك العدو القطاع حتي ينتهي من معاركه مع الجيش المصري ، في مساء اليوم التالي أقبل علي النقيب/ سلمان ليخبرني بأن المعلومات القادمة من القاهرة تطلب من الجيش المصري علي الحدود التراجع إلي خط الدفاع الثاني وبناء عليه فإن قيادة الجيش الفلسطيني طلبت هي الأخرى بأن يتم سحب الوحدات الفلسطينية ولا تبدى أية مقاومة بداخل المدينة حتي لا يجدها العدو نريعة ويصيب الكثير من المدنيين كما يجب علينا إخلاء المكاتب وخاصة مكتب المخابرات المصري المرصود والذي سيكون أول من يقصف.

أصابني التوتر وبلادة التصرف ، كيف سأترك المكتب وإلي أين ولم تصدر لي أوامر أو تعليمات من أى شخص من القيادة .. حاولت الاتصال بالمقدم فوزى لا سلكياً ولكن الشبكة كانت متداخلة مع القوات المنسحبة وبدا من أصوات المتحدثين الربكة والتخبط والاضطراب ، مازال سلمان يدفع بي لتنفيذ أمر الانسحاب وأنا أخشى التنفيذ ؛ لأنه لم تصلني أوامر بخصوص هذا حتي الآن.

صباح اليوم الثالث الموافق السابع من يونيو شاهدت معاونين لي بالمكتب وهم يستعدون لتنفيذ أمر الانسحاب ، شعرت بأنني مُحاصر وبأننى المخطئ ، سألت سلمان ما الطريق الأوفر للانسحاب وأجابني بسرعة بأنه لا يوجد طريق

أماننا سوى الهرب عن طريق البحر مستخدمين بعض قوارب الصيد ، أسرعت مع معاونين بحرق كل المستندات بالمكتب وتحركنا بسرعة في اتجاه البحر حيث قطعنا مسافة تزيد عن اثنين كيلومتر حتى وصلنا إلي الشاطئ فشاهدت جموع الراغبين في الانسحاب بأعداد كبيرة مثل ما يحدث في محطة القطارات بالقاهرة أثناء المواسم والأعياد فالكل راغب بالعودة إلي بلده.

أيقنت لحظتها أن تلك المحاولة سوف تفشل وسوف يُقتل العديد منا نظرا لأصواتهم المرتفعة والمشاحنات الغاضبة التي بدت بينهم ، رفضت أن أنخرط بينهم كما أيدني صديقي "سلمان" رغم محاولات جنود المكتب اللحاق بهؤلاء ولكني خشيت من هذا الهرج وتلك الغوغائية ومنعتهم من ذلك الاندفاع.

في صباح اليوم الرابع للمعركة الموافق الثامن من شهر يونيو عام ١٩٦٧ لم أعر علي معاونين لي سواء ضباط الصف أو الجنود فلقد هربوا مع الجميع ليلا واستقلوا القوارب ، جلست وزميلي "سلمان" نتباحث في الأمر وأثناء حديثنا ونحن بمفردنا هاجمنا بعض الجنود الإسرائيليين فجأة من جميع الجهات شاهرين أسلحتهم طالبين منا التسليم أو فتح النيران علينا ، لم يكن أماننا بد سوى التسليم ، رفعنا أيدينا وأقبل قاندهم وهو برتبة النقيب والذي كان يعلم شخصية كل منا وتحدث معنا بأقوال سيئة تافهة تدل علي مستوى أخلاقه ثم اتبعها بعدة لكلمات لكل منا أسالت الدماء من وجهنا حيث كان يضع شيئا معدنيا في يده مما ساعد علي إحداث جروح أسالت دماءنا.

كان عدد من هاجمونا يقارب العشرين فردا ، ترك القائد الإسرائيلي خمسة من جنوده معنا للحراسة وأمرهم بربط أيدينا بجذع أشجار النخيل حتي يعود من مهمة سريعة وأية محاولة للفرار يتم إطلاق النار علينا وقتلنا في الحال ، كنت

أشعر بشعور الأسد أو النمر الذي وقع في الأسر ، حاولت التفكير فى عمل أى شئ ما للهرب ولكن عقلي لم يساعدنى ، مضى علي وجودنا بالأسر عدة ساعات دون ماء وقد قاربت شمس هذا اليوم علي المغيب ، شعرت بأن النوم يغالبني وأثناء تلك الغفوة الجميلة فزعت علي سماع أصوات إطلاق عدة رصاصات شعرت بعدها بأن جسدى يميل إلي أحد الأجناب والدماء تنزف مني.

سمعت من يحدثني بلهجة مصرية ، تنبتهت فشاهدت ضابطا مصريا في نفس رتبتي يحدثني مبتسما ثم نزع السنوكى وفك به يدي المربوطة ثم اتجه إلي "سلمان" وفك وثاقه أيضا ، نهضت ووقفت ألملم نفسى المبعثرة علي تلك الأحداث السريعة المتلاحقة في دقائق قليلة ، لم أشاهد إصابة أمت بى ولكن خوفي وجدعى أثار هذا بمخيلتى ونفس المشاعر شعر بها "سلمان" الذى كان يقف هادنا شاكرا لمن قام بهذا العمل ، تبادلنا التعارف .. إنه فاروق الفيومى ابن حي شيرا ، كنت أستمع إليه وأنا في حالة من الانبهار والسعادة ، فقد كان هادئ الأعصاب مبتسما وكأنه ليس في حرب ، أخبرنا بأنه منذ أول أمس وبعد أن تفسخت وحنثته وتبعثرت في الصحراء بعدها هام علي وجه مقرر! اصطيد الإسرائيلىين الذين يقع نظره عليهم شريطة ألا يكون عددهم كبيرا ، لقد استطاع قتل العديد منهم وفكر في أسر بعضهم ومازال يهيم بالصحراء لهذا العمل ، نظر إلينا قائلا "مش راجع مصر" .. أنا جيت للحرب وح أفضل أحارب ومحدث بيختار الموتة اللي ربنا كتبها له" وأعقب هذا بضحكة ساخرة لا تدل علي أننا في حرب وأمامنا خمسة أشلاء لجنود الأعداء قتلى ، طلب منا التحرك وترك المكان.

رافقتنا فاروق وتحركنا نحن الثلاثة بسرعة ، هنا أشار لنا "سلمان" بأنه

يشاهد قارباً في ظلام الليل الذي أسدل ستارته علي سينا ، أسرعنا في الاتجاه الذي أشار إليه رغم أن الملازم أول فاروق الفيومي كان معارضا هذا لأن الطائرات الهليكوبتر سوف تتبعنا في الماء ولكن "سلمان" أقنعه بأن هذا لفترة الليل حتى نبتعد عن هذا المكان ؛ لأن الوحدة التي يتبعها الجنود القتلى سوف تعود وتكتشف الأمر ولهذا فيجب علينا الابتعاد والحذر.

وصلنا إلى الشاطئ وشاهدنا القارب الذي لم يكن قارباً بل كان مركباً ؛ لأن حجمه يزيد عن حجم القارب عشر مرات تقريبا كما أن حمولته لا تقل عن ثلاثين فرداً وأهم شيء كان يميزه أنه مزود بصاري وقلع وهذا يزيد من سرعته ويقلل من عبء المجهود البدني الذي سوف نتحملة للسير به في الماء.

كانت المشكلة الكبيرة التي واجهتنا ثقل وزن القارب فلم نستطع نحن الثلاثة دفعه بالماء ، نظر "سلمان" إلى السماء وابتسم قائلاً بعد قليل سوف يأتي المد فيرتفع منسوب المياه ويصل إلى بطن القارب علي الشاطئ مما يسهل علينا دفعه داخل الماء.

جلسنا نحن الثلاثة ننتظر ارتفاع منسوب المياه والذي بات واضحاً أمامنا بأنه قد حدث حيث وصلت المياه إلي الرمال التي كنا نجلس عليها ولهذا كنا نبتعد عن الشاطئ عدة أمتار حتي وصلت المياه إلي المركب وبدأ واضحاً أن المركب يهتز وهذا يدل علي سهولة دفعه ، نهضنا وقمنا بدفعه إلى داخل المياه ، كانت سعادتنا كبيرة ولكن فجأة غمرت المنطقة أضواءً مبهرة قام بها العدو فقد أقبل رجال الوحدة الإسرائيلية واكتشفوا ما تم مع زملائهم فسعوا خلفنا حتى عثروا علينا ، لم ينتظر فاروق ولو لحظة واحدة وتصرف بسرعة وأطلق نيران رشاشه علي الفور في اتجاه كشاف السيارة فعم الظلام وعم المكان سماع أصوات

الرصاص المتبادل بيننا وبينهم.

بات واضحا حدوث خسائر بين الطرفين ، فقد أصيب فاروق القيومي ومازالت نيران مدفعه الرشاش تدوى رصاصتها في جوف الليل ومن الجانب الآخر تبادر إلي سمعنا أصوات أنين ونواح علي المصابين أو القتلى الإسرائييين ، عم السكون المكان وشعرنا بأنهم ينسحبون مما دفعنا إلى النهوض بحذر واستكمال دفع المركب إلي داخل المياه وتبين لنا أن إصابة فاروق القيومي كانت شديدة من الدماء الغزيرة التي نزفت من جسده من أكثر من مكان ، تعاونت مع "سلمان" وحملناه إلي داخل المركب ، كان الشاب ينظر إلينا ولسان حاله ينطق بما سوف نواجهه من مشاكل وعقبات كما كان يرتسم علي وجهه مدي الألم الذي كان يعاني منه بسبب الإصابة التي تبين لنا علي أضواء الفجر الأولى بأنها أصابت جزءا كبيرا من البطن والدماء تغطي ملابسه.

قام "سلمان" بفرد الشراع وتوجيه المركب فقد تأقلم وتدرّب علي تلك الأمور حيث أنه من عائلة تملك بعضا من قوارب صيد السمك بميناء غزة ، صافحت وجهي نسيمات الصباح النادى وكنت أشاهد المياه علي جانبي المركب ولونها ما بين الأزرق والبعض تبدل لونه إلي الأبيض بسبب الفقاع الناتجة من اختراق مقدمة المركب لصفحة المياه الهادئة ، كان سطح مياه البحر الأبيض هادئا رائقا والصمت يلف الجميع ، مازلت أنا وسلمان نساعد في دفع المركب بالمجاديف الطويلة ، شعرت بأننا قطعنا مسافة طويلة وابتعدنا عن موقع الاشتباك مع الأعداء ، اقترب موعد الظهر فقد أصبحت الشمس عمودية وكنت أتبادل مع "سلمان" رعاية فاروق وقد ألم بنا نحن الثلاثة العطش والإرهاق فقد أثرت كميات البخار علي أجسامنا فزادت من شعورنا بالاحتياج إلي المياه ، لم

يكن من المستمغ تناول مياه البحر المالحة ؛ لأنها سوف تزيد من حاجتنا لمياه الشرب الصالحة.

حاولت عمل كمادات مياه علي وجهه وجسد فاروق ولكن "سَلمان" نصحنى باستبعاد تلك الفكرة التي سوف تؤثر على صديقنا بالسلب من أثر ملوحة المياه ، كان واضحا شراسة وكفاءة وشجاعة فاروق سواء في اللقاء الأول حينما ساعد علي فك أسرنا أو أثناء اللقاء الأخير في بداية ليلة أمس حين تبادل إطلاق النار علي القوات المهاجمة ، كان الشاب صلدا وهذا نابع من فطرته فهو من أبناء حي شبرا ، وهو من أهم أحياء القاهرة والذي كان يتميز شبابه بالشجاعة ومعاونة الآخر والدفاع عن الضعيف وحماية المستجير.

تبادلت أنا و"سَلمان" النظرات من حين لآخر ونحن نطالع أحوال فاروق وقد هدأت حالة النزف وقلت كمية الدماء المتدفقة من جسده ، اعتدل فاروق في جلسته من وضع النوم جانبيا إلى وضع النوم مستلقى على ظهره ناظرا إلينا كأنما لسان حاله يخبرنا بأنه بخير وعلى أحسن ما يرام ، بدا في إطلاق بعض النكات الضاحكة كما أنه دندن ببعض أغان شعبية شائعة ويغلب عليها الألفاظ الخليعة والمنحطة ويعقب كل أغنية بضحكة عنترية قوية ، كنت متخوفا عليه حيث ما يقوم به لا يتناسب ووضعنا الصعب وحالته الصحية فنحن علي كف عفريت وقد نفاجأ بشئ غير طبيعى من العدو ، وهذا وارد ورغم هذا فما زال فاروق ضاحكا سعيدا "مطربا بصوت أبعد ما يكون عن الطرب والغناء ولكنى كنت أعتقد بأن الشاب يودع الحياة ولهذا رغب في أن يكون وداعه ضاحكا باسماء كأنما يري ويشاهد شيئا عزيزا أمامه خاصة أنه عكف عن الغناء والضحك وبدا ينظر إلي السماء بنظرات حائمة ويتسم ابتسامات طيبة كأنما سمع أو شاهد شيئا

عزيزا عليه.

أشار إلى سلمان" بأن أنظر إلي الجهة الأخرى والتي أشار إليها ، وجهت نظري إلي تلك الجهة فشاهدت عدة قوارب صغيرة تتراقص علي صفحة المياه الزرقاء ، كان منظرها يخلب العقل والعين فكانت أشبه بفراشات صغيرة ترفرف في سماء الكون الأزرق الصافي وتلك الفراشات متنوعة الألوان بناء علي ألوانها ومما زاد من روعة تلك اللوحة الطبيعية الرائعة هو مشاهدتنا لأسماك "الدلفين" وهي تقوم باستعراض راقص حول تلك القوارب وبالتالي كانت الصورة جميلة لأقصى درجة.

لم نتركنا "الدلافين" بمفردنا حيث أقبل البعض من أسرابها وقامت بعرضها الراقص أمام المركب وهي تحدث أصواتا مميزة من حولنا ، شاهدت الأسي والحزن علي وجه "سلمان" وحينما شاهد انعكاس ملامح وجه علي أخبرني قائلا بأن "الدلفين" متوتر وهذا يدل بأن شيئا سيئا حدث أو قد يحدث بعد قليل ، ابتسم فاروق وهز رأسه وأشار بيده مؤكدا حديث "سلمان" ، اقتربنا أكثر فأكثر من تلك القوارب ولكن أصابتنا الدهشة والصدمة حيث كانت القوارب عبارة عن توابيت خشبية عائمة علي سطح البحر وكل قارب به ما بين ثلاث إلي خمس جثث والبعض هاجمه التحلل وانتشرت الرائحة الكريهة في محيطها ومن خلال مشاهداتي تلك شاهدت جثث بعض جنودي الذين فروا دون إذن منذ الليلة الثالثة لبدء المعارك.

تبادل ثلاثتنا النظرات وما الحل الذي يجب علينا القيام به؟ كانت الإجابات غير واضحة المعنى ، أحدنا صرح بأنه يجب علينا جمع جثث هؤلاء الرجال والتوجه إلى البر لدفنهم وآخر أبدى برأى مفاده ببقاء الجثث على حالها أما

فاروق فكان من رايه بان نلقى بتلك الجثث بعرض البحر حتى تتحلل وكاننا قمنا على دفنها ، أثناء هذا الحوار كانت الطيور البحرية تهبط علي القوارب تنهش الجثث وهذا ما دفع بالزميل فاروق إلي تقديم اقتراحه.

اقتربنا أكثر فأكثر وبالخطاف الموجود بالمركب استطعنا تجميع بعض القوارب بجوار المركب الذي نستقله ، كانت فكرة تجميع هؤلاء والعودة بهم برا صعبة للغاية فمن يستطيع نقل كل هؤلاء ومن سيقوم بهذا العمل سواي و"سلمان" كما أن الكثير من الجثث بدأت في التحلل ومنظرها ورائحتها تثير الشجن والألم ، أثناء ذلك نما إلي سمعنا صوت طائرة ، طلب منا سلمان " أن نظل ساكنين بالمركب ولا نأتي بأية حركة حتي لا يلاحظنا من بالطائرة فيطلقوا علينا النار ونهلك في الحال ، بالفعل لم يتحرك أحد منا وقامت الطائرة بعمل دورة بأعلى ثم عادت تاركة المكان بعد أن تأكد لها بأن كل من على متن تلك القوارب قد ماتوا جميعا.

مازالت الطيور البحرية تهبط على القوارب المجاورة لنا فتحصل على طعامها من تلك الجثث الكثيرة ونحن لم نتخذ قرارا بعد ، هل نتحرك بهم إلى البر ونقوم علي دفنهم ونواريهم الثرى وهذا قد يعرضنا للخطر بان تهاجمنا أية وحدة من قوات العدو أو نتركهم هكذا لعوامل الطقس الحار والرطوبة المرتفعة والبخار الذي تسبب في شى جلونا خاصة منطقة الوجه والرقبة أم نلقى بهم في المياه ، كانت كل البدائل المطروحة أمامنا صعبة للغاية سواء في التنفيذ أو لخطورة التنفيذ أو لما يمثله هذا من عبء نفسي ونحن نلقى بزملانا في عرض البحر.

لم يدم الوقت طويلا إذ سمعنا صوت لنش للبحرية الإسرائيلية سرعان ما

وضحت صورته حين اقترب منا حيث كان متجها لمجموعة القوارب التي تحمل الأشلاء ، لم يتوقف اللنش ومازال يتحرك بسرعه وبمدفعه الرشاش أطلق نيرانه علي كل الأهداف بالبحر بغزارة طالبت مركبنا حيث كانت الرصاصات تخترق جدار المركب محدثة أصواتا عنيفة ، لم أشعر بما أصابني حيث شعرت بدماء ساخنة تتدفق من فخذ ساقى الأيسر وآلام مبرحة وفي الوقت نفسه شاهدت زملائي جثتا هامدة بعد إطلاق عدة صرخات مكبوتة وأصبح بطن المركب مغطى بالدماء ، لم أستطع التصرف بل كنت أشاهد الدماء تنزف منى وأنا ثابت لا أستطيع التحرك وكان تلك الساق لا تخصنى ، وأنا علي هذا الحال شعرت بأن المياه تتدفق من باطن المركب ولم يكن اندفاعها شديدا بل كان من الممكن السيطرة عليه لو كانت حالتى الصحية تسمح بذلك.

بعد فترة استطعت التحرك وتوجهت للزميلين "فاروق وسلمان" وحركت جسد كل واحد منهما وخاطبتهما دون جدوى ، لقد تأكد لى أنهما فارقا الحياة حيث أصابتهما العديد من القذائف التي انطلقت من مدفع اللنش الإسرائيلى ، استلقيت علي جدار المركب ومازالت الرياح والحرارة والبخر تحرق وجهى بألم لا أستطيع شرحه أو وصفه كأن الإنسان وضع وجهه فوق إناء به ماء يغلي والبخار الحارق يتصاعد منه ، هاجمني النوم أو الإغماء ؛ حيث كنت أشاهد الأشياء مكررة فكل جثمان زميل أشاهده لعدة أشخاص كأنما أصبح القارب مليئا بالموتى ، احترقت عيونى من أشعة الشمس وأصبحت دامعة وأشعر بالألم بداخلها.

لا أستطيع تحديد الفترة الزمنية التي رحمت فيها في سبات لكنى تنبهت على أصوات "نوارس" البحر وقد حطت علي أجناب المركب وتوالت الأسراب في

الهبوط حتي خيل إلي أنني أعيش في جزيرة منعزلة مع تلك الطيور البيضاء ، قفز أحد تلك الطيور وحط علي جثة زميلي "فاروق" وتبعه البعض والبعض الآخر اتجه إلي جثة "سلمان" ثم أتى إلي البعض ، مجرد أن حط أول طائر فوق جسدي حتي هببت مذعورا أشير إليهم صارخا هاشا بيدي بأن أبعدوا ، ابتعد البعض وظل عدد قليل منها واقفا أمامي أما من ابتعد فقد ركز عمله علي الزميلين ، كان شينا فظيعا وأنا أشاهد تلك الطيور الجارحة وهي تتقاتل علي قطع اللحم التي استطاعت استخلاصها ، لم يكن لدي القدرة لفعل أي شيء ، فكرت بأنه يجب عليّ الابتعاد ومغادرة هذا المركب ولكن إلي أين؟ ثم فكرت بالقفز إلي المياه ولكنه لن أستطيع الصمود طويلا وكنت أشاهد أشجار النخيل علي البر علي مسافة لا تقل عن اثنين كيلومتر ولن أستطيع الصمود سباحة تلك المسافة الطويلة وما عليه حالي كما كنت أخشى أسماك الدلافين بحجمها الكبير وبأعدادها الوفيرة والتي تحيط بالقوارب ولكنها لم تهاجم أي قارب أو تتناول طعاما من أجساد الضحايا التي به.

عادت طيور النورس للهجوم علي جسدي للمرة الثانية وشعرت بأول نقرة برقيتي من إحداها حيث شعرت بألم شديد كأنه خنجر ونصله السيئ اقتطع جزءا من جلد الرقبة ، لم أستطع الصياح حيث كنت أشعر بالألم في اللثة وبأسناني وكنت أشعر بأن فمي في حالة سيئة من الالتهاب والألم ، تحاملت علي نفسي وهبطت أسفل المركب واختبأت بحجرة صغيرة لأبتعد عن خطورة تلك الطيور التي كانت بأعداد كثيرة ، انشغلت الطيور عنى بالوليمة بأعلى المركب ولكن البعض أتى إلي حجرتي محاولا الهجوم عليّ ، لم تكن الحجرة مزودة بباب فهي حجرة صغيرة لا تزيد مساحتها عن متر مربع وحجمها بالكاد متر مكعب ، كنت

في خوف ورعب وأنا أشاهد تلك الطيور الراغبة بالفتك بي وما شاهدته على زميلي آثار الرعب والهلع في نفسي ، لم أستطع التصرف ، شاهدت خلفي لوحا خشبيا أعتقد بأنه الباب وأنه يوضع بوضع الركن وليس له مفصلات أو ترباس ، بكل عزمي وقوتي أتيت به ووضعت علي الباب ووضعت ساقى خلفه أسنده حتى لا يقع ويسقط علي.

كنت أسمع مناقير الطيور محاولة الوصول إليّ وأنا بداخل الحجرة الصغيرة لا حول لي ولا قوة ، إلي أين الهرب فكل الظروف المحيطة بي سينة إلى درجة كبيرة وتساءلت لماذا تترك تلك الطيور الجثتين بأعلى وتهاجمني ، ظل هذا الحال لفترة أعتقد أنها تخطت ساعة زمن ، لقد كان الوقت طويلا وكأنه دهر من الزمان وحينما كنت أحاول التفكير في إنقاذ نفسي لا أعثر علي أي حل أستطيع من خلاله العمل علي بقائي علي قيد الحياة من خطورة تلك الطيور القاتلة حيث كنت أشعر بفراغ في عقلي ولا أجد المخرج أمامي من حالتي الصحية السيئة.

ظللت علي هذا الحال حتى شعرت بأن الليل جن ولا ضوء يدخل عليّ في مكمنى هذا فخرجت أتسلل إلى بطن المركب ، لم أعثر علي أي طائر وحمدت الله علي ذلك ، جلست قليلا وضرب ضياء القمر وجهى بضوء خافت لفترة زمنية وأعتقد بأن هذا الوقت كان في الربع الأول من الشهر العربى لأن ضياءه جفل وانفك مسرعا تاركا البحر وأنا بداخله في ظلام الليل وظلام الحياة القاسية ، علي ظلال الأضواء البسيطة شاهدت الزميلين ، لم أستطع الصراخ وكل ما حدث أن هاجمني الإعياء فسقطت في باطن المركب ولكنى شعرت بأننى سقطت في بركة مياه فلقد تزايدت كمية المياه المتسربة إلى المركب والتي أصبحت تغطي نصفه عل أقل تقدير ، وهذا يعنى بأن المركب سوف يغرق بعد ساعات

قلائل ثم شاهدت قطع من اللحم وبزيادة التركيز تبين لى أنها بعض أجزاء من المعدة وخلافه تخص الشهيدين مما زاد من فزعى وشعرت بأنه سوف يدفع بى للجنون.

ما أفر عنى هو مشاهدة الهياكل العظمية للزميلين بعد أن نجحت طيور النورس في التهام الجسدين ، كانت عظام يحيط بها احمرار وبقايا ملابسهم وبعض شعر بالراس وأصابع اليدين ، لم أستطع أن أفرق شخصية كل واحد عن الآخر فقد التهمت طيور النورس الشهيدين بالكامل ، الآن علمت نهايتى المحتممة والقادمة ، ناجيت ربي بأن ينهى حياتى حتى أتخلص من هذا الألم النفسى والبدنى ، نظرت إلى المياه الهادئة الساكنة أعيد التفكير ، هل من الواجب على القفز في المياه وأكمل طريقى سباحة حتى الشاطى.

لم أكن أعلم أين اتجاه الشاطى وأثناء هذا شاهدت سراجا يضى ويخفت في اتجاه ما ، أتساءل هل هو الشاطى أو أنها مركب في المياه تقوم علي الصيد ، كان واضحا أن سبب تراقص تلك الإضاءة أنها منبعثة من مشعل يدوى أو لمبة أو فانوس وليست إضاءة من كهرياء مركب فلا يتم تراقص ضياء الكهرياء بتلك الطريقة ، جاءت موجة شديدة دفعت بالمركب المغطى بالمياه إلى مسافة بعيدة في اتجاه الإضاءة ، شعرت بأننى اقتربت من الشاطى خاصة حينما سمعت أصوات بشر وصوت نباح كلب ، إذا اقتربت من الشاطى ، جمعت كل شجاعتى محاولاً القفز إلى الماء ولكنى جيت ، ظللت على هذا الحال لأكثر من ساعة تقريبا وكل ما حولى يثير الرعب والخوف فسماء مظلمة ومياه سوداء ولا أعلم ما يخبئه لى القدر في هذا الظلام من شر ينتظرنى سواء بأعلى من النوارس البحرية أو من أسفل من أسماك الدلافين أو من غيرها ، أخيرا صدر قرار

الطبيعة حيث غاص المركب في المياه وشعرت بأننى أطفو فوق سطحه وشعرت ببرودة المياه والبلل.

قاومت خوفى وألمى بالسباحة حباً في الحياة ودفاعاً عن النفس بأننى لن أظل لقمة سائغة لطيور النورس البحرية ، كنت أسبح بكل قوتى رغم إصابتى الشديدة والالتهابات والتسلخات بمسطح جلد الوجه والرقبة ، كنت أشعر بأننى عدت إلى الوراء عدة أعوام حينما كنت أغامر بالسباحة لمسافات طويلة منافساً أصدقائى بالإسكندرية ، إذا استعاد عابد السباح الماهر لياقته وقوته مما دفع بى للشعور بالثقة فساعد هذا على أن تعود إلى بعض من شجاعتى التى ولت وهربت منذ مشاهدة النوارس البحرية ، ظلت أسبح وأسبح وأشاهد الأضواء تقرب منى وهذا دليل بأننى قريب من الشاطئ.

لم أشعر بما يخبئه لى القدر فقد شعرت بأن بالمياه كائنات دقيقة وصغيرة تنهش في جسدى ولا أعلم ما هذا؟ هل هي قناديل البحر الحارقة للجلد والتي شاهدت من آثارها الكثير على المصطافين من حالات احتراق للجلود ، عدت ونفيت أن تكون قناديل البحر حيث إن نشاطها صيفا أثناء النهار كما كنت أشعر بسكاكين تقطع بجسدى وتأكد لى بعد ثوان أنها أسماك خاصة من التى تبحث عن الدماء أو الجثث الغارقة ومهمتها تنظيف المياه من الكائنات النافقة ، أحاطت بى تلك الأسماك والتي تتحرك بأسراب تضم المنات ، لقد تأكد لى أنها أسماك من النوع القاتل التى تهاجم الأسماك الكبيرة الميئة وتقوم بالتهامها ، كنت أشبه بأى كائن يحتضر أو مات وتلتهمه أسراب النمل مثل ما كنت أشاهدها تهاجم دود القز الذى كنت أحتفظ به داخل علبه أثناء مرحلة الدراسة بالابتدائى حيث يهاجم الديدان ويقتلها ويقطعها إلى أجزاء صغيرة ينقلها إلى عشه استعداداً لفترة البيات

الشتوى ، كنت أصرخ وأتالم ولكن من يسمعى ومن يعمل على إنقاذى.

أثناء ذلك شاهدت عيوننا كبيرة وأجسادا طويلة تحيط بى ، انتابنى الهلع ، هل هي أسماك القرش أو أسماك الدلافين التي سوف تبتلعنى في دقائق ، تأكد لى أنها أسماك الدلافين ، هربت منى الحياة وهاجمنى الاغماء وأنا متجه للدخول في حالة من الغيبوبة التامة شعرت بمن يدفع بجسدى للأمام وشئ مثل العوامة يرفعنى من الماء لأعلى حيث توقفت عن السباحة وشعرت باننى أعطس إلى داخل الماء وسوف أختنق أسفل سطح البحر لكن تأكد لى بأن أسماك "الدلافين" هي التى ساعدتنى على الطفو ودفعت بى فى إتجاه الشاطئ ، لا أعلم ماذا حدث بعد هذا ولكنى تنبّهت وأفقت على شئ مؤلم يمزق جانبى الأيسر وشعرت بالدماء حارة تندفع من جسدى فقد إصطدمت بقطع من الصاج الملقاة بالبحر علي الشاطئ وأعتقد أنه برمىل صاج فارغ فمزق جسدى الذي كان شبه هلامي من احتراقه متأثرا بأشعة الشمس وبخر المياه المالحة ، لم أعد أشعر بأى شئ سوى إننى انتفّس وأعيش وأنا مستقل على الشاطئ ومازلت أعيش حيث كنت أسمع بعض أصوات لبشر وأشعر بهبوب الرياح على جسدى المبتل كما ابتعدت عنى الأسماك الصغيرة القاتلة وأسماك الدلافين المرعبة والتي تجاوز عددها الأربعة على الأقل.

ظللت على هذا الحال لفترة لا أستطيع تحديد توقيتها الزمنى ، تنبّهت من حالة الإغماء المتقطع وتأكد لى باننى مازلت مستقل على رمال الشاطئ وابتعدت عن الماء كيف تم هذا لا أعلم ولكنى أعتقد أن موجة الجزر هي التي قامت بهذا فاتحسرت المياه عن جزء من الشاطئ ، شملتنى السعادة رغم ما ألم بى من الآلام وأوجاع بكل أنحاء جسدى ، بعد قليل شاهدت السراج المضئ الذى

كنت قد شاهدته وأنا بداخل المركب قبل أن تغرق بداخل البحر ، سمعت وشعرت ببشر يتحدثون بلهجة عربية واضحة وأقرب ما يكون إلي لهجة المصريين ، كانت الأصوات ناعمة والتي تدل على أنها لنساء وليس لرجال ، اقتربت منى الأصوات أكثر فأكثر ، يصاحبهم ضوء خافت ، لم أشاهدهم ومازلت مستلق علي وجهي ، اقترب أحد الأشخاص منى وتبينت من درجة الصوت أنها لسيدة قامت تتفحصني وأخبرت الأخرى بأنة قبيل من آثار الحرب.

سمعت اراء عديدة ، إحداهن تطلب تركي لحالي وأخرى ترفض هذا وإننى سوف أسبب لهن الأمراض والرائحة الكريهة ، تحدثت إحداهن بأنه من الأفضل نقله إلى مكان بعيد جنوب الدار بمائتى متر ونقوم بعمل حفرة بالأرض نواري فيه جسده قبل التحلل ، تساءلت إحداهن وكيف ننقله من هذا المكان وكل جزء بجسده مقطع وممزق والدماء مازالت تسيل منه ، أجابت الأخرى بأننا نستطيع وضعه في لفافة مثل بطانية قديمة ونرفعه في نقالة الأتربة ذات العجلة الواحدة وندفع به أو نجره أرضا وهو ملتحف بالبطانية ، مازالت المناقشات دائرة والاقتراحات مستمرة وكل ما تأكدت منه أننى سوف أوارى التراب بعد قليل وهن يشاهدن ما أنا عليه وأن حالتي سيئة للغاية وكلها دقائق وأسلم الروح وأنتقل إلى جوار ربي والحق بمن سبقوني وهم جنودى وزميلي "سلمان وفاروق الفيومى" . شعرت بأننى أهوى من قمة مرتفع عال وروحي تسحب من بين ضلوعى ولم أعد أسمع نقاشا فقد أغلقت أذنى.

بعد قليل تنبهت وسمعت همهمة ثم شعرت بأن جسدى يُدفع وتبدل وضعى وأصبحت أمام علي ظهري أشاهد السماء وتلك الوجوه التي تُتمعن النظر فى

خلال ظلام دامس لا يبده سوى ضوء الفانوس الخافت ، شهقت إحداهن تخبر الأخريات بأن الرجل مازال حيا وسمعت تنفسه وأخرى أخبرتتهن بأنها شاهدت لمعة عينيه والتي تدل علي أنه مازال حيا ، سمعت إحداهن تحمد الله وتحدثت قائلة :

– يا ليا بنات نشيله على الدار نحاول نسعفه دا باين عليه شاف أهوال ومصاعب كبيرة.

شعرت بأننى أحمل وجمع من النساء من حولى ولكن ما شد انتباهى أننى شاهدت طفلة لا يتعدى عمرها السبعة أعوام وهى ترفع ذراعى مما دفع بدموعى إلى الخروج لتغسل بعضا من الآلام الصعبة لأيام عديدة ماضية.

بداخل حجرة متواضعة الأثاث أضيفت بعض اللمبات الإضافية فازداد الضوء بداخل الحجرة وشاهدت أيدى كثيرة تمتد وترفع جسدى ووضع علي ما يشبه الكنية البلدي ، ثم قالت إحداهن:

– باين عليه عطشان ، بسرعة يا "رقية" هاتى ميه ، شاهدت "كوز" من الألومنيوم ورفعت إحداهن رأسى وأعطتنى الماء الذى كنت أشرب منه بنهم فقد بلغ منى العطش مداه خلال الأيام الأربعة الماضية ، رغبت إحداهن في إبعاد الكوب عن فمى ولكنى عضضت عليه بأسنانى حتى ارتويت واستلقيت فاقدا للوعى مرة أخرى ، شعرت ببعض الآلام فتنبهت فشاهدت البعض منهن ينز عن عنى ثيابى حتى وصلت إلى ملابسى الداخلية فأشارت كبراهن وأعتقدت أنها الأم وتأكد صدق حدسى بعد هذا بأن تترك الفتيات الحجرة حتى تأذن لهن بالعودة ، نفذت الفتيات أمر الأم وبعد هذا طلبت منهن العودة بعد أن سترتنى ببعض

الأقمشة البالية وأصبحت ملفوفا "بـ كافولة" مثل الأطفال الصغار.

طلبت الأم من البنات إحضار بعض الأغراض والتي كنت أستمع وأشاهد وأنا شبه مخدر ، قطع من القماش على هيئة شرائح ومرهم "زنك" وبعض من القطران المتحفظ عليه لمنع مياه الأمطار من التسلسل إلى سقف الدار ، كانت الأم تعمل بهمة ونشاط وتشير إلى بناتها برفع جزء من جسدى فيقمن بالتنفيذ الفورى ، طلبت السيدة التي كانت تصدر التعليمات والتي أعتقد أنها "الأم" من إحداهن تسخين ماء ووضع الدلو الذى به القطران فوقه ، شممت بعد فترة رائحة القطران ، بعد قليل قامت السيدة بعمل طبقة من مادة القطران فوق جسدى ، فى البداية شعرت بالآلام رغم أن القطران لم يكن ساخنا بالدرجة الكافية بل سُخن بحيث يُصبح هلاميا مثل العجين ، ظلت السيدة تفرد مادة القطران على كل أجزاء جسدى العارى وإبتنان من بناتها قامتا بتغطية الجزء المغطى بالقطران بالقماش ، لم أسمع صياحا أو ترددا فيما كانت تأمر به الأم ، بعد حوالى الساعة استلقيت على ظهري وشعرت بالآلام فى جميع أجزاء جسدى وكنت أُنتم رائحة المرهم والقطران.

غبت عن الوعي لفترة ثم استيقظت فشاهدت إحدى الفتيات تجلس قريبا من الكنبة التي أنام عليها ، كان باديا الجهد والإرهاق علي وجه الفتاة ، سمعت ندائى الواهن بطلب الماء ، هبت واقفة وأسرعت لتحضّر الماء وبسرعة أقبلت أمها باثة الوجه تعطرني بكلمات رقيقة " حمد الله على سلامتكم .. ربنا كان معاك ، رفعت رأسى قليلا بينما قامت الفتاة بوضع حافة الكوب علي شفتى السفلى .. عبيت من الماء الطيب البارد حلو المذاق ، تحدثت إليهن لأول مرة:

- ربنا يخليكم .. تعبتكم معايا

هددت الأم علي كتفى وأخبرتني بأنها أعدت لى طعاما خفيفا ولنبدأ بكوب من اللبن المحلى ، تناولت كوب اللبن الذي أعاد إليّ جزءا من الحياة المهذرة بداخل البحر ، ظلت يقظا أطالع ما حوالى ، أقبلت على باقي الفتيات ، كل واحدة منهن تقترب من مكان نومى ثم تقدم إلىّ تحيتها بعد أن تخبرنى باسمها حتى أقبلت الصغرى والتي بكيت أمس حين شعرت بها وهى تساعد فى حمل ذراعى.

- اسمي زينب

أشرت إليها بأن تقترب حتى التصقت بجانب الكنبه فرددت ذراعى بصعوبة وأمسكت بيدها الصغيرة مقبلا" فصفقت باقى شقيقاتها لهذا الشعور الطيب نحو صغيرتهن.

كنت أستيقظ ليلا" وأشاهد إحدى الفتيات تجلس قريبا منى تعمل على خدمتى أو تسرع بنداء أمها إذا حدث لى شئ طارئ تعجز عن التصرف به ، كنت أدعو الله بأن يعطى تلك الأسرة الصحة والسعادة والستر والسلامة فلقد كانت الأسرة تتميز بخلق قويم وتمتع بقلب رحيم طيب العشرة ندية البشرة حسنة الخلقة قريبة من الله ، كان الشئ الذى أثار انتباهى بعد أن أعاد الله إلىّ الحياة بأن سخر لى تلك الأسرة النبيلة هى حالة الثقافة البادية على جميع الفتيات ، كنت ألاحظ بأن أية فتاة تجلس تراقبنى ليلا أشاهدها وهى تمسك بكتاب تقرؤه على الضوء الخافت المنبعث من اللبنة الجاز نمرة "خمسة" ، كنت أعتقد أن هذا سببه الأول أن الامتحانات على الأبواب ولكننى تنبهت بأنه لا امتحانات فى منتصف شهر يونيو سوى الجامعة أو الثانوية العامة ومن غير المنطقى أن تصبح الفتيات على أبواب الامتحانات حتى الصغيرة التي كانت تقوم برسم بعض لوحات بسيطة علي الورق.

مضى علىّ في هذا المكان حوالي أسبوع شعرت خلاله بأننى أطيّب حالا وأستطيع أن أنهض من رقتى تلك وأسير بعض الخطوات بداخل الحجرة مما أدخل السعادة والبهجة إليهن جميعا ، فى إحدى المرات شاهدت مرآة مكسورة معلقة على الحائط فتوجهت إليها ونظرت بداخلها وأصابتنى الدهشة لما شاهدت عليه حالى حيث كانت الأربطة تحيط بى من كل جانب باستثناء بعض أماكن قليلة.

مضى على وجودى عشرة أيام ، أحد الأيام تحدثت معى الأم وأخبرتني بأنها سوف تقوم صباح الغد بنزع بعض الأربطة عن جسدى ويجب علىّ الحذر وأن أتحرك بحساب حتى تظل الجراح التى التأمّت علىّ حالها ، صباح اليوم التالى أقبلت علىّ الأم بصحبة بناتها الأربع وشاهدت معها مقصاً وبدأت عملها بقطع بعض اللفافات بهدوء وسكينة وعندما نزلت أول لفاقة عن الجرح ابتسمت وشكرت الله وأخبرتني بأن ما قامت به كان اختباراً حتى يطمئن قلبها إلي شفائى وبعد عدة أيام سوف تنزع باقى الأربطة ؛ كما طالبتنى بتحمل الأيام المقبلة لأن القطران سوف يزداد تماسكا بعد التئام الجروح وحين الشفاء لن يتبقى أى أثر للإصابات سوى اللون الأسمر المتبق من أثر القطران.

ابتسمت لحديثها الطيب المشجع قائلاً:

- لما سمعتك بتطلبى القطران افكرت أنى طريق أسفلت وحتقوى برصفى ، ضحكت الفتيات بينما ابتسمت الأم قائلة إن القطران يقوم مكان المطهرات بل هو أشد فاعلية ولكن عيبه الوحيد أنه يترك بعضاً من اللون الأسود لفترة لكن أطمئن لن يمض عليك الشهر الأول إلا وتزول عنك تلك الألوان.

اليوم التالى أخبرتنى بأنها أعدت لى مكان إعاشة بمنطقة السطح بأعلى

الدار طالبة منى الاحتراز من أى صدمات أو إصابات حتى نتأكد من تمام التئام جميع الجروح ، اليوم التالى ساعدتني "رقيه" أثناء تسلق السلم البدائى المكون من الخشب لساق شجرة وضع بطريقة عمودية مستندا على الحائط وعليه عرضات خشبية أفقية ، كنت أشعر بإرهاق والم وأنا أبدل خطوات قدمى فوق تلك العرضات غير المهذبة حيث كانت متعرجة وتكثر بها الثنايا والنتوء التى كانت تؤلم بطن قدمى العارية إلا من لفافة من القماش للحماية ، أخيرا وصلت إلى أعلى الدار وطبيت وجهى نسانم ندية رطبة وشعرت بأننى أشاهد الحياة والسماء الصافية لأول مرة منذ خمسة عشر يوما ، أقبلت على الأم تشد من أزرى وتمد لى يد المساعدة مع ابنتها بحيث أصبحت الأم وابنتها رقيه مثل العكازين أستند عليهما من كل جانب للوقوف والتحرك البطئ ، بعد مجهود وصلت بمعاونتهن إلى الحجرة.

كانت الحجرة بسيطة الأثاث ومكونة من بعض أعواد الجريد الجافة ويغطيها من الخارج بعض قطع من البلاستيك ، الباب عبارة عن بطانية قديمة والفرشة التى سوف أنام عليها أيضا بسيطة ، كنت أشعر بأننى أعيش بقصر وليس بحجرة بتلك المواصفات وكان اعتقادى السابق بأننى لن ألتقى ببشر على هذا المستوى الرفيع من الخلق وحسن التعامل والكرم ، كنت مازلت في دوامة من الفكر ، فأنا لست راغبا فى البقاء فى ضياقتهن حتى لا أحملهن نفقات وأعباء واحتمال أن تهاجم الدار قوات العدو كما كنت راغبا فى عدم ترك تلك الأسرة فلقد أحببت جميع أفرادها بدءا من الأم الطيبة وانتهاء بالصغيرة حتى الكلب الذى يقوم على حراسة المنزل.

ليلا كنت أجلس أمام الحجرة البسيطة وأنظر إلى السماء وأشاهد النجوم

البراقة وهى تلمع في جوف السماء اللانهائى وأسمع هدير الأمواج حيث لا يبعد الشاطئ عن الدار بأكثر من خمسين مترا حيث يقع المنزل على ربوة عالية تحميه من مياه المد ، 'كنت أشاهد لون الماء الفضى الناتج من الأمواج ومازلت أذكر بأن الله أرسل البعض من عباده متمثلا في تلك الأسرة الطيبة لإنقاذى من وضعى المؤلم الذى وقعت فيه.

إحدى الأمسيات أتت الابنة الكبرى "رؤية" إلى السطح ، كنت وقتها أجلس بداخل الحجرة أستعيد بعضا من ذكريات أسرتى بالإسكندرية وكيف حالهم الآن وهم لا يعلمون أين أنا وكيف أخبرهم وأنا عالق في هذا المكان ولا توجد وسيلة مواصلات خاصة ، لقد طلبت منى الأم الهدوء والسكينة لأن الإسرائيليين يقتلون أو يأسرون كل جندى وضابط تقع أعينهم عليه.

سمعت صوت غناء صادرا من "رؤية" وهى تشدو بأغنية فيروز

أعطنى الناي وغنى ... فالغنى سر القلوب وانين الناي يطغى بعد صمت القلوب

جال بفكرى وخاطرى لو أن كل الشعوب بأرجاء الأرض سمعت صوت غناء "رؤية" العذب الرقيق لامتنعت عن الحرب والقتل ، لقد كان الصوت ساحرا لأقصى درجة .. كانت تشدو بصوت شجي به رنة من أسى تشعرك بالحنين إلى الوطن ، رغبت فى أن أشجعها ببعض كلمات طيبة ولكنى آثرت الهدوء والسكينة ولأجعلها تداعب الطبيعة فى هذا الليل الساكن وهذا الطقس المعتدل والهواء النقى ، لقد كانت الحياة تعزف على قيثارة الخلود تلك النغمات الصادرة من بين شفاه "رؤية" الطيبة البريئة.

كانت "رؤية" مثالا حيا للجمال العربى الأصيل ، متوسطة الطول فلم تكن نحيفة أو بدينة ، بيضاء الوجه بحمرة طبيعية تغطى الخدين ، شعرها الطويل

يتحرك مع تحركها ومع نسيمات الهواء يتطاير حول وجهها الرقيق مثل شعاع الشمس بداية الصباح حين تشرق علينا بضوء دون حرارة حتى لا تزعج أحلامنا التي مازالت عالقة بخيالنا ، هي أيضا الذراع اليمنى لأمها والموجهة لشقيقاتها وآخر من تنام وأول من يستيقظ ، كانت المراقب لى باستمرار أثناء العلاج خاصة في الفترة الحرجة التي أعقبت إنقاذى ، كنت أشاهدها أيضا وهي تقوم على حلب اللبن من بعض الماعز لديها ، أصحو قبيل شروق الشمس على رائحة خبز طازج يُعد فإكتشف بأنها هي التي قامت به ، كنت أشاهدها تتحرك في كل مكان دون ضوضاء أو جلبة ، علمت بعد هذا أنها تعشق السباحة في مياه البحر بعد أذان الفجر سواء صيفا أو شتاء حتى لا يشاهدها أحد ، وأخيرا أطربتنى وأطربت الطبيعة بتلك الرائحة من روائع قيثارة الغناء العربى المطربة فيروز.

وسادسهم عابد

حين يخلو السطح من الفتيات كنت أسير الهوينا حتى أنشط ساقى وبدنى حتى أستعيد قواى على مواجهة الأيام المقبلة والتي هى في علم الغيب ، لم يكن لسطح الدار سور بل السطح مفتوح وقد اعتاد أصحابه على هذا ، فهم لا يخشون السقوط من أعلاه كما أن المنطقة المحيطة به تحيطها الرمال والسقوط لن يؤذى من سقط سهواً.

كنت أقف أشاهد المنطقة المحيطة بالدار ، كانت المنطقة على طبيعتها التى خلقها الله وبدأ هذا واضحا خاصة لعدم وجود جيران أو مساكن قريبة من الدار ، فعلى مرمى البصر لا أشاهد حياة أو بدوا أو حيوانات أو مراعى. ومن الجانب الآخر يقع البحر ، كانت أشجار النخيل تحيط بالدار بغابة كثيفة تزيد المكان جمالا وبهجة كما أن الأم قامت بزراعة بعض أشجار الفاكهة أشاهدها من أعلى الدار ولكنى لا أستطيع تحديد نوعيتها كما توجد مساحات صغيرة غطتها نباتات مختلفة وأعتقد بأنها خضراوات تسد احتياجات الأسرة ، كنت في شوق لمعرفة من أين يحصلون على المياه اللازمة للاستخدام سواء للطعام أو الاغتسال أو لري تلك المزروعات ، كما أن التضاريس الأبعد عن الدار ذات تباب مرتفعة ومنخفضة ولا تمكن السيارات من السير عليها ولهذا فوسيلة المواصلات الوحيدة المستخدمة لشراء متطلباتهم كانت الدواب خاصة الجمل حيث شاهدت أنثى الجمل وهى ترضع صغيرها ، ثم من أين يشترون الاحتياجات وما اسم المنطقة التي نعيش بها؟ أسئلة كثيرة بدأت تطرأ علي ففكرى فلم أكن أعلم أصل الحكاية ومن أين أبداً.

قررت بأن أترك كل شئ للأحداث والمواقف ، لقد أصبح كل شئ يحيط بى تحركه الأقدار وليس لى دخل بها ، فلقد أصبحت تابعاً ولست متبوعاً ولهذا فيجب على كتابى أن أتبع أولى الأمر من حولى ، لقد أصبحت أسيراً دون أغلال أو سجن حقيقى لكن الأربطة التى تحيط بجسدى هي البديل عن القيود الحديدية التى توضع حول معصم السجين ، لقد أصبحت أشعر بأن تلك الأربطة عبء كبير على تحركى وحياتى.

من حين لآخر كنت أنتبه على صوت "رؤية" الجميل وهى ترنو ببصرها جهة البحر وتتغنى بأغان رقيقة رائعة ، الحقيقة كان صوتها مؤثراً لأقصى درجة ، شعرت بأن تحركها وغناها ينقلنى من حالتى تلك وعزلتى عن أهلى ومدينتى العريقة إلى الحياة الشابة الفتية المتحركة ، لقد كان شدوها المعطر بموسيقى الرحبانية وصوت فيروز الحالم يعيد إلى حياتى وبهجتى ويدفع بدماء الأمل والحياة إلى شرايين جسدى القابع الساكن أسفل تلك الأربطة ومن فوقها كتل القطران التى أتحرك وأنام بها ، كانت خيالات رقيقة حاملة كثيراً ما أسعدتنى وروتنى بمياه عذبة بعد أن تجرعت ملوحة ماء البحر.

" فى أحد الأيام شعرت بصعود "رؤية" السلم الخشبى فطللت على حالى بداخل العشة وتركتها مثل الأيام السابقة تتحرك وتشدو حيث كنت أتابعها من بين فواصل أعواد الجريد التى تقوم مقام الحائط بحجرتى أعلى الدار ، شعرت بأنها على خلاف الأيام السابقة وأنها مترددة محاولة القيام بشئ ما ولكن الخجل يمنعها من ذلك ، فى لحظة تحركت بسرعة وأقبلت جهة الحجرة ونادت على :

- عابد .. عابد .. أنت صاحى وإلا نائم؟ أجبتها

- أنا صاحى ، ابتسمت وقالت

- أنا عايزه أكلم معاك ، تعالى نجعد بره ونتكلم والهوا جاى من ناحية البحر يرد
الروح "

نهضت متثاقلاً وتحركت ، حيث كانت تجلس .. قالت لها :

- ابوه يا "رقية" .. أنا سامعك .. نظرت إلي مليا ثم قالت :

- عرفني بنفسك ، ابتسمت وأخبرتها بكل ما أعرفه عن نفسى باستثناء طبيعة
عملى كرجل عسكري رغم أنهم خلعوا عني ملابسى العسكرية بما فيها الرتب .

بحديث طيب هادىء أخبرتنى بأنها سوف تخبرنى بكل شئ يخص
عائلتها حيث قالت بأنها وأمها وشقيقاتها الثلاث الأخريات يقمن بهذا المكان
النائى المتطرف كما أن شقيقها الأكبر منها مباشرة يدرس بالجامعة بمصر ولم
يستطع العودة حتى الآن ، أما عن والدى أبى السعادات فهو يعمل بائع متجول
يقوم خلالها بالمرور على القبائل بالصحراء يعرض بضاعته من الأقمشة
وبعض الطرح والشيلان التي تخص النساء وقبل بداية الحرب بأسبوع خرج ولم
يعد حتى الآن ونحن جميعا في خوف ووجل على حياته ، ورغم أننا قد تعودنا
على غيابه في كل مرة لمدة لا تقل عن أسبوعين إلا أن تلك المرة تثير الخوف
والتساؤل ، كما أنه في تلك المرة طالت غيبته إلى أكثر من خمسة وعشرين يوما
وكل هذا انعكس على أمى وشقيقتى بالخشية على تعرضه لأى مكروه ، أمس
تجاوزت مع أمى وهى راغبة بأنه لو أمكنك أن تظل تقيم معنا بديلا عن شقيقى
عيد حتى يعود أحد من رجال المنزل سواء أبى أو عيد أو الاثنان معاً، إننى فى
انتظار رأيك.

كنت أستمع لحديثها الصريح الصادر من قلبها مباشرة ، فالأسرة تخشى

غياب رجال الدار لفترة طويلة ، تحدثت معها بتلقائية :

رقية : لا تخشى أنت وأسرتك أى شئ فأنا مثل عيد وسوف أظل برفقتكن حتى عودة الأب أو الشقيق ، ظللت وجهها السعادة والفرحة الغامرة وأسرعت بالهبوط لصحن الدار لتخبر والدتها بما قلت وصرحت به ، بعد قليل صعدت الأم إلى السطح وكان باديا عليها السرور وأسمنتى عبارات الشكر والامتنان راجية منى أن اعتبرها مثل أمى حتى يأذن الله بعودتى إلى أسرتى ، أخبرتها بأن هذا هو شعورى منذ وعيت وتنبهت وعادت إلى الحياة وأن جميع بناتك هن أخواتى خاصة الصغرى زينب ، شددت على يدى وأخبرتتى بأنه منذ هذا اليوم سوف يصبح اسمى "عيد" وهو اسم ابنها الأكبر حتى إذا حدثت أمور غير سعيدة وأقبل اليهود فيعلمون بأنك ابنى الأكبر وسوف أدرب بناتى على هذا الاسم ثم أشارت إلى ابنتها رقية بأن تبدأ تنفيذ هذا منذ اليوم.

منذ ذاك اليوم أصبح اسمى عيد وأصبحت ابنا لتلك الأسرة وأبى " أبو السعادات" وقد وقع على كاهلى الإقامة مع تلك الأسرة ، سارت بنا الأمور كما أرادت الأم وأصبحت جميع الفتيات ينادين على باسم "خويا عيد" أى أخى عيد ، بعد أسبوع على تلك القرابة قامت الأم بنزع الأقمشة والأربطة عن جسدى بكل حيطة وحذر ولم يكن معها أحد من بناتها حتى لا يشاهدن جسدى العارى ، انتهت المهمة بنجاح ونظرت إلى الأم ورفعت وجهها ويدها للسماء شاكرة فضل الله على لأنها كانت تخشى أن يحدث لى نزيف أو تشاهد آثار صديد ولكن الحمد لله شفيت والتئمت جميع الجراح ، سلمتنى الملابس التي أتت بها والخاصة بابنها والذي بدا أنه أقل منى طولاً من قصر طول الجلباب.

بعد أن غادرت السيدة الحجرة بدأت أتفحص جسدى فلم أعر على أى جرح لكن مازالت كتل القطران تغلف جميع أجزاء جسدى كأننى وقعت فى بركة من

الطين ، كان القطران متماسكاً حينما حاولت التخلص من بعض القطع ، شعرت بأن هذا عبء آخر ولكنى تركت كل شيء للأيام.

بدأت أتحرك وأعمل وأساعد الفتيات كل يوم حسب قدرتى وكنت أشعر بسعادة وبهجة لعاملين مهمين : الأول هو شفائي والثاني هو محاولة سداد معروف ودين لتلك الأسرة أصبح فى رقبتي بعد أن تم علاجى وإطعامى ورعايتى لفترة قاربت على الشهر ، كل تلك العوامل دفعتنى إلى الأمل والشعور بأن الحياة مازالت أمامى بعد ما شاهدته وتألمت منه أثناء الأيام الأولى للحرب خاصة ما حدث بداخل القارب ومصير الجنود الذين قتلوا ثم ما تلا هذا من تعرضهم للاقتراس من الطيور البحرية والأسماك.

بعد عدة أيام أقيلت على "رقية" حيث كانت تحمل علبه صفيح ورائحة الجاز تتبعث منها حيث قالت بأنه يجب على أن أبلل تلك القماشه والتي كانت تحملها أيضا وكل يوم أحاول إزالة بقع القطران بدعك بسيط لجسدى حتى لا تتأثر الجروح التى التأمت ، قدمت لها الشكر أثناء مغادرتها سطح الدار ، بدأت فى تنفيذ التعليمات ورغم رائحة الجاز المنفرة إلا إننى شعرت بسعادة بعد عدة دقائق حينما تمكنت من إزالة بعض بقع القطران ، استمر هذا الحال لأكثر من أسبوعين حتى زالت جميع بقع القطران وظهر لون البشرة والجلد الذي كان باهتا بالإضافة إلى آثار الجروح التى شفيت والتي تركت بعض الندوب ما بين المرتفع والمنبعج والمنخفض ولم يعد جسدى كما كان لكن الشفاء هو الذى عاد إلى ، حمدت الله على ذلك خاصة أننى شعرت بمقدرتى على العمل وأن نشاطى وحيويتى عادت لسابق عهدا فاندفعت أعمل فى كل مجال باستثناء طهى الطعام وغسل الملابس حيث قمت برعاية الزراعات وجلب المياه من بئر مياه ليست

ببعيدة عن الدار كما كنت أقدم الطعام للجمال والماعز التي تقوم الأسرة علي رعايتها ثم تعدى هذا إلى صيد الأسماك واصطياد الكابوريا ليلا وأصبح الجميع يشعر بالطمأنينة والبهجة وأصبح اسم عيد يتردد صداه داخل الدار.

كانت الأم تفكر كل يوم في مصير زوجها والتي لم تصلها أى أخبار عنه حتى الآن ولا تعلم عنه أية معلومة وسلمت قدرها لله وركزت كل جهودها فى رعاية بناتها الأربع ، كنت فى كثير من الليالي أصحو علي صوت الأم وهى تجلس في فناء الدار المفتوح دون سقف بعد أن تؤدي صلاة الفجر والصبح وهى تتاجى الله بنداء حزين بانس أبكائى كثيرا حين وصل إلى سمعى بل وصل إلى قلبى نداء الأم الحزينة بأن يعود الزوج والولد ، كثيرا ما كان بكأؤها ونحيبها يوقظنى ويترك لى الأمانا نفسية شديدة تطير النعاس من عيونى حتى الصباح ورغم هذا كانت تتصرف أمام البنات بكل كياسة وقوة وتماسك للأعصاب.

تحسنت حالتى الصحية أكثر فأكثر خاصة بعد مزاوله رياضة السباحة والتي أعشقها بحكم نشأتى بالإسكندرية ، إستقرت الأمور علي ذلك الوضع ومضى على وجودى مع الأسرة أكثر من ثلاثة أشهر وازداد تمسكها بى وأنا ببورى تمسكت بهم فلا أعرف كيف أعود إلى مصر بعد أن اتضحت كل الأمور من الراديو الصغير الذى يعمل بعض الأوقات ويصمت أحيانا لسوء البطارية التي تمده بالطاقة.

في أحد الأيام سألت الأم بأى مكان يقع الدار؟ أخبرتنى بأنه يقع بمنطقة محصورة بين الشيخ "زويد" والعريش ، صدمتني تلك المعلومة حيث كنت أعتقد بأننى قريب نسبيا من بحيرة البردويل أو بورسعيد وقناة السويس لما بذل من جهد في بداية الانسحاب ولكن ثبت أننى كنت واهما ، هذا يعنى بأننى ابتعدت

عن قطاع غزة عدة كيلومترات فقط .

بمضي الوقت واقتراب فصل الشتاء ازدادت الحاجة لبعض الأنواع من الأطعمة خاصة الشاي والسكر وبطارية للراديو حتى يعمل ولهذا طلبت مني الأم بأن أقوم باكر بالتوجه إلى ديار قبيلة "....." وشراء ما يلزمنا من تاجر رقيق الحال والمسافة لا تزيد عن سبعة كيلومترات وسوف ترافقني "رؤية" في تلك الرحلة حيث إنها تعلم الطريق وسوف يساعدنا الجمل في إنهاء تلك السفرة بسرعة ويسر.

لم أكن أخشي لقاء الأعداء فليس معي ما يدل على هويتي كما أنني أجد التحدث باللهجة البدوية نظرا لعملي سنوات طوال بالقطاع حيث اللهجة واحدة بين القطاع وسيناء كما أن "رؤية" كانت متمسكة ولم تشعر بأى خوف أو تردد ، حين أطلت علينا الومضات الأولى لشمس هذا اليوم تحركت بصحبة كل من "رؤية" والجمل إلى المكان المرتقب ولم يركب أى أحد منا الجمل خاصة إننا حملناه بعدة أوعية من الماء لتقديمها إلى تلك القبيلة كهدية عالية القيمة ، فى أقل من ساعة وصلنا إلى القبيلة ولم يكن البائع متواجدا ولكن زوجته أمنتنا بكل ما نحتاج إليه وقدمنا إليها الماء الذى أسعدها أيما سعادة مما دفعها إلى خصم مبلغ من ثمن الشراء ، بعدها عدنا إلى الدار بسلامة الله قبيل الظهر مما أدخل الراحة على جميع أفراد الأسرة.

روت "رؤية" على أمها حديثا هاما دار بينها وبين زوجة الرجل الإعرابى البائع علمت منه بأن بعض أبناء القبيلة اعتقلتهم القوات الإسرائيلية وألقت بهم فى سجونها ولهذا فهى تعتقد بأن الشيخ أبا السعادات قد لاقى نفس مصير رجال القبيلة ، توجهت الأم بدعائها إلى الله بأن يكون نصيب زوجها

الاعتقال أفضل من أن يلقي حتفه بين الجنود المصريين والإسرائيليين.

بدأت البرودة تزحف على الدار فالوقت ينبيء بأننا في نهاية شهر أكتوبر من عام ١٩٦٧ وكنت أسمع من حين لآخر عما حدث بين الجيشين المصري والإسرائيلي من معارك على خط القناة وكان هذا واضحا من الهلع الذي أصاب الجنود الإسرائيليين حين يقبل بعض البدو إلى بئر المياه للتزود ببعض المياه أثناء تحركهم حيث يقصون علينا بعضا من تلك القصص خاصة بعد تدمير المدمرة الإسرائيلية "إيلات" والتي أسعدتنا جميعا وتوجهنا بالدعاء لله أن تستمر تلك المعارك للانتقام من هؤلاء المجرمين.

بحكم السن والقدرة على العمل كان يقع على وعلى رقية عبء حمل الماء ورعاية الزراعات وجمعها حين تنضج مما زاد من التقارب بيني وبينها ، كنت خلالها أشعر بومضات لامعة تخرج من عيونها الجميلة فتدفعها إلى الابتسام فتظهر أسنانها البيضاء ويتورد خذاها بحمرة جميلة تنعكس على بشرتها الناعمة البيضاء ، على مدى أيام عدة كنا نلهو معا بعد الانتهاء من رعاية الأغنام ، وكان من المعتاد إجراء مسابقة للعدو من موقع الدار حتي مكان البئر لنرى من منا كان الأسرع ، وحين الجلوس أمام الماء لصيد الأسماك كنت أساعدها في بناء بيوت من الرمال ونلهو معا ثم تقبل الأمواج أو حالة المد فتزيل كل ما كنا قد شيدناه ، أثناء رعي الغنم ومراقبتها تقوم رقية بجمع بعض من الحصي وتعد منه قبوا أو داراً صغيرة وبعد أن نعود لهذا المكان بعد عدة أيام نشاهد آثار ما قد بنته منذ أيام بعد أن أزالته الرياح وأصبح ما كان مشيدا سرايا أو أثرا بعد أن أزرته الرياح.

في أحد الأيام طلبت منى الأم مرافقة رقية في رعاية الأغنام والسير بها

مسافة أطول حتي تساعد الأغنام علي الولادة الطبيعية فقد اقترب موعد وضعها ، كنت أترك الغنم في حراسة الكلب والهيو مع رقية عدوا وضحكا وابتسامة ، بل في إحدى المرات ونحن جلوس اقتربت منها وسلطت نظري عليها مما أربكها وجعلها مضطربة وحينها أخبرتها بأنها أصبحت امرأة ناضجة ، شعرت بسعادة ولكنها أخبرتني بأنها على هذا الوضع منذ عدة أشهر أى قبل تعرفها على ولكنني أخبرتها بأنها نمت طولا وحجما بل زاد طولها عدة سنتيمرات أي طول إصبع السبابة.

حين كنت أندفع في الانجذاب ناحية "رقية" كنت أتذكر شيئا مهماً وهو إنني أصبحت الابن "عيد" ولست الضابط "عابد" فأنا الآن الشقيق ولست الغريب ، لقد وضعتني الأم في تلك المرتبة سواء كان هذا نابعا من ذكاء فطري أو لطيفة قلبها لكن تساوى الأمران في الهدف والنتيجة وهو أنني أصبحت حارسا وليس ذنبا ، وهذا ما كان يجعلني لا أبادلها الضحكات التي تقوم بها والمزاح في الحديث واللامبالاة في بعض الأحيان مما كان يدفعها إلى الضجر والضيق من تصرفاتي تلك ، لقد كانت الفتاة في مرحلة المراهقة حيث كان عمرها سبعة عشر عاما ولكن في هذا المكان وتلك المنطقة ومن في مثل عمرها قد تصبح الفتاة في تلك السن أما منذ عامين مضى فالجسد النامي والقدرة على الإنجاب تدفع بالبحث عن الطرف المفقود في المعادلة حتى تكتمل وتكون النتيجة إيجابية خاصة في حالة تلك الأسرة التي تعيش في عزلة عن باقي البدو ، ولا أعرف سببا لهذا فيمكن للأب أن يتاجر من أى مكان آخر خاصة بجوار القبيلة التي ينتمي إليها إلا إذا كان منفيا بعيدا عنهم أو يعيش هذا المكان الساحر الخلاب.

أصبحت المشكلة التي أعانى منها هي تقارب وميل "رقية" إلى بشكل

متزايد يوماً بعد يوم ، كنت فى خوف من أمرى بأن أفقد السيطرة على مشاعرى وأنزلق معها وتصبح مشكلتى كبيرة وقد خنت الأمانة ولا أجد من أحتمى به وأصبح عدوا للعائلة ولكن الله سلم رغم حالة السعادة والمتعة التى كانت تتتابنى أثناء جلوسها معى ، كان صمام الأمان القوى الآخر الذى أحتمى به بالإضافة إلى الثقة والإخوة ما أحمله من ذكرى الأيام الأخيرة لرحلتى مع كل من "فاروق الفيومي وسلمان" ونحن نستقل المركب للهرب والنجاة بأنفسنا خاصة بعد أن أصبحت وحيداً مصاباً وأنا أشاهد أسراب طيور النورس تقترس أجسادهم فكانت تتتابنى حالة من الحزن فأعود إلى رشدى مستغفراً الله وأنهض لأصلى ركعتين شكراً وحمداً لله وهذا مخالف لعادتي حيث كنت شاباً مستهتراً معتقداً بأن الصلاة للشحاذين والعجزة والفقراء والمرضى!!!!

بداية العام

أقبل الشتاء منذ شهرين حيث كنت أمضى ليلتي يقظاً متنبهاً سواء لخوف من هجوم مفاجئ للجنود الإسرائيليين أو لأى شئ غير متوقع حدوثه ، بدأت تحييط بى أنا ورقية حالة من الملل وعدم الرغبة في الحديث أثناء عملنا ، كنت تواقاً لأن أسمع حديثها وبعضاً من نغماتها التي تطربنى بها إلا أنها أبت على تلك المتعة وهذه الرغبة ، استبد بى الضيق وشعرت بأن المكان أصبح كريهاً طارداً لي ، فكرت ، وما الحل لو تركت هذا المكان ولأى مكان آخر أتجه إليه رغم أن حالتى الصحية تحسنت بشكل ملحوظ وقد قاربت لياقتى البدنية بأن تعود إلى حالتها والتي كنت عليها قبل نشوب الحرب.

زاد من مللى وضيقى بأن استبدلت " رقية " شقيقته "عائشة" للعمل معى بديلاً عنها وكأنها تخبرنى بأنها أصبحت لا تطيق وجودى بقرىها ، ازداد ضيقى ؛ فقد يفضى هذا التصرف لأمها بأن مشكلة ما قابلت ابنتها أو لاحظت سوء تصرفى معها وهذا الشعور وتلك المخاوف أفقدتني لبعض الوقت القدرة على التفكير وأصبحت متبدل الشعور وصامتاً طوال اليوم سواء أثناء العمل أو أثناء تناولى الطعام مع الأسرة وشعرت بأن جميع أفراد الأسرة ينظرون إلى نظرات لم أعهد لها ولم أكن أنتظرها ، كنت راغبا فى تقب رءوسهم والدخول إليها ومطالعة ما يفكرون فيه ولكن الأمنيات شئ والواقع شئ آخر.

كانت عائشة صورة مصغرة من أمها ، فهى تملك حكمتها وهدهوء أعصابها وقليلة الكلام كثيرة العمل كما أن بنيتها قوية وأكثر حجماً من " رقية " ورغم هذا كانت الفتاة تعمل بقوة ومثابرة ولم يخرج منها أى شئ يعمل علي ضيقى مما

دفعنى للحديث معها أكثر من ذى قبل ، لم تمنع حين أخذت بيدها وجلسنا أسفل إحدى أشجار النخيل واحتمينا بعض الوقت بأفراع جريد جافة من سياط الهواء البارد القادم من جهة البحر.

أمعنت النظر إليها مما جعلها فى حالة من الخجل والارتباك ثم سألتها بعض الأسئلة:

- أعتقد بأن "رقية" لا تفضل العمل فى الزراعة وحمل المياه؟

- ليس هذا بالضبط ، لكن أمى طلبت منها أن تظل بجانبها فى بعض أعمال البيت خاصة أنه فى تلك الأيام يفضل صناعة الجبن ؛ لأن أنثى الجمل لم تعد ترضع صغيرها ولديها اللبن الوفير وموسم الشتاء يفضل خلاله صناعة الجبن وتلك الجبن تفتح أبواب الرزق أمام العائلة ؛ لأن أمى تقوم على بيع جزء منه لبعض القبائل المجاورة ، هذا كل ما فى الأمر.

شعرت براحة نفسية وإننى لست طرفا فيما حدث من تبديل فى أعمال العمل بين كل من "رقية" وشقيقتها عائشة ولهذا تشجعت بسؤال آخر:

- كنت أعتقد بأن "رقية" غاضبة منى أو شئ من هذا القبيل؟

- تغضب منك !! هذا غير منطقي ، جميع إخوتى ووالدتى يحبونك مثل عيد أختى.

صمتت عائشة ونظرت لأسفل ثم أكملت حديثها الطيب الرقيق:

- خصوصا "رقية" تشعر بتقدير وإعزاز تجاهك ، صمتت ووضعت يدها على فمها وضربت حمرة الخجل وجهها الأبيض الناعم ، علقت على حديثها:

- هذا هو نفس شعورى نحو الأسرة والله يعلم مقدار حبى لكم وتقديرى لكل ما فعلتوه من أجلي

- لو سألتك سؤالاً ممكن تجاوبيني عليه؟

- تفضل ، إسأل

- لماذا تقيم عائلتك بهذا المكان البعيد؟ لقد أصبحت أحد أفراد العائلة وليس من

المنطقي ألا أعلم بكل شيء عن أسرتي

- سوف أخبرك بكل شيء على وعد ألا تخبر أحداً بأنني أفشيت هذا السر .. هذا

وعد يا عيد؟

- وعد يا عائشة

- الحكاية أن والدي أحد أبناء قبيلة "....." وكان هناك اتفاق مسبق بأنه سوف

يتزوج من ابنة عمه وهذا عرف بين البدو في سيناء ومعمول به لكن جد جديد

في الأمر ، ما هو؟ والدي كان دائم السفر والترحال إلى الإسماعيلية بغرض

شراء بضاعته من القماش والطرح وكل ما يلزم ويهم النساء ، بالإسماعيلية

وقعت عيناه على ابنة بائع بالمحل وحازت إعجابه ولهذا تقدم لخطبتها ثم بعد

فترة تزوج بها ، اقبلت برفقته إلى القبيلة ولكن شيخها غضب من تصرفه هذا

وقرروا توقيع عقوبة عليه ، إما أن يطلقها أو يغادر القبيلة ويبعد عنها لمسافة لا

تقل عن مائة كيلو وحددوا له هذا المكان الذي نعيش به الآن وكما ترى نحن

نعيش هنا منذ ما يقرب من عشرين عاماً والدي مازال يأتي ببضاعته من محل

جدي "غريب" وحينما يأتي جدي غريب لزيارتنا ويشاهد أمي يتأثر علي حالنا

خاصة حينما تبكي أمامه من شظف العيش وقسوة الحياة البعيدة عن حياة

الإسماعيلية الجميلة التي لا تنساها أبداً ومازالت تقوم على وصف الحياة بها

مستعدة أيام الطفولة والشباب واللهو في مياه بحيرة التمساح والتمتع بحدائقها

الجميلة ، هذا دفع بجدي إلى أن يطيب من خاطرها وفي آخر زيارة أخبرها بأن

الحكم الذي حددته القبيلة بعشرين عاما على وشك الانتهاء ويمكن لنا بعد ذلك العودة والعيش بالإسماعيلية.

- هذه حكاية غريبة ، أين والدك؟

- الحقيقة لا نعرف أى شئ عنه غير أن أحد أعمامى جاء منذ عدة أيام وقت أن صعدت " رقية " تخبرك بالا تنزل إلى صحن المنزل وأن تظل بأعلى إلى أن يغادر الضيف الدار بسلام .. لقد كان عمى سعيد الذى أقبل ليخبرامى أنه قد بلغهم أن اليهود قد ألقوا القبض على والدى وأن شيخ القبيلة طلب لقاء الحاكم العسكرى الإسرائيلى من أجل أن يفرجوا عنه ولكن الحاكم طلب من الشيخ أنه يبلغهم أولا عن الفدائيين المصريين الذين مازالوا يطلقون الرصاص على العساكر اليهود ، أخبره الشيخ بأنه لا يعلم أى شئ عنهم ومن أجل هذا رفضوا الإفراج عنه ، تلك إحدى المشاكل المتعددة التى مازلنا نواجهها وتكرر حياتنا ولا نستطيع التغلب عليها لأنها فوق طاقتنا بالإضافة إلى أن أخى عيد محجوز في مصر ولا يستطيع العودة ، لأن الصليب الأحمر مشغول في موضوع تبادل الأسرى من الجنود المصريين الذين وقعوا في قبضة الإسرائيليين.

- ادع الله بأن يعود والدك وشقيقك

- يسمع الله منك واحتمال أن الله أرسلك إلينا لتعوضنا الحرمان من رجل يقوم على حمايتنا ويدافع عنا

- هل علمتم أخباراً عن عيد؟

- نحن مطمئنين على شقيقى عيد لأنه يدرس بالمعهد العالى التجارى بالشرقية ، كما إننا مواظبون على سماع إذاعة صوت العرب التى تقوم بإذاعة برنامج (ألف سلام) الذى يستقبل رسائل المستمعين وفيه يقوم الناس بإرسال تحية

وسلام لبعضهم البعض خصوصا العائلات التي فرقت الحرب بينهم ومنذ عدة أيام وفي موعد إذاعة البرنامج سمعنا من خلاله صوت أخي عيد وهو يرسل لنا بالسلام والتحية وفي آخر الرسالة أرسل لنا بأغنية زى المعتاد ؛ هل تعلم اسم الأغنية التي جعلتنا جميعا نبكي؟

- ما اسم الأغنية؟

- أغنية جميلة بصوت مطربة صوتها جميل ومعبر واسمها أحلام بتقول:

يا عطارين لوني الصبر فين أراضيه

والله لو طلبتوا عيوني خدوها بس الأجيه

- إن الله لا ينسى أحداً من عباده .. كفاية بكاء واضحكى ، مش باحب النكد

اندفعت "عائشة" في ضحكاتها البريئة على غير عاداتها وتأكد لى أن سبب قتامة سلوك من بالمنزل يعود إلى ما أخبرتني به منذ قليل .. اقتربت منى حينما بدأنا نعمل ثانية وبصوت خفيض سألتني سؤالا كان مفاجئا لى:

- أنت بتعز "رجية" زى ما بتعزك؟ ارتبكت قليلا ثم أجبتها

- طبعا بأعزها وبأعزكم كلكم وكمان ماما زهرة .. ابتسمت وشاهدت الحيرة فى عيونها الجميلة وأعدت سؤالها مرة ثانية فأجبتها:

- يعنى أنتِ عايزه أقولك إيه .. إيوه بأعزها

- من جيبك؟

- إيه الحكاية .. إيوه من قلبى .. أنت ملاحظه حاجه؟

- كلتنا !!

انهمكنا في قطع رءوس نبات "الكرنب" حيث سيحضر أحد التجار صباح الغد لدفع ثمنه وحمله للمرور على القبائل النبوية وبيعه .. اندفعنا فى العمل

لنعوض الوقت المهدر من الحديث الذى دار بيننا ونحصل على الدفء من البرودة التى كادت أن تجمد أجسادنا خاصة منطقة الوجه .. حمدنا الله إننا انتهينا من جمع المحصول والذى كانت كميته كبيرة وجيدة وقد أسعد هذا "عائشة" حيث سيدر عليهم هذا مبلغا كبيرا من المال .. جلسنا نلتقط أنفاسنا قبل أن نعود إلى الدار والتي تبعد حوالى مائتى متر .. اقتربت منى عائشة كى أحميها من لسعات البرد القارس ، جلسنا نتحدث في موضوعات شتى وأخبرتني أن أمها أعدت اليوم طعاما شهيا حيث ذبحت عنزة وستقوم بعمل الفتة والأرز حتى تدخل الدفء إلى أجسادنا مما دفع "رقية" لسؤالها:

- أنتِ عاملة عزومه لحد النهارده؟ نفت أمى هذا قائلة إنها كانت تتمنى أن يقبل أبى ويتناول طعامه معنا!!

- ياه يا عيشه .. دا باين على أمك أنها بتحب أبوك قوى؟

- حب بيفرجع زى بارود الحرب .. حاجه جباره .. والله لما تشوف بوى كيف يحب أمى تستغرب أن الراجل "أبو السعادات" بيحب أمى بجوه وبعنون .. تعرف بأجول لو الواحدة منا تتطلع لراجل طو زى بوى ويحبها كيف بوى يحب أمى كانت "طاجة ليلة الجبر إتفتحت لها" .. إطلع هناك يا عيد .. شايفه فيه جمل مجرب نواحيتنا .. باعتجد أنه الراجل اللى ح يشتري زرعا .. لكن ليه جاى بدى؟

- يا للا تقوم نقابله

- يا للا يا عيد .. لكن الراجل باين عليه تعب من المشوار ونام فوج الجمل .. البرد شديد عليه والحالة ساجعه كيف التلاجه

أوقفت عائشة الجمل وناديت أنا على الرجل فلم يستجب لندائى .. قامت

عائشة بعملية "تنخيخ" الجمل أى تجعله يهبط أرضا حتى يساعد الرجل على الهبوط .. قمت برفع الرجل من فوق الجمل وحين شاهدته عائشة صرخت ولطمت على وجهها قائلة:
- بُوى .. بُوى كيف حالك؟

لقد كان القادم "أبو السعادات" والد عائشة ورب الأسرة .. حملته على ذراعى بينما أبقّت عائشة الجمل أسفل العشه تجنباً للبرودة وأحضرت له بعضاً من بقايا زراعات الكرنب وألقته أمامه .. سبقتنى عائشة وفتحت باب الدار وصاحت .. بُوى رجع .. بُوى رجع .. شاهدت أفراد الأسرة يقبلون من كل جهة وأنا ما زلت رافعا الرجل الذى كان يتألم وينادى أبناءه .. رُجيه .. عيشه .. زينب .. نفيسه .. آمال فين أمكم الطوه زهرة حياتى .. تبدل الحال من البكاء إلى الضحك والتعليق على الأب الولهان رغم ما به .. أقبّلت زوجته تقبله وشعرت بأن ذراعى سوف تكسر لطول الوقفة وثقل الحمل .. توجهت برفتنهن إلى حجرة الأم والتي شاهدتها لأول مرة ووضعت الرجل على الفرشة أو السرير البدائى .. أمسك بيدي شاكرا .. تركتهم جميعا وصعدت إلى حجرتى أسترجع الساعات السابقة لعودة الأب لأسرته.

لم تمض ساعة زمن إلا وحضرت إلى "عائشة" تطلب منى النزول لأتناول الطعام مع العائلة ، أخبرتها بأننى سوف ألحق بها ، كنت فى أشد الحاجة إلى الطعام حيث كانت البرودة شديدة وظللت أعمل مع عائشة لمدة طويلة حتى أصبحت أطرافى شبيهة متجمدة كأنها ألواح من الصاج فلم تكن هناك حرارة بداخل جسمى تساعدنى على التمسك بالحياة كل هذا حدث أثناء عملى مع عائشة والذى تجاوز الثمانى ساعات والبرودة تلفحنا مما أفقدنا الكثير من الجهد والطاقة

بالإضافة إلى ملابسى الرثة المهلهلة والخفيفة والتي كانت تظهر بعضاً من جسدى الذى كان عارياً جزئياً فى بعض الحالات.

هبطت إلى صحن الدار وشاهدت الأسرة مجتمعة حول صينية كبيرة رصت فوقها الأطباق التي تحوى أصناف الطعام والأبخرة تتصاعد منها ، أصبحت رائحة الدار تحمل عبق الطعام الشهى ، كانت الأنظار تتجه إلى الأب "أبو السعادات" والأسرة لا تصدق ما حدث وما زالت عيونهم مسلطة على الرجل الذى لم يستطع أن يرفع نظره عن الخمس نساء المجتمعات من حوله لتناول الطعام ، كانت البسمة والسعادة تلف الجميع ، توقف فجأة عن التهام الطعام ونظر إلى مليا وخاطبني قائلاً:

- ألف شكر لك يا ابنى على اللى جمت بيه مع عيلتى ، والله زهرة فى الكام دجيجة اللى عدت خبرتنى بكل شي جمت بيه ، ربنا يجف بريحك زى ما أنت وجفت مع النسوان اللى من غير راجل يشد من عزمهم ، لنا كلام كثير مع بعض بس دى حاجه سريعه بارحب بيك بنا وكابن لنا وأخو البنات الصغار دوول.

كانت الكلمات تخرج من فم الرجل عفوية دون إعداد بل كانت كلماته مبعثها قلبه الأبيض الناصع وهى نابعة من حبه لامراته وبناته الأربع ، لم يشك الرجل لحظة بشك يطير بعقله يجعله يفكر فى أشياء شيطانية ، شاب مضى علي وجوده أكثر من سبعة أشهر بين نساته الخمس ، ماذا حدث بينه وبينهن؟

كنت ألاحظ السعادة والبهجة على وجوه الجميع من حديث الأب لى ولحظتها كنت قد توقفت عن تناول الطعام لأستمع لعبارته الجميلة الطيبة ، لقد اتفق أبو السعادات مع زوجته زهرة بأننى ابن لهم وأخ للفتيات الأربع ، غمرت الفتيات السعادة ؛ لأن أباهم وافق على أن أقيم بينهن حيث تبادر للذهن بأنه قد

يرفض وجودى معهن سواء للخوف على بناته أو لخشيته لغارة من الجيش الإسرائيلي والذي ما فتئ عن تفتيش أماكن كثيرة بحثًا عن ضباط مصريين مختفين خاصة بعد أن أبلغهم الصليب الأحمر بالعدد الذي حددته مصر وبسؤال الجانب الإسرائيلي عن تلك الأعداد المفقودة خرج بنتيجة بأن هناك أعدادا ليست بالقليلة من الضباط مفقودة وغير مسجلة بكشوف الأسرى أو ممن عثر عليهم قتلى فى المعارك أو أثناء الانسحاب والتهيه في الصحراء الشاسعة أو الموت عطشا أو نتيجة الإصابات مما دفع بالإسرائيليين للبحث عن ضباط وجنود مختفين بالجبال أو تحميمهم بعض القبائل البدوية.

انتهت الأسرة من تناول الطعام الدسم المتعدد الأنواع وتلاه تناول الشاي فاكتملت نعمة السعادة بنعم الله التى وهبها لبنى البشر ، رفعت المائدة وجلسنا قليلا بعد انتهاء شرب الشاي ثم غادر الجميع المكان كل منا يلتمس الدفء بالحجرات المختلفة بينما صعدت إلى سطح المنزل كعادتى بعد أن أنعم الله علىّ بالشفاء ، لقد مضى علىّ أكثر من سبعة أشهر منذ عثرت علىّ تلك الأسرة قضيت منها ستة أشهر وأنا أنام فوق ظهر الدار ما بين صيف حار وخريف معتدل وبرد قارس يلازمنا الآن.

جلست متراخيا وظللت يقظا بعض الوقت حتى شعرت بأن الطعام الدسم قد هضمته المعدة ، كنت أفكر في حال تلك الأسرة وما هم عليه وكيف كانت زهرة تدير حركة المنزل بثقة وعيناها برأسها وهى تراقب كل صغيرة وكبيرة وكيف كانت الفتيات يطعن تعليماتها ، كنت أعمل مقارنة بين تلك الأسرة والوحدة العسكرية التي خدمت بها ، لقد كانت إدارة حازمة بعيدة عن الصوت المرتفع ونهر الجنود والتهديد والوعيد.

كنت لاحظ الفتيات وهن يسرن برقة كأنهن فراشات جميلة متعددة الأحجام والألوان وكأنهن طيور مغردة بديعة الصوت مختلفة النغمات ، كنت أشعر بأن الموسيقى ترافقهن فى الحديث ، لم أشاهد أى تصرف غير مقبول أو منطقي سوى أنوثة متحركة وحديث باسم اما عدا ذلك فلم أشاهد أى شئ يؤخذ عليهن ، بل كنت فى أوقات كثيرة أشاهد البعض منهن يلهون بالماء وقد تحلن من كثير من الملابس وأصبح ما يستترن بها يثير الفتنة والرغبة ورغم هذا لم أندفع وراء أية واحدة منهن باستثناء "رقيه" التى تلاعبت بمشاعرى وأثارت هواجسى ومخاوفى لكننى كنت فى كثير من الأحيان راغباً بها فنحن معشر الشباب نهفوا إلى الجنس الآخر خاصة حينما تصبح الخلوة مؤكدة وحين تأتى الإشارة من جانب النساء فلا نستطيع لها رداً أو رفضاً.

تردد صوت عم أبى السعادات فى أنى " أنت يا ابنى واحد مننا ، يشرقتى أنك تكون ابناً لنا وتحمل اسم ابنى عيد حتى عودته وعلمت بأنها سوف تصبح قريبة بإذن الله" .. تراءت أمام عيني فى جوف الظلام المحيط بى حورية تتحرك بدلال على سطح الدار مقبلة على ، سعدت بتلك الرؤى والخيالات فى تلك الليلة الجميلة بعودة الأب الحانى المحب لأسرته من أسر الأعداء له ومصادرة كل ما كان يمتلكه من مال وأقمشه وملحقاتها ، مازال طيف الحورية يقترب منى حتى أصبح أمامى وبالتالي أصبح الحلم حقيقة والحورية ليست سوى "رقيه" .

اعتقدت فى بادئ الأمر أن شيئاً ما حدث وترغب بأن تخبرنى به أو أن والدها راغب بالحديث معى لكن كل تلك الأفكار لا تناسب طريقة الحركة والاقتراب ، جلست مواجهة لى وأنا أنظر إليها نظرات من خلال الظلام الحالك وتسلل الشيطان لأفكارى بخيالات معيبة لا يجب على شخص مثلى أن يفكر بها

خاصة جهة تلك الأسرة الطيبة الرقيقة ، تحدثت معى بحديث طيب أعادت فيه ثناءها علىّ وتخبرنى بأنها سوف تظل طوال حياتها تتذكر كل ما قمت به من أجل عائلتها ، لقد كنت نعم الأخ والصديق والحامى لنا أيها الشاب المهنّب ، سقطت علىّ تلك الكلمات كسياط شديدة على ظهري العارى من أى خلق أو مبادئ ، كنت أعيد النظر فى تلك الفتاة وما هى عليه من خلق وما أنا أفكر فيه من أفكار شيطانية معاكسة لكل المعايير والأعراف الإنسانية الفاضلة.

تنبهت رقية بأنه قد طال بها الجلوس وهى تعلم بأننى مُجهد وراغب فى النوم ، بالفعل كنت مجهدا فى مقاومة النفس والبعد بها عن الرزائل والأفكار السيئة ، نهضت كسولة وسارت من أمامى مغادرة المكان بعد أن نمى إلى مشاعري بأنها أغمدت نصلا شديداً من الخلق والكبرياء التى يتمتع بها أبناء شعب مصر خاصة بالمناطق الصحراوية ومنهم بالطبع أبناء مصر بسيناء وهم أول من استقبل رجال الفتح الإسلامى بقيادة عمرو بن العاص ، لقد نهل أبناء سيناء من الخصال العربية التى نبتت من بينها رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

فردت جسدى المنهك طوال النهار من العمل والحديث مع العائلة وانتهى بهذا اللقاء الذى شعرت بأنه ممتع ورائع ولكن شيئاً غاص فى قلبى وشعرت بأن سكينا تعترض أمعائى فقد ظهر الذئب واخترقى الحمل ، لقد اكتشفت عورة أخلاقى وسوء تربيّتى وقلة الأصل وعدم المحافظة على العهد ، فكرت كيف لى أن أحافظ على أمن الوطن وكدت أن أنتهك شرف أبناء البشر به؟ لكن أين هو أمن الوطن الذى استُبيح العام الماضى من شهر يونيو وكان شرف الوطن كان رفيقا بالشرف الإنسانى فكما استباح الأعداء شرف مصر بأن احتلوا جزءاً عزيزاً من أرضها ها أنا كدت أسير على منوالهم وكدت أن أصبح مثل هؤلاء الأعداء الذين

يغتصبون حقوق أبناء فلسطين منذ عدة أعوام وقبلها الاستعمار الإنجليزي والفرنسي ... ياه .. ضربت يدي بقمة رأسى محاولا أن أستفيق ولكنى عدت إلى حالة من تأنيب الضمير للمرة الثانية.

حاولت الدخول في النوم ولكن لم أستطع ، شعرت بغليان يجرى بجسدى حتى كدت أن أخفف من ملابسى في هذا الطقس شديد البرودة ، هبطت من أعلى السطح وتوجهت إلى شاطئ البحر وسرت بعض خطوات بداخل المياه ، لم أشاهد سوى بعض خطوط فضية من جراء الأمواج الهانئة ، جلست بالمياه وشعرت بأن درجة الحرارة بدأت تزول عني رويدا رويدا.

نهضت تاركا المياه راغبا بالعودة إلى حجرتى بأعلى الدار فقد شعرت بأننى كفرت عن بعض ذنوبى التي اختمرت بعقلى وتذكرت الآية الكريمة التي يأمر فيها الله المرأة المسلمة بأن تضرب بالخمار علي الصدر حتى لا يطمع فيها الذى بقلبه مرض ، هذا هو المرض الذى يقصده دين الإسلام فليس المرض عضويا فقط بل يكاد يصبح مرضا نفسيا يقطن القلب والعقل ولكن كان هناك عقاب آخر ينتظرنى ، فلقد أقبل الذنب الحقيقى لينال منى حيث كدت أن أتحوّل إلي نذب آدمى ، سمعت صوته القريب منى وشاهدت فمه المفتوح عن آخره وشاهدت أنيابه التى تهددنى بكل سوء وتخبرنى بأننى سوف أقوم على تمزيق جسدك الذى كاد أن يتمتع في الحرام منذ قليل ، لم أستطع التصرف وكل ما فعلته أننى عدت للخلف بداخل المياه لأبتعد عنه ، كنت في خوف بأن يقفز الذنب إلى داخل المياه لكننى كنت أعلم أنه جو عان ولا مجال للمناورة فهو راغب بطعام.

ظللت على هذا الحال عدة دقائق فالذنب واقفا على الشاطئ وأنا بداخل الماء والبرودة أصبحت لا تطاق وشعرت بعد قليل بمن يهاجم ساقى فلقد أقبلت

الأسماك الصغيرة على الحرارة المنبعثة من ساقى وبدأت تنشب أسنانها فيه
فصرخت مغادراً الماء كى ألقى بنفسى بأحضان الذئب ، لحسن الحظ أن الذئب
قفز هاربا حينما سمع صرختى وشاهدنى أغانر الماء فى اتجاهه معتقداً بأننى
سوف أهاجمه وفر من أمامى وأنا أتبعه ، شاهدت ذئبين آخرين من زملائه
يحاولان فتح حظيرة الماعز التى كانت تستغيث برفع صوت "المأ مأ" مما دفع
بالأسرة إلى إضاءة الأنوار بالداخل وخرجت الكلاب التى قامت بمطاردة الذئاب
وشاهدتني الأسرة وأنا على هذا الحال مبتل الجسد والملابس والدماء تسيل من
ساقى فهرعوا إليّ وعلموا بشجاعتى غير المتعمدة بأننى حاولت مهاجمة الذئاب
بمفردى مما دفعهم إلى زيادة الاهتمام بى واستبدال الملابس وتعقيم الجروح
وتقديم الشكر لى على ما قمت به والتنبيه علىّ بعدم تكرار هذا بمفردك دون
مساعدة حتى لا تفتك بك الذئاب.

هكذا انقلب الحال وتبدلت من شخص جبان إلى بطل في نظر الأسرة مما
زاد من قرب "رؤية" لى وشعورها بأن هذا هو الشاب التى ترغبه ، أعفنتنى
الخالة زهرة من العمل ذاك اليوم فقد تأثرت بما أصابنى من البرد أكثر مما
أصابنى من مهاجمة الأسماك لى حيث إننى فررت بسرعة قبل أن تصيبنى
بإصابات شديدة مثل ما حدث العام الماضى.

عصر هذا اليوم أقبلت علىّ "رؤية" حاملة لى الطعام وجلست تؤنس
وحدثنى وتتنظر إليّ نظرات طيبة ذات مغزى يحمل في طياته الشكر والامتنان ،
اقتربت منها متسائلا: لو تقدمت لطلب يدك من والدك هل توافقين؟ تبدل الحال
وساد الصمت وبدأت أنوار السعادة تضى وجهها بضوء يقارب ضوء الشمس
الساطع ، نهضت وقرت هاربة من أمامى وهبطت درجات السلم بسرعة كالقهد

، نظرت إلى قبل أن تختفى من أمام نظري وأشارت إلى علامة مع السلامة أو علامة التأييد وكلها علامات تدل على القبول دون حديث.

جاست أفكر فيما عرضته على "رقية" وهل هو شئ منطقي أو نوع من اندفاع الشباب ، تركت الطعام جانبا وأخذت أعيد كل علاقتي بتلك الأسرة منذ أول يوم أنقذت فيه حياتي حتى الآن وليس هذا هو السبب الوحيد ، لكن السبب الرئيسي هو وقوعي في فخ الحب والرغبة وكان هناك أمر آخر حيث لمست مدى حسن تربية الفتيات سواء سلوكا أو بالصلاة والتي كنت أشاهد البعض منهن وهن يقمن بالوضوء من مياه البحر المالحة.

تساءلت: هل هناك قيم ومواصفات يطلبها الشاب في الفتاة التي يرغبها أكثر من هذا؟ حتى التعليم واللائئ'حر من منه كن يقرآن في كل الكتب التي يأتي بها الشقيق عيد في كل زيارة سواء في مواد العلوم أو التاريخ أو الأدب ، كان هذا واضحا لي منذ أول لقاء وهو حب المعرفة والقراءة بل والكتابة أيضا بل شاهدت الفتاة نفيسة وهي تخطط بعود فحم على قحف أشجار النخيل ، لقد كانت خطوطها رائعة أما عائشة فقد كانت تجيد الرسم و"رقية" تجيد الغناء بصوت مقارب لصوت السيدة فيروز ، تبين لي أن جميع أفراد العائلة يتمتعن بالموهبة والثقافة.

المفاجأة الثانية

لم أحصل على نوم مريح تلك الليلة حيث كنت أتقلب من التفكير على كل جانب وفي بعض الأحيان أتحدث مع نفسي : هل ما أخبرت به "رقية" ظهر هذا اليوم هو قرار صائب أما أنه اندفاع أهوج وراء العاطفة المتأججة والتي فضحتني حين إقتربت مني تحدثني؟ كنت أحاول تبرير إخباري لها برغبتى بالتقدم لها وأنا أعتقد أنها سوف تخبر أمها ولا أستطيع الرجوع فى هذا القرار ليس لأنها أقل منى ثقافة أو مستوى اجتماعى ، لكن ظروف عملى هى السبب وهل سأظل أعيش بجوارهم أزرع وأحصد وأرعى الغنم والماعز والجمال وأساعد فى صناعة الجبن؟ أعتقد أنه لا بد لى من العودة إلى مصر وأنضم لجيشها حتى تزول تلك الغمة وأنا أعتقد بأنه عن قريب سوف يحدث هذا فى الأشهر القليلة الماضية علمت من الراديو القديم التي تمتلكه الأسرة بأن قواتنا فى كل الأفرع تقوم بتوجيه ضربات نافذة إلى قوات العدو.

نهضت صبيحة ذلك اليوم وقد غمرنى النشاط من الراحة التي حصلت عليها أمس بالإضافة إلى شعورى بأنني مقبل على ارتباط مهم يخطط مستقبل حياتي حتى نهاية العمر إذا وافقت الأسرة على أن أرتبط بهم ، كنت أشعر براحة بال من حالة تأنيب الضمير التي لازمتني بعد ما حدث بفكرى وعقلي تجاه رقية.

شاهدت الرجل الذي أتى بالمساء لشراء نبات الكرنب وقد غادر فرشته التي يحملها معه في أسفاره وجلس بجوار جملة يتناول طعامه الذي أعدته ربة الدار ، أقيت عليه تحية الصباح فأشار لى بتحية فاترة ثم أشار بأن أقوم على تحميل الخضار على جملة ، لم أنتظر حتى يُنهي حديثه حيث كان باديا عليه عدم الألفة

وقسمات وجه تدل علي أنه حاد التصرفات.

أقبلت علي أداء عملي بكل همة ونشاط وقد مضى علي وجودي حوالى الساعة اعتقدت خلالها الأسرة بأننى مازلت سابحا فى النوم لأحصل علي راحة ولكن حين صعدت إحدى الفتيات حاملة لى طعام الإفطار لم تجدنى وشاهدتنى من أعلى الدار وأنا أقوم بعملى فأسرعت تخير الأسرة مما دفع بكل من " رقية وعائشة " للحاق بى ولكنني كنت انتهيت من عملى مما دفع الأعرابى للنهوض من جلسته حيث كان يدخن سيجارة وأقبل عليّ شاكرا نشاطى وهمتى وسألنى ما اسمك فأسرعت عائشة لتخبره ، هذا عيد شقيقى والذى يتعلم بمصر ، أعاد الرجل شكره وثنائه وأقبلت الخالة زهرة فتحدثت الرجل معها قليلا ثمناولها ثمن المحصول ونهض الجمل وسار الرجل خلفه حتى ابتعد عن أنظارنا ، هنا طلبت منا زهرة أن نتجه لداخل الدار لنحصل علي طعامنا فليس أمامنا عمل بالخارج ولنعتكف ونتسامر ونجلس حول شاليه النار التى سبق وأن أعدتها لنا.

قفزت الفتاتان وأسرعنا بالدخول إلى المنزل ، هنا نظرت إلى زهرة نظرة لم ألاحظها عليها من قبل ولكنها نظرة تدل علي أن هناك شيئا ما ، كانت نظرة رضا وسعادة لما صاحبها من بسمه على الشفاه جعلت شفيتها الرقيقتين تبتعدان قليلا عن بعضهما فظهرت أسنانها البيضاء.

شاهدت أبا السعادات يجلس على الفرشة التى سيوضع عليها الطعام وقد جلست ابنته الصغيرة زينب على ساقيه يلاعب بأصابع يده خصلات شعرها الرقيق الناعم ، حين شاهدنى ألقى علىّ التحية وأشار بيده أرضا بأن أقبل وأجلس بجواره ، تبعت نصيحته وجلست مجاورا له نتحدث عن بعض الأخبار ، أثناء هذا كانت الفتيات الثلاث قد انتهين من إحضار الطعام حيث كانت الخالة

زهرة خارج الدار عائدة بشاليه النار التي سوف تدخل الدفء إلى أجسادنا التي نحلثها برودة الأيام السابقة.

بدأت الأيدي تمتد إلى الأطباق لتحصل على الطعام وتدفعه في الأفواه الضاحكة بالباسمة الشاكرة نعمة الله ، قبل البدء بتناول الطعام ذكرت الخالة زهرة بعض كلمات تعبر عن الشكر والامتنان لله علي نعمته عليها وعلي أطفالها وعلي عودة الزوج راجية أن تكتمل بعودة ابنها عيد من القاهرة ، لم ينقطع الحديث والضحك خاصة من الفتيات والتي تفتحت معه الشهية للضحكات الطيبة من الأفواه الجميلة ، كنت في سعادة غامرة بأن نجتمع حول مائدة الطعام البسيطة البدائية فليس بمائدة أو حتى طبليية بل صينية كبيرة صفت علي حوافها الأطباق من مختلف الأطعمة.

انتهينا من تناول الطعام وقامت الفتيات برفع الأطباق وبقايا الطعام من على الأرض لتفسح مجالا للجلوس المريح لأفراد الأسرة ، أمام باب الدار من الخارج قامت نفيسة بصب الماء على يد والدها للتخلص من بقايا الطعام ثم تبعته ولحقت بنا زينب وتبادلنا صب الماء على بعضنا البعض حتي وصلت "رؤية" فكان دورى قد أتى لأقوم بصب الماء على يديها لتغتسل ، كانت الفتاة غلية في الخجل محاولة أخذ إبريق الماء من يدي وأن تصب الماء على نفسها ولكنني صممت على أن أقوم بما قام به أخوتها ، كان المكان خاليا من عائلتها التي أسرعت للداخل لتلمس الدفء من الشاليه المتقدة نارا ، بقيت مع "رؤية" تلمس الدفء من حرارة الحب النابض في دماننا.

انتهت الفتاة من غسل يدها وفمها حيث كنت أركز نظرى خلال ذلك عليها لأتفحص مواطن الجمال التي دفعتنى إليها دفعا ، كانت نظرتى صابنة فقد أنعم

الله عليها بجمال طبيعي أخاذ ، كل مواصفات الجمال التي قرأت عنها أو شاهدت بعضها على الممثلات سواء مصريات أو أجنبيات لم تكن " رُقية " أقل منهن بل تزيد عنهن خاصة حين تتضح ويصبح عمرها عشرين عاما أو بعد هذا بعامين أو ثلاثة على أقل تقدير حتى تتضح معالم الأثوثة الكاملة والتي تعطى للفتاة منحة من الجمال الإلهي التي وهبها الله لبنات حواء.

جلسنا جميعا وأقبلت الأم حاملة إناء الشأى بينما تبادلت الفتيات الجلوس بجوار الأب العائد ، كل فتاة تشعر بأن لها نصيبا من هذا الأب رغم أنهم تركوا لشقيقتهم الصغرى الحرية الكاملة في الجلوس بجواره ، كُنت سعيدا فرحا بتلك العائلة المترابطة الحامدة لله رغم ما تجابهه من أحداث.

روى لنا الأب قصة القبض عليه بمعرفة القوات الإسرائيلية ومدى ما لاقاه من عنف وأسئلة متعددة حول نشاطه الخفى خلف نشاطه التجارى ، ظل يتنقل من معتقل إلى آخر حتى تم الإفراج عنه ولم يحصل علي أى شئ من بضاعته التي كان يحملها سوى الجمل بينما صادر المحتل البضاعة والأموال التي كانت في حوزته ، كان الرجل يقص على أسرته الرواية وهو هادئ البال غير منفعل أو متوتر، نظر إلىّ ثم قال : كنت في المحور الأوسط قريبا من مفارق الحسنة وهناك شاهدت المعارك الرهيبة بين الجيشين المصرى والإسرائيلى واختبأت بجملى خلف الصخور بعيدا عن الوادى الذى كانت تدور به المعارك القاسية لمدة لا تقل عن عشر ساعات ؛ حيث حسم القتال الطيران الإسرائيلى ، فى المساء غادرت مخبئى وشاهدت الشهداء والجرحى المصريين وتمكنت من إسعاف بعضهم ورويت عطش الآخرين حتى صباح اليوم التالى ، وقد غادر الجرحى المكان متجهين جهة الغرب لتنفيذ أمر الانسحاب الصادر لهم من القيادة

بالقاهرة.

استمر أبو السعادات يقص ويحكى ما شاهده كما تبين لى من حديثه بأن الرجل يعلم مهنتى ووظيفتى وسبب حضورى لدارهم وأعتقد أن كل تلك المعلومات بثتها له زوجته زهرة مساء يوم عودته من الأسر لدى الأعداء ، مازلنا نجلس حول الشاليه الرائعة بنيرانها المشتعلة والتي أضاءت المكان ونشرت الدفء في ربوع الدار كما أضحت المشروبات الساخنة المتتالية أحد عناصر البهجة والفرحة للجميع.

تمسلت الأم من مكان جلوسنا وتبعثها الفتيات واحدة تلو الأخرى وظللت جالسا مع أبى السعادات نتحدث فى أحاديث ودية جميلة ثم تطرق الرجل فى حديثه معى عن شخصى وتساءل من أى بلد من مصر ثم عملى وعائلى ، كانت الأسئلة تدل على أن ما أفصحت به لـ "رقية" قد انتشر بين أفراد العائلة ، كان هذا واضحا من الأسئلة التى يوجهها لى الأب فهى تدل على ذلك ولهذا طلبت منه أن نتحدث حديثا محددًا فى أمر مهم ، هنا اعتدل فى جلسته وطلب من صغيرته زينب أن تلحق بشقيقاتها.

عم الصمت والسكون المكان ولم يكن هناك صوت سوى صوت طقطقة الأخشاب المحترقة بالشاليه والسنة اللهب التى كانت مثل أمواج من الاضواء اللامعة ، تحدثت قائلا:

- عمى أبو السعادات ، النهارده أنا مسرور وسعيد إنى قاعد مع العيلة وبنتكلم وبنضحك وبناكل من طبق واحد وبنشرب من كباية ميه واحده ، يعنى كده عيله واحده وعشان كده أنا بأتقدم وباطلب إيد بنتك "رقية"

صمت الرجل لبعض الوقت كأنه يستوعب كلماتى ويعد الرد المناسب عليها

حيث قال:

- هادي الحكاية تسر أي أب أن فيه زلمه مليح يتجدم لبنته وتكون العيله مبسوطه منه وانا عرفت حكايتك من الأول وأنتك أحد ضباط الجيش المصرى واللى حاربت وكان باين علي هدمك وحالتك الصحية اللي كنت عليها لكن عايز أفهم منك كيف حتجوز وحتفضل هنا وإلا ح تعود لمصر ولو رجعت حيكون وضع البنات ايه ، عرفنى بالله عليك بكل ما بيدور في خاطرك؟

- لو حصل نصيب ووافققت على طلبي ح تكون قراءة فاتحة ومش ح أقدر أقدم خاتم الخطوبة لظروفي المالية الحالية ، ح أرجع مصر وأنضم للجيش بتاعنا ولما نحارب ونخلص الأرض من المحتل نجوز ونعيش في مصر أو العريش ، والمكان مش هو المهم لكن المهم هو عملي ح يكون فين.

- كلامك زين والله ومترتب علي الظرف اللي احنا واجعين فيه ، لكن مش عارف لو الظروف مجتش مناسبة وفضل الاحتلال فترة طويلة أو حصل في سينا زى ما حصل لفلسطين مش عارف كيف ح تسوى؟

- أنا قلت علي الواقع وأنت حاسس بكده لكن أن الوضع في سينا ح يبقى زى الوضع في فلسطين ده مش ح يحصل أبداً وأنت يظهر عليك مش عارف قدرة بلدك وجيشك؟

- لأ إزاي لكنى كأب بخاف من الحكاية دية وعلى كل حال أنا ح أسأل البنات وأمها واراد عليك

- ده كويس وأنا يدوب أروح أريح جسمي شوية .. السلام عليكم بعدها نهضت متوجها إلى حجرتي بسطح الدار.

اليوم التالي سارت الأمور على ما يرام حيث أرسل لى أبو السعادات ابنته

عائشة ليخبرنى بالخبر السعيد ، غادرت حجرتى وتسلمت السلم وجلست مع الأسرة وتمت قراءة الفاتحة ولم يحدث أى شئ غير طبيعى فالملابس كما هى والطعام والشراب كما هو ولكن ما جد هى تلك السعادة التي ازدادت توهجا خاصة بعد عودة الأب واليوم أضيف إليها المزيد من الوورد.

أصبح من الممكن الجلوس بصحبة "رقية" بجوار المنزل في أوقات الفراغ وإذا كانت الشمس دافئة فنخرج للتمتع بالطقس الجميل ونسمع من قريب أصوات أمواج البحر التي لا تهدأ.

بعد مضى عدة أيام علي هذا الحدث جلست ملتصقا بـ "رقية" وأخبرتها بعزمى على مغادرة المكان عائداً إلي القاهرة ، صممت لفترة وظهر الوجوم على وجهها الأبيض البرىء متسائلة كيف هذا ولماذا وما سوف يصبح عليه حالها ، أخبرتها بأن هذا من ضمن خطتنا فأنا ضابط وليس راعى غنم وسوف أتوجه لعملى ، هناك أحصل على راتب مرتفع وأحصل على ترقية فى الرتب العسكرية وبعد التحرير أعود وتزوج ، تساءلت وما المانع من أن ترافقتى لمصر؟ أجبته بأن هذا صعب للغاية فالأرض محتلة والأعداء فى كل مكان وسوف تصبح رحلة التوجه للقاهرة فى غاية الخطورة ولا أضمن سلامتك وأنا رجل وهذا هو عملى ولو نلت الشهادة فهذا قضاء الله وقدره.

لم يستطع تفكيرها أن يصمد أمام حديثى وظهرت عليها علامات الفزع وتبدل ضيقها إلى دموع ساخنة غزيرة ثم أسرع تعدو إلى داخل الدار ، تبعته بعد قليل وحين دخلت الدار شاهدتها تجلس بجوار أبى السعادات الذى بدا عليه أنه قد استطاع أن يهدئ من روعها ، رحب بى الرجل قائلا : "رجية" خبرتتى بالحجيبة وهذا تصرف سليم علشان تعيشوا على الصراحة مع بعض ، ثم أكمل

حديثه قائلا:

- ثوفى أمك عملت إيه وضحت بكل حاجه علشان تجبى جنبى ، عايزك كده جوبه وتفهمي مصلحتك ومصلحة جوزك " وقد أسعدها وأسعدنى هذا اللقب الجميل الذى كنا ننتظر تحقيقه".

قررت مغادرة المكان بعد أسبوع وخلال جلوسى وحديثى علمت الكثير من الدروب والوديان وآبار الماء من أبى السعادات كما نصحنى بالإبتعاد عن مدينة العريش لأنها 'متخمة بالقوات المعادية وبعد أن أبتعد عنها يمكننى العودة ثانية والسير بمحازاة الشاطئ حيث أنه أيسر وبعيد عن عيون الأعداء كما تتوفر قريبا منه بعض منابع المياه.

صباح اليوم التالي وأنا أستعد للتوجه للعمل بعد أن تقرر أن نعد الأرض لزراعة نبات الشعير خاصة أن هذا موسم الأمطار وتحتاج الجمال والماعز والطيور لهذا النبات ، سمعت صوت موتور سيارة وبعض أصوات رجال نظرت باحتراس من أعلى فشاهدت سيارة جيب عسكرية إسرائيلية بها بعض الجنود بأسلحتهم ، شعرت بأنهم قد أتوا لتفتيش المكان وأنه من المحتمل أن الأعرابى الذى حضر منذ عشرة أيام وحمل محصول نبات الكرنب قد أبلغ عنى أو أنهم ألقوا عليه القبض فاعترف بما شاهدت تحت ضغط التعذيب الذى يطال من تقع عليه عيونهم ، سمعت قائدهم يخاطب أبا السعادات بلغة عربية واضحة متسائلا: هل تاوى غريبا لديكم؟ .. تلعثم الرجل في بادئ الأمر مما دفع الجنود إلى اقتحام الدار للتفتيش حيث كنت أسرع منهم وقفزت من أعلى الدار أرضا كالهر النشيط واختبأت بعيدا بين أغصان جافة وكنت مازلت أراقب المكان المحيط بالدار.

شاهدت الجنود يغادرون المكان وقائدهم يعيد تحذيره لأبى السعادات بأن إيواء أحد من جنود الجيش المصرى سوف يعرضه ويعرض أسرته لمحاكمة عسكرية ، غادروا المكان ؛ بعدها بقليل شاهدت الفتيات يسرعن في البحث عنى بمعاونة الكلاب حتى عثروا علىّ وكانت سعادتهم كبيرة خاصة حينما صعد أحد جنود الجيش الإسرائيلى لأعلى للتفتيش فتوقعت الأسرة بأنه سوف يلقى القبض علىّ وأتسبب لهم في مشاكل كبيرة.

أخبرت الأسرة بأننى سوف أرحل مساء اليوم مبكرا موعد رحيلى عما سبق واتفقت عليه لأن هؤلاء الجنود سوف يأتون بعد يومين أو ثلاثة لشكهم بوجود غريب هنا .. حاولت "رؤية" إثنائى عن هذا ولكن والدها وأمها أيدا هذا الاقتراح ؛ أصبح الوقت يفر من بين أيدينا مثل ما تفر المياه من بين أصابعنا ، طلبت العائلة من "رؤية" التفرغ للحديث معى ولم تكلفها بأى عمل وأصبحت أنا الآخر مشغولا سواء بوداع الحبيبة أو بالتفكير فيما أنا مُقبل عليه لكن ما باليد حيلة.

قبل موعد رحيلى بساعات قليلة جلست بصحبة "رؤية" على رمال البحر وقد ألفت برأسها على كتفى وأنا أستم رائحتها وألتمس نعومة بشرتها بيدي والأعب خصلات شعرها التى هربت من أسفل الشال الصوف التى تضعه على رأسها ، أثناء هذا وأمام مياه البحر مباشرة وخلفنا ضياء القمر الساطع بنوره يطل على المكان شاهدت خيالا لإنسان في مساحة المياه التى أمامى مباشرة ، كان شخصا يقف خلفنا مباشرة ولم تشعر به بسبب هروبنا من عالمنا القاسى إلى عالم خيالى جميل بعيدا عن قسوة بني البشر ، تخلصت من ذراع "رؤية" بهدوء ونظرت خلفى بسرعة متسائلا:

- أنت مين وعائز إيه وقد تنبهت "رقية" على هذا الصباح وتلك الأسئلة ولكن الغريب تساءل قائلاً:

- أنت اللي مين وبتعمل هنا إيه وجاعد مع أختي كده ليه؟

قفزت "رقية" تحتضن شقيقها "عيد" الذي كان قادماً من مصر بعد تبادل الأسرى بين مصر وإسرائيل ، تعارفت على الشاب وتحدثنا ثلاثتنا وعلم من رقية بأننى خطيبها وسوف أعادر المكان منتصف هذا الليل ، تحركنا ثلاثتنا إلى الدار ومجرد أن شاهدتنا زهرة حتى ألقى بنفسها على صدر ابنها الذى قبلها ودموعه ترافق قبلاته وانحنى مقبلاً يدها ثم شاهد والده فأسرع يقبل يده وأقبلت الفتيات وحصلن على حقهن من حب الأخ الوحيد ، هكذا كانت المفاجأة الثانية خلال أسبوعين بعد عودة الأب ثم عودة الابن ، جلسنا جلسة طيبة وخلال ذلك كانت "رقية" مشغولة بإعداد ما سوف أحمله معى من طعام وخبز وعبوة ماء من البلاستيك ، كما قص علينا "عيد" كيف حضر إلى هنا بواسطة سيارة لأحد البدو تركته على مسافة اثنين كيلومتر ثم أكمل باقى المسافة سيراً على الأقدام ، تناولت طعامى رغم عدم حاجتى إليه كما طلبت منى الأسرة بأن أخبرهم بكل جديد قدر الإمكان.

هكذا سوف أترك هذا المكان القريب إلى قلبى والذى سيطر على عقلى لفترة طويلة بعثورى على إناس طيبين وقفوا إلى جانبى بالعلاج والمودة والرعاية واكتملت بقصة حب جميلة طيبة ، رافقتى رقية مسافة السير وابتعدنا عن الدار وتثبيتت بذراعى ونظرت إلى نظرات حزينة مؤثرة ولكنها دافعة إلى الحب ؛ قبلت رأسها عدة قبلات وكدت لحظتها أن أترجع عن قرارى بالعودة إلى القاهرة فلقد قلب حبها كيانى واستبد بى العشق وكاد حبنى لها أن يلقى بعملى ووظيفتى

بعيدا وأصبح فردا عاديا من أفراد الشعب أشاهد الحدث ولا أشارك فيه.
تنبهت لمرور الوقت بسرعة ورقية مازالت متمسكة بى لا تشعر بالزمن أو
بالطقس شديد البرودة ، كنت مثل إنسان يشعر أنه مُقبل على شئ سيئ أو على
عملية جراحية أو امتحان صعب ؛ لهذا فهو يشعر أن الانتظار صعب وأشد ألما
من الحدث نفسه الذى ينتظر وقوعه ، كنت راغبا في ترك رقبة وهمسات
أنفاسها ورائحة تلك الزهرة الصغيرة الحبيبة والابتعاد بسرعة ولقاء العواصف
والأنواء ، بكل صعوبة تخلصت من ذراعيها وابتعدت عنها ولكننى لم أتخلص
بعد من مشاهدة دموعها وسماع نحيبها ، أسرعت الخطى بل هرولت وجريت
حتى إبتعدت ولم أستطع مشاهدتها أو مشاهدة ظلها ورغم هذا مازال نحيبها يطن
بأذنى يدفعنى إلى التفكير بالعودة ثانية ولكننى والحمد لله مازالت قادرا على
مواصلة السير تاركا هذا الحب الذى سوف أعود إليه مرة ثانية بإذن الله.

رحلة العودة بطريق مجهول

بعد أن ابتعدت عن المنطقة التي بها أسرة عم أبى السعادات مازلت أشعر بتأثير "رقية" على مشاعري وأحاسيسي ، كنت أسير وأتحرك وأنا كلى أذان صاغية و عيون يقظة وأصبح الطريق أمامى سرايا بالليل فالمنطقة خاوية ليس بها بشر ولا حياة سوى سماعى لأصوات أمواج البحر القريبة منى ، التمسيت الراحة عند أقرب منطقة تكثر بها أشجار النخيل واعتقدت أنها منطقة تحوى بعض مخلفات الحرب من معدات صدئة من سيارات ومهمات للجيش المصرى ، تخيرت مكانا مستترا بعيدا عن عواصف الليل الجامحة ولا شئ يسرى عن نفسى سوى سماعى لأصوات الأمواج ومشاهدة السماء والنجوم لامعة الضياء بوسطها ، هذا دليل بأن البرد شديد واحتمال سقوط "البرد" وهى حالة مناخية تجعل من يسير فوقه يصاب بالتهاب بالجلد مثل الحروق رغم أنها ستارة من الثلج تسقط بفعل الندى البارد فتصبح علي هيئة ستارة من الثلج نظرا لانخفاض درجة حرارة سطح الأرض.

أويت بداخل المهمات البالية وبعد قليل شعرت بالدفء يتسلل إلي جسدى الذى انخفضت درجة حرارته إلى شئ لا أستطيع وصفه فكنت أشعر بأن أطرافى كقطع من الحديد البارد بل تصلبت مفاصلى ، أويت إلى الثغرات بين تلال المهمات والقمامة وبعد أن شعرت بالدفء تسلل النوم إلى جفونى وغبت عن الوعى ولم أنتبه إلا على أصوات تتحدث العربية بلهجة أبناء سيناء ، استرقت النظر من بين ثغرات القمامة فشاهدت خمسة أشخاص يتناولون الطعام وقد أعد أحدهم "ركية مشتعلة" يقومون بتسخين الطعام عليها ، كان حديثهم

واضحا وهم يتبادلون المعلومات عن المكاسب والمغانم التي حصلوا عليها خلال الشهور الماضية من تجارة مخلفات الحرب وما حصلوا عليه نظير ذلك من تجار حديد الخرذة لإحدى الشركات الإسرائيلية.

قاطع أحدهم الحديث الوردى الذي ينصب على الربح متسائلا:

- هادى الأفعال اللي بنجوم بيها بنساعد العدو ، ليه مش بنفكر إننا نبعد عنهم ولو كنا أكثر حبا لبلدنا مصر ما فعلنا كل اللي فات و عملناه ، والله ده حرام وضد الدين

حدثت مشاحنات لفظية وكلامية بين الشباب ما بين مؤيد وما بين معارض وكانت أصوات المعارضين لما فعلوه قليلة وارتفع صوت أحدهم متسائلا:

- إحنا من مصر ، جولى إيه العلامة؟ شوف يا أخى كيف بيتصرف معانا رجال البوليس لما نحاول نروح مصر ، والله بأشعر أننا من بلد تانى ومش مصريين ، حد يجول كده أن تفتيش في الجنطرة شرح وهات يا سؤلات والكل معتجد أننا مهربيين مخدرات ، بالله عليك يا شيخ دور حديث تانى وسبيك من كلام الراديو اللي خوتنا بالوطنية والعروبة ، الوطنية أنه يكون في جيبك مصارى تفيدك.

- لا يا شيخ ما تجول هذا ، دى خيانه وبكره الحكومة المصرية تعرف باللى بنعمله وحتودينا في ستين ألف داهية ، أنت مش علمت إيه حصل مع العصابات اللي نهبت الخطر إالى كان فيه مرتبات الجيش أيام الحرب السنة الماضية ، شوف عملوا إيه وجامت المخابرات الحربية وجات لهم وسط الجبايل اللي عايشين فيها وطختهم كلهتهم بالنار ومحدث عرف يجف جدامهم لا يهود ولا الشيوخ بنوع الجبايل ، بلاش اللعب بالنار

- روح لحالك وبلاش تعمل علينا بطل ، مش عاجبك أهو أنت لميت فلوس كثير

وكفاه عليك كده.

- طيب إحنا مش متفجيين وكل حى يروح لحاله .. السلام عليكم.

وهكذا غادر الشباب المكان وقد تفرقوا فانقسموا قسمين ، ثلاثة مع الإسرائيليين واثان ظلا جالسين بمفردهما ينعيان ما قاما به ضد بلدهم لصالح العدو.

فكرت قليلا .. هل أظهر لهم أو أظل قابعا فى مكاني هذا؟ لم أجد الشجاعة لمواجهتهم فهم مسلحون وقد يطلقون على النار دون تفاهم وكان لحديثهم بقية حيث تحدث أحدهم:

- إيه رأيك يا حسين نعمل غارة على دوريات المرور بتاعة اليهود

- إحنا ملناش خبرة بالحاجات دي يا عمر ودية عايزه واحد فاهم الحاجات دي

- حنجبيه منين؟

- علمى علمك .. سيبها لله

- ونعمة بالله .. جوم ياراجل نصلى الصبح جبل ما الشمس تظهر وتضيع منا

الصلاة

نهض الرجلان وقام أحدهم يدعو إلى الصلاة " الله أكبر الله أكبر .. حى على

الصلاة حى على الصلاة .. قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة .. الله أكبر .. الله

أكبر .. لا إله إلا الله".

لم أشعر سوى أنني نهضتُ مسرعا وقتحت عبوة البلاستيك التى كنت أحملها

وتوضأت بقليل من الماء حتى لا أفقده بالإضافة إلى برودته التى كانت أقرب

إلى قطع ثلج سائلة .. انضمت إليهما وهما يؤديان الصلاة .. شعرت بأن الشاب

الذى أقف بجواره اضطرب ولكنه لم يترك الصلاة .. أتمنا الصلاة والتفت

الشباب الذى قام بدور الإمام للخلف لزميله فشهدنى فصدرت منه كلمة الله أكبر .. رددتها خلفه ومددت يدى مصافحا الاثنين .. حرما .. تلعثم كل واحد وهو يرد على حديثي معهم.

جلس الاثنان في مواجهتى ينظران إلى نظرات خائفة مضطربة .. رغبت بأن أدخل الاطمئنان إلى قلوبهما .. تحدثت إليهما قائلاً:

- أنا سمعت كل كلامكم مع بعض والحقيقة أنتم الاثنتين رباح يكرمكم لشعوركم نحو البلد .. أنا مبسوط أنى أسمع من الشباب السينوي أنه عايز يعمل حاجه ضد الجيش الإسرائيلى.

قاطعنى أحدهم:

- لا .. لا .. سيبك من الحديث الفاضى ده .. ده كلام يا شيخ

- أنتم خايفين منى؟ يعنى مش خايف من العدو وخايف منى .. يظهر أنى غلطت لما حسيت إنكم وطنيين وبتحبوا بلدكم .. تحدث الشاب الآخر:

- الحبيجة اتفاجئنا بيك وعلنا يمكن تكون من العدو!!

- يا راجل هو العدو عايز يستخبي .. ما هو ظاهر لنا كلنا .. على كل حال .. أنا واحد من الجيش المصرى ومعرفتش أرجع وأنضم لباقي الجيش وقضيت المدة دية عند ناس طيبين عاملونى أحسن معاملة وإللى الإسلام أمرنا بيها .. ولما عرفت بنوايكم الحسنة قلت أنضم لكم

- يعنى تعرف تجهز بارود ومفرجات ضد الملاعين دوول؟

- إيوه بس لو توفرت الحاجات المطلوبة .. يعنى مفجرات .. فتيل اشعال .. صواب جلعنايت

- يعنى إيه الصواب اللى بتجول عليها؟

- صواب دينايميت .. تسمع عن الديناميت

- أيوه أمال وشفتها وشفنت كل الحاجات إللي بتجول عليها

- فين؟

نهض الإثنان واتجها أسفل بعض المهمات النالفة وأخرجا منها عدة صناديق خشبية قرأت عليها اسم المصانع الحربية المصرية المصنع الحربي رقم

فتح أحدهم صندوقا وشملمنتي الدهشة حيث كان يحتوى على مجموعة من المفجرات التي تعمل بالقتيل المشتعل وليس بالكهرباء وأسعدنى هذا ثم توجه لعلبة كبيرة من الصاج وفتحها حيث كان الصدا قد غلفها من الخارج وبعد مجهود قام بفتحها فشاهدت بكرة كبيرة من حبال البارود سريع الاشتعال ، أسعدنى هذا .. تساءلت : أين الديناميت؟

تبادل الإثنان النظرات وكل يذكر الآخر أين شاهدوا الديناميت ووصلنا إلي نتيجة أنهما لا يتذكران أين شاهدوا الديناميت حيث كان هذا منذ فترة طويلة .. سألت أحدهم:

- إيه خطتكم للعمل ضد اليهود؟

- تبادل الصديقان المعلومات وكيفية الهجوم علي الدوريات الإسرائيلية

سكت ولم أتحدث وشعر الشابان أنني غير مهتم بهذا ولكننى أخبرتهما بأننى أفكر كيف نقوم بعدة عمليات لا نقع فيها أسرى بيد الأعداء .. تحدث أحدهم قائلا:

- إيه رأيك يا دفعه ندمر أسلحة الجيش المصرى اللى اليهود استولوا عليها؟

كانت الفكرة جديدة على شخصى ومهمة في الوقت نفسه ، طاببت منهما إعطائى بعض المعلومات فتبادلا طرح المعلومات أمامى ورغم أن معلوماتهم لم تكن واضحة لكننى شعرت من خلال حديثهما بأن هناك تشوينا لأسلحة الجيش

التي تُركت حين تم تنفيذ أمر الانسحاب تحت تأثير الضربات الجوية للعدو ولم تستطع القوات المصرية العودة بها حيث قال أحدهم :

- كل مساحة ح نلاجى مدافع ودبابات والجنابل بتاعتها مجعته ومش عليها أى حراسه .. ليه؟ لأنه من كام شهر جم الفدانيين المصريين بتوع الصاعقه ودمروا بعض الأسلحة وكان عليها حراسة ويهود كثير ماتوا فيها علشان كده بعدوا الحراسه وكل كام ساعة تيجى طياره هليكوبتر تبص بصره علي المكان وتعود.
- يعني فيه مكان هنا قريب فيه أسلحة؟

- أيوه .. حوالى عشرين كيلو فيه منطجة السبخة ونزلت فيها الدبابات المصرية والمدافع الكبيرة علشان اليهود ميعرفوش يخذوها إلا بالعافية .. وفعلنا اليهود لحد دلوجتى مش عارفين يطلعوها من السبخة
- ده هدف ممتاز وسهل .. إمتى نتحرك؟
- بالليل .. السواد زين عشان ما حد يلاحظنا
- نقرأ الفاتحة .. نجرا الفاتحة ... ولا الضالين آمين

هكذا أرسل الله إلى باثنين من البدو وهما "حسين وعمر" لهما الرغبة في الانتقام من العدو وسوف أعمل معهما .. بخيرتى كرجل عسكرى وهما بخبرتهم في أودية وتضاريس سيناء الواسعة .. اختبأنا بعيداً عن مكان المهمات حتى لا يقبل أحد راغب بالحصول على بعض المهمات ويشاهدنا ، بعد أن حملنا صندوق المتفجرات وبكرة القنيل ونحن سائرون تساءلت: هل يوجد مع أحد منكم "كبريت" نفى الاثنان هذا وتساءل أحدهم عن سبب هذا وهل لأنني مدخن .. أخبرتهما بأنني مدخن ولكن منذ الحرب لم أدخن سيجارة بسبب ندرة وجودها .. توقف أحدهم متسائلاً :

-تنفع الولاة؟

-كدت أن أصرخ به .. أجبته أيوه ماهى زى الكبريت .. ناولني الولاة وقمت باختبارها فلم تعمل حيث إنها تحتاج إلى بنزين وقد فرغ منها حيث أخبرني "حسين" بأنه عثر عليها قريبا من جثث بعض الشهداء وقد مضى عليها وقت طويل ، المطلوب الآن كبريت أو بنزين لملء الولاة .. أجبني أحدهم بأن بمنطقة السبخة لواري كثيرة وسوف نعثر بداخلها على البنزين.

تحركنا سيرا طوال الليل وقيل بزوغ الفجر شاهدت المنطقة التي تحدث عنها الشبان .. كان بها حوالي عشر دبابات والعديد من قطع مدفعية الميدان المصرية بأعيرة مختلفة وبالقرب منها توجد مقبرة جماعية للشهداء المصريين الذين ماتوا قريبا من هذا المكان حيث قام بعض البدو بمواراتهم التراب ، توجهت باحتراس إلى اللواري ومن أول لحظة تبين لى أن ليس بها بنزين لأنها تعمل بالسولار ، لقد أصبح الوضع سيئا وكيف نعثر على بنزين؟

كان بأحد اللواري بعض القنابل اليدوية الدفاعية وهى قنابل شديدة الانفجار وهالكة .. أسرع إلى أحدهم يخبرنى بأن دورية إسرائيلية تستقل سيارة جيب قادمة فى اتجاهنا ، لا أعلم السبب الذى جعلنى أسرع بالاختفاء ومعى الصديقان بين أطلال المدافع وكنت أحمل أعدادا من القنابل اليدوية وسألتهما هل تستطيعان استخدامها؟ كانت الإجابة بالنفى وطلبوا منى أن أدربهما على كيفية الاستخدام وأخبرتتهما بأن هذا ليس بالوقت المناسب.

توقفت سيارة الدورية أمام منطقة تشوين الدبابات والمدافع التي نختبئ بينها ، هبط منها جنديان وضابط هم كل أفرادها بالإضافة إلى رابع يرتدى الملابس المدنية ، ساروا في اتجاهنا ، كان الحديث يدور بينهم باللغة العبرية ومنه علمت

أن الرجل المرافق للدورية يعمل مقاولا لرفع حطام المباني والسفن الغارقة ، شاهد الرجل المكان واقتربوا منه أكثر لمعاينة عدد القطع خاصة أنه أخبر الضابط المرافق بأن الشتاء ساعد على ثبات الأسلحة بمنطقة السيخة وأنه سوف يقوم بعمله حين قدوم فصل الصيف كما أبدى ارتياحه لرفع ونقل الأسلحة إلى ميناء يافا الإسرائيلي.

انتهى المقاول من المعاينة واستعد رجال الدورية لمغادرة المكان ودفعنى "حسين" مشيرا لى بأن أقذفهم بالقنبلة اليدوية ولم أكن أنتظر توجيهها منه ولكننى كنت أخشى أن أقذف القنبلة من هذا المكان القريب وقد تؤثر علينا نحن الثلاثة وقد تصيبنا بعض الشظايا المتطايرة ، أشرت لهما بالانبطاح أرضا فأسرعا بالتنفيذ ، نزعت تيلة الأمان والقيت القنبلة على أفراد الدورية التى انفجرت بعد بضع ثوان خاصة أن الإسرائيليين شاهدوا سقوط القنبلة بجوارهم فأسرعوا بالهرب ولكن القنبلة انفجرت وسمعت بعض صيحات الاستغاثة ولكن الشئ السيئ والذى لم يكن في الحسبان ولم أعمل حسابا له أن تأثير انفجار القنبلة كان طفيفا حيث امتصت الأرض اللينة التى تشبه الأرض الطينية قوة الانفجار فلم يصب سوى شخص واحد وبالتالي واصلت قذفهم بالقنابل اليدوية مما دفع بعض الجنود لإطلاق النار علينا .. هكذا تم اصطياذ تلك المجموعة بالقنابل اليدوية وكان الغرض من هذا ملء الولاة بالبنزين من السيارة الجيب ولهذا لم أقذف القنبلة عليهم إلا بعد أن غادروا السيارة حتى لا تنفجر ولا نحصل منها على البنزين المطلوب.

سقط أحد الشباب شهيدا ، إنه "حسين" فقد أصابته إحدى الرصاصات حينما هم برفع رأسه لمشاهدة المعركة .. حملنا الشهيد إلى خارج المنطقة

وبسرعة طلبت من "عمر" ملء الولاة من تنك بنزين السيارة فأسرع للتنفيذ وهو يخبرنى أنه تدرب على هذا العمل مرات عدة ، حيث كان يعمل صبى ميكانيكى في صغره حيث قام بسحب خرطوم البنزين الواصل للموتور ودفع بمقدمته بداخل الولاة التى ملئت فى أقل من ثانية كنت خلالها قد نزعت طبات "مفجرات دانات المدافع الطرقية" التى تنفجر بأى جسم بمجرد الاصطدام به" وضعت المفجر الصغير بدلا منها الذى يعمل بقتيل الاشتعال وقطعت جزءاً من حبل المفجرات ووضعت بالمفجر .. انتهيت من عمل أربع مجموعات تفجير بحيث تصيب كل المنطقة ، وبكل دانة وضعت بها مفجراً وقمنا بتجميع عدد من الدانات حول الدانة التى بها المفجر حتي يحدث انفجار شديد متأثراً بالموجة الانفجارية بالدانة التى انفجرت.

سحبت البكرة بعيداً عن مخزن الأسلحة المصرية المراد نسفه وقطعنا الطريق الأسفلت من الجانب الآخر وأشعل "عمر" الولاة وناولها لى ، لمست بها أول طرف القنيل الذى اشتعل بسرعة مما دفعنا للجري بأقصى سرعة حاملين معنا باقى المتفجرات وبكرة قنيل المفجرات .. لم أعد أدرى ما حدث ولم أعد أشاهد أى شئ فقد سمعت انفجاراً رهيباً وشعرت بأن جسدى سابحاً في الهواء وأنا ممسك بصندوق المتفجرات والحمد لله بأنه لم ينفجر بعد اصطدامى بالأرض.

أققت على سحابة دخان كثيفة بأسفلها لهيب ولكن الانفجارات تجددت ثانية .. طلبت من "عمر" أن نسرع بالهرب .. أسرعنا للهرب فى الاتجاه المعاكس للانفجارات أى بداخل منطقة السبخة ؛ حيث سيصل اليهود بعد قليل حينما يشاهدون السيارة الحيب ويجوارها الجثث ولكن الانفجارات طالبت السيارة

والجثث التي تقحمت تماما بما فيها جثة الشهيد "حسين" الذي كان برقتنا وصاحبنا للجهاد وضرب الأعداء.

اختبأت بداخل الأحرار مع صديقي البطل والذي أخبرني باسمه ولكنني نسيته في غمرة الأحداث حيث أعاد قوله بأقولك "عمر" لما تنسى افكر سيدنا عمر مع الفارق بين النملة والأسد ، شكرته وأخبرته بأنه أسد مثل الفاروق عمر ، أخبرني "عمر" بأن اليهود سوف يشاهدون آثار أقدامنا على أرضية السبخة ، أصابني التوتر والارتباك لسماعي هذا وما العمل ولكن من حسن الحظ أننا سمعنا وشعرنا بمياه تتحرك أسفل أقدامنا فقد أحدث الانفجار حفرة عميقة جعلت مياه البحر تتدفق إلى تلك المنطقة فزال كل أثر لأقدامنا وما علينا سوى الهدوء والانتظار.

طال الانتظار وقررنا التحرك ولكن طائرة هليكوبتر أقيمت وشاهدت بقايا الانفجارات وبعض آثار حريق مازالت مشتعلة ، بعد عشر دقائق أقيمت قوة عسكرية إسرائيلية وتفقدت المكان وراقبوا بنظارة الميدان المنطقة المحيطة بموقع الانفجار تساعدهم في ذلك الطائرة من أعلى ، كانت المراقبة تتم لمناطق ومسافات بعيدة ونحن قريبا منهم بحوالي خمسمائة متر لأنهم توقعوا أن من قام بهذا العمل أسرع بالفرار ومغادرة المكان منذ فترة طويلة ؛ حيث تأكد لهم بأن هذا الانفجار وقع منذ أكثر من ساعتين لهذا ظلت المراقبة لعلهم يصلون للمتسبب الذي قام ونفذ تلك العملية ، أخيرا توصلوا لسبب الانفجارات وأن السبب الرئيسي والمؤكد هو توغل رجال الدورية وسط المتفجرات مما أدى إلى حدوث انفجار بالمكان.

غادرت القوات المكان قبل الغروب وطوال هذا اليوم كانت ملابسنا مبتلة

من اندفاع مياه البحر إلى داخل أرض السبخة كما ألم بنا الجوع والعطش ومازال الخوف من المجهول قائما ، في الليل غادرنا المكان بعد أن شملتنا الفرحة والبهجة والتي غطت على احتياجاتنا من الطعام والشراب بل لم نعد نشعر بالآلام والأوجاع التي كنا نشعر بها من قبل لما تم بحمد الله مما دفع "بعمر" لعناقي مهنتنا مصمما على مرافقتي إلى كل مكان وهكذا مضى اليوم الثاني بعد فراق عائلة أبي السعادات وقمت بسداد جزء من دين علي وعلي أمرتي لمصر الحبيبة.

كنا نسير ليلا وتغوص أقدامنا في منطقة السبخة المشابهة للأرض الطينية لكنها ملحية ، أخذ الإرهاق منا جهدا كبيرا حتى وصلنا إلى الأرض اليابسة الجافة .. نطق "عمر" قائلا الحمد لله .. سألته ماذا بعد هذا؟ ضحك من حديثي قائلا: عشوة حلوة ونومة هنية .. ضحكت من كلماته التي صاغها ليرفع بها روعي المعنوية رغم أن معنوياتي مرتفعة للغاية لما حدث منتصف هذا النهار ، واصلنا السير وشعرت بأن أقدامي تبيست من البرودة والمياه المالحة .. نظر إلى "عمر" قائلا:

خليك ورايا لحد ما تشوف الوعد اللي وعدته لك .. سرنا بداخل وادي ضيق وفي أحد الأجناب حرك صخرة كبيرة لا أعرف كيف حركها ، كانت تغلق مدخل كهف تبعته وليس لي خيار آخر ، طلب مني المساعدة في غلق الكهف بتحريك الصخرة لنصف الفتحة واستكمال غلق باقي الفتحة ببعض الصخور بداخل الكهف .. الظلام يعم المكان .. أخرج الولاة فاضأت المكان واتجه إلى فانوس من فوانيس الجيش وأضاءه ثم شاهدت بعض البطاطين فنزعت الحذاء البالي القديم من قدمي والذي حصلت عليه من منزل أبي السعادات حيث كان

يرتديه أحد الشهداء العام الماضي .. التففت بالبطاطين وأسرع "عمر" وأحضر بعضاً من معلبات الجيش المصرى وقام بفتحها ووضعها في إناء ألومنيوم يخص الجيش أيضاً وأحضر وقوداً "جافاً" الوقود الجاف يستخدم في الجيش لتسخين الطعام في المواقع وهو عبارة عن قرص أبيض في حجم قرص الطعمية المتوسط ومثابه للقشاط المستخدم في الطاولة وإشعال بسيط بأحد أطرافه فيشتعل ويخرج منه لهب أزرق رائع دون دخان ويمكن أن يستمر القرص الواحد لأكثر من خمس دقائق كافية لتسخين طعام الجندي".

أدخل الضوء والدفع وكل ما قام به "عمر" الراحة إلى نفسى فخلدت فى نومى وتبتهت على صوته وهو يقدم لى الطعام المكون من المكرونة الإسباجنى بالصلصة والفاصوليا البيضاء باللحم ، كنت في دهشة رغم أننى تناولت هذا الطعام حينما كنا نقوم بتدريبات خارج المعسكر لكن فى هذا المكان وتلك الحالة فالوضع كان مفاجئاً لى بكل المقاييس .. تناولنا الطعام وأعقبها تقديم قطعة من الحلوي من المستخدمة بالجيش أيضاً ويطلق عليها اسم "فولية" عبارة عن لوح مثابه لألواح حلوي مولد النبي ولكنها مكونة من العسل وبداخله حبيبات السوداني الجافة والمغلقة بالسلفان ، أخرج زمزية بها ماء أخبرني أنها منذ أسبوعين .. تناولت منها بعض الجرعات وكانت باردة وطعمها مستساغ ، حمدت الله وخلدت في نوم عميق.

اجتياز وادي العريش

حصلنا علي راحة في هذا الكهف الرائع الذي توفرت به كل شئوننا الإدارية باستثناء دورة المياه ولم نعد في احتياج إليها ؛ حيث الصحراء الشاسعة المترامية الأطراف من حولنا ، أصبحت دورة المياه المفتوحة أمامنا ، كان الطعام متوافرا رغم كونه معلبات محفوظة كما توفر عنصر الإضاءة وبعض المياه الصالحة للشرب ، يومان كاملان ونحن ننام ونصحو ونأكل ونتضاحك وتتسلي بالحكايات التي سمعناها من الأكبر منا عمرا والتي تصب كلها في قالب الشجاعة والعزيمة والجهاد الذي كنا نحيا ونعيش فيها.

أبدى عمر استعداداه لمرافقتي لحين العودة إلى مصر ، وأن يظل بها وينضم لقوات مقاومة شعبية أو أي شئ مشابهه من هذا القبيل ، شجعتة على فكرته تلك متسانلا وما حال أسرتك؟ أخبرني أن زوجته وطفليه يعيشون مع والده ووالدته وأشقاؤه الصغار وهو مطمئن عليهم ولا يخشي أي شئ عليهم طالما أن الله معهم ، ابتسم ثم ضحك قائلا: وأنا متأكد أن الله معهم طالما أنا هنا في ميدان الجهاد. أثناء حديثي معه سألته هل شاهد نظارة ميدان من التي تستخدم في الجيوش ، نظر إليّ مستوضحًا ... ح تكون مهمة لشغلنا؟ أجبتة بالإيجاب ، صمت قليلا ثم قال ح اتأخر عليك خمس ساعات وأروح أجيب لك واحده شفتها مع شهيد واحنا بنقوم بدفنه ، طلبت أن أرافقه ولكنه طلب مني الانتظار حتى لا نقع نحن الإثنين في يد الأعداء ثم ضحك مودعا وأخبرني بأنه سوف يخلق فتحة الكهف من الخارج ، حدثني من خارج الكهف وأخبرني بأنه أغلقه من الخارج حتى يمنعي من المغادرة إلا بمعاونته حيث إن الصخرة المتحركة ثبتها في فتحتين بجسم

الجبل الموجود به الكهف.

قفز مبتعدًا متجاهلاً ندائى بالآ يغلقها ولكنه استمر ضاحكا قائلا سوف أحبسك هنا لحين عونتى حتى لا تتدفع وتقاوم الأعداء بمفردك ، هكذا غادر "عمر" الكهف وتركنى جالسا به لأحصل علي الطعام والراحة ، بعد ساعتين أو أكثر سمعت حركة أعقبها حديث بخارج الكهف ، كان الحديث باللغة العبرية ، هذا يعنى بأن جنود الأعداء علموا بموقع الكهف ، جلست هادئ البال فلم يعد أمامى بُد من الاستسلام ولن أقاوم فليس معى سلاح أقاوم به سوى المتفجرات.

سمعت أحدهم يخبر الآخرين بأن الكهف خال وأوضح لهم بأنه "مغلق" من الخارج ، تبادلوا أحاديث كثيرة لم أع معناها رغم أنها تدور باللغة العبرية ، حيث إنني حصلت على دورة في اللغة العبرى من المستوى الثالث وكنت مرشحا للحصول على دورة أرقى من المستوى الثانى بعد ترقيتى إلى رتبة النقيب فى بداية شهر يوليو من العام الماضى ١٩٦٧ ولكن الحرب نسفت كل خططى للمستقبل.

بعد مضى نصف ساعة تقريبا إنقطعت الأصوات وأصبحت المنطقة خارج الكهف هادئة ، شعرت بأنه قد مضى على غياب "عمر" فترة طويلة ؛ حيث تعدى الزمن عشر ساعات وليس خمس ساعات واعتقدت بأنه شاهد جنود الأعداء قريبا من الكهف فأثر السلامة ، وظل ساكنا حتى يبتعدوا عن المكان وسوف يعود إلى الكهف بعد أن يغادروا المكان ، شعرت بالذنب لأننى قمت بتكليفه بالبحث عن نظارة ميدان ويكفيه المشقة التى تحملها لتعاونه معى واستعداده لعمل أى شئ ، ظللت على هذا الحال أتقلب ما بين النوم واليقظة ؛ حيث كنت مختبئا بجانب باب الكهف الذى كان يقارب فى المساحة مساحة حجرة

متوسطة بأى منزل ، شعرت بنوم مفاجئ وأنا جالس حيث عم الظلام المكان ولم أعر على الولاة واعتقد بأن "عمر" نسي أن يتركها قبل مغادرة الكهف.

فجأة سمعت صوت انفجار شديداً وتنبهت على ضوء غمر الكهف وشظايا من الأحجار تتناثر في كل مكان وصوت إنسان يتألم ودماء وأشلاء ، فزعت لهذا ونظرت من حولى وسمعت من يحدثنى "عابد" أنا عمر ، ولاد الخونة عملوا لى شركا" خداعيا" ، أنت رحى فىن يا "عابد" .. والله يا عمر بأدور على الولاة ، سمعت ضحكته الواهنة قائلاً: الولاة موجودة فى إسطوانة علبة القتيل ، تحركت على الفور اتحسس علبة القتيل الصاج حتى عثرت عليها وفتحتها وامسكت بالولاة وأضأت الفانوس وتوجهت لمكان عمر وحين شاهدته صرخت وكاد الفانوس يسقط من يدى ويحترق الكهف.

- مالك يا "عابد" كده تخاف إمال أنا مش خايف ليه

لقد كان "عمر" متهتك الجسد من الانفجار ونصف جسده الأعلى بداخل الكهف والنصف الباقى بالخارج عبارة عن قطع متناثرة أما نصفه الأعلى الذى بالكهف فلم يكن مكتملاً بل ذراعاه اليسرى مبتورة من عند الكوع وذراعه اليمنى مبتورة من عند الكتف ، رقبته تسيل منها الدماء بغزارة مثل باقى وجهه ، أنظر إلى وسط جسده الذى أصبح قطعة من اللحم بها البطن والصدر ولكن من أسفل موضع حزام البنطلون تقطع وتمزق خارج الكهف ، ومن شدة الانفجار دمرت الصخرة التى كان يغلق بها الكهف.

أشاهده يشير إلى رقبته بأن أتسلم منه نظارة الميدان ، خشيت الاقتراب منه ولكنه أصر على هذا متسائلاً: يا أخى دا أنا دفعت فيها حياتى ، أخذتها منه بصعوبة وقد اصطبغت يدى باللون الأحمر مما علق بها من دماء ، كنت أحاول

منع بكائي ودموعي ولكنى لم أستطع فقد كان منظره مؤلماً لأقصى درجة ؛ حيث وضع الإسرائيليون فخاً وشركاً خداعياً بخارج الكهف وحين اقترب أى شخص من باب الكهف تنفجر فيه العبوات وتقتله في الحال ، لقد وضعوا المتفجرات ووضعوا سلك "إعثار" وهو سلك خفيف غير منظور وحين محاولة فتح باب الكهف يصطدم الإنسان بهذا السلك فيعمل على تفجير العبوة وهذا ما حدث.

ما زال "عمر" يتحدث والبسمة على وجهه لم تفارقه رغم ما به من آلام وأنا مازلت صامتة إلا من بكاء مكبوت ، تحدث قائلاً:

- شوف يا عابد .. والله أنا أخرتى كويسه ، أنت عارف أنا شايف إيه؟ مش ح تصدح ، عارف "ربيع وخليل وإبراهيم" اللى كانوا معنا في العصابة ، أنا شايفهم في الجنة!! لم أستطع السكوت وتساءلت:

- جنة إيه وهما شوية حراميه ، يشير إلى بالسكوت.

- إمبراح كانوا ماشيين ، أنا شايفهم وهم ماشيين بعدين سمعوا صوت ست عايشه مع عيالها وبتصرخ لأن ولاد الصهاينة عايزين يغتصبوها ، جريوا ناحية العسكرية اللى بتقاومه الست ، ربيع قتله بالسونكى اللى كان مخبئه فى هدومه ، باجى زمايل العسكرية طخوهم بالنار ، خليل لسه فيه النفس وفايح وأخد سلاح العسكرية اللى اتجتل بالسونكى وطخ نار عليهم وجتل اتنين جبل ما يستشهد التلاته ، ياه .. الله يرحمكم ، أهم ماشيين في الجنة ولا بسين لبس أبيض كمان لحج بيهم "حسين" اللى استشهد فى تدمير أسلحة الجيش عند السبخة ، أنا ح أصلهم الله أنا شايف إيه أجولك ، أشاهده يتحدث ولا أسمع منه شيئاً ، أشير إليه بأننى لا أسمعه وهو ما زال يتحدث باسماء ، إعتقدت بأن الخلل بأذنى

لكننى كنت أسمع أصوات العواصف بخارج الكهف ، أخيرا سمعت صوته
متسائلا: "إيه رأيك شفت آخرتى حلوه إزاي ، إننا لله وإنا إليه راجعون.

خمد الصوت وتقطعت الأنفاس وتوقف تدفق الدماء وشعرت بأن نهاية
العالم الآن ، ظلمت أنظر إلى جثته ولا أستطيع التصرف أو العمل ، بكيت كما لم
أبك من قبل رغم أن "سلمان وفاروق الفيومي" نالا الشهادة أمامى بالمركب فى
بداية الانسحاب ، أشاهد ضوء الفانوس يخبو كأنه يخبرنى عن حزنه على
صديقى الحبيب الذى تعرفت عليه منذ خمسة أيام فقط ، لقد تبدل حال الخمسة
المجرمين واللصوص من محتالين مجرمين إلى شهداء وتذكرت حديث رسول
الله صلى الله عليه وسلم "من مات دون أرضه فهو شهيد .. (حسين وعمر) ..
ومن مات دون عرضه فهو شهيد .. (الثلاثة .. ربيع وخليل وإبراهيم) .. ومن
مات دون ماله فهو شهيد" صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

'عدت برأسى مستنذاً على جدار الكهف .. البرد شديد القسوة بالخارج
وبعض الرياح المحملة بالرمال تدفقت إلى داخل الكهف ورغم هذا فضياء القمر
يسبغ نوره على الصحراء بالخارج فانعكس الضوء إلى داخل الكهف ، تنبهت
على صوت وحركة بالخارج ، اعتقدت أن بعض الإسرائيليين قادمون بعد سماع
الانفجار ، تبينت ملامح صاحب الصوت ولم أستطع التوضيح هل هما كلبان
كبيران أو نذبان؟ فيما بعد علمت أنها ضبعان من ضباع سيناء القتلة ، الضباع
تحمل اللون الذهبى وخطوطاً عرضية باللون الرصاصي ، اقتربت من بقايا جثة
"عمر" وأوغلت حاسة الشم ورغم هذا ظللت ساكنا وأصبحت بلا مشاعر فلا
خوف ولا سعادة ، أشاهد أحد الضباع ينفر شيئاً ما من أنفه كأنما اشتم رائحة
سينة أو شعر بشئى كماو به ، غادر الضبعان المكان بسرعة كأنما شاهدا شيئاً

وخشياً منه رغم أن رائحة الدماء بخارج وداخل الكهف واضحة ، كنت أنظر للضبيعين وأنا مستسلم لقدري حيث 'كنت راغبا في ترك تلك الحياة القاسية فلقد أثر على مقتل "عمر" بتلك الطريقة وأمام عيني والذي ظل يحدثني لأكثر من عشرين دقيقة قبل أن يلقي الله.

في الصباح غادرت الكهف ولملمت بقايا جثمان الشهيد "عمر" ، تيممت من الرمال بالخارج ؛ حيث كانت كمية المياه شحيحة وقد ضاع الأمل بعد وفاة عمر بالحصول على مصدر آخر للمياه ، بعد أن تيممت أدبت صلاة الجنابة على الشهيد "عمر" من الوضع جالسا نظرا لقصر ارتفاع الكهف ، غادرت الكهف وجمعت كمية من الأحجار أغلقت بها باب الكهف حفاظاً على جثمان الشهيد ، جلست قريبا من الكهف أتفحص نظارة الميدان ولكنها لم تكن ذا فائدة حيث إن شظايا الانفجار أتلفتها ولم تعد تصلح فألقيتها بجوار باب الكهف ، حملت عبوة الماء وسرت على غير هدى فقد ضاع كل شيء من الصحبة ومعرفة الطريق ومعرفة مصدر الطعام والمياه ومن رفقة الأليف وحسن الحديث والبطولات التي قام بها هؤلاء الشباب العابث لتتقلب حياتهم في خلال أيام إلى العكس تماما كأنما الله راض عنهم ، تذكرت حديث رسولنا الصادق الأمين: يظل الرجل يعمل عملا من أعمال أهل الجنة وقيل أن يلقي ربه يعمل عملا من أعمال أهل النار فيدخل النار .. يظل الرجل يعمل عملا من أعمال أهل النار وقيل أن يلقي ربه يعمل عملا من أعمال أهل الجنة فيدخل الجنة ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .. مبارك عليكم نهايتكم الطيبة.

ظلت سائرا في اتجاه الجنوب ؛ فقد تذكرت حديث الشهيد "عمر" حين أخبرني بأننا سوف نتحرك بعد عدة أيام ونسير جنوبا لنبتعد عن مدينة العريش

ومن هناك نتجه إلى وادى العريش ونسير به لفترة يومين ثم نعود ونتجه شمالاً فنصل إلى ساحل البحر بحيث نعود ثانية إلى موقعنا على الساحل وحينما سألته لماذا نتأخر عدة أيام وليس الآن أخبرنى بأن هذا موسم الأمطار ويصبح وادى العريش ممتلاً بالمياه الجارية المندفعة مثل فيضان نهر النيل قبل بناء السد العالى وتلك الفيضانات تكتسح أية وحدات عسكرية إذا كانت تتمركز أو تحتل موقعا بها لهذا فالجميع يعلم بأن وادى العريش خطر خلال فترة الشتاء خاصة فى بداية العام الميلادى الجديد أو نهاية شهر "طوبة".

سرت على نهج خطة "عمر" ، كنت أسير بكل جد ونشاط حيث كنت راغبا بترك هذا المكان الذى تجمعت فيه البطولة والشهادة وشعرت أننى أصبحت نذير شؤم على كل من يرافقتى بأن ينال الشهادة سواء فاروق الفيومى أو سلمان أو حسين وعمر بل الثلاثة الذى شاهدتهم يتحدثون مع حسين وعمر ونالوا الشهادة أيضا وهم يدافعون عن شرف السيدة التى كاد اليهود أن يغتصبوها ، صمت لفترة مستعيذا من الشيطان طالبا من الله أن يبعده عنى فكيف تصبح الشهادة نذير شؤم؟ ولكنها وسوسة الشيطان.

منذ مساء الليلة السابقة وبعد أن غادرت كهف الشهيد عمر وأنا ما زلت أوصل المسير وقد وصلت إلى وادى العريش ، كان الطقس سيئا إلي أقصى درجة سواء من العواصف الرملية أو من البرودة الشديدة ، ظلت أقاوم تلك العوامل الجوية ولكن العواصف كانت أقوى من مقاومتى لها وبعد أن تلاشت العاصفة وهدأت الرياح شعرت بدماء تتساقط من رقبتي إلى ظهري فقد قامت الرمال السريعة المندفعة بعمل ثقوب كثيرة ازدادت بمضى الوقت حتى أصبحت جرحا غائرا.

حمدت الله على توقف العواصف رغم البرودة التي ليس لها حل سوى ماوى
أو دار أو كهف ، شاهدت عن بعد شيئا أسمر اللون كبير الحجم وتأكد لي بعد
اقترابي منه أنها دبابة مصرية من طراز T 34 روسية الصنع ، توجهت قريبا
منها وبعد هذا بلحظات هطلت الأمطار بغزارة ليس لها مثيل ، قفزت أعلى
الدبابة ومن حسن الحظ أن البرج كان مفتوحا فهبطت بداخلها وأغلقت بصعوبة
نظرا لحالة الصدا التي وصلت إلى حديد الدبابة وذلك تجنباً لمياه الأمطار ،
كانت البرودة بداخل الدبابة أقل نسبياً كما استطعت تجنب تأثير مياه الأمطار
وقللت من شدة البرودة ، كنت أشعر بأن الدبابة تهتز من حين لآخر من شدة
الأمطار والحقيقة إنها لم تكن تهتز بل كانت تتحرك ميلاً لأحد الأجناب وأنا لا
أشعر ولا أعرف كيف التصرف .

مازلت أشعر بأن الدبابة تتحرك وتميل لأحد الأجناب ولم أتخذ قراراً بعد
ولكن الطبيعة اتخذت قرارها بأن انقلبت الدبابة على أحد الأجناب وبعض
الأشياء الموجودة بداخلها سقطت على أم رأسي من عبوات قنابل فارغة وبعض
أدوات من مفاتيح وعدد الصيانة ، تدافعت المياه حتى غمرت الدبابة من الداخل
وشعرت أنني سوف ألقى حتفى غرقاً فلم يعد هناك متنفس للهواء ، حاولت
الخروج ولكنى لم أستطع وفي لحظات شعرت أن مستوى المياه بدأ يقل بداخل
الدبابة مما ساعنى لأن أحصل على بعض الهواء لأظل على قيد الحياة ، ظللت
على حالى هذا حتى شعرت بأن الأمطار خفت حدتها حتى توقفت تماماً ، رغبت
بمغادرة الدبابة ولكن غطاء البرج كان مدفوناً فى الرمال ، أصبحت مثل الحيوان
أو الغار الذى وقع بالمصيصة ، ماذا أفعل وكيف لى التصرف؟ جلست لا أعى ما
أقوم به وأخيراً تنبهت بأن هذا النوع من الدبابات له فتحة هروب من بطن الدبابة

، أبحث عن بطن الدبابة بالأسفل وعثرت على باب فتحة الهروب حاولت فتحها ، فاستعصت على يدي حيث كان الصدا قد أتى مفعوله بها.

جلست أفكر كيف التصرف؟ ودون العثور على أى شئ ينقذنى مما أنا فيه سوف أفقد حياتى التى سوف تنتهى بهذا القبر المصنوع من الحديد ، بعد قليل سمعت أصوات انفجارات شديدة خشيت على نفسى واعتقدت أن الإسرائيليين قادمون ولكن تبذل ظنى حيث سمعت هطول الأمطار وقد كان هذا صوت الرعد وليس صوت الانفجارات ، ظلت الأمطار تتساقط بشدة وشعرت أيضا بأن الدبابة تتحرك ، ظلت بها وشعرت أن الدبابة إستقرت على وضع حرر باب فتحة البرج ، فتحت البرج وغادرت الدبابة مسرعا ولكن الأمواج العاتية التى استطاعت أن تحرك ثقل جسم حديدي يزن أكثر من خمسين طنا ؛ ماذا تفعل في ثقل لا يزيد عن ستين كيلو جراما.

هكذا شاهدت نفسى والمياه تحملنى وأنا لا أستطيع المقاومة وفى بعض الحالات تغطى المياه أنفى مما يمنعنى من التنفس ، كانت المياه ثقيلة ؛ حيث تحمل العديد من أطنان الرمال الناعمة والتى تشبه "الدقيق أو البودرة" حيث كان لون المياه مثل لون مادة الطحينة ، أيقنت فى تلك المرة بأن الغرق هو نهايتى ، حاولت السباحة ولكن شدة اندفاع المياه كانت أشد قوة من مقاومتى لها ، شاهدت شيئا أسمر اللون يظهر من أسفل المياه فى اتجاه اندفاعى ، اقتربت من هذا الشئ، بقوة دفع المياه فإذا هي مجموعة من مدافع الميدان الضخمة التى تشابكت مع بعضها بفضل إندفاع المياه وأصبحت ثابتة ، لم أحاول الوصول إليها حيث كنت مندفعا فى اتجاهها ، أخيرا إرتطمت بتلك المدافع وتشبثت بها وارفعت تسلفا أعلى المياه المندفعة وأصبحت بعيدا عنها ولم تجرفني وتجنبت شر

فيضانها العارم.

في المساء حيث مازالت الغيوم تلوح بالسماء ولم تظهر أية نقطة نور من ضياء شمس هذا النهار ، توقف هطول الأمطار وبدأ يقل ارتفاع المياه تدريجيا من حولي حتى انحسرت وأصبحت بركا صغيرة ، هبطت من أعلى المدافع حيث كان الهواء البارد مع بلل ملابسى قد أثر على حالتى الصحية والنفسية بأثر عكسى جعلنى شبه محموم ، سرت أتخبط فى ظلام الليل الدامس وخيل إلى بأننى أشاهد ظلا لشئ كبير الحجم أعقبه حالة من الإغماء ؛ أفقت منها على وجودى بخيمة لرجل بدوى يعيش مع أسرته ، كان الرجل البدوى قادما من مكان ما إلى موقع إعاشة أسرته والذي كان قريبا من مكان عثوره علىّ وحينما شاهد حالة الإغماء حملنى إلى أسرته التى غادرت مكانها ، وهربت بكل ما تحمله بما فيها الخيمة واختبأت بين الصخور الكبيرة القريبة بالمنطقة حين توقعت سقوط المطر ثم عادت ونشرت خيامها ، قامت الأسرة على رعايتى وتطبيبى حيث كنت أعانى من نزلة برد حادة ، لا أعلم الوقت الذى ظللت فيه فى ضيافتهم ولكنه لا يقل عن خمسة أيام.

انتهت الضيافة وقدمت شكرى لهم وتساءل الرجل عن وجهتى فأخبرته بأننى أرغب بالتوجه إلى الساحل فأجابنى بأنه سوف يساعدى لأنه متوجه إلى مدينة العريش ، فهتمت من حديثى المتبادل معه بأننى عبرت محيط مدينة العريش كما نصحنى أبو السعادات والد "رقية" خطيبتى ، أظهرت له مخاوفى من الاقتراب من المدينة والتي تعج بجنود الاحتلال فأيدنى في خوفى هذا مؤكدا لى بأنه سوف يسلك طريقا آمنا يقع غرب مدينة العريش بخمسة عشر كيلومترا" ويتركنى هناك ثم يتجه شرقا إلى المدينة.

مساء هذه الليلة سوف أرافق "أبو عيشة" وهذا اسم الرجل البدوى الذى قدم يد المساعدة لى مع أسرته ، سوف أرافقه إلى غرب مدينة العريش ، ظللنا طوال الليل نسير ونتبادل ركوب الجمل أثناء السير ، كانت تلك أول مرة أركب فيها جملا ، لقد شعرت بأننى مرتفع عن الأرض ارتفاعا كبيرا كما كنت أخشى السقوط من فوقه بالإضافة إلى الحركة الرتيبة لسير الجمل فتشعر طوال الوقت بأنك تندفع بجسدك للإمام ثم تعود لوضعك طوال الطريق ، تقوم بتلك الحركة لا إراديا وتبدأ الحركة من منتصف الجسم أى أسفل الظهر اندفاعا للأمام ثم عودة للخلف ، كما كنت أخشى الجمل حين الركوب عليه أو فى حالة هبوطه أرضا وهى عملية "التنخيش" حيث يطلب منه أبو عيشة ذلك قائلا "نخخخخ" ويمسك بالحبل من أمام فمه ويهبط به أرضا حتى يهبط الجمل ، كان الجمل يحتاج علي هذا بإحداث أصوات عالية وخروج رغاوى من فمه وأسنانه الكبيرة تتحرك ويحرك رأسه ذات اليمين وذات اليسار ، كنت فى وجل من هذا الحيوان الأسطورى الذى يعتبره كثير من الأوروبيين بأنه آخر سلالة لحيوان الديناصور المرتفع فهو أكبر حيوان فى العالم حتى الآن.

الحمد لله وصلت إلى ساحل البحر الأبيض وأسمع أصوات الأمواج وأشتم رائحة المياه المالحة المشبعة باليود .. تبادلت مع أبى عيشة التحية وأمدنى ببعض أرغفة خبز كانت زوجته قد أعدتها عصر هذا اليوم وشاهدتها مع ابنتها عائشة ذات الأربعة عشر ربيعا التى كانت تقدم يد المساعدة لأمها ، كما ملأت لى عبوة مياه بديلا عن عبوتى التى فقدتها أثناء السباحة فى مياه الأمطار العنيفة بوادى العريش.

غادرنى أبو عيشة وقد امتطى ظهر الجمل مثل الفهد بسرعة وظل طيفه

يخفى عني رويدًا رويدًا وبقيت بمفردي مع الواحد القهار ، أنظر إلى السماء
محدثًا ربي:

- بقيت لوحدي وأنا محتاجك يا رب ، مش تتخلى عني وأنت عالم بحالي ، تقف
معايًا ولو مت حتفضل لوحديك ، مش تزعل مني لكن الحكاية بقت صعب خالص
دا أبو عيشه عرفني إننا بقينا نص شهر فبراير ، مش معقول!! تسع شهور ولسمه
بلف في سينا ، "جلست صامتا بعض الوقت أستعيذ من هذا الهراء الذي ناجيت
به الله ولكنه غفور لعبيده ويعلم خبايا الأنفس" جلست بجوار بعض النباتات
القريبة من الساحل أحتمى من رياح الصباح الباردة وأخرجت بعض قطع الخبز
أسد بها رمقي ، جلست أتذكر حالي الآن وما عليه حال أسرتي وما عليه حال
قيادتي وزملاني الآن الذين تم ترقيتهم في العام الماضي في بداية شهر يوليو من
عام ١٩٦٧ وهل تم ترقيتهم أم لا ؟ أسئلة كثيرة بدأت تطرح نفسها عليّ.

شاهدت على أحد الأجناب بالمكان الذي أجلس به شينا معدنيا كبير الحجم ،
تحركت إليه بحذر وتفحصته ، لقد كان جناح طائرة نقل عسكرية إسرائيلية حيث
شاهدت عليها علامة نجمة داوود ، كانت أبعاد الجناح طولًا عشرين مترا
وعرضا أربعة أمتار ثم تقل لتصل إلى المتر في الطرف ، كما شاهدت الجناح
الأخر بعيدا بمنات الأمتار لكنه ملتصق مع باقي أجزاء الحطام الطائرة.

شعرت بأن هذا الحطام يمكن أن يصبح مأوى لي لحين سقوط الظلام ثم
أواصل تحركي ، نفذت إلى الأسفل وأزحت بعض الرمال حتى استطعت أن
أجلس مستريحا بحفرة صغيرة أسفل الجناح مما ساعد على منع أو تقليل الرياح
الباردة وشعوري بالدفء النسبي ، مضى جزء من نهار اليوم والهدوء الصامت
هو صفة المكان فلم أعد أسمع أي شيء بل إن أصوات أمواج البحر كانت تقل في

بعض الأوقات حسب اتجاه الريح.

خلدت لنوم هادئ وكان الطبيعة أرادت لى الحصول على قسط من النوم المريح ، كنت أصحو وأعود لنومى وأنا مازلت متأكدًا بأنني أحيا وأعيش مع عائلة "أبو السعادات" ، تنبهت من نومى فإذا بالظلام محيط بى من كل مكان ، لقد ضاع منى هذا اليوم فى الراحة والنوم ، خرجت من المخبئ بحذر وجلست أعلى جناح الطائرة وأخرجت بعضاً من قطع الخبز أمضغها وأتناول بعض جرعات من الماء خلفها كأنها طعام ، بعد قليل شاهدت ضوءاً قادمًا من اتجاه البحر ، دققت النظر فإذا بالضوء قادم وليس مبعثاً أو متحركاً بالعرض ، وهذا يدل على أنه ليس بمركب صيد ، مازال الضوء يزداد وضوحاً فخشيت أن تكون دورية بحرية إسرائيلية فقررت العودة إلى المخبأ وفى نفس تلك اللحظة شاهدت إشارات ضوئية صادرة من هذا المركب أو ذاك القارب أعقبها ضوء صادر من الخلف بالاتجاه المعاكس قادم من اتجاه طريق العريش القنطرة ، هربت أسفل الجناح وقد تزايدت دقات قلبى خوفاً لما سوف يحدث لى.

لم تمض سوى دقائق قليلة وسمعت صوت محرك سيارة يقترب منى حتى توقف بجوار جناح الطائرة وهبط منها بعض الرجال ، تحدثوا فيما بينهم ، كان حديثهم يدور بالعربية بلهجة أهل الشام ، خرجت تعبيرات مثل (إملح / بلش / خوى / مصارى / مره "امرأة") ، اقترب القارب حتى رسا على الشاطئ فتوجه إليه شخص من تلك المجموعة التى غادرت السيارة ، تأكد لى أن هؤلاء الرجال من الجيش الإسرائيلى للحديث الدائر بينهم وتوجيه لقب كابتن لأحدهم وقد شاهدت ظل أجسادهم والذى كنت أشاهده من أسفل الجناح والبعض منهم يعلق المدافع الرشاشة على كتفه كما أن السيارة من نوع "جيب حربى أمريكى".

عاد الكابتن قادما من جهة القارب وأتذكر أن اسمه مزراح ويحمل حقيبة بيده لكن اللافت للنظر أن برفقته فتاة غاية فى الجمال ، كل هذا كنت أشاهده من أسفل جناح الطائرة وعلى الضوء الخافت الساقط من ضياء القمر الذى أثرت على قوته السحب المليدة بالسماء ، صافحت الفتاة الرجال وتحدثوا معها ببعض كلمات المجاملة والإطراء ، ناولها الكابتن مزراح حقيبة بها مصارى "فلوس" سألته بلغة عربية بنفس لهجة أهل الشام عن قيمة المبلغ بالحقيبة فأخبرها بأن المبلغ ٦٠٠ ألف جنيه إسترليني ابتسمت لهذا وقامت بتقبيله أمام باقى الجنود الذين عبروا عن إعجابهم وتحيتهم بالتصفيق والصفير المتقطع ، تساءل الكابتن مزراح عن كمية المخدرات فأخبرته بعدد العبوات وقد أتتى الرجل على دقتها ، همس قريبا من أذنها وسمعت ضحكات بعض الجنود وشاهدته يتأبط خصرها ثم إتجها إلى داخل القارب.

من حديث الجنود ومن رائحة ما يدخنون علمت بعضا من المعلومات بأن تلك السيدة تتبع إحدى عصابات ترويج المخدرات وتتعامل مع الجنود الإسرائيليين الذين يقومون بتوزيع تلك الأصناف بسيناء وبداخل القطاع وبين صفوف الجنود وأن هؤلاء الرجال من الإسرائيليين من أبناء الدروز الذين وقعوا تحت الاحتلال عام ١٩٤٨ ؛ أفاض الجنود فيما يقوم به رئيسهم الآن الكابتن مزراح وكان وصفهم لما يدور بين الإثنيين بطريقة بذينة تتخللها تعبيرات وكلمات جنسية من النوع الرخيص كما كان يرافق تلك التعبيرات خروج أصوات مماثلة للحالة التي عليها الاثنان بداخل المركب ، لقد تحدث الجنود بكل شئ فاضح عن النقيب مزراح وشعرت لحظتها بأن هذا الجيش الذى تمكن من أن يهزم الجيوش العربية من حين لآخر هو جيش واهٍ لا قيمة له بل أننى شبهته بالفتوات أيام زمان فيقوم

نفر قليل بالسيطرة على حى أو شارع ، فلقد تجمع حثالة البشر ضد باقى سكان الحى أما باقى الناس بالحي فكل رجل يحيط بأسرته ويقوم بدفع الإتاوة ويقبل الذل والخنوع ، كان هذا هو حال إسرائيل ، مجموعة من البلطجية حرفتهم الأساسية القتل والاستعانة بالقتلة من الخارج واستعمال المفاجأة والغدر وفى الجانب المقابل نحن العرب أصبحنا مثل الخشب المُسندة من رجال السياسة والقيادات العسكرية التى لا تكثرث بأراء العلماء والمفكرين ، مازلت كامنا أسفل جناح الطائرة أفكر في بلدى وما يحدث له من أفعال تلك الحثالة ، فانا المصرى سليل الحضارة أختبئ مثل الجرذ المرعوب من بعض حثالة يتعاطون المخدرات وقائدهم غارق في ملذاته مع تلك المرأة ، كدت أصيح أن هذا هو حالنا الخوف من لا شئ وخير دليل على ذلك هو وضعى الحالى ، أنا حشرة مثل باقى أبناء وطنى!!

عادت إلى بعض من كرامة وتذكرت ما قام به فاروق الفيومى يوم أن فك وثاقى أنا والشهيد سلمان ثم الأسرة الطيبة الشجاعة الجريئة المكونة من خمس نساء بمفردهن وقامت برعايتى وحمائيتى ثم لقاء الرجال الخمسة وتوجههم كل يتبع نية تحرك من أجلها وفى النهاية يلقى الجميع الشهادة بعد معركة تدمير مخلفات الأسلحة المصرية ثم دفاع هؤلاء عن شرف سيدة مصرية والتي تعيش بمعزل مع أطفالها ، كدت أصيح صارخا : ده معقول؟ مش ممكن نكون ضعفاء أو جبناء .. مازلت منشغلا بأفكارى وأخرجنى منها قدوم الكابتن مزراح سعيدًا بغزوته وممسكًا بيد بزجاجة خمر وباليد الأخرى حقيبة صغيرةً محدثًا جنوده الذين كانوا فى حالة من التخدير الشديد.

تحدث واثقا من نفسه : هادى "المره" ح نخلص عليها .. توجه بسؤال لأحد

جنوده هل وضعت العبوة المتفجرة بالقارب؟ أجابه الجندي بأنه قام بإعداد كل شئ أثناء حالة الغرام التي طغت عليهما فلم يعد يشعران بما يحدث بجوارهم ، بعد قليل شاهدت مزارح يُشعل الفتيل المتصل بعبوة التفجير بداخل القارب ثم أسرع مع جنوده بمغادرة المكان ، كنت فى أشد الحاجة إلى هذا القارب حتى ينقلنى من سيناء إلى شاطئ أية مدينة وباليهت مدينتي الحبيبة الإسكندرية ، قفزت من مخبئى ونهضت مسرعاً متتبعا الفتيل المشتعل ، كانت سرعة اشتعال الفتيل كبيرة ولكننى أسرعت ومعى المطواة الصغيرة التى أعطانى إياها "الشهيد حسين" قبل بدء عملية تدمير الأسلحة المصرية ، قطعت الفتيل قبل مكان رسو القارب بأمتر قليلة وأثناء ذلك سمعت صوت انفجار مدوّ وضوء مبهر ولم يكن هذا الانفجار بالقارب بل كان الانفجار أتيا من الخلف من مسافة بعيدة نسبيا ، نظرت إلى الخلف لأشاهد الانفجار الكبير ولم أكن أعلم أين وقع هذا الانفجار .

وقفت واعتدل جسدى وأعدت النظر للأمام فإذا بى أشاهد تلك السيدة الجميلة بملابس نوم رائعة وممسكة بعبوة المتفجرات التى وضعها الجنود الإسرائيليون بالقارب ، حدثتني بكلمات قليلة رقيقة بأن قدمت لى شكرها على ما قامت به ، تحركت وأعطتني ظهرها ثم اعتدلت قائلة:

- تحب تركب معانيا أو أوصلك لحتّه كويسه بعيده عن ولاد الكلب دول؟

لم يكن لهذا السؤال أية إجابة سوى إجابة واحدة دون حديث حيث قفزت إلى داخل القارب الذى كان أكبر من القارب حجما ، تبعتها فطلبت منى نزع الهلب حتى يتحرك اللنش عدت ثانياً إلى مكان رسو اللنش على الشاطئ ورفعت المرسى الحديدى وعدت إليها فشاهدتها وقد ارتدت ملابس أكثر وقارا ، ابتسمت لى قائلة بأنها تتمنى لى رحلة طيبة وأن أكون خير رفيق وألا أكون جباناً وغادراً

مثل الآخرين ، أشرت إليها بالموافقة ، تحركت وأمسكت بيدي وصعدنا لأعلى وأدارت موتور اللنش ، أشارت إلى دفة القيادة طالبة منى أن يكون سهم التحرك على هذا الاتجاه وأشارت له ، هبطت لأسفل وأنا مازلت أدقق النظر في اتجاه السير ، كُنت في دهشة من أمرى خاصة أثناء الساعة الماضية من أحداث متتالية متشابكة لا أعلم عنها شيئا وكيف حدثت.

أقبلت السيدة والتي لا أعلم اسمها أو جنسيتها حتى الآن وكانت تحمل أطباقا من الطعام لي ولها ، ناولتني أحد الأطباق وجلست أمامي تتناول طعامها ، طلبت منى الضغط على زر كتب عليه بالإنجليزية " أتوماتيك " فعلت .. أشارت لى بالجلوس قريبا منها مؤكدة بأن القارب سوف يسير حسب الخريطة التى سبق وأن ضبطته عليها .. مازلت متخوفا من تلك السيدة والتي لا يدل جمالها وأنوثتها على أنها تتاجر بالمخدرات مع الأعداء ، كانت تتمتع بمواصفات جمالية مبهرة رغم ما أشاهده من تصرفات تدل على أنها من أرباب الإجرام والقتل الذى دائما ما يصاحب تجارة المخدرات وما شاهدته بعين راسى من انفجار لسيارة الجيش الإسرائيلى بما تحمله من خمسة رجال مدججين بالسلاح ، الفتاة أو السيدة بيضاء البشرة ذات شعر كستنائى طويل وتتمتع بقامة طويلة نسبيا وقد يتعدى طولها المائة وستين سنتيمتراً ذات عيون واسعة بلونها العسلى تتمتع بشفتين رقيقتين متناسقة الإتزان والتضاريس ، شعرت الحسنة بأننى راغب فى الحصول على بعض المعلومات أن هى رغبت بذلك مما سوف يزيد من رابطة الصداقة أثناء تلك الرحلة البحرية ليلاً والمجهولة الاتجاه حيث قالت لى:

- أخبرني باسمك

- عابد

- شو بتكون عابد .. كيف يعني؟ بتصلي؟
- اسمي عابد وكمان بأصلي
- إمليح!!
- طيب .. أنت اسمك إيه؟
- عليم .. بتحذر يا زلمه
- غلب حماري
- كيف؟ هون دا الحمار؟
- يعني مش عارف
- إمليح .. زينه .. اسمي يا خي زينه .. إمليح؟
- إمليح بسكر كمان
- الله يعطيك العافيه يا زلمه .. إيش بتبأش في هادي النديار؟
- والله ما أنا عارف سؤالك لكنى كنت رايح أزور واحد صاحبي
- بتدك تعرفنى أنك بتزور زلمه تعرفه فى الصحرا واليهود بكل مكان؟ هذا ما يدخل العجل!
- الحقيقه أنا تايه؟
- أنت زين .. يعني أنا زينه وأنت زين
- الله .. هو أنت تايهه أنت كمان؟
- لا .. لكن زين كلامك .. أنت مصرى؟
- طبعا مش سينا أرض مصريه؟
- جصدى من جوه مصر .. يعني من إسكندريه أو الجاهره حاجه زى كده ..
- لهجتك بتجول كده

- فعلا أنا من الإسكندرية

- والله زين ناس بتوع إسكندرية لكن كنت بتسوى إيه في سينا؟

- كنت باشتغل في العريش وحصلت الحرب وعايز أرجع بلدى

- كلامك زين

- وأنت مين ومنين؟

- أنا زينه لبنانيه وعايشه مع الزلمه جوزي فى ليماسول

- ليماسول!!

- ايوه .. ما بتعرف ليماسول؟

- لا مش عارفها

- جبرص .. تعرف جبرص

- آه .. جزيرة قبرص .. طبعا عارفها بس مش عارف غير "نيوقوسيا"

- هادى العاصمه لكن ليماسول مينا طيب كتير على البحر الأبيض .. تفضل

معايا ونشوف لك صرفه فى ليماسول.

- لكن أنا شفت حاجات غريبه مع الإسرائيليين والكابتن مزراح وهو معبط فيك

ودخل معاكى المركب .. إيه الحكاية؟

- بص يا زلمه .. ح أجولك على كل حاجه وبعد كده تجفل ضبتك بالمفتاح كيف

ما بيعكوا في مصر .. دوول ولاد أبالسه وأنا باتاجر معاهم .. يعني مخدرات وبا

خد العموله .. جه مزراح وانبسط شويه معايا فى المركب لزوم الشغل!!

بتضحك؟

- إيه الانبساط ده؟ عامل إزاي؟

- بذك تشوف وإلا تجرب؟

- الاتنين؟

- إختار لك واحده بس

- أجرب

- يمكن لما تشوف أحسن

- مش عارف .. يمكن لما أشوف أكون عايز أجرب

- براحتك يا خي

لم أكن أعلم معنى لكل حديثها حيث كنت معتقدا بأنها تسلية وقت وكلام وفض مجالس لكن الحكاية كانت كبيرة وخطيرة .. بإحدى غرف المركب دخلنا إليه وهناك شاهدت سريرا جميلا وترايبزه صغيرة وأضواء المركب بالداخل ، صبت الفتاة كأسين من الخمر وأنا لست معتادا على تناوله لكن الإنسان في بعض الحالات يكون طقس و تنتن ، تناولت الخمر وشعرت بأنه شئ سيئ للغاية بينما نهضت "زينة" واستبدلت ملابسها إلى بدون ملابس تقريبا وشغلت جهاز "مسجل" وقطعة موسيقية للفنان فريد الأطرش تحمل اسمها أي "زينة" .. كان رقصها رائعا إلى أقصى درجة يصاحب رقصها إيماءات مثيرة للنفس ؛ لم أشعر سوى إنني أشاركها الرقص والغناء وتبادلنا الأحضان والقبلات وأصبحت أشد ضراوة في التعامل معها فقد حرمت نعمة مصاحبة النساء والفتيات شهورا طويلة حيث كنت من الشباب الفاسد والذي يقبل على فعل أي شئ وامتنعت عن هذا فترة عملي بقطاع غزة وبإجازاتي كنت أعود لممارسة تلك الهواية السيئة والتي كانت ممتعة لي.

تنبهت على ضوء قادم من زجاج الشباك الموجود بالحجرة .. لقد ظهر ضياء يوم جديد ، شاهدتها بجوارى عارية تماما وأنا مثلها وتأكد لي أن ما حدث بيننا

كان شيئاً رائعاً ممتعاً رغم حالة السكر التى أطاحت باتزانى ، أيقظتها حيث كانت راغبة فى أن تظل نائمة ولكنها نهضت مسرعة متسائلة:

- أنت بطلت الماتور؟

- لا .. مش بطلت حاجه

ارتدت ملابس ثقيلة نسبياً حيث كان الطقس سيئاً وصعدت لأعلى اللنش أو قل "يخت صغير" وتبعته حيث كانت متوترة وأخبرتني بأن الوقود نفذ ونحن بوسط البحر ، هبطت لأسفل وظللت منتظراً قدومها ، وأنا على هذا الحال واقفاً فوق سطح اللنش شاهدت العلم الإسرائيلى يرفرف فوق القارب ، كدت أصرخ وشعرت بأننى أسرت بواسطة أحد عملاء الموساد الإسرائيلى ، أقبلت صاعدة والابتسامه على وجهها وأخبرتني بأنها طلبت مساعدة وسوف تحضر خلال ساعة من الآن ، نظرت إلى باسمه وهى تخبرنى بأنه قد أسعدها تعرفها على ، شاهدت الحيرة والقلق على وجهى ، توجهت بنظرها جهة نظرتى الثابتة ، ابتسمت هاتفية:

- وين راحت عويناتك الجميلة ، ما تسبب هذا الجمال الربانى وتنتظر جهة علم الشياطين والأبالسة .. تحيرت من حديثها متسائلاً:

- آمال خطاه ليه على المركب؟

- أحمى نفسى منهم كمان هما عارفينى إنى باساعدهم وأجيب المخدرات اللى بيوزعوها ، أدى كل الحكاية

لم أشعر بالراحة لهذا التحليل التى تحدثت به وشعرت أنه أبعد عن الواقع الذى أشعر به ، جلست معها أسفل القارب حيث تعد طعاماً نتناوله ، تناولنا طعامنا وشربنا الشاي الساخن ، نظرت من الشباك فشاهدت طائرة هليكوبتر

إسرائيلية قادمة ، أسرع وفتحت دولايا وأحضرت منه كلابشات حديد وبسرعة البرق وجدت نفسى مربوطا بإحدى الحلقات الحديدية بالقارب ، نظرت إلى محذرة:

- ما تفتح فمك بكلمة .. أنت حيبسى لو نزل واحد من الصهاينه وشافك ح أعرفه أنك حيبسى فاهم يا صاحب العوينات السود!!

غادرت المكان واتجهت لأعلى القارب .. كانت الرياح شديدة وكان القارب يتأرجح يمينا ويسارا واعتقدت بأننى سوف أنقل إلى الطائرة أو فى أحسن الأحوال سوف ينقلب بنا القارب غير القادر على الثبات فوق سطح الماء ، شعرت بنهايتى وأننى سوف أقابل الله سيئى المظهر غاضبا من تصرفى ، لقد أضعت كل عمل صالح قمت به خلال الشهور السابقة سواء مع أسرة أبى السعادات أو من مقاومة الإسرائيليين ، بنس المعرفة وبنس تلك المرأة وتذكرت الحديث الشريف الذى يحذرننا من "خضراء الدمن" وهى المرأة الجميلة من المنبت السيئ ، شاهدها مقبلة سعيدة وتحمل عبوة بها وقود ، اقتربت منى وطبعت قبلة قوية على شفتى وأنا كاره لما قامت به ، إنها تمنحنى قبلة الموت ، اتجهت بسرعة وأحضرت مفتاحا وفتحت القيود الحديدية مقدمة إعتذارها لى ويأن اليهود أنزلوا لها عبوات وقود بالحبال من الطائرة وغادروا المكان.

انهمكت معها فى تزويد ماكينة اللنش بالوقود ثم أدارت مفتاح التشغيل وعاد الموتور يعمل ثانية وعادت الطاقة للمكان والإضاءة لكن الطقس مازال سيئا ، أسرع تخبرنى بأن باخرة تسير بالقرب منا وعلينا الاحتماء بها ، فى لمح البصر حركت عجلة القيادة ووجهتها نحو الباخرة بسرعة كبيرة وتأكد لى أننا سوف نصطدم بها ولكن "زينة" كانت بارعة حيث اقتربت من سلم الطوارئ

وربطت الحبل بالباخرة وأبطلت موتور اللنش بحيث كنا نسير بنفس سرعة
الباخرة الأشد سرعة كما أن بعض الأمواج الصناعية من سير الباخرة كانت
تؤثر بنا ، ولكن كل هذا كان أرحم من وجودنا بداخل البحر دون حماية حيث
حمتنا الباخرة من شدة الرياح والأمواج العاتية ولم يلحظ أحد من العاملين
بالباخرة إننا التصقنا بمركبهم.

أومنا إلى داخل اللنش وتناولنا الطعام والشراب وعدنا إلى اللهو ونسيت
الأحاديث النبوية والنهي عن المنكر وما شاهدته من مناظر الشهداء أو من أى
ألم وعذاب ، كنت عازما على التمتع بتلك الحياة ثم ألقى ربي ولن أندم على أى
شئ سيئ قمت بفعله معها ، جلسنا نحن الاثنين أسفل الأغطية وطلبت منها أن
توضح لى علاقتها بالإسرائيليين وكيف تتصرف هذا رغم أنها زوجة.

كانت إجابتها غير واضحة وغير مقنعة لكنها أخبرتنى بأنها تعمل مع شبكة
لتجارة المخدرات والرقيق الأبيض ونظرت إلى متسائلة إن كنت أرغب بشراء
فتاة أوروبية جميلة أعيش وأحيا معها بمصر ، ثم أخبرتنى بأن زوجها يعمل
بنفس الشركة وما تقوم به هو من صميم عملها أما ما قمت به معك فهو ليس من
صميم عملى فهذا اختياري للتمتع بعض الوقت ، كان أهم ما أخبرتنى به أنها
شاهدت مزارح وهو يضع العبوة الناسفة أثناء انشغالها بارتداء ملابسها ومن
أجل هذا أعطته شنطة بها هدية خاصة به على أن يقوم بفتحها بعيدا عن جنوده
وعليه أن يتصل بها إذا أعجبته لكي تحضر له واحدة أخرى فى المرة القادمة ..
أسعده هذا حيث كنت قد وضعت له عبوة متفجرة بميقات زمنى تنفجر بعد تركه
للمكان بعشر دقائق حتى يلقي مصرعه ومن معه ، هؤلاء الناس لا أمان لهم ،
أرجو أن تغلق فمك بكل ما شاهدته أو سمعته حيث إن حديثك في هذا المجال قد

يقضى عليك ، هناك العديد من العصابات التي تتبعهم وأنا أحمل لك كل حب منذ
شاهدتك وأنت تعمل على إنقاذى ومنع القتل من أن يقترب من العبوة المتفجرة
رغم أننى كنت قد نزعتك ولكنك لم تلاحظ هذا حيث كنت أشاهد اهتمامك.

لقاء غير متوقع

صباح اليوم التالي أيقظتني "زينة" من نومي وأخبرتني أنها تشاهد جزيرة قبرص على مسافة عدة كيلومترات وأنه من المحتم علينا ترك رباط الباخرة ؛ لأنها لن تتجه إلى الميناء قائلة لي مجرد أن تسمع دوران موتور اللنش عليك فك حبل الربط مع الباخرة حتى نبتعد ولا نجد أنفسنا بجوار رفاص الباخرة الذي سوف يسحبنا أثناء دورانه أسفلها ونلقى حتفنا ، أسرعت الخطى ووقفت بجوار الباخرة وأمسكت بحبل الربط وأنا أدعو الله أن ينقذنا مما أخبرتني به زينة ، دقائق مضت سمعت بعدها صوت دوران الموتور ، أشارت لي بأن أبدأ بحل الرباط ، في لمح البصر فككت حبل الربط وشاهدت زينة تقفز باللنش بأقصى سرعة كدت معها أن أسقط أرضا من قوة الدفع ، كان اتجاه سير اللنش عموديا وإلى الأمام حتى نبتعد عن رفاص الباخرة ، كانت الأمواج ترتفع وتخفض وكاد اللنش يغرق لولا براعة زينة ، بعد قليل أصبحنا في مأمن وشاهدتها تقفز مرحا وطربا وتصفق وأسرعت إليّ واحتضنتني وقبلتني قبلة طويلة ساخنة.

أشاهد الجزيرة تقرب منا أو نحن بالأحرى نقرب منها ، طلبت منى ملاحظة دفة القيادة وهبطت لأسفل تتحدث بالإنجليزية ، كان صوت حديثها الذي وصل إليّ يفيد بأنها أنهت مهمتها بنجاح ، صعدت إلى سطح اللنش تتحدث معي وتخبرني بأنها ترغب قبل الوداع بأن تصحبني إلى مطعم نتناول فيه عشاء الأحبة ، وافقتها ثم عدت واعتذرت بأنني لا أملك مالا ، ضربت كنفى برقة وأخبرتني بأن الجنيهات الأسترلينية مازالت معها ولا يجب عليّ أن أحمل أي هم لأي نفقات ، وسوف تقضى معي أمسية ممتعة وفي الصباح تودعني متجهة إلى

اليونان وقبلها سوف تحصل منى على عنوانى بالإسكندرية.

نتجه صوب الميناء وأشاهدها وهى تشير إلى نفر يقف على الرصيف ،
مالت على قائلة إنه صديقها بالجزيرة ثم ضحكت ضحكة ناعمة تعطى المعنى
دون إفصاح ، توقف اللنش وقذفت بالحبل إلى صديقها ويدعي "تيمور" مد يده
مصافحا لها واحتضنها بقوة أفصحت الكثير مما قالته عن علاقتها به ، مازلت
واقفاً بداخل اللنش فأشار إلىّ وهو يحدثها ، كيف حال الزلمه؟ قبلته قبلة ثانية ولم
تجبه فسمعتة يتحدث قائلا طيب أخلص عليه وارجع لك ، شاهدته يشهر مسدسا
في وجهي ، صرخت زينة وقفزت بداخل اللنش لتدافع عنى كنت لحظتها قد
قفزت إلى داخل مياه الميناء الباردة العميقة ، أطلق صوبى عدة رصاصات من
مسدسه وفي اتجاهى أصابت إحداها الجانب الأيمن من بطنى وشاهدت الدماء
من حولى ، صرخت ألما بينما تدخل حرس الميناء وأطلق النار على "تيمور"
مما جعله يقفز بجوار "زينة" بداخل اللنش للهرب ولكن الرصاص مازال ينهمر
على اللنش مما أدى إلي أن اخترقت إحدى الرصاصات عبوة البنزين الإضافية
التي حصلت عليها زينة من الإسرائيليين بعرض البحر ، انفجرت عبوة البنزين
وانتشر الحريق باللنش وشاهدت زينة والحريق قد وصل إلى ملابسها مما دفعها
إلى القفز داخل المياه بينما ظلت النار ممسكة بصديقها "تيمور" ، أسرعت أسبح
بيد واحدة رغم إصابتي وأمسكت بيد زينة قبل أن تغوص في عمق مياه الميناء ،
نظرت إلىّ وتعلقت يداها برفقتي صارخة "حروج .. حروج كثيره يا عابد" أقبل
لنش تابع للميناء وساعدونا وانتشلونا من داخل المياه ، تبادلنا النظرات وأنا
أشاهد بعض الحروق التي لحقت بذلك الوجه الجميل من جهة رقتيها التي تماثل
العاج فى النعومة واللون وقد أثرت بها بعض الحروق ، نقلنا إلى المستشفى

للـعلاج ، بمجرد دخولـى المـستشفى هاجمتنى غيبوبة لم أستفق منها ، بعد فترة زمنية تنبهت وشاهدت نفسى مستلقى على أحد أسرة المستشفى وزينة تجلس بجوارى وقد وضعت ضمادات حول ذراعها الأيمن وجزء من الوجه ، رفعت يدى راغبا بتحسس بشرتها الناعمة ، بكت وهى تقبل يدى وتخبرنى أنها منذ الأمس وهى تجلس بجوارى حتى بعد الانتهاء من إجراء العملية الجراحية ، تحدثنى قائلة:

- ربنا كتب لك عمر جديد ، رصاصة المجرم "تيمور" اللى مات وغرج بهدلت الطحال وعلشان كده استأصلوه ، لم أعرف ما هو الطحال كنت أسمع عنه ولكن لا أعرف شكله أو وظيفته ، مازالت تواصل حديثها:

- شفت اللى حصل ليا يا عابد لكن ربنا أخذ بتارنا من "تيمور".

بعد قليل حضر الطبيب المعالج وتحدث إلى بلغة لا أعرفها ولكن "زينة" تحدثت معه وعلمت منها كل ما دار بينها وبين الطبيب ، وأن البوليس سوف يحضر بالغد للحصول على أقوالى كما أخبرها بأنهم إتصلوا بالسفارة المصرية بالعاصمة "نيوقوسيا" وسوف ترسل مندوباً للمستشفى ، شكرت الله بأن جهة رسمية بالدولة سوف تتعرف على ، طلب الطبيب من زينة التوجه لحجرتها حتى يقوم طبيب التجميل بفحص درجة الحروق التى أصابتها ، قامت بوداعى على وعد بأن تحضر لزيارتى من حين لآخر.

مازلت مستلقى على السرير مفتوح العينين أستعيد الأيام الماضية وأنا شبه مدهول لكل ما حدث منذ أن غادرت منزل "أسرة أبى السعادات" أستعيد لقاءات كل من تعرفت عليهم ، وكان هذا آخر لقاء وما حدث به من مغامرات كنت أسمع عنها أو أشاهدها بأفلام "جيمس بوند" كانت مغامرة حقيقية مرعبة فى كل

خطوة وفى كل ثانية ، كان من الممكن أن أفقد خلالها حياتى أو أصاب إصابة مؤلمة.

أقبلت على الممرضة وتحدثت معها متسائلا عن حالة "زينة" الصحية ، كانت لا تعرف سوى القليل من الإنجليزية فكل حديثها باللغة اليونانية التى لا أعرف منها سوى القليل بحكم وجود جالية يونانية كبيرة بالإسكندرية حتى وقت قريب وكان لى صداقات كثيرة ببعض الشباب بحكم تربيتنا وبحكم الجيرة ، كانت الكلمة الصادمة لى بالإنجليزية هى "dingares Burn" وهذا يعنى أن أصابتها حروق خطيرة ، أصابنى الانزعاج والألم فكننت 'محا لتلك الغانية حيث كانت سيدة صاخبة مغردة وتجمع بين الصفتين.

لم تحضر "زينة" إلى زيارتى مرة أخرى حسب وعدها السابق لى ، اليوم التالى استفسرت من الممرضة متسائلا "nurse how is mis zena now" (كيف حال السيدة زينة الآن؟) أجابت بأن الحروق التى أصابت زينة أصابها التلوث وهذا شئ خطير "infection" حاولت الحصول على معلومات أكثر ولكنها لم تفدنى ، نهضت متحاملا على نفسى راغبا بزيارتها ولكن "الممرضة" أقبلت صائحة تشير إلى بأن أعود إلى سريرى.

بعد ساعة أى قبل الظهر أقبل اثنان من موظفى السفارة المصرية أحدهم الملحق الطبى والآخر مسئول الأمن بها ، راجع الملحق الطبى التقرير المعلق على السرير الخاص بى وأشاد بحسن الرعاية بينما وجه لى مسئول الأمن بعض الأسئلة كاننى أحد المتهمين بمصر وبطريقة أبعد عن الذوق واللياقة والكياسة ، رفضت الإجابة على أسئلته المستفزة فهددنى متوعدا مما دفعنى لأن أسمعه بعضا من الأصوات الصادرة من الفم بالطريقة السكندرية مما اعتبرها

إهانة لا تغتفر ، اليوم التالي أخبرنى الطبيب المعالج بأن السفارة المصرية طلبت من المستشفى تقريراً عن حالتى الصحية وموعد مغادرة المستشفى لكى تعمل على ترحيلى إلى مصر.

صباح هذا اليوم أقبلت "المرضة" تدفع بكرسى متحرك عارضة على زيارة زينة ، أسعدنى هذا رغم أنها كانت في حالة من الضيق كأنها تناولت كوباً من النشا أو الخميرة ؛ حيث كانت تقاسم وجهها صعوبة للغاية ، دفعت بالكرسى حتى حجرة زينة ، شاهدت الأطباء والمرضين يلتفون حول سريرها وهى تتحدث معهم بكل صعوبة ، مجرد أن شاهدتني مدت يدها إلى باسمه مرحبة وأنا بالأحرى حاولت النهوض ولكن الممرضة منعتنى خوفاً على من أثار الجرح الغائر بجسدى ، مدت يدها تصافحني ولكن ما شاهدته على ذراعها أصابني بالذهول من حجم الإصابة وما حدث للحروق من تلوث.

أخبرتني بأنها 'مقبلة على عملية جراحية خطيرة وأنها رغبت فى الحديث معى ومشاهدتى وأنها أخبرت سلطات التحقيق القبرصية بأنها شاهدتني أسبح بعرض البحر بعد أن حمرت الأمواج القارب الذى كان يقلك وأنت لك ليس لك دخل بما حدث من إطلاق نيران بالميناء فأنت شاب مصرى ترغب بالعودة إلى مصر بعد أن ضللت طريق الإبحار ، ودمر قارب الصيد الخاص بك ، أشارت إلى بأن أكرر هذا الحديث حين سؤالى حتى أبتعد عن مشاكل شبكات التهريب والإجرام. طلبت منى أن أدعو الله لها بالشفاء وإذا من الله عليها بالشفاء فسوف تسلك طريقاً آخر وسوف تبتعد عن تلك العصابات سواء برغبتها أو بعد أن زال جمالها ، ظهرت دموعها وأنتى لم أشاهدها منذ تعارفى بها منذ أربعة أيام ؛ حيث كانت البسمة والضحكة والأنوثة هى كل حياتها ، أقبل بعض العاملين بالمستشفى

ووضعوها فوق "تروللى" العمليات الجراحية وتحركوا بها وهى تطلب عونى وتمد ذراعيها فى اتجاهى كأنها تستغيث بى ، 'كنت لا أملك سوى البكاء والدعاء لها ، أقبلت على الممرضة التى تشرف على حالتى وأعدت دفعى بالكرسى إلى حجرتى وعاونتنى بالاستلقاء على سريرى.

طوال اليوم 'كنت رافضا تناول الطعام مما دفع بالممرضة بأن تستعين بالطبيب الذى أقبل طالبا منى تناول طعامى حتى أحصل على العلاج اللازم وحينما أبديت له حزنى وضيقى على صديقتى "زينة" طيب من خاطرى وطمأننى بأنها غادرت غرفة العمليات بعد تعقيم الجروح وإجراء بعض العمليات الجراحية بالوجه لإزالة الحروق التى كانت شديدة ؛ حيث أنها من الدرجة الثالثة وبعد مضى عدة أشهر وبمساعدة الأدوية والكريمات سوف تعود إلى حالتها وأنه يمكنك زيارتها بعد يومين من الآن وأعدك بهذا ، كان الطبيب اليونانى يتحدث الإنجليزية البسيطة التى استوعبتها.

أقبلت على الطعام والشراب فقد من الله على رفيقة رحلة الهروب من سيناء بالشفاء وسوف أشاهدها بعد يومين ، بدأت أشعر بتحسن فى حالتى الصحية وأننى أستطيع السير بضع خطوات بداخل الحجره ، اليوم التالى مساء أقبل الطبيب باسماء فانعكس هذا على وجهى لما شاهدته وخاطبنى قائلا أنا عند وعدى ، طلب من الممرضة بأن تدفع بالكرسى إلى حجره "زينة" لأطمئن عليها ، وهذا سوف يساعدها على الخروج من حالة الاكتئاب التى لازمتها منذ مغادرة حجره العمليات.

تقدمت إلى حجره "زينة" مدفوعا على الكرسى المتحرك وأنا أخشى أن أراها على وضع سئى فحديث الطبيب بأنها فى حالة اكتئاب وحزن شديد أثار

مخاوفى ، اقتربت من سريرها حيث كانت تغطى وجهها ، ناديت عليها فسمعت صوت بكائها أسفل الغطاء ، ربت على كتفها طالبا منها أن تحدثنى حتى أطمئن عليها ، كشفت الغطاء من على وجهها والذى كان مغطى جزء كبير منه بالشاش والأريطة ، طيبت من خاطرها ولكنها بكت مستغيثة بى مرودة:

- شو بجى عليه حالى ، كله من عمایلها الزلمه المجرم لكن ما يجوز عليه السباب ، وين جمالى وين شبابي راح كله بالنار ، حرام ربنا ينتجم .. ربنا ينتجم .. روحها الوجت وبعد ثلاث تيام حيرفعوا الرباط من على الوجه المحروج .. واندفعت باكية وأعادت وضع الغطاء على وجهها وهي تشير روح .. روح يا زلمه.

دفعت الممرضة الكرسي عائدة بى إلى حجرتى وأنا في ضيق مما سمعته من بكاء "زينه" الذى لم أسمعها منها من قبل ، لقد راح الشباب وضاع الجمال وانطفأت الفتنة وذابت الأنوثة ، رددت .. دوام الحال من المحال .. سبحانك يارب .. نلجا إليك في العثرة ولا نتذكرك إلا في الشدائد ونلوذ بك في الأنواء لكن حينما نكون سعداء وبصحة والمال والصحبة من حولنا ننساك وننسى أوامرك ، لقد أصبحت أنا وزينه من عبادك الضالين ، اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا.

مفاجآت غير متوقعة

مضت على الأيام ثقيلة بطيئة مع شعورى بتحسن واضح من أثر الإصابة ،
اليوم التالى قام الطبيب بفك الغرز الجراحية وشد من أزرى بأن الجرح نظيف
وبعد خمسة أيام يمكننى مغادرة المستشفى كما أشار إلى بأنه يمكننى السير
بردهة المستشفى والتنزه بالحديقة إذا كانت الأحوال الجوية ملائمة ، ودعنى
طالباً من الممرضة بأن تقوم بمساعدتى فى الحركة والتوجه للحديقة.

فى المساء تحركت بخطوات بطيئة متجهاً إلى حجرة "زينة" ، كان الباب
مُغلقاً ، طرقت الباب طرقات خفيفة فسمعت صوتها الذى لا أستطيع أن أفقده من
خلال أصوات كثيرة فهو صوت مميز بنعومته مع اللهجة اللبناية المحببة
للمصريين ، فتحت الباب بهدوء وتقدمت منها فأضاءت أباجورة بجوارها
فشاهدتني فعلت البسمة وجهها الجميل والذى مازال عليه بعض الأربطة الطبية
، أشارت إلى بالتقدم منها وفردت ذراعيها لى كأنها ترحب بى.

- حمداً لله على سلامتك يا زينة

- الله يعطيك العافيه ، أنت زلمه طيب وابن ناس

- أخبار الجرح إيه

- الحمد لله ، تم علاج التلوث وكانوا خايفين تعمل غرغرينا ودى بتموت على

طول لكنهم لحجونى على آخر لحظه

- ربنا معاك

- إيه .. أنت واجف ليه ، ربح بالك واجعد ، نفسى أكلمك كثير

- أدى قاعده

- باتطلع لك والله يا زلمه بتفكرنى بأفلام مصر الحبيبة ، أنا شايفه عمر الشريف
وسامعه عبدالحليم حافظ .. بتضحك .. شو بتضحك عليه يا صاحب العوينات
المليحه

- أنا شاعر إنك بقيتى قل وورد أحمر كمان

- الله يعطيك العافيه ، بلش وخبرنى عن أخبارك ، السفارة اتصلوا فيك؟

- أيوه ، وزارنى بعضهم والدكتور قال لى أنه من الممكن أخرج بعد خمس تيام

- خبر مليح وزين .. بخاطرك تفكر تروح من غير ما تعود على

- مش ممكن أعمل كده وأنسى الحلاوة والعطر الجميل

- كله راح .. راح .. راح .. خد أملي وراح .. ليه بتضحك؟

- بتعملى زي عبد الحليم .. دي أغنيته

ظل الحديث دائرا بينى وبين "زينة" فترة طويلة حتى شعرت بأنها مخدرة
ورغبة فى النوم فوضعت قبلة خفيفة على ما تبقى ظاهرا من وجهها وأغلقت
الأباجورة وتسللت بهدوء مغادرا الحجره.

اليوم التالى أخبرتنى الممرضة بأن "زينة" رفعت عنها الأربطة وسوف
تلتاق بالحديقة ، كان هذا الخبر سعيدا على لأقصى درجة ، بعد قليل أقبلت على
زينة تنهادى وقد استبدل الأطباء الأربطة ببعض الشرائط الطبية الخفيفة ، كان
واضحا حدوث تشوه ولكنه كان قليل المساحة وفى الوقت نفسه لم يكن مؤثرا
بشدة على جمالها بل أثر على حالتها النفسية ، نهضت مصافحا ومساعد لها فى
الجلوس ، ظللنا نتحدث لفترة طويلة وقد زادت فترات الابتسام والضحك مما
دفعنا للتناول والنظر إلى المستقبل بعين راضية خاصة إنها أخبرتنى بأن طبيب
التجميل أخبرها بأنه سوف يقوم بإجراء عملية تجميل لها بعد حوالى أسبوع وأكد

لها أن كل أثر من الحريق سوف يزول وتعود لحالتها بعد أشهر قليلة.

توالت لقاءاتنا اليومية بالحديقة وفي بعض الحالات حين هطول الأمطار كنا نسرع إلى غرفتها حيث اللقاء الدافئ بيننا ، في إحدى المرات سألتني عن سبب وجودي على شاطئ البحر بسيناء حين تقابلت مع مزراح الضابط بجيش الدفاع الإسرائيلي ، أخبرتها بأنني توجهت لهذا المكان مصادفة واختبأت أسفل جناح الطائرة إتقاء الطقس البارد الممطر ، ضحكت لهذا وأخبرتني بأنها قامت بتلك الرحلة أربع مرات وكانت تلك هي المرة الأخيرة وأثناءها حاول مزراح الغدر بي رغم أنه لبناني كيف حالي وكان الاتفاق بيننا دائما أن يزودني بالوقود مثل كل مرة وعندما شعرت بنوايا غدره غدرت به قبل أن ينال مني.

اليوم التالي ونحن جلوس بالحديقة نبهتني "زينة" بأن عامل الحديقة العجوز "دوبلس" كثيرا ما يعمل قريبا منا محاولا التصنت على حديثنا ، نظرت إلى الرجل ونفيت هذا مؤكدا لها أن الرجل يعمل وسمعه قليل ، وهذا باديا عليه حين يسأله أو يتحدث معه أحد بحديث ما لكنها مازالت متشككة في أمره وقد أصابها التوتر من أن يكون تابعا للموساد الإسرائيلي الذي له الكثير من العملاء بهذا الميناء بل بكل أنحاء قبرص.

تحسنت حالتي الصحية إلى درجة كبيرة وقرر الطبيب المعالج بأن أغانر المستشفى صباح الغد ، حينئذ أخبرتني "زينة" بأنها اتفقت مع صديقتها "رينيه" وهي من بنات الجزيرة بأن تستضيفك حتى يتم علاجي وأعمل على مساعدتك للسفر إلى مصر إذا لم تقم السفارة المصرية بهذا ، شكرتها على اهتمامها بي وأمضينا ليلة جميلة خلالها اقترب الحديث أكثر عن المعلومات الشخصية كما طلبت مني لأول مرة عنواني بالإسكندرية فكتبته لها وقرأته عدة مرات أمامي

لزيادة التأكيد بل أنها طلبت منى أن أصف لها الحى الذى أعيش وأحيا به محددة من أى مكان يبعد عن مسجد أبى العباس المرسى الذى تسمع عنه وتشاهد بعض المناظر القريبة منه من خلال بعض الأفلام المصرية.

صباح اليوم التالى أقبل مفتش الشرطة وبصحبتة مترجم للغة العربية وحصل منى على بعض الأجوبة لأسئلة مطلوبة لإنهاء محضر التحقيق ، كانت الأسئلة سهلة وكان اعتماد المفتش على كل الأقوال التى أدلت بها زينة لهم منذ ثلاثة أسابيع عقب حادث إطلاق النار على وإصابة زينة بحروق.

غادر مفتش الشرطة المستشفى دون أن يوجه لى أى اتهام طالبا منى التمتع بأوقات طيبة بين اليونانيين القبارصة الذين يقدرون شعب ومصر وزعيمها جمال عبدالناصر ، توجهت إلى غرفة زينة" حيث شاهدت فتاة رقيقة على مستوى عال من الجمال تجلس معها وهما تتجادبان أطراف الحديث الضاحك الباسم ، مجرد أن شاهدتنى زينة رحبت بى وعرفتنى بصديقتها:

- يا هلا .. مرحبا بك يا عابد المصري

- صباح الخير يا زينة والنهارده شايفك ورده منوره ومعاك زهرة جميلة

- إبتسمت السيدتان ثم تحدثت زينة مع صديقتها ببضع كلمات أجنبية على أثرها زادت الفتاة من ابتسامتها

- تروح مع "رينيه" وأوعى عويناتك تروح كده والا كده وأنا معرفاها إنك "نمس" زي ما المصريين بيحكوا

تبادلت أنا وزينة قبلات سريعة وغادرت حجرتها برفقة "رينيه" إلى خارج المبني مرورا بالحديقة حيث شاهدت "نوبلس" الرجل اليونانى الذى يعمل بالحديقة وأثار حفيظة "زينة" فقامت بتحيتة بإشارة منى فأسرع إلى مرحبا بى

وحدثني بلهجة عربية سليمة وأخبرني بأن بعض المصريين أقبلوا لمساعدتك من السفارة وهم في انتظارك بسيارة على جانب باب المستشفى ، أسعدني حديث الرجل الذي تركني وعاد إلى عمله ، مازلت سائرا بجوار "رينيه" الجميلة الرقيقة التي تشبه جدتها "فينوس" إلهة الحب والجمال لدى الإغريق موطنها.

شعرت بسعادة لحديث عم "دوبلس" بأن رجال السفارة اهتموا بحالي وهم في انتظاري بسيارة ، فكرت كثيرا وأنا أقترّب من باب المستشفى الخارجى وأشاهد السيارة وأحد الرجال بجوارها وملامح وجهه المصرية تنبئ بهذا ، فكرت بأن أطلب منحى أسبوعا آخر حتى أتأكد من تمام شفاء "زينة" ، كنت أسير بكل ثقة مرفوع الرأس بعد أن سُفِيت تماما كما أسعدنى جرعة الحديث التي ظلت مع "زينة" طوال ثلاثة أسابيع بالمستشفى كما كنت من حين لآخر أوجه نظري إلى مرافقتي الرقيقة فازدت بهجة وسعادة.

بعد خروجي من باب المستشفى اقترب مني الشاب الواقف بجوار السيارة يحدثني متسائلا: أنت عابد المصري؟ أجبته بالإيجاب وهنا أشار إلى بأنه يجب عليّ محادثة رئيسه بداخل السيارة وهو رجل متقدم بالسن ولا يستطيع النزول والحديث معك ، أبديت استعدادي لهذا شاكرا له ولرئيسه تجشمهم لكل هذا المجهود للقائى ، فتح الشاب باب السيارة فشاهدت رجلين بالداخل يرتديان نظارات الشمس الغامقة وشعرت بمن يدفعنى لداخل السيارة وأن الشخصين بالداخل سرعان ما وضعوا شريطاً لاصقاً على فمى وشعرت بأن يديّ مقيدتان وجلسا بجوارى كل واحد علي أحد الأجناب وأثناء ذلك سمعت صرخات واستغاثة "رينيه" باليونانية وشعرت بأنها مازالت تصرخ رغم ابتعاد السيارة عن باب المستشفى ، كنت فى دهشة بأن السفارة لم تف بوعدها بترحيلى

وتركتني لقمة سائغة لهؤلاء الخاطفين.

لم يتحدث أحد معي لكنني شعرت بأنى وقعت بيد رجال الموساد الإسرائيلي فقد تتبعوني نظرا لصدقتى بـ "زينة" وما قامت به من قتل مجموعة من رجالها على سواحل سيناء وأنها كانت المتسبب الأول فى قتل رجل الموساد "تيمور". أيقنت إننى هالك ومن سوف ينقذنى من برائن إجرامهم.

لم يتناول عليّ أحد من الرجال بداخل السيارة سواء بالضرب أو السباب وقد ارتدى كل واحد منهم شيئا على وجهه ليخفى معالمه ، ظلت السيارة تسير بسرعة كبيرة كنت خلالها أشعر بسرعة دورانها فى المنحنيات وفي بعض الحالات تقف فجأة وأسمع صوت الفرامل واحتكاك العجل بالأرض ، تأكد لى بأننى اختطفت وسوف أنقل لمكان ما ويطلق عليّ النار.

توقفت بنا السيارة وشاهدت سرعة تحرك الرجال وقد انضم إليهم آخرون وشعرت أننى أحمل ثم شعرت بأننى أنزل لمكان منخفض من درجة ميل جسدى ، لم أسمع كلمة واحدة ولكننى سمعت صوت موتور وأعتقد أنه لنش لأننى كنت أستم رائحة مياه البحر وأسمع أصوات الطيور البحرية ، وضعت على أرضية القارب الذي كان يتأرجح يمينا ويسارا ، سمعت صوتا للمرة الأولى يتساءل:

- هو ده؟

- أيوه .. ده القرش الكبير

أيقنت بأن هناك خطأ ما ثم عاودتنى الأفكار بأن القرش الكبير تعنى بأنه تاجر المخدرات ؛ حيث كنت أسمع من بعض أصحاب الكيف أن سعر القرش اليوميين دوول يرتفع ثمنه وأصبح كذا جنيه ، والقرش فى عالم الكيف هو قيمة وزن المخدر أمام القرش صاغ ولهذا أطلقوا عليه هذا الاسم ، أشعر بأن القارب يسير

بسرعة كبيرة وهذا ناتج من سقوط بعض الرجال عليّ وأنا مستلق بأرضيته ،
هدأ صوت الموتور وقلل من سرعته وشعرت بأنني أحمل ثائية ولفحتني برودة
هواء البحر ، شعرت وشاهدت البعض وهم يتسلمونني من فوق مركب كبير
وأعيد طرح اللقب ، القرش وصل ، بسرعة تحركوا حتى لا تأتي قوات السواحل
بقبرص وتحدث مشكلة سياسية ، سمعت صوت شخص آخر ، إحنا خارج المياه
الإقليمية يعني بالمياه الدولية ، كل تلك الأحاديث كانت تدور باللغة العربية
وباللهجة المصرية.

ساعدني بعض الرجال فوق المركب بالوقوف وأزيلت عني الأربطة
والشريط اللاصق من على فمي ، حصلت على جرعة من الهواء النقي وابتلعت
ريقى ، حذرنى أحدهم: مش عايز أسمع لك نفس ، فاهم يا قرش؟ شاهدت أحد
الرجال يفتح غطاء بسطح المركب وطاب منى الهبوط لأسفل ، الحقيقة مجرد أن
فتح الرجل هذا الغطاء اشتممت رائحة نفاذة ، هبطت درجات السلم الحديدى بتأن
نظرا لحالتى الصحية وسمعت بعض أصوات لرجال تطلب من إدارة المركب
بالرحمة حيث البرودة قاسية عليهم وهم منذ أسبوع أو يزيد بهذا المكان والبعض
يطالب بنظافة المكان أو استخدام دورة مياه بدلا من الأسلوب المستخدم حاليا.

لم أسمع أى رد على تلك الأسئلة أو الاحتجاجات ولكنى سمعت صوت إغلاق
الباب الحديدى وبالتالي انخفض الضوء بداخل الحجره ، شاهدت أشباه رجال ،
ملابس ممزقة والفضلات الأدمية تغطى أرضية الحجره أو العنبر المكون من
الحديد ، رحب بى الجميع وأحدهم تحدث قائلا:

- أهلا بالمعلم قرش!!

لم أجب ولكن البعض أفسح لى مكانا بأن دفعوا بزميل لهم فوق فضلاتهم

فحاول الاعتراض فأوسعوه ضربا وركلا مما دفعنى دون قصد إلى نهرهم فصمت الجميع وقال أحدهم حقك علينا يا كبير ، ما زلت لا أعلم أين أنا ومن هؤلاء الناس ، شاهدت شابا من بين حوالى سبعين شابا من المحشورين بهذا المكان راغبا في الحديث معى ، أشرت إليه فحضر مسرعا مقبلا يدي.

- ربنا معنا ومش عارفين إيه اللي حيعملوه؟ طبعا أنت لك سمعتك ونفوذك يا ريت تساعدنا

- أنتم مين؟

- إحنا يا بيه بقالنا شهور عايشين هنا فى قبرص بنشتغل أى حاجة ومش عارفين الجماعة دول قبضوا علينا ليه

- إزاي جيتم قبرص؟

- دي حكاية طويلة .. سمعت أحدهم يتحدث:

- بصراحة إحنا عساكر فى الجيش المصري وانسحبنا من سينا بقوارب ولنشات وإتبهلنا آخر بهدلة وثفنا الموت ألف مرة سواء من موج البحر أو من لنشات اليهود ، اللي فضل عايش منا عدد بسيط ، يعني نسبتهم الربع لكن اللي راحوا فى البحر ميات ، الله يرحمهم ومش عارفين نرجع بلدنا والبوليس القبرصى بيطاردنا ، بعض العرب هنا ومنهم مصريون أخذونا نشغل عندهم بلقمتنا وزى ما حضرتك شايف حالنا عامل إزاي ، من كام يوم لقينا مصريين مش عارفنهم بيلموا فينا وأخذونا على المركب ، علق شخص آخر:

- دوول ناويين يموتونا فى البحر .. بينما علق آخر:

- دوول قبضوا علينا وحيسلمونا فى مصر ، أنا سمعت اتنين منهم كانوا بيتكلموا بالليل لما طلبوا منا كام نفر عشان ننصف دورات الميه بالمركب ونغسل

ضهرها ، قالوا إنهم قبضوا علينا وح يشحنونا على مصر عدل وهناك مصيرنا مظلم.

لم يقطع الحديث أو الكلام وأنا لا أعلم ما هي وجهتنا وما هي حكاية القرش ، بعد حوالى الساعة 'فتح باب الحجرة من أعلى كما هو معتاد وهبط رجلان وقاما بتوزيع الطعام علينا ، الطعام مكون من العدس والخبز والبصل الجاف وعبوة زيت موتور فارغة كبيرة ممتلئة بالماء ، وعدد من القصعات المستخدمة في تعبئة الأسمنت للمباني ، فرغوا عبوات الطعام بالقصعة والتي أصبحت مثل طبق كبير الحجم وكل واحد من المحبوسين يقوم بوضع الخبز في القصعة ويبتلعها والبعض انهمك في دش البصل الجاف ، لم تمض دقائق إلا وأتى الجميع على الطعام بينما رفضت تناوله سواء لقدارته أو لشعورى بالشبع ، عمت رائحة البصل المختلطة بروائح فضلات الشباب بتلك الحجرة أو الخزانة ، المكان عبارة عن مستودع كبير علمت فيما بعد أنه مخصص لتخزين البترول الخاص بالسفن الصغيرة بالميناء قبل إقلاعها حيث تقوم تلك السفينة بتزويد السفن بالوقود التى تحتاج إليه وقد قللت رائحة المازوت "المازوت ووقود أسمر اللون ثقيل الوزن" من رائحة فضلات الشباب بالمخزن والتي كانت مزرية لأقصى درجة.

مضى على وجودى بهذا المكان أكثر من أربع وعشرين ساعة ، اليوم التالى لا يختلف عن اليوم السابق ومازال الرجال معتقدين بأننى تاجر مخدرات كبير طالبين عونى ، تداخلت الأحداث فيما بيننا ولم أعد أعلم هل أنا القرش تاجر المخدرات أو الضابط عابد ، شعرت بأن الدنيا لم تنته مشاكلها معى رغم ما قاسيته من أنواء خلال الشهور العشرة الماضية فنحن في بداية شهر مارس من عام ١٩٦٨.

استيقظت من نومى فزعا على ضوء مبههر وصوت مرتفع يأمرنا نحن ولاد .. بالخروج فردا فردا .. غادرنا التتلك الحديدى ونحن جميعا مغروسون فى أوحال بشرية مضى على بعضها أسبوع ، مجرد أن وصلت إلى سطح المركب حتى شعرت بمن هوى على قفايا ضربيا وعدد من اللكمات سقطت على أثرها أرضا ، حاولت الوقوف كما شاهدت من سبقونى والدماء تسيل من رءوسهم وانوفهم وأفواههم لأن أى واحد منهم يغادر التتلك يحصل على التتحية الواجبة كما عرفت فيما بعد.

نهضت وقد بلغ منى الضيق مداه فشاهدت أحد الرجال والذى يشبه المصارع قادمًا فى اتجاهى لأحصل منه على باقى التتحية ، استقبلته بضربة بسيف يدي بصدرة سقط على أثرها أرضا صارخا مما دفع بباقي زملائه للهجوم عليّ وأوسعونى ضربيا وركلا ولكننى لم أأخذ أو أستسلم بل ظللت أبادلهم الضربات واللكمات مما أثار باقى الرجال الذين كانوا معى فتشجعوا وهجموا عليهم وأصبح سطح المركب ساحة قتال دامية ، لم أستكن رغم ما بي من جرح مازال حديثًا ولكن ما شاهدته ولاقاه الآخرون أشعرنى بأنه من الواجب علينا الدفاع عن أنفسنا أمام هؤلاء الرجال الذين فارقتهم الرحمة والإنسانية.

ترامى إلى سمعنا صوت صفارات السفن بالميناء تُعلن تحيتها للسفينة القادمة ورغم هذا لم نتوقف عن القتال مما دفع بهيئة الميناء التى شاهدت ما يجرى فوق سطح المركب إلى تحذير القبطان بمنعه من الدخول كما طلبت من القوات البحرية بإرسال لنش سريع لمعاينة ما يحدث.

أثناء العراك المستمر شاهدت أحد لنشات القوات البحرية الذى وقف بجوار المركب وصعد قائده وبعض رجال البحرية وقد فوجئت بأنهم مصريون ، توقف

القتال واقتيد المركب إلى آخر رصيف بالميناء وأقبلت الشرطة العسكرية بالقوات البحرية التي قامت باصطحابنا خارج السفينة ولم يسلم واحد ممن كانوا محبوسين بالسفينة من إصابة أو أذى.

شاهد قائد قوة الشرطة العسكرية ما حدث لجميع الرجال وتساءل عن سبب هذا وبحديث ساخر أجاب أحد الرجال الذين أذاقونا الضرب والإهانة والذي تبين أنهم من رجال بوليس الميناء بأنه من الواجب علينا تقديم التحية لهم ، نظر إليه الضابط بذهول متسائلا: من هم هؤلاء الرجال؟ وقد أجابه هذا الرجل صاحب الصوت الغليظ والقلب الجاف بأنهم مجرمون مصريون وكانت الأوامر الصادرة إلينا بأننا سوف نستقل هذا المركب ونعود بهؤلاء المجرمين ، اقترب منه الضابط وصاح بالجميع قائلا: "يا ولاد الكلب. دوول عساكر من الجيش المصري تقوم تعملوا معاهم كده ووكز "زغده" كبيرهم في في صدره متسائلا: كيف تقوم بإهانة رجال من الجيش المصري يا حقيير؟ وفي لمح البصر شاهدت وسمعت صوت صفة قوية على وجه الرجل الذي أصابه الذهول مما دفع بزملائه لمحاولة التدخل فهجم عليهم رجال الشرطة البحرية بالضرب المبرح حتى طلب منهم قائدهم التوقف وأشار إليهم بوضع القيود الحديدية بأيدي هؤلاء المجرمين ثم نظر إلينا مقدما اعتذاره وأن ما حدث لن يمر مرور الكرام ولا بد من معاقبة رجال البوليس المكلفين بحراستكم بعد عودتكم من جزيرة قبرص.

حضرت عدة سيارات إسعاف تابعة لمستشفى القوات البحرية ونقلتنا جميعا إلى داخل قسم الرعاية وهناك انكب الأطباء على الجنود وشاهدوا ولمسوا الحالة المزرية التي أصبحوا عليها سواء من النظافة الشخصية أو الإصابات من تعدى رجال البوليس عليهم كما كانت للحالة النفسية الأثر الواضح على الجميع.

طلب نائب مدير المستشفى من معاونيه العمل على نظافة العائدين واستبدال ملابسهم المهلهلة والقذرة ، توجه بنا العاملون من رجال المستشفى إلى الحمامات حيث اغتسلنا وحصلنا على حمام منعش أزال عنا كل القانورات والروائح السيئة وحصلنا على ملابس جديدة ثم أعقبها وجبة ساخنة أدخلت الدفء إلى نفوسنا الحزينة لما شعرنا به من إهمال وتجاوز بلُغربة وصلت إلى عشرة أشهر عن الأهل والوطن.

وقع الكشف الطبى علي جميع الرجال وسجل الأطباء كل الملاحظات التي بدت علينا وكانت تلك مطالب رجال الشرطة العسكرية ثم لحق بهم رجال التحريات العسكرية والأمن الحربي ثم النيابة العسكرية ، شعرنا أن جميع أجهزة القوات المسلحة المنوط بها مراقبة تنفيذ القانون متواجدة بالإضافة إلى أطباء القوات البحرية المخلصين الذين قدموا لنا كل عون دون تذر أو ضيق.

بعد مضي يومين على وجودنا بالمستشفى شعر من يراقبون حالتنا بأننا أقرب إلى الإنسانية وأن حالنا قد أصبح أفضل بعدها بدأت الأسئلة تنهال على رؤوسنا وكلها تصب عن الذى حدث في سيناء واسم الوحدة التي كان ينتمى إليها كل شخص وموعد تنفيذ الانسحاب وطريق الانسحاب وما الذى دفع بنا إلى سلوك طريق البحر ولم نسلك طريق البر مثل باقى القوات.

كانت الإجابات متقاربة بأننا حوصرنا بين القوات الإسرائيلية وساحل البحر فلم يكن أمامنا بد من أن نسلك طريق البحر كما أن البعض ذكر أن كمانن الإسرائيلىين دفعت بهم لاستبدال طريق الانسحاب من البر إلى البحر لما شاهدوه وسمعه من مجازر حدثت لإخوانهم الذين وقعوا فريسة سهلة لكمانن القوات الإسرائيلىية ولهذا فكان البديل الوحيد أمامهم هو طريق البحر والبعض منهم ذكر

مهاجمة اللنشات الإسرائيلية لهم فى عرض البحر وبمساندة طائرات الهليكوبتر مما نتج عنه الكثير من الضحايا بأعداد كبيرة والبعض منهم ألقى بنفسه بعرض البحر وبعضهم لم يكن يجيد السباحة فهلك على الفور ومنهم من يجيد ولكنه لم يستطع استكمال طريق الانسحاب بحرا سباحة لطول المسافة.

حينما جاء الدور عليّ كانت الأسئلة محددة ومركزة حينما علموا بأنني ضابط حيث كنت الضابط الوحيد وأتبع لجهاز المخابرات الحربي ، شرحت لهم كل ما عانيت منه سواء في سيناء وسلوك طريق البحر على ظهر قارب ، استمرت الأسئلة تنهال عليّ وأنا أقوم بالإجابة علي معظم الأسئلة وما شاهدته سواء خلال البحر وهجمات العدو على القوات المنسحبة أو خلال وجودى بمنزل أبى السعادات ثم بعد أن تركته ولقائى مع كل من حسين وعمر وما دفعنا لمحاولة تدمير الأسلحة المصرية الملقاة والمتروكة بالعراء حتى لا يستفيد منها العدو ثم لقاء المصادفة مع الجميلة "زينة" حتى تم خطفى من أمام المستشفى وأنا بصحبة "رينيه".

طلب منى الضابط المنوط بالتحقيق معي أن أقوم على كتابة كل تلك الأقوال بخط يدي حتى يستفيدوا بها فى ملاحقة العناصر الإجرامية أو الخائنة التى تتعامل مع العدو ، وجهت إليه سؤالا عن المجموعة التى قامت على اختطافى بمدينة ليماسول القبرصية ، تردد الضابط قليلا ثم أجابنى بالمفاجأة التى لم أكن أتوقعها حيث قال: منذ صدور أمر الانسحاب وما حدث من تفكك الوحدات المقاتلة تحت ضربات العدو الجوية والبرية أو من إنعدام الضبط والربط بالوحدات التى أدت إلى أن هامت وتاهت قوات كثيرة بصحراء سيناء بل والبعض اتجه للبحر المتوسط وآخرون اتجهوا إلى خليج السويس على البحر

الأحمر مما دفع بالقيادة السياسية والعسكرية إلى محاولة جمع وإنقاذ أكبر عدد من تلك القوات فدفعت بأعداد من القوات الخاصة إلى عمق سيناء والبعض من القوات البحرية إلى عرض البحر الأبيض وخليج السويس لكن المخابرات العامة أفادت بأن قلول بعض المنسحبين وصلت إلى سواحل أوروبا وقبرص وكريت ومالطة ، وهنا صدرت الأوامر لجهاز المخابرات العامة بالعمل على جمع تلك القلول وأرسلت بسفن صغيرة تحميتها قوات من الشرطة المصرية حتى لا يحدث نزاع مع أية دولة من تلك الدول حين علمها بأن هناك جنودا مصريين يقيمون قريبا من سواحلهم رغم أن تلك السفن كانت تنتظر خارج المياه الإقليمية ، استطاعت أجهزة المخابرات الحربية والعامة أن تعيد المئات من الجنود والضباط الذين ضلوا طريق العودة في كل البقاع تحت ضغط الجيش الإسرائيلي الذي كان يوجه المعركة ويعمل على توجيه المنسحبين إلى طرق الهلاك ؛ حيث هلك البعض منهم ومنهم قادة عسكريون كبار" وأسر البعض وعذب البعض وترك البعض يعودون للضفة الغربية للقناة حتى يشاهدهم من يلقاهم ويعلم بحجم الكارثة وقد حكى هؤلاء كيف شاهدوا التعذيب والقتل أمامهم حتى يصاب الجميع بصدمة قوية تمنع مصر من قتال إسرائيل مرة ثانية.

كان الكثير من المصريين الذين وصلوا إلى سواحل أوروبا قد سقط بعضهم مع عصابات لتجارة المخدرات أو مع القنلة المأجورين أو عملاء الموساد الإسرائيلي ؛ ولهذا حددت أجهزة المخابرات من هو المصري الذي ينتمي إلى الجيش المصري سواء بطريقة تحدته أو بتصرفاته التي تدل على خلفيته ومن هنا كانت تضع الخطط للقبض عليهم وإنقاذهم وعودتهم إلى الوطن مثل ما حدث معك بالتمام حيث عملاء جهاز المخابرات بالميناء شاهدوا

وعاصروا حادث إطلاق النار عليك من المدعو "تيمور" وهو من أحد العناصر الإجرامية في الميناء والذي يقوم بالاتجار في كل شئ منافع للقانون من مخدرات وأسرار نول وبغايا من نساء أوروبا الحسان ، تتبعك أحد العملاء وظلت تحت المراقبة وقد أطلق عليك لقب القرش الكبير نظرا لخطورة العملية التي سوف تتم بغرض إعادتك لمصر وما قد ينتج من ورائها من مشاكل سياسية مع الحكومة القبرصية التي كانت تتعاون معنا في العثور علي الناجين المصريين.

اليوم التالي حضر إلى مندوب من النيابة العسكرية والأمن الحربي لاستلام التقرير الذي طلب مني إعداده ، تسلمه احدهم وبعد أن اطلع عليه سريعا قال: "هايل" يا فندم ، غادروا حجرتي بالمستشفى بينما ظلت منتظرا حدوث شئ جديد لليوم التالي دون نتيجة ، توجهت لمجالسة رفقاء رحلة العودة على السفينة التي أعادتنا وفوجئت بأنهم جميعا غادروا المستشفى وحصلوا على إجازة لمدة عشرة أيام يعودون بعدها لإحدى وحدات جميع القوات الشاردة العائدة من سيناء ، أصابني الضيق واليأس والقنوط ، توجهت للقاء مدير المستشفى للسؤال عما حدث لي فوجدت عددا من رجال الأمن الحربي يقومون على حراسة القسم الذي أقيم به ومنعوني من المغادرة ، طلبت لقاء قائدهم وأخبروني بأنهم سوف يتصلون به ، مساء اليوم التالي أقبل الرائد بالأمن الحربي التابع للقوات البحرية للقائى وعرضت عليه مشكلتي ، نظر إلي ساهما ثم قال أخبرك بأنك ممنوع من مغادرة المستشفى لحين عرضك على مجلس تحقيق ثم المحكمة العسكرية ، اندفعت أستفهم منه عن سبب هذا وكانت الإجابة غامضة وأنتى وقعت فريسة سهلة لأحدى عمليات الموساد الإسرائيلي "زينة" ، حاولت شرح

موقفي فطلب مني بهدوء أن أعرض ما أقول علي مجلس التحقيق ثم المحكمة العسكرية موضحا بأن هذا ليس قراره بل قرار من بيدهم الأمر.

غادر حجرتي وأنا ألعن كل من يعمل بالقوات المسلحة المصرية ، هؤلاء الأغبياء يفشلون في معركة كان من السهل كسبها أو على أقل تقدير كان من السهل والميسور منع الأعداء من اقتحام سيناء ومنعهم من إحداث تلك الخسائر برجالنا وشبابنا بل كان من الممكن أصابتهم بخسائر بشرية ضخمة بينما كل هذه القيادات تحيا وتعيش في مصر وبين أسرهم ولم يحدث لأحد منهم أن أهينت آدميته ولم ينزفوا قطرة دماء واحدة وبعد أن عاد من كتب الله لهم الحياة يفاجؤا بأنهم في انتظار التحقيق والمحاكمة العسكرية ، إذاً الحكاية إما أن تموت فطيس أو تموت بالسجن الحربى وتشوه سمعتك.

"ياه ، التخابر مع عميلة إسرائيلية ، يعنى كل ما أقابل واحدة أشوف هيا إسرائيلية أو مصرية وبالروح والدم بنحب مصر ونفتدى رئيسها ، الله يخرّب بيت اللي كان السبب في كل اللي حصل للجيش والبلاد ، يعنى أنا كده أستني لما البهوات بتوع النيابة العسكرية يحضروا وهات يا أسئلة وعلى حظى العاثر أنه من يومين صدرت الأحكام العسكرية علي المهملين في الحرب وقامت مظاهرات شديدة في الجامعة وسمعت أنها لسه شغاله وطالين بتشديد العقوبة علي الجميع ، مطلوب كبش فدا وحيلاقوا أحسن منى فين ، إحنا في مصر ثلاث حاجات تودى في داهية : خائن وبتتعامل مع العدو الإسرائيلي أو تعمل علي قلب نظام الحكم أو كافر وضد رجال الدين ."

طلبت منهم الحصول على راحة يوم لزيارة عائلتي فرفض ولاد الأبالسة فكرت بالاتصال تليفونيا بعمى سمعان جار أسرتي وربنا يصلح ودنه برضه

اترفض وبعدين؟ أعمل إيه مع ولاد الكلب دوول ، الله يخرب بيوتهم قرفتونا في
عيشتنا ؛ مش كفاية الغلب اللي عايش فيه من عشر شهور.

تنبهت من ضيقى مستعيذا علي ذاكرتى بعضا من عبارات التوتر والقلق :
العالم دى بتحلم ولازم أتصرف معاهم كأنهم أعداء ، هو أنا كنت بانتظر أوامر
عشان أحارب اليهود ، الملاعين دوول لازم أحطهم قدام الأمر الواقع إما أعامل
معامل محترمة أو أريح الدنيا مني وأستريح من وشهم الفقر ، لازم أسيب المكان
ده وأروح أشوف أهلى وبعدين يعملوا اللي عايزين يعملوه.

غابنى النوم حيث كنت قد عقدت العزم على الهرب من هذا المعسكر الواقع
بمنطقة رأس التين والملحق على القوات البحرية ، صباح اليوم التالى أقبل الرائد
.... وقدم لى تحية الصباح:

- صباح الخير نقيب عابد

- نقيب دا أنا لسه ملازم أول ويمكن أوصل لغفير!!

- متقولش كده .. أنت اترقيت من أول يوليو السنة اللي فاتت .. دلوقتي حتلبس
اللبس الموجود بالشنطة " .. بصوت قاطع صارم تحدث :

- قدم الشنطة يا عسكري رياض لسيادة النقيب"

- حاضر يا فندم .. اتفضل سيادتك

- عشر دقائق وح تيجى عربية جيب وتروح معاهم مكتب النيابة العسكرية نهاية
المعسكر وشوية أسئلة وربنا يعدى حكايتك على خير

غادر الرائد المكتب وقمت بفتح الحقيبة البلاستيك فشاهدت أفروا نظيفا
مكوبا" وعليه علامة الرتب "نقيب" ، ارتديت ملابسى العسكرية بعد عشرة
أشهر وانتظرت قنوم السائق الذى سوف يقلنى إلى مكتب النيابة العسكرية .. بعد

قليل حضر السائق وسار خلفي حتى وصلنا بجوار السيارة الجيب ، شاهدت بوابة المعسكر أمامي مباشرة وسألت السائق سوف تغادر من تلك البوابة فأجاب بأن المكتب الذى سوف نتوجه له يقع بداخل المعسكر ولكن تلك البوابة تفضى إلى خارج المعسكر وإلى طريق الماكس القادم من الغرب ومتجها إلى داخل المدينة ، تمهلت قليلا متذكرا كل تلك المناطق التي كنت أجوبها شرقا وغربا وأنا في مقبّل مرحلة الشباب ، قفزت على عجلة القيادة فطلب منى السائق إلا أفعّل هذا وإلا سوف أعرضه للعقاب ولكنى لم أنتظر أن يكمل حديثه حيث قدت السيارة بسرعة متجها إلى البوابة المغلقة ، نعالى صوت السائق صارخا طالبا النجدة مما دفع الجنود على البوابة إلى الوقوف معترضين طريقي.

لم أتوقف وظللت متجها لهدفى بثبات واخترقت حاجز بوابة المعسكر بعد أن اصطدمت بالبوابة التي تهشمت وتهشم معها جزء من مقدمة السيارة الجيب وسمعت صغيرا ونداء حرس سلاح ، شاهدت بعدها بثوان قليلة اثنين من رجال شرطة القوات البحرية يحاولان اللحاق بي علي صهوة الموتوسيكلات السريعة ، مازالت المطاردة مستمرة بشوارع الإسكندرية والناس تشاهد ما يحدث بدهشة حتى وصلت إلى الحى الذي تقيم به أسرته ، تنبه الناس للسيارة وفراملها الشديدة وإلى الموتوسيكلات التي تتبعني ، صاح البعض ، الله أكبر .. الكابتن عابد رجع بالسلامة ، تعالت الهتافات فطلبت منهم القبض على عملاء إسرائيليين يطاردوننى محاولين قتلي وأشرت إلى رجال الشرطة العسكرية ؛ أسرع أهل الحى بكل ما يملكون لمهاجمة الجنديين اللذين أسرعوا بالفرار ، أثناء ترحيب أهل الحارة أطلقت أسرته فشاهدت وجه أمي كالبدر المنير يشع حبا وحنانا ، تلاقت دموعي مع دموعها التي هبطت من بلكونة الدور الثاني حيث تقيم ، أسرعت

بالهرب من احتفال أهل الحى لألحق بحضن أمى الحبيبة الذى حرمت منه قرابة العام وأعتقد بأننى سوف أحرم منه عدة أعوام أو إلى نهاية عمرى جراء ما حدث وما سوف يوجه لى من تهم سواء ما تم بالخارج مع "زينة" أو مما حدث صباح هذا اليوم.

كان اللقاء رائعا حيث كنت أسمع أصواتا متداخلة من الدموع والبكاء دون معرفة تفاصيل تلك الكلمات ، لكن الكلمات كانت لها أحاسيس كثيرة دون معانٍ لها حيث إن الأحاسيس تصل إلى القلب مباشرة وليس إلى الأذن ولهذا فكان مرودها سريعا هائلا علىّ وعلى أمى وشقيقتى ، أقبل أبى مرحباً حيث كان خارج المنزل يشتري بعض الأغراض وعلم بالخبر السعيد من الشارع الخلفى ؛ حيث شاهد أبناء الحى والشوارع الجانبية يقيمون المتاريس والحراسات لحماية ابن الحتة والبطل الحى العائد من الحرب بعد مطاردة شاهدها من عملاء إسرائيليين يرتدون زى جنود الشرطة العسكرية للقوات البحرية.

اليوم التالى أقبلت سيارة للقوات البحرية لكى تعود بالسيارة الجيب إلى المعسكر ، حاول بعض الشباب الإعتراض ولكنى أشرت لهم من شرفة المنزل بالسماح لهم بأن يعودوا بالسيارة ، إستمرت حالة الطوارئ بالشوارع الجانبية والأحياء القريبة كما انتشر خبر ما حدث بالمدينة وأصبح التعرض لرجال الشرطة البحرية من الأمور العادية لاعتقاد البعض بأنهم عملاء يرغبون بالإيقاع بابن الحى عابد مما سبب مشاكل كثيرة بينهم وبين الشعب كما وصل الأمر إلى قيادة المنطقة العسكرية بالإسكندرية وعلمت القيادة العامة بالقاهرة بما حدث خاصة هروب الضابط المتهم من المعسكر بتلك الجراءة متحديا كل القوانين العسكرية مما دفع برئيس الأركان الفريق عبدالمنعم رياض إلى طلب محاكمة

عاجلة لهذا الضابط ، حينما علم بالمشاكل التي قد تنجم من المحاكمة مثل ما حدث من محاكمات تمت منذ أسبوعين قرر استخدام سلطته بالعرض علي لجنة الضباط ، هي لجنة مكونة من كبار ضباط القوات المسلحة لعرض الضباط المخالفين عليها ولها سلطة الفصل والطرده والإحالة للاستيداع ويرأس تلك اللجنة رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية الفريق عبدالمنعم رياض.

ماذا حدث أثناء غيابي بسيناء

حكى لي أبى ما حدث خلال فترة غيابي الطويلة قائلا: مجرد أن اندلعت حرب عام ١٩٦٧ عم الحزن الشعب المصرى بعد مضي يوم واحد علي بدنها حيث انتشر خبر تدمير الطيران المعادى لقواتنا الجوية وهي رابضة بقواعدها بمصر ، لقد استنتج الشعب الطيب الذكي ما وراء تدمير سلاح مهم وقد أصبحت السماء فوق رعوس رجال القوات البرية مفتوحة أمام الأعداء وبالتالي رجحت كفة العدو ، بعدها بيوم زاد الطين بله حينما علم الشعب بأنه قد صدرت الأوامر بانسحاب الجيش من سيناء ، تواترت الأنباء والأخبار عما حدث للجيش المصرى واتجهت الأذان لسماع الأخبار من الإذاعات الأجنبية خاصة إسرائيل وصوت الإذاعة البريطانية حيث كانت الإذاعة المصرية على حالها عبر جميع الأحداث تنيع أخبار بان الأمور على أحسن مايرام وكله قل ومهلبية.

مضت الأيام علي أسرتي وهي تحاول أن تستشق الأخبار والمعلومات عن حالي ، البعض من شباب الحى الذين يخدمون بالجيش وقد عاد بعضهم من سيناء وبدا لمن شاهدتهم آثار المعركة وتداعياتها وما لاحظوه من تورم الأقدام لهؤلاء الشباب والبعض منهم أصابته التسلخات والحروق من شمس سيناء الملتهبة من شهر يونيو كما أن البعض منهم أصيب بنيران العدو وعادوا وهم ملتحفون بالضمادات والأربطة.

انزعج أبى لما حدث وبدأ فى البحث عنى وإلى أين يتجه ، التقى ببعض الأصدقاء والزلاء الذين استطاع العثور على بعضهم بصعوبة والذين لم يساعدهم لأنهم لا يعلمون أى شئ عنى فقد ضاعت كل المعلومات كما ضاعت

الثقة بقيادات الدولة سواء سياسية أو عسكرية ، استقل أبى القطار متوجها للقاهرة بعدها توجه لشئون الضباط والتي من المفترض أنها تعلم كل صغيرة وكبيرة عن ضباطها ولكنه لم يحصل على أى شئ ذي بال حيث كانت الإجابة بأن ابنك عابدُ فل وأخر حلاوة بس إحنا محافظين عليهم فى مكان سري استعدادا ليوم الثأر والذي سيأتى بعد أيام قليلة حيث ستدفع الدولة بالقوات المقاتلة الجبارة إلى سيناء بل إلى إسرائيل لتقضى على تلك العصابة الأثمة.

ظل والدى بالقاهرة يجوب المستشفيات العسكرية ويسأل كل من يرتدى الملابس العسكرية من جميع الدرجات ومختلف التخصصات ولم يحصل علي أية إجابة مما دفعه إلى الشك بأننى أحد ضباط القوات المسلحة المصرية وأصابه الإحباط والضييق بأننى لم أكن ضابطاً بل كنت أعمل عملاً آخر وأكذب عليهم وها هو الدليل بأن أحداً لا يعلم أى شئ عنى وأن هناك ضابطاً يدعى عابد نظمى المصرى ، شعر والدى بأن هناك تخبطاً فى المعلومات التى حصل عليها بشأن عملى وحياتى العسكرية ، فمنهم من يُقر بأن عابد يعمل ضابط وحالياً مختفى عن أنظار العدو خشية على حياته والبعض يقر بأنه لا يوجد اسم عابد المصرى بين ضباط القوات المسلحة ، أصدق من؟ كانت تلك النتيجة الطبيعية لحالة الارتباك التى سادت الوطن والتي تحملها الناس بمصر.

عاد والدى إلى الإسكندرية 'بُخفى حنين وشاهد نظرات أمى المستفسرة منه عن ابنها الوحيد وهو غير قادر على الإجابة وأخيراً تشجع بأن أخبرها بأن ابنها لم يكن ضابطاً وكل الأماكن المسنولة عن الضباط نفت أن يكون لديها ضابط بهذا الإسم "يردد" أمامها :

- ابنك ضحك علينا يا فتحية .. عليه العوض ومنه العوض ، صرخت به متسائلة:

- ظابط والا غير المهم فين الواد .. تروح وترجع كده من غير فايده .. مين يرجع ليا ابني .. حرام يا ناس تاخدوا ولادنا وتقتلهم عشان تتكلموا وتحكوا عن بطولات لكم .. الله ينتقم منكم .. الله المنتقم .. اندفعت أمى في بكاء مؤلم كما أخبرنى بهذا أخوتى البنات وبعض الأقارب.

طغى الحزن عليّ من بالمنزل وفي أحد الأيام أقبلت شقيقتى رجاء الطالبة بالجامعة وهي تحمل خطابا مضى عليه وقت طويل وكان هذا واضحا من تاريخ الإرسال والذي شاهدته بأحد 'كتب الروايات التي كنت أهوى قراءتها وأخبرت أبى بأن هذا الخطاب من قائدي بالوحدة التي كنت أعمل بها ويدعي الرائد "فوزي " أمسك أبى بالخطاب وشعر بأنه عثر على المفتاح الذي سوف يبدأ منه البحث .. استقل أبى القطار للمرة الثانية متجها إلى القاهرة وظل يسأل عن مبني إدارة المخابرات الحربية وكل واحد يسأله لا يعلم منه شيئا والذي يعلم يخشى أن يخبره حتى العسكريين إلى أن تشجع أحد الجنود وأشار إلى أبى بموقع تلك الإدارة.

على باب الإدارة حاول أبى الدخول ومقابلة أحد من المسؤولين إلا أنهم منعوا دخوله ومقابلة أى شخص ، ظل جالسا على قارعة الطريق عدة أيام حيث كان يجلس فوق غلاف صندوق من الكرتون ويتوجه للمسجد القريب للصلاة ويقضى حاجته ويتناول الأطعمة الشعبية وقد اتسخت ملابسه وطالت لحيته دون مجيب ، فى أحد الأيام شاهد جندي الحراسة ينادى عليه ، أسرع أبى إليه والذي تعدى عمره الخامسة والخمسين للقاء الجندي الذي أخبره بأن المقدم/ فوزي ... الذى تسأل عنه دخل مكتب القيادة منذ قليل وأنه أخبره بأن أحد الأقرباء فى انتظاره منذ عدة أيام فطلب منى إبلاغك بأنه سوف يراك بعد أن يُنهي لقاءه

بسيادة اللواء مدير الإدارة.

رفع أبى يديه شكرا لله على أن شخصا ما سوف يتعرف على ابنه وسيلقاه بعد قليل حتى يزيل ضباب المعلومات الذى أصاب العائلة .. جلس أبى قرابة الساعة فى قلق ثم شاهد سيارة المقدم فوزي تغادر المبنى وتقف بالجانب الأيمن من الطريق ، هبط منها الضابط فأشار له الجندى جهة والدى فاقترب منه متسائلا عن شخصيته ، أفاده أبى باسمه ومن يكون ، رحب الضابط بأبى وعرض عليه اصطحابه إلى منزله للتحدث ، حاول أبى الحصول على أية معلومات عنى "عابد" أثناء لقائهما ولكن الرجل أبى إلا أن يُضيف والدى ويقص عليه كل شيء.

بمنزل الضابط شرح له كل ما يعلمه عن أحوالى مخبرا إياه بأنه علم من بعض رجاله الذين نجوا بأن عابد سلك طريق البحر ليهرب من اليهود وأنه لآن لم يصل بعد إلى إدارة المخابرات وأنه فى حال حدوث أى جديد سوف يخبره ، اقترب الرجل من أبى ليخبره بأن المخابرات العامة والحربية وقوات الصاعقة تقوم على جمع فلول المنسحبين من كل مكان سواء من سيناء أو موانئ بعض الدول الأوروبية ، مؤكدا بأن الحدث كان خطيرا للغاية.

عاد أبى إلى الإسكندرية وروى لأمى كل شئ ورغم هذا لم تشعر بالراحة أو الطمأنينة لكن ما باليد حيلة كما يقول المثل ، ظلت علاقة أبى بالمقدم فوزي متصلة حيث كان الرجل يتصل بأبى تليفونيا لدى جارنا سمعان أفندي الذى كان يمتلك ورشة لصناعة أطقم الأسنان الصناعية ، كان سمعان أفندي يُقبل مسرعا طالبا أبى لمكالمة تليفونيه من حثة اسمها الماهرة وبمرور الزمن تعود والدى على هذا الاسم حيث أن سمعان أفندي كان اسما على غير مسمى حيث كان

سمعه ثقيل وجين يسمع كلمة القاهرة يحولها إلى الماهرة.

في إدارة المخابرات الحربية والاستطلاع أثبتت كل التقارير بأن جميع أفراد مكتب قطاع غزة قد لاقوا مصرعهم أثناء محاولة الانسحاب عن طريق البحر ، وهذا الخبر نقله أحد رجال المخابرات الفلسطينية حيث علم بمقتل "سلمان وبرفته الضابط "عابد" وبعض جنود المكتب وقد مضت عدة أشهر ولم تبلغ القيادة بالقاهرة عن أى أسماء لرجال القطاع والتي تم نقلها للصليب الأحمر عن الأسرى المصريين بإسرائيل.

تأكد للمقدم فوزى بأن عابد وباقي الرجال من ضباط صف وجنود المكتب بالقطاع قد لاقوا مصرعهم فلم ترد أسماؤهم فى كشوف الأسرى بإسرائيل ، كان المقدم فوزى فى حالة من الحرج لكنه كرجل يتصف بالشهامة قرر السفر إلى الإسكندرية ولقاء والدى وإخباره بالخبر الحزين ، اتصل المقدم فوزى بسمعان أفندى وأخبره بأنه بالإسكندرية ويرغب فى محادثة المهندس نظمى المصرى ، أسرع سمعان أفندى وأخبر أبى أن المقدم رمزى "فوزى" بالإسماعيلية "الإسكندرية" ويرغب الحديث مع المهندس نظمى "نظمى" أسرع أبى وتحديث تليفونيا مع المقدم فوزى والذى أخبره بأنه بالإسكندرية وليس بالإسماعيلية.

تم الاتفاق على اللقاء بميدان المنشية على قهوة حميدو حيث إلتقى أبى بالمقدم فوزى الذى أخبره بالخبر الصاعق بأنه قد ثبت أن عابد إبنك لقى ربه بسيناء مع باقى جنوده وشد حيلك يا أبو البطل ويا أبو لم يسمع أبى بعدها ما قاله المقدم فوزى ونهض مترنحا باكيا وساعده البعض فى العودة إلى المنزل ، هناك بالمنزل علمت الأسرة بالخبر الحزين دون أن ينطق والدى بكلمة واحدة ؛ حيث كان أكبر تعبير هو ما ألم به من ذهول وعدم القدرة على التركيز

وما زالت الدموع تنزف من عينيه.

مضت الأيام على أسرتى حزنا وبكاء وألما واتشح كل شئ فى المنزل بالسواد والذى طال القلوب والعقول وأصبح النهار ليلا بل أطبق الظلام الطويل الذى لم ينجل على أسر ضحايا الحروب وقد شاخ الأب والأم قبل الموعد مما دفع بأعمارهم عشر سنوات للأمام كما انعدمت البسمة والفرحة وأصبحت حالة الانعزال والانتواء هى الحالة السائدة بين جدران المنزل وبين من يعيشون بداخله.

نهاية المطاف

بعد أن قضيت يومين بين أسرتي استعدت خلالهما بعضا من هدوئي وحيويتي قررت التوجه إلى إدارة المخابرات الحربية لأسلم نفسي ولأضع الحقائق أمام أعين الجهات المسؤولة ، ارتديت ملابسى العسكرية واتجهت إلى محطة القطارات وأنا أعلم بأننى مراقب من عدة أجهزة ترغب فى إلحاق الأذى بى خاصة أن الإتجاه داخل القوات المسلحة أصبح متشدداً مع الجميع سواء من وزير الحربية الفريق أول محمد فوزى أو من رئيس الأركان والذين كانا ينفذان سياسة رئيس الجمهورية باستعادة بناء القوات المسلحة وأول شئ لكى يتم هذا العمل البدء بما يسمى بالضبط والربط وهو الإطار الحقيقى لأية قوة عسكرية ترغب فى التقدم.

ركبت القطار دون أية مشاكل ، وصلت إلى القاهرة توجهت مباشرة إلى إدارة السلاح وهناك أتجهت إلى مكتب مدير شئون ضباط السلاح الذى استقبلني بعاصفة من اللوم والتقريع واخبرنى بأننى ارتكبت العديد من الأخطاء التى يجب أن أحاسب عليها ، طلب منى الانتظار بالاستراحة لحين طلبى ، بعد مضى ساعة زمن جاء أحد الجنود يخبرنى بأن الرائد ... يظلمنى بالمكتب ، توجهت إليه وبكلمات قليلة سلمن خطاباً موجهاً إلى إدارة سلاح المشاه.

أصابتنى الصدمة ، فقد غضب عليّ المسئولون ، تسلمت منه الخطاب دون أن أنبس بكلمة وغادرت المكتبُ مسرعا مما دفع الضابط المسئول إلى الغضب منادياً عليّ بصوت مرتفع بالعودة ثانية وتأييد التحية العسكرية الواجبة نحو ضابط أقدم منه ولكننى أشرت له بالخطاب بطريقة باردة مغادراً الغرفة.

توجهت لإدارة سلاح المشاة وهناك تعاملوا معي بأسوأ معاملة بل أسوأ من التي لقيتها بإدارة المخابرات الحربية حيث وصلتهم توصية بالشد وبالجزم مع هذا الضابط الخارج عن إطار القانون العسكرى ، لم أكرث بكل الرتب هناك ومعروف عن سلاح المشاة شدة الضبط والربط به نظرا لضخامة عدد القوات به ، شعر المسئولون بالسلاح بأننى على استعداد للقيام بأى عمل طائش مع أى شخص خاصة حينما تولد لدى شعور بان الخناق بدأ يضيق عليّ ولهذا فقد اتبعت المثل القائل "عليّ وعلى أعدائى".

اليوم التالى توجهت إلى الوحدة التى حددها الخطاب المسلم لي ، استقبلني قائد الوحدة بنظرات حادة وحرك رأسه بما يعنى بأنك حضرت إليّ أيها المشاغب وسوف تنال مني كل ما هو سيء ، أمرني بالانصراف وحدد لي إحدى الوحدات التابعة له لأنضم إليها لحين البت في شأنى ، توقفت قليلا لأستوعب ما يقول ويفعل مما دفعه لكي يُعيد أوامره صارخا بي ، غادرت المكتب دون أن أودي له التحية العسكرية الواجبة وتصرفت معه كما تصرفت مع مسنول شئون ضباط المخابرات الحربية ، سمعت صوته عاليا بالنداء عليّ بالعودة وتادية التحية العسكرية الواجبة ، عدت وتحدثت معه بطريقة غير لائقة كقائد وقد أصابته الدهشة من تصرفي هذا.

شعرت أننى أتخبط في تصرفاتي تلك كما انتابني شعور بأننى أسير وأتحرك وأنا شبه مترنح بين مباني الوحدة والتي شاهدت رجالها الذين قدموا من جوف الصحراء القريية بعد تدريبات عنيفة في نهاية شهر مارس والحرارة بدأت تلسع الوجوه وما يصاحبها من رياح حارة شديدة نهارا.

سألت أحد الجنود عن حجرة نظيفة أقيم بها وليس بها أحد من الضباط ، أشار

إليّ الجندي بأن جميع الحجرات مكتظة بالضباط باستثناء الحجرة الأخيرة فليس بها سوى ضابط واحد وهو مهتم بنظافتها ، أتجهت إليها ودفعت بابها بحدائي وأنا في أشد حالات الغضب ومازالت المعاملة التي قوبلت بها منذ إلقاء القبض عليّ بميناء "ليماسول" حتى الآن لا تبشر بالخير ، علمت أن نهايتي مُفجعة وقد قاربت عليها وأن كل ما قمت به من بطولات بسيناء قد ضاع أمام تصرف بعض الضباط الذين يعملون بالمكاتب ولا يفهمون طبيعة العمل بالوحدات المقاتلة فهم من أصحاب الأيدي الناعمة ، لهذا قررت أن أسلك طريق العناد والمقاومة حتى أنتهي من تلك المهزلة وأنا مرفوع الرأس ولست باكيا علي أي شيء.

بعد أن دفعت باب الحجرة بقدمي بقوة غمر الضوء بخارجها أرجاءها فشاهدت الضابط الوحيد بها نائما فنهض فزعا وشاهدت نظراته الغريبة المستفسرة إليّ ، إقتربت منه وطلبت منه بجفاء أن يترك سريره لي ، ظل علي نظراته البلهاء مما دفعتني للصرخ في وجهه فقفز من السرير بالدور العلوي وأرتدي أفرول التدريب وخرج مُسرعا خارج الحجرة.

كان السرير الذي حصلت عليه من هذا الضابط هو الوحيد بالغرفة والصالح لكي يستخدمه أي ضابط ، تحللت من ملابسي وارتديت ملابس النوم ورحت في إغفاء لم أعلم الوقت الذي استغرقته أثناء نومي لكنني فزعت حينما تذكرت تصرفي مع الضابط الذي كان ينام في تلك الغرفة وبتصرفي الأهوج طردته بكل قضاظة ، قررت البحث عنه ، شاهدت أحد الجنود فسألته عن اسم الضابط الذي يقيم بتلك الحجرة فأخبرني بأنه الملازم أسامة الصادق ، ظلت أبحث عنه في كل غرف الضباط المجاورة حتى عثرت عليه يجالس أحد الضباط من نفس رتبته.

حينما هممت بالدخول رغب في مغادرة الحجرة ، إستوقفته طالبا منه الانتظار ، كان باديا عليه الضيق والحزن مما حدث له من سوء تصرفي الأهوج ، حاولت أن أطيب من خاطره ولكنني شاهدت علامات الضيق مازالت تغلف وجهه البرئ.

تساءلت: لماذا أنت مصمم علي عدم قبول اعتذاري لك؟ أجبني زميله الذي يجلس معه وأخبرني بأنه منذ الصباح الباكر وهو يقوم علي تدريب جنوده تحت الحرارة الشديدة والشمس الساطعة وأن وقت راحته لمدة ساعتين يقوم بعدها باستكمال تدريب جنوده حتي العاشرة مساء ويتصرفك هذا ضيقت عليه وقت راحته وكما تراه لم يحصل علي جرعة من النوم والراحة تساعد علي مجابهة تدريب المساء.

أعدت تقديم اعتذاري وأخبرتني بأني الأقى مصاعب جمة منذ عودتي من سيناء كما وعدتهما بأني سوف أقص عليهما حكايتي المفجعة فيما بعد وما الذي حدث لي أثناء الغياب الطويل وفي الوقت نفسه البطولة العالية التي قمت بها. أعدت اعتذاري له قائلا: "مش تزعل مني وغصب عني .. أنا قرغان من الشغل ومن القادة .. عايز أتर्फد وأروح في ستين داهية بعد اللي شفته .. خليك جدع وكلمني ، أنا تأسفت لك وأنا عرفت أنك واد شرقاوي جدع وأنا اسكندراني (أجدع!!) أعقبتها بضحكة بصوت مرتفع مما دفع به وبزميله إلي الضحك والحديث وتناول الشاي.

بعد هذا اللقاء والتصالح اقتربت من أسامة وشعرت أنه مثل حالي حيث قاسي أثناء انسحابه من سيناء كما زادت علاقتنا وصادقتنا بطريقة مخالفة لما بدأت عليه في بادئ الأمر وأصبحنا نتحرك ونغادر المعسكر معا حيث يتجه هو إلي

ميس المشاة بثكنات العباسية بينما أتجه أنا إلى شقة صغيرة مفروشة مستأجرة
بشارع مصر والسودان بمنطقة حدائق القبة.

أحد الأيام عرضت عليه أن ينتقل للحياة معي بشقة مصر والسودان
وسأحصل منه مقابل ذلك علي نفس ما يقوم بدفعه في ميس المشاة .. تردد في
بادئ الأمر ، حيث علمت أنه قد تعرف علي أسرة زميل لي التقى به في
مستشفى المعادي بطريق الصدفة البحتة بعد أن فقدت أسرته الأمل بعودته
خاصة والدته بعد أن علمت من إدارة سلاح المدفعية باستشهاده ، كانت الأسرة
متمسكة به وتشعر بأنه وش السعد عليهم والذي أدخل البهجة والفرحة علي
قلوبهم الحزينة ، بعد تردد وافق علي اقتراحي حتي يستطيع التواصل مع تلك
الأسرة عن بُعد.

أنكر أنه في أحد الأيام حيث كنا نجري تدريباً شاقاً بصحراء شرق القاهرة "
القاهرة الجديدة حالياً" القريبة من طريق السويس وبعد الانتهاء من التدريب أقبل
قائد الكتيبة وشاهني أجلس بجوار أسامة وأقود اللوري الذي يحمل جنوده وكان
هذا الأمر مخالفاً للأوامر بالأقود الضباط سيارات الجيش الخاصة بالتدريب أو
العمليات .. أشار لي القائد بالتوقف .. توقفت وتبادلنا النظرات المريية وحينها
وجه لي القائد انتقادات لاذعة لمخالفتي الأوامر .. لم أتركه يستطرد في الحديث
بل سببته وشمته بسباب سيئ لأقصى درجة ، شعرت بمدي الكارثة التي سوف
تحدث بي ولكن القائد بدلاً من أن يوقع عليّ الجزاء أشار إليّ أسامة بأنه المخطئ
ووقع عليه الجزاء وحينها علمت الفارق بين الحمار والبردعة التي نتحدث عنها
في الأمثال الشعبية.

أخبرت أسامة بأنني الحقت علي الكتيبة لمدة شهر حتي يقوم القائد بكتابة

تقرير عني يُبين مدى صلاحيتي للخدمة العسكرية وسوف يعرض هذا التقرير علي لجنة الضباط التي يرأسها رئيس الأركان ومنذ ذلك التاريخ والقائد يبذل كل جهده للبحث عن أخطاء لي سواء وقعت مني أو كي ينسبها لي خاصة حين علم بأن رئيس الأركان سوف يقرأ التقرير ؛ لهذا فهو يرغب بأن يتقرب للقيادات العليا بهذا التقرير الذي سوف يضر بي ضرراً بالغاً.

أبلغتني قيادة الكتيبة بأنه يجب عليّ التوجه للمقر العام لوزارة الحربية يوم الساعة ، كنت أعلم بأن هذا هو آخر يوم لي بالقوات المسلحة فكانت كل الدلائل تنبئ عما سيحدث لأي ضابط يقترف أي خطأ حتي لو كان غير متعمد ، في الموعد المحدد توجهت إلي المكتب وبعد أن جلست بالاستراحة حوالي الساعة حيث كان بها العديد من الضباط من مختلف الرتب منتظرين العرض علي اللجنة مثل حالي ، خلال ذلك أقبل أحد الضباط ينادي علي الأسماء التي سوف تعرض علي اللجنة ، شعرت بحركة بين ضباط القسم الذي أجلس به ، علمت من تلك التصرفات بأن رئيس الأركان أقبل ، حين جاء الدور عليّ نهضت ودخلت المكتب علي مجموعة من القادة الكبار يتوسطهم الفريق عبد المنعم رياض ، قرأ التقارير سواء الصادر من الأمن الحربي التابع للقوات البحرية بعد عودتي من ليماسول أو تقارير قائد الوحدة الذي ألحقت عليها والذي كان واضحاً منها أن الرجل جمع كل الجرائم والتهم باستثناء القتل ووضعها بالتقرير.

تساءل رئيس الأركان عن حقيقة ما قرأه ، أحبته بأنني لو قلت أي شيء لن يصدقني أحد لأن من كتب تلك التقارير هم أكبر مني رتبة ومن جهتين مختلفتين وإذا تحدثت عما قمت به بسيناء فلن يصدقني أحد لأنه لا يوجد شاهد معي

والأرض مازالت تحت الاحتلال ولهذا فانا أنتظر قرار اللجنة ولن أعترض أو أحتج.

تساور مع الضباط الذين يجلسون حوله وقرأ القرار " الاستغناء عن خدماتي بالقوات المسلحة منذ ذلك اليوم" أديت التحية العسكرية فسألني رئيس الأركان هل لي مصدر أتعيش منه ، أجبته بأن الله لا ينسي أي مخلوق وقد كتب لجميع الكائنات رزقها ولهذا فسوف أتبع الطيور والحيوانات وأحصل علي طعامي لكن كل ما أثر فيّ هو ذلك القرار الذي سوف يبعثني عن مجال عمل ظلت به لعدة أعوام خاصة في المرحلة المقبلة ، شكرني الرجل وكنت أشاهد التأثير في عينيه ، خرجت مغادرا القاعة ، استوقفتني أحد ضباط القيادة طالبا مني تسليم الكارنيه العسكري فأخبرته بأنني بدون كرنيه منذ عدة أشهر وقد تركته في سينا ليتسلمه اليهود ويحضره لكم ، أسرعت بمغادرة المبنى مستقلا تاكسي أجرة حتي باب شقتي الصغيرة بحي القبة ، لم يكن زميلي أسامة قد حضر من العمل حيث إنه يأتي بعد الثامنة مساء.

القيت بجسدي المنهار علي السرير وشعرت بأن حياتي أصبحت ظلما فقد ضاع مستقبلي ولن أعتز علي أي عمل خاصة حينما يعلم أصحاب العمل بأنني عوقبت من القوات المسلحة بالاستغناء عن خدماتي ؛ إنه عقاب شديد ولا يستتبعه معاش أو علاج بالمستشفيات العسكرية فقد تم قطع كل شيء عني ولم أعد مسموحا لي بالإستفادة من الخدمات التي تقدم للعاملين بالقوات المسلحة ، لقد أصبحت دون المستوي بل أقل درجات من الذين أهملوا عملهم أثناء لقاء العدو.

للفت ملابسني العسكرية ووضعتها بكيس صغير أسفل السرير ومحوت كل شيء ينبيء بأنني كنت ضابطا بالجيش مثل بعض الصور أو المكاتبات أو الكتب

العسكرية ، لم يكن بجيبى نقود سوي عدة قروش فلم أتسلم راتبى المتأخر منذ عشرة أشهر حتى الآن ، بحثت في ملابس صديقي أسامة فعثرت علي عدة جنيهات ، لم أنتظر حضوره وجمعت كل ما وقعت عليه عيناى وقد قارب المبلغ العشرين جنيها ، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت "نصف راتبه الشهري" ومن سوء تصرفي لم أترك له أي نقود تساعد علي تصريف أموره وكتبت له كلمة سريعة بأنني في أشد الاحتياج للنقود واستوليت منه علي كل ما كان يحتفظ به ، أبلت ملابسى وخرجت للشارع متجها إلي محطة قطارات مصر متوجها إلي الإسكندرية لأقضي بعض الأيام مع عائلتي ولأفكر فيما أنا مُقبل عليه ، كانت تراود خيالي المواقف التي قابلتها خلال الشهور العشرة الماضية ، شعرت بأن الدنيا لم تصبح سوداء كما تبادر إلي ذهني ، فما قمت به من عناية بالجمال والماعز وجمع محصول الكرنب وحمل المياه والنوم بسطح الدار لمدة طويلة صيفا وشتاء عمل صالح نافع وقد سبقنا إليه الأولون ، لا أعلم كيف تنبتهت ذاكرتي علي ذكرى رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وهو يرعي الغنم ، المسألة ليست رتباً والقابا المسألة كرامة وشجاعة وحسن تصرف.

وصلت إلي محطة السكة الحديد وعلمت أن القطار أمامه ساعتان فقطعت الوقت سيراً بين المكاتب والأرصفة ، شاهدت رجلين من البسطاء يقفان أمام لوحة إعلانات محاولين القراءة وكان باديا عليهما صعوبة ذلك فشاهدني أحدهما فطلب مني قراءة الإعلان لمعرفة التفاصيل المطلوبة وشروط تلك الوظيفة.

كانت لوحة الإعلانات توضح للراغبين عن توفر بعض وظائف بهينة السكة الحديد للعمل كخفير مزلقان ، شاهدت السعادة علي وجهيهما وأحدهما قدم شكره لي ، سار الاثنان مبتعدين فاستوقفتهما متسائلاً إلي أين فأجابا بأنهما

سينوجهان لملء إستمارة بغرض الحصول علي تلك الوظيفة وقال أحدهما:

- دي يا بيه مهيتها توصل لـ خمسة جنيه .. بأجول خمسة جنيه .. يارب أجبل يارب .. وقفت صامتًا وهما ينظران إليّ ثم سألتهما:

- الوظيفة دية كويسه غير أن ماهيتها خمسة جنيه؟ أجابني أحدهم.

- يا بيه الناس الغلابة اللي زي حالتنا ومن الصعيد حيروحوافين وخصوصا اللي ملهمش متوي .. أهو الواحد منا يروح علي مزلجان وينام ريحه ويعدي الشهر وينزل لعباله ومرته والحكاية أهى ماشيه ، يارب يكون لنا نصيب فيها.

قاما علي وداعي واتجها إلي المكتب المسئول ، تبعتهما وشاهدتهما وهما عائدان وكل واحد منهما ممسك باستمارة فشاهداني فطلبا مني مساعدتهما في كتابة الاستمارة ، بكل ترحاب كتبت لهما الاستمارات وعادا وسلماهما للمكتب ثم توجهنا إلي عملهما والذي تبين أنهما يقومان علي نظافة الأرصفة بالمحطة.

لا أعلم كيف سافقتني قدمائي إلي المكتب ودخلت علي الموظف الذي وقف مستقبلا عارضا عليّ أي خدمة ، لم أتردد أو أتلعج وطلبت منه استمارة للعمل كخفير ، أعطاه لي الرجل متسائلا هل هناك فقير يحتاج لتلك الوظيفة تعرفه؟

أجبتة:

- الحقيقة أخذتها علشانى .. ابتسم الموظف معيدا سؤاله وأنه يعلم بأنني أمزح معه ، أكدت له ما سبق وقلته ، نظر إليّ الرجل مشيرا لي بالجلوس محاولا معرفة الدافع لهذا وهو يشير إليّ بما يعني بانك باين عليك ابن ناس ومحترم ، أخبرته بقليل من التفاصيل بما حدث لي صباح هذا اليوم ، كنت أشاهد علامات التعجب والأسى علي وجهه ثم اقترب مني عارضا عليّ بأنه يمكن أن يعثر لي علي وظيفة إدارية بإحدى إدارات المحطة وبداخل مكتب ، شكرته وأخبرته بأن

تلك الوظيفة تناسبني لأنها سوف تبعثني عن الناس وأتمني إذا قبلت بها أن أعين بعيدا عن الناس وفي مكان مهجور ، نهض الرجل واقرب مني واحتضنني قائلا - رغم إنني مش موافقك علي كده لكن ح اعمل كل جهدي لتنفيذ كل اللي طلبته وأنا حاسس بيك ، انهمرت الدموع من عينيه فانتقلت عدواها إلي أيضا حاولت معها إعادة الهدوء إلي نفسي .. سلمته الاستمارة بعد أن قمت بملء البيانات الواردة بها أثناء هذا طلب لي فجاننا من القهوة وحصل مني علي رقم تليفون الخواجة سمعان حيث أخبرني بأنه خلال ثلاثة أيام سوف أكون معينا بتلك الوظيفة ، شاهدت عقارب الساعة تقترب من موعد تحرك القطار فنهضت مصادفا وهو بالتالي رافقني إلي خارج المكتب ، دلفت بين المسافرين ثم شاهدته وهو يصفق بيديه علامة الحيرة والتعجب من أمري سواء ما حدث لي أو ما سوف يحدث لي ورغبتني في هذا العمل المتواضع.

ركبت القطار وأنا أشعر بأنني تحررت من كثير من الأوجاع والهموم النفسية التي قابلتني منذ مغادرة دار أبي السعادات رغم ما قمت به مع بعض شباب سيناء الياق من شجاعة وإقدام وحب للوطن دون طنطنة ودعاية وهتافات أو دون انتظار. لمكافأة من أحد المسؤولين ، كنت أهون علي نفسي طوال الطريق ما حدث لي واضعا بعض المواقف التي كان يمكن أن تحدث لي من أسر أو إصابة أو فقد عضو أو شهادة ، شعرت بأن الحياة قدرية والتي يسيرها الله وليس البشر كما يعتقد البعض ولن تكون القمة لأصحاب المراكز الرفيعة ولن يكون القاع من نصيب البسطاء من العاملين أو المغضوب عليهم بسبب العمل من أمثالي.

اليوم التالي أيقظني أبي ليخبرني بأن عمي سمعان يطلبني لمكالمة من مصر

بخصوص العمل كخفير!! 'دهش أبي وأنا مثله فالرجل لا يسمع الكلمات الصحيحة ويحورها وكيف سمع تلك الجملة ولم تتوه عن عقله وأنه ، نظرت إلي أبي قائلاً يسمع منك يا عمي سمعان وبالتالي نظر إلي أبي متسانلاً إيه حكاية الخفير دية فأجبتّه هوه يقصد سفير .. ابتمسم أبي داعياً لي .. توجهت إلي شقة سمعان وهناك كان المتحدث الأستاذ عوض الذي التقيتّه بالأمس وأخبرني بأنه لم يستطع السكون والراحة أمس بعد مغادرتي المحطة حتي تم تعييني خفيرا لمزلقان محطة "نكلا" التابعة لمحافظة الجيزة ، طلبت منه أن يكون المزلقان متطرفاً وبعيداً فأعاد حديثه بأن هذا المزلقان به كل طلباتي وهو يقدر اختياري هذا ويؤيدني وأخبرني بأنه عليّ أن أعوده بعد أيام ثلاثة لتسلم مهام عملي معيدا ومكرراً بأن الراتب خمسة جنيهاً ، أثبتت علي مجهوده وقدمت له شكري وتقديري وعدت إلي أسرتي وأنا أحسن حالا وكنت أتساءل في المسافة بين شقتنا وشقة عمي سمعان : الله معنا في كل وقت وكل مكان ، لقد علم الله بحاجتي للإبتعاد عن الناس فأوقف لي أولاد الحلال قبل مضي أربع وعشرين ساعة علي نهاية عملي بالقوات المسلحة بطريقة مهينة وها أنا أعثر بفضل الله علي عمل يقوم به البشر ولاترك الألقاب والرتب التي أثارَت ضيق المصريين جانبا ورغم أنني كنت أحصل علي راتب حوالي ٣٥ جنيهاً أثناء عملي كضابط إلا أن هذا المبلغ الزهيد سوف أتحايل علي الزمن وأعيش به مثل من شاهدتهم ولديهم أسرة وأبناء.

مزلقان نكلا

توجهت إلي عوض أفندي الذي ساندني في الحصول علي الوظيفة المرموقة! .. استقبلني الرجل باش الوجه واصطحبني إلي المدير العام الذي نهض مصافحا معتذرا عن عدم توفر وظيفة ملائمة لي ورغم هذا أخبرني بأن بابه مفتوح لي دائما وشد علي يدي قائلا "إحنا إخوان لك يا كابتن وربنا إن شاء الله ح يفك ضيقناك."

بعدها توجهت بصحبة عوض أفندي إلي قسم الحركة وطلبت منه ألا يفشي سري لأحد حتي لا أصبح مثار حديث الآخرين ولنكفي علي الخبر ماجور ، اعتذر الرجل موافقا علي ما قلت وتعهد بهذا أمامي ولكنه أرفد بأنه كان يبغني ألا أتعرض لبعض المضايقات من المشرفين والملاحظين ورغم هذا سوف أفي بوعدني وصافحني بعد أن أشار إلي مكتب قسم الحركة فشاهدت بعض العمال أمامه ومن بينهم العاملان اللذين ساهما معي في التعرف علي تلك الوظيفة ونظر إلي أحدهم متسائلا:

- مش برضة أنت للبيه اللي ملأنا طلب الوظيفة؟ نفيت هذا فأشار إليه رفيقه بأن دماغه واخده هوي وبيفكر في حاجات خايبه معلقا :

- إش جاب الغلبان ده للبيه اللي ساعدنا ، إيجي فتح عينك وفرج بين الناس!

ابتسمت وحرزنت لهذا القول لأنني نفس الشخص وبنفس ملابسني هي ولكن مستوي الوظيفة أعمي الرجل ووضعتني في سلة المساكين ، تنبهت علي صوت غليظ يشير إلي معنفا:

- تعالي هنا يا مقمع ومتملمع ثم أمسكني من ملابسني معلقا : ده لبس يناسب الشغل

، جايب يا روح أمك كل اللي علي الحبل ، دفعني من كتفي قائلًا روح هناك مع ولاد الكلب اللي زيك وإستلم لبس التشريفة ، تلفقني آخر بأن قذف في وجهي بربطة من ملابس السكة الحديد ذات اللون الأخضر وطلب مني أن أبصم أمام اسمي ، رغبت في التوقيع ولكنه اعترض قائلًا بلاش فلسفة وفزلكة ابصم يا بجم ، بصمت وشعرت لحظتها بأن عوض أفندي كان مُحققًا فيما قال ولكنني ظللت علي وضعي متكئًا طبيعة عملي السابق.

سرنا خلف أحد الملاحظين بداخل فناء بمحطة سكك حديد مصر وبجوار عربات القطار المتهالكة وبداخل مبني مُعد من الصاج القديم جلسنا أرضًا فوق الأرض المتربة التي تغلفها زيوت وشحومات القطارات ، بدأ المشرف بإلقاء الدرس الأول عن طبيعة العمل ، كل جملة يقولها المشرف أو الملاحظ يتبعها بسبب لنا جميعا أو يشير لأحدنا وحين التقدم منه يندفع سبابا ولعنا ثم يعقبها بشلوت أو قلم علي قفاه ، كُنت في دهشة من هذا التصرف وتأكد لي بما لا يدع مجالًا للشك بأن كل فقير أو صاحب مهنة بسيطة هذا هو الأسلوب الأمثل للتعامل معه فلم أشاهد أي خطأ اقترفه أحد من هؤلاء البسطاء.

مضت الأيام وأنا أشعر في كل يوم بأنني سوف أقترب جناية مع أحد من هؤلاء المرشدين ليس بسبب تعديه علي شخصي ولكن بسبب إهانة هؤلاء المساكين الباحثين عن لقمة عمل شريفة ، اليوم الأخير انتهت الدورة التدريبية ووقفنا علي هيئة طابور لتسلم الخطابات حيث سيتوجه كل واحد منا إلي مزلقان مُعين ، مازال السباب واللعن بالأهل هو سيد الموقف ، حين جاء الدور علي أشار إلي الموظف الجالس علي ترابيزة قديمة بأن أوقع أمام اسمي بقوله .. ابصم هنا يا روح أمك.

جذبته من ملابسه وبسرعة لكمته لکمتين بوجهه فصرخ واندفعت الدماء من وجهه ، أقبل أعوانه وأتباعه محاولين مساندة زميلهم ، أمسكت بماسورة حديد متوعدا أي أحد منهم من الاقتراب وإلا سوف يكون عقابه عسيرا ، أسرع البعض للإدارة لإخبار المسئول عما حدث فأقبل عوض أفندي مسرعا فشاهدني علي هذا الحال ، اقترب مني وطيب خاطري بين صيحات الملاحظين واصطحبني ومعني الخطاب واتجهنا إلي المكتب ، هناك اعتذر لي الرجل وأخبرني بأن كل ما يحدث من تجاوزات بتلك الأماكن نعلم بها ولكن تصرفات العمال المساكين تمنع الإدارة من توقيع الجزاءات حيث ينكر الجميع بأنه تم إهانتهم أو أخطأوا في حقهم خشية عدم تسلمهم أعمالهم مردداً " إحنا السبب يا كابتن في كل اللي بيحصل ، تعرف لو في كل مرة واحد زي حضرتك اعترض وقام ضربهم بالجزمة مش ح يتكرر اللي بيحصل لكنها مصيبة الفقراء المصريين من أيام حفر قناة السويس " طلب لي فنجانا من القهوة وبعدها رافقتني إلي قطار المناشي طالبا من السائق أن يوصلني إلي قرية نكلا حيث سألتقّد عملي هناك كخفير مزلقان.

ابتسم لي السائق طالبا مني الجلوس في داخل الجرار ، ودعت عوض أفندي فشاهدت بعض زملائي الغفر في الدورة التدريبية حيث صاح أحدهم "الواد عابد" أهه واد جدع والله ، نظر العامل إلي أحد الأجانب فشهد أحد الملاحظين الذين كالوا لنا الشتائم فتبدل حاله داعيا الله عليّ بأن تيجي ليا مصيبة وهنا أقبل هذا الملاحظ باسمسا ساخرا " .. رح في داهية يا حاولت النزول إليه ولكنه أسرع وهرب من أمامي كالفأر.

بعد مسيرة بالقطار حوالي نصف ساعة أخبرني السائق بأن تلك المحطة هي

قرية نكلا ، ودعته هو ومساعدته وتوجهت لناظر المحطة الذي كان يجلس يرتدي زي السكك الحديدية المشابه للزي المسلم لي والذي كنت أرتديه منذ اليوم التالي للدورة التدريبية ، كان الرجل يرتدي نظارة قراءة ولا يستطيع التمكن من قراءة أحرف الخطابات حيث إن النظارة التي يرتديها خاصة بأحد أبناء القرية والذي مات منذ عامين وكان يحتاج لنظارة فأشار له حلاق القرية بأن نظارة المرحوم حلوة ومفيدة ، ومنذ هذا اليوم ظل يرتديها ، تلك المعلومة عرفتها فيما بعد من عم شحاتة زميلي في حراسة المزلقان.

أشار إليّ ناظر المحطة بالجلوس خارج المكتب علي الرصيف وأرسل في طلب عم شحاتة ، شاهدت الرجل مقبلا وعلمت بعدهذا بأنه زميلي في الإشراف علي المزلقان وهذا كان باديا للعيان من زيه المميز المماثل للزي الذي أرتديه ، بعد قليل خرج من مكتب ناظر المحطة وأشار إليّ:

- هو أنت الواد عابد الملاحظ الجديد؟

- أنا الواد عابد الملاحظ الجديد!!

نهزني الرجل وشعر بأنني مازلت عديم الخبرة بأحوال العمل بالسكة الحديد وسار أمامي وأصبح المرشد والموجه لي ، لم أتوتر أو يصيبني أي ضيق فقد انتهى مستقبلي وعليّ التسليم بما أنا فيه خصوصا أنه اختياري الشخصي ولست مجبرا علي العمل به.

تسلمت عملي والذي ينحصر في غلق المزلقان حين ورود إشارة من محطة التوجيه حتي لا يصطدم القطار بأية عربات نقل أو جرارات زراعية أو مواشي وبغلق المزلقان يعلم الجميع بأن قطارا قادمًا وبالتالي أقوم برفع سلسلة طويلة تغلق الممر الذي يعبر شريط السكة الحديد.

سارت الأمور بيني وبين عم شحاتة علي أكمل وجه حيث كنت أقوم بالعمل نيابة عنه ساعات إضافية فهو متزوج وله خمس بنات وولد وحينما علم بأنني لا أبغي إجازات أسعده هذا وتساءل أين سأنام فأخبرته بجوار المزلقان ولكنه رفض هذا وعرض عليّ النوم بإحدى عربات البضاعة المهملة المخزنة علي الطريق الفرعي ، هكذا أصبح لي عمل وسكن عبارة عن عربة من الحديد حيث كنت أنام أرضا علي كرتونة وبمضي الأيام اشتريت بطانية من مخلفات الجيش التي تباع خلف محطة السكة الحديد بالقاهرة ، كما تشجعت واشترت وابور جاز وراديو وكنكة لعمل القهوة ، كنت باش الوجه مع الجميع وعلم أهل القرية بأن عابد الملاحظ الجديد للمزلقان من الصعيد وعليه تار ومش يبسافر بلده خوفا من أن يقتله أحد وقد نشر هذا الخبر عم شحاتة حينما ألح عليّ بالأسئلة فأخبرته بهذا مما دفعه للتساؤل بأنني لا أتحدث بلهجة أبناء الصعيد فأخبرته بأن السبب في ذلك يرجع لأنني ولدت بمدينة الإسماعيلية.

كان عم شحاتة يأتي إليّ ببعض الأطعمة من داره وهو طعام بسيط علي قدر حاله وبمضي الأيام توالى علي الأطعمة من بعض سكان القرية من جبنة مملحة ولبن رايب "زبادي" وشوربة نابت أو طبق أرز وعليه بطاطس بالدمعة ، كان الخجل يعتريني من تلك التصرفات وقد أصبحت شحاذا وليس موظفا مهما بهيئة السكك الحديد مما دفعني للاختباء فترات الغذاء حتي لا أحصل علي الطعام ، وأبدلت هذا بعمل وجبات سريعة من البيض بالجبنة أو شراء بعض المأكولات من بقال علي قدر الحال.

كنت أجلس بمنزلي الجميل "عربة قطار البضاعة المتهاكة" أستعيد شريط حياتي السابق منذهشا لما حدث لي ولم أكتشف أنني أخطأت في أي شئ سوي

الهرب من معسكر القوات البحرية ثم ما تلا هذا من الاحتكاك مع قائد الكتيبة الذي كان راغبا في تدمير مستقبلي والقضاء عليه ونجح في هذا ولكنني لن أعطيه الفرصة للنجاح فسوف أظل أعمل وأحيا بعيدا عن المناصب بدولتنا الفرعونية.

في بعض الأحيان كانت تتناوبني بعض المشاعر الفياضة حين يعلم الأهل والأصدقاء عما وصل إليه حالي ولن يظل هذا العمل خافيا حتى النهاية كما أنني لا أبغي الكذب فهذا دليل علي الضعف لكن ما عساه أن يصيب والداي حين يعلمان بهذا الجلل خاصة في أعقاب حرب فاشلة وسوف يرجعه أصحاب الفكر المتخلف والشك بكل شيء إلي أنني هربت أمام الأعداء أو أنني نهبته وسرقت الجيش وتصبح أسرتي في وضع مخز. أمام الجميع خاصة شقيقتي الطالبة الجامعية ولن يتقدم إليها أحد يطلب يدها وإذا تقدم فسوف يحاول أن ينفذ من ثغرة ما حدث لي كي يدمي كرامتها وكبرياءها حين حدوث أية مشكلة بينهما ، لقد أصبحت عائقا وليس عائلا.

كنت أجلس في مساء أحد الأيام أستمع للراديو وكانت إذاعة صوت العرب تنيع برنامج " الف سلام" للمذبة تراجي عباس وفيه يبعث الأشخاص الذين فرقت بينهم الظروف وحرب ٦٧ بسلامات إلي ذويهم ، ذكرني هذا البرنامج بعائلة أبي السعادات حيث كانت الأسرة تركز كل اهتمامها لسماع أي أخبار عن والدهم أو شقيقهم عيد عن طريق الاستماع لهذا البرنامج المهم ، خطر ببالي خاطر بأن أرسل بتحية إلي "رقية" علي هذا البرنامج مثل ما يفعل البعض ، نهضت علي الفور وأضأت اللبة الجاز وكتبت خطابا قصيرا لإذاعة صوت العرب بتوجيه تحية من عابد إلي خطيبته "رقية" بمدينة الشيخ زويد وسلام

عاطر للأسرة.

اليوم التالي ناولت الخطاب للأسطى درويش سائق القطار الملتحي والذي كان دائم التحية والإشارة لي حين المرور من علي المزلقان فابتسم وحمله معه ورفض مجرد الحصول علي ثمن طابع البريد ، ظلت كل مساء أنتظر موعد إذاعة البرنامج دون جدوي ، فقدت الأمل وأثناء جلوسي أمام المزلقان في إحدى النوبات الليلية سمعت التحية التي أرسلت بها إلي رقية ، شعرت بسعادة بالغة ثم إعتراني الضيق بأن الأسرة لم تعد تهتم الآن بسماع هذا البرنامج خاصة أنني طلبت إهداء رقية أغنية فيروز "شايف البحر".

رقية

جلست عائلة أبى السعادات تتحدث في أمور شتى حتي إذا جاء موعد إذاعة برنامج " ألف سلام " صمت الجميع إنتظارا لسماع أي أخبار عن أحد من الأحبة سواء من القبيلة أو من خارجها والذين يعيشون بمصر أو بعض البلاد العربية كي يطمئن الأهل عليهم ، قرأت المذيعه سلام عابد إلي خطيبته "رقية" بمدينة الشيخ زايد وإلي أسرته ويطمننهم علي حاله وأنه بخير ويعيش بمصر علي أحسن ما يكون طالبا من الله أن يجتمع شملهم للفرحة والزواج وإهداءها أغنية شايف البحر للمطربة فيروز والتي كانت "رقية" تشدو بها كثيرا ، هفت البنات وصفقن لهذا الخبر وقمن بتقبيل شقيقتهن كما هنأتهن أمها وأبوها بهذا أما عن شقيقتهم عيد فقد عاد للزقازيق لاستكمال تعليمه الجامعي منذ عدة أشهر.

تركت رقية مجلس الأسرة وصعدت إلي سطح الدار وجلست بالحجرة التي كان عابد يعيش بها وطارت أحلامها مع الحبيب البعيد عن النظر القريب من

الفؤاد ، داهمتها الذكريات السعيدة من مشاعر الحب الوردى غير المنظور
وشعرت بأنفاس عابد تهفو قريباً من وجهها ، تخدر جسدها وسرحت في خيال لا
نهائي مع الحبيب تفكر كيف يعيش وهل مازال يشعر بها أو أن ضوضاء مصر
وحركتها المستمرة جعلته ينسى الأيام الجميلة ، كانت تتمنى أن ترسل له بحديثها
ولكن كيف ترسل بخطاب والاحتلال يحيط بكل فرد بسيناء ، خلدت إلي نومها
وبعد قليل أقبلت عليها عائشة لتوظفها من أحلام السكره التي غلفتها بأوراق
النرجس الجميلة ورائحته الفتية المنعشة.

قرية نكلا

مضت الأيام تلي الأيام عليّ وقد انتظمت حياتي حيث كل خمسة عشر يوماً
استقل القطار حتى إمبابه ومن هناك أتحدث مع سمعان أفندي الذي يحضر
والذي ووالدتي فيسمعان أخباري وأعيد عليهما ما سبق قوله بأنني أعمل الآن في
مهمة مقدسة تحتاج مني كل تركيز حتى لا تحدث كوارث ، كان كل من أبي
وأمي يدعوان الله لي بأن أوفق في تلك المهمة المقدسة.

سارت بي الحياة علي أكمل وجه بتلك الإمكانيات البسيطة ولم يعد هناك شيء
ينغص علي حياتي وشعرت بأن مستقبل حياتي خططه لي القدر بهذا العمل
البسيط وتلك الحياة التي علي الهامش ، وإذا قدر الله وانتصرت مصر علي
إسرائيل وتم تحرير سيناء فسوف أسرع بالزواج من الحبيبة "رقية" لم يكن
يكر صفو حياتي سوي شعوري بأن أسرة رقية لن تستطيع الانتظار لسنوات
طوال حتى أعودهم ، ولهذا كررت الخطابات المرسله لإذاعة صوت العرب
حتى إذا نجح خطاب منها فسوف يصل إلي قلب الحبيبة.

في أحد الأيام وأنا جالس بجانب المزلقان حيث كنت ممدا ساقِي وأرتدي حذاء قديماً دون شراب وقد اتسخت ملابسِي نظراً لعدم مقدرتي علي غسلها علي شاطئِ الرياح البحيري حيث النساء تملأ المكان ويقمن بغسل الأواني والملابس ثم بعدها تقوم كل واحدة بتلميع ساقِيها وكعبِيها بحجر حتي يزداد بياضا ولمعانا وبالتالي فإن وجودي في هذا المكان سوف يثير القيل والقال وتحدث لي بعض المشاكل ، أثناء جلوسي هكذا أقبل أحد الضباط مع جنوده وعبروا المزلقان ، كان الضابط يرتبة ملازم ونظر إلي باحتقار وازدراء صارخاً بي:

-لم رجليك يا حيوان لما أسيادك يعدوا ، أهلك مش علموك الذوق عشان تقوم تقف وتحترمنا ، عالم حمير

سمعت كلماته والتي وصلت إلي أذني وشعرت بأن حائطاً سقط عليّ من أعلي السماء وبسرعة حدثت المقارنة بيني وبين هذا الضابط الصغير ، فالفارق بيني وبينه لا يقل عن ثمانية أعوام عمراً وخدمة بالقوات المسلحة كما أنه يرتدي الملابس النظيفة والمعتمتي بها وله دخل ووظيفة وقد ارتضي علي نفسه أن يهين ويكيل السباب لمن هم أقل منه ، شعرت بأن الدنيا تلف بي وكدت أسقط مغشياً علي الأرض لولا نفر من أهل القرية شاهدوني فأسرعوا وحملوني وأجلسوني مستنداً علي رصيف المحطة وأحدهم جاء بكرتونة يهف بها علي وجهي محاولاً إفاقتي بتحريكها كي تحرك الهواء وآخر أحضر "فحل بصل" ودشه وقربه من أنفي حتي أنتبه ، تنبهت متسائلاً:

-ليه بيتعمل فينا كده ليه؟ حرام ، هيا الحكاية ناقصة ، أعيني يارب وسقطت مني دموعاً غزيرة وقد تساءل البعض عما أصاب الواد عابد غفير المزلجان الجديد

وأفاد البعض بأنه أثناء عمله ليلاً خرج له عفريت وركبه من ساعتها ، وآخر أفاد قائلاً: أصل الواد عابد شايف نفسه حبتين وجت له جنية عايزه تتجوزه ولجيتيه خرع ومش فيه مروه فغضبت عليه.

أقبل عم شحاتة 'ممرعاً' واستفسر من الضابط عما اقترفه خفير المزلقان الذي عُين حديثاً وقد أفاده الضابط بأن الخفير كان يجلس ماذا ساقيه للأمام دون احترام للمارة وقد يتسبب هذا في عرقلة البعض بالإضافة أنه شاهدني وأنا ضابط ولم يقم بالواجب عليه من احترام شخصية مثلي ، طيب عم شحاتة من خاطره وتجمع حوله نفر من أهل القرية يكيلون لي كل مساوىء الدنيا وأصبحت أنا المخطيء وهو صاحب الحق الذي يستحق الاعتذار.

رغم سذاجة الاستنتاجات التي تبعث علي الضحك اكتشفت أن البعض منا يشعر بتلذذ في تعذيب وإهانة الآخرين خاصة الضعفاء والفقراء فتشاهد معالم الوجه تتجدد وتظهر به الأخاديد والخطوط وتنطلق من عيونه نظرات الاحتقار والازدراء أما إذا شاهد أحد من علية القوم أو الأغنياء أو أصحاب السلطة فينفرج وجهه عن ابتسامة عريضة تخشي علي فتحتة فمه من الاتساع وإصابتها بتمزق والسعادة تطل من عينيه وتشاهد لمعة الوجه واحمرار الخدود وتسمع منه عبارات لا تسمعها من عبد إلي سيده في العهود السحيقة وإذا طلب منه أن يقوم بعمل عجيب الفلاحة سوف يقوم به ثم يخبره أيضا وأشاهد البعض منهم مهرولا خلف سيارته والدعاء له بأن لولاه لمات هو وأسرته وأنه الوحيد بالدنيا اللي خيرته مغطيه هو وأسرته وأن أكتافه من خيرته وإحسانه وكثير من تلك التعبيرات حتي يصل إلي الدعاء المصري الشهير بالروح والدم دون معرفة وظيفة الاثنين وهما الروح والدم.

عبرت تلك المحنة القاسية لأنني سوف أقابل مثلها كثيراً" وتنبهت علي صوت نداء ناظر المحطة الذي طلبني لكنس ونظافة حجرة مكتبه ثم رشها بالماء ، نفذت ما طلبه ثم طلب مني حمل بعض الأغراض إلي منزله ومن بينها شيكارة أرز والتي كانت ثقيلة واستطعت أن أصل بها إلي المنزل منهك القوي مما دفعني للجلوس بجوار باب منزله فأرسلت إلي زوجته ببعض الطعام المتبقي من الأمس علي حد قولها:

- خذ يا عابد قوت نفسك بطبق الدمعة وشوية الرز دوول ، والله أنت ابن حلال كنت ناويه أرميه للفراخ أصل الطبيخ ده اتعمل من كام يوم !!

حانت الأقدار

مضي عليّ وأنا بهذا العمل أربعة أشهر لم أرتكب خطأ واحداً وأصبحت من مشاهير القرية فالجميع يخطب ودي سواء من الشباب أو العائلات التي تبغي زواج البنات والتي وقفت الحرب لهم بالمرصاد أمام تلك الطبيعة البشرية ، كنت من حين لآخر أردد بيت الشعر:

دع الأمور تجري إلي أعنتها ولا تبتئن إلا خالي الببال

ما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلي حال

أحد الأيام وقد أغلقت المزلقان للمرور القطار القادم من إمبابة وصولاً إلي الخطاطبة توقفت سيارة جيب عسكرية أمام المزلقان ، لم أهتم بها مثل كل يوم حيث كان هذا المكان هدفاً ومركزاً لقوات الجيش التي تقوم بتدريباتها علي العبور ، بعد أن سار القطار قمت علي فتح المزلقان وعبرت السيارات من الاتجاهين ، بعد قليل شاهدت ضابطاً مقبلاً عليّ وأنا جالس وكنت أثناء هذا مشغولاً حيث أمسكت بعود قصب أقوم بمص ما به من عصير جميل ، ظل الضابط سائراً حتي توقف أمامي ونظر إليّ متسائلاً:

- عابد؟ وقفت ونظرت إليه وعرفته في الحال ، لقد كان فتحي زميلي أيام الدورة

التدريبية بمدرسة الصاعقة

- ايوه .. أنا عابد يا فتحي بيه

- بتعمل إيه هنا؟

- زي ما حضرتك شايف ، باشتغل عشان أعيش

- بتشتغل!! هوه المزلقان ده تبع الجيش؟

- لأ .. حضرتك مش واخد بالك .. أصل أنا سعادتكُ فصلت من الخدمة.

احتضنني فتحي ونظر إليّ فشاهد الدموع بعيوني ، هدهد عليّ وتحدث معي محاولاً معرفة السبب ، قطع حديثي معترضاً عليّ الأسلوب الذي أتبعه في التكلم معه مذكراً لي بأنني زميل له ، طلب مني كتابة مظلمة ترسل لرئيس الجمهورية ، ضحكت من حديثه متسائلاً :

- ومين يا تري ح يوصل المظلمة دي؟ أجابني بهدوء :

- أنا يا عابد .. سيادة الرئيس جاي النهاردة العصر وح يشوف التدريبات وأنا الضابط المرافق له ولحرسه لتوجيههم لأماكن الوحدات المختلفة ، همتك تكتب المظلمة ، طبعاً مش معاك ورق ، أشار إليّ احد جنوده والذي أقبل مسرعاً فطلب منه إحضار حقيبة الأوراق من السيارة.

أثناء إحضار الجندي لما طلبه قائده أقبل عم شحاتة لتسلم نوبته ، استأذنت منه حيث كان ينظر إليّ وإليّ مرافقي بتركيز ، توجهنا إليّ مسكني الخاص مما دفع بالنقيب فتحي للبكاء عليّ ما آل إليه حالي ، جلسنا وقام بإملائي بالتماس موجه للقائد الأعلى للقوات المسلحة متظلماً من قرار لجنة الضباط شارحاً بالتبسيط ما واجهته أثناء انسحابي والذي تُسبب إليّ بأنني عميل ، وقعت عليّ الالتماس وحمله مني مسرعاً وأنا أحادثه بصوت عالٍ:

- تفكر ح تقدر تسلمه؟ يجيب عليّ سؤالي وهو مازال يسير مهرولاً في اتجاه

السيارة الجيب

- قول يارب .. كررتها

- يارب .. يارب

بعد مضي يومين شاهدت سيارة جيب عسكرية وبداخلها راند من الحرس الجمهوري ، هبط منها متسائلاً

- النقيب عابد؟

ترددت فأنا لست نقيباً ولكنني عابد ، ابتسم لي مهتماً علي تصديق الرئيس بعودتي للخدمة مع زملائي وحصولي علي كل مستحقاتي وعودتي لإدارتي السابقة وكان شيئاً لم يكن ، كنت أسقط أرضاً ليس من فرحة العودة فقط ولكن لسرعة استجابة الرئيس ولشجاعة وإخلاص زميلي فتحي ، أشار إلي سيارة خلفة بأن أستقلها كما أشار لأحد "المساعدين" بالتوجه لقسم الحركة بهيئة السكك الحديدية بتوجيه الشكر لهم وإخبارهم بأن عامل المزلقان عابد استقال منذ ذلك اليوم ، أثناء ذلك شاهدت عم شحاتة مقبلاً مسرعاً حيث أخبره نفر من القرية بوجود ضباط في منطقة المزلقان يحادثون عابد حيث أسرع الرجل متخوفاً متسائلاً:

- عملت إيه يا مدهول؟ ثم وجه حديثه للضابط طالبا العفو عني وأناني طيب وابن حلال وهربان من تار في الصعيد ، ابتسم له الضابط وأخبره بأن عابد سوف يلحق بوظيفة أحسن وتحميه من حكاية التار مما دفع بعم شحاتة للتلهيل وتبعه نفر من القرية والذين أحاطوا بنا كعادة أبناء القرى.

عدت إلي شقتي ليلا كي أستتر عن عيون الجيران من ملابسني ، فتحت الباب يهدوء فسمعت صوت زميلي الصغير أسامة يتساءل .. مين؟ أجبته أنا عابد!! قفز الفتى يحتضنني باكيا علي صدري سواء لما حدث لي وأنه يواظب علي دفع الإيجار لصاحب العمارة كما احتفظ بكل شيء يخصني كأنني موجود وأشار إلي ملابسني العسكرية وعلمت منه أنه أرسل بها للغسيل والكي ثم حفظها

بداخل الدولاب المتواضع ، قبلت رأسه علي حسن خلقه ومراعاته للصدقة
والزمالة ، جلست معه نتداول فيما حدث لي منذ آخر لقاء بيننا ثم تنبهت
وأخرجت عشرين جنيها دفعت بها إليه فتساءل لماذا فأخبرته بأنني اقترضتها
منك غضبا أثناء وجودك بعملك يوم العرض علي اللجنة حيث لم أكن أملك نقودا
تكفي سفري إلي الاسكندرية وسألته عما حدث له بعد أن اكتشف حصولي علي
النقود وقراءة الخطاب الذي أخبرته به عن كل شيء ومنها استيلائي علي كل ما
يملك ، ضحك من حديثي وأخبرني بأنه لم يستطع زيارة عائلته بالزقازيق حيث
لم يكن يملك ثمن أجرة القطار وظل علي هذا الحال حتي بداية الشهر حين تسلمه
راتبه!!

اليوم التالي توجهت إلي إدارة السلاح والتقيت بمدير شئون الضباط الذي كان
استقباله لي مخالفا عن السابق والذي أكال المديح والثناء علي شخصي وعملي
مقدما اعتذاره بسوء القصد لما حدث لي ، بعد قليل حضر أحد ضباط الصف
فقدم شيك الراتب الخاص بي إلي الضابط المسئول الذي وقع عليه بحصولي
علي كل استحقاقي عن سبعة عشر شهرا منذ بداية حرب عام ١٩٦٧ منحتني
القائد عشرة أيام إجازة أعود بعدها لعملي الذي ينتظرني.

عدت إلي زميلي أسامة وأخبرته بما حدث في إدارة المخابرات هذا اليوم
فشكر الله كثيرا نيابة عني ثم أخبرته بأنني أدعوه لتناول طعام العشاء معا تلك
الليلة في أحسن مطعم ، سعد الشاب بهذا وارتدي بعض الملابس الثقيلة حيث
كان الشتاء علي الأبواب ونحن نهاية شهر نوفمبر من عام ١٩٦٨ أثناء العشاء
أخبرني أسامة بأن وحدته سوف تنتقل إلي الخط الأمامي للجبهة مباشرة ولم يتبق

أمامهم سوي ثلاثة أيام فقط ، حزنت لفراق هذا الصديق المخلص وفي الوقت نفسه شعرت بسعادة أنني التقيت به قبل سفره .

اليوم التالي توجهت لأسرتي بالاسكندرية ارتدي ملابسني العسكرية تملؤني البهجة والسرور ، بالقطار التقيت بزмили النقيب قحى ابن طنطا والذي كان السبب فيما حدث لي بعد الله سبحانه وتعالى ، أخبرته بما حدث فابتسم لي وأشار بأنه علم بالخبر منذ اليوم التالي وقص عليّ كل ما حدث بعد ما كتبت التظلم والالتماس برفع العقوبة عني حيث قال:

- شوف يا عابد : في إحدي مراحل التدريب أشار إليّ الرئيس متسائلاً عن المرحلة المقبلة فأسرعت إليه أوضح له ترتيب مراحل تحرك القوات ، حرك رأسه شاكراً فشاهد الحيرة في وجهي فابتسم متسائلاً:

- مالك؟ فيه حاجة عايزها؟ .. أسرعت وأخرجت التماسك ورجوته أن يحقق رغبتك خاصة إنني شرحت له وضعك وأنت تجلس علي المزلقان مهلهل الثياب وترتدي حذاءً بالياً مما دفع بدموعي للسقوط ، رفع الرئيس نظره إليّ دون حديث بعد أن قرأ الالتماس ثم أشار لأحد معاونيه صائحاً :

- إتصل بالفريق فوزي ييجي هنا بسرعة.

بجهاز اللاسلكي الموجود بسيارة الحرس اتصل مرافق الرئيس وأقبل يخبر الرئيس بأن سعادة الوزير في طريقه إلينا ، كنت أشاهد الضيق علي وجه الرئيس دون حديث ثم أخرج زفيراً قويا وهو ينظر أرضاً وسار بضع خطوات وقد تشابك ذراعيه خلف ظهره كعادته ، بعد قليل أقبلت سيارة وزير الحربية والذي غادرها مؤدياً التحية العسكرية للرئيس الذي ناوله الالتماس وبسرعة تفهم الوزير الموضوع محاولاً الدفاع عن القرار ولكن الرئيس تحدث بضيق قائلاً:

- يعني اليهود يخلصوا علي نص الضباط بالقتل وبالأسر وأنتم تخلصوا علي
النص الثاني بالمحاكم العسكرية والفصل ، الضابط ده يرجع من بكره والنهارده
بالليل تيجيلي علي البيت ومعاك كل ما صدر بحق الضباط منذ النكسة من
جزاءات وأحكام .. فاهم؟ تمتم الوزير

- يا فندم .. سيادتك عارف أن فيه ضباط كانوا بيهرولوا خلف المرحوم المشير
فقلنا نخلص منهم!!

- يا سيادة الفريق ، مش فيه ضباط بتجري وراك وتنفذ اللي بتقوله؟ يعني لو
حصل حاجه لك نقوم نرفد ونسجن اللي بينفذوا أمر شخص مسئول ، أنت
مسئول النهارده وعلشان كده الكل بينفذ تعليماتك بعد فترة عينت واحد غيرك
خلاص معدش لك سلطة ، وبعدين إيه حكاية المشير؟ عبدالحكيم الله يرحمه كان
راجل محترم ومخلص لكنه أهمل وطلبت منه يسحب الجيش ويبقي نائب رئيس
الجمهورية ، تفكر لو تبدلت الأحداث وبقي نائب رئيس مش كان زمانك بتجري
وراه نقوم دلوقتي نخون كل اللي كان بيحبه ، أنا أكثر واحد بأحبه لحد دلوقتي ،
اطلب من عبدالمنعم رياض يبطل لجنة الضباط اللي نازلة فصل وطرد فيهم ،
خلونا نشوف شغلنا.

- حاضر يا فندم

- بعدين إيه حكاية العقيد عبدالقوي؟

- ايوه يا فندم لسه محبوبس من ساعة ما سيادتك أمرت بكده من ستة أشهر!!
- تعرف ساعات باشعر بأن رأسي ح تطلق .. يعني لما قائد لواء بالجبهة من حبه
ووطنيته يقول لي قدام جميع ضباطه أنه مستعد أنه مش ينزل إجازة لحد ما تقوم
الحرب ومنتصر وأنا أقول له خلاص خليك يا عبدالقوي يقوم الراجل ترفضوا

فضحكت من ملاحظاتها وأخبرتها بأن عملنا يُصبح في كثير من الأوقات تحت أشعة الشمس الشديدة مع الأتربة المحيطة بالمكان وعادم السيارات العابرة والقادمة ، كانت أسرتي تستمع لحديثي وهم غير متفهمين ما أتحدث عنه من عمل والذي يصب في خانة العمل العسكري الخاص بقتال الأعداء والسرية التي لا يجب أن أتحدث عنها.

الجزء الثاني

رفيق كفاح غير متوقع

ظلم الانسان

عدت إلي شفتي الصغيرة المتواضعة بحي كوبري القبة فلم أجد أسامة بل وجدت رسالة خطية صغيرة كتبها علي عجل يخبرني فيها بأن الوحدة في طريقها إلي جبهة القتال كما أخبرني بأن قائداً جديداً تولي القيادة بدلا من القائد السابق والذي أذاق جميع الضباط الظلم والتعسف في كل تصرفاته وقراراته مما أدخل البهجة علي جميع الأفراد كما سعدت لهذا أيضا لأنك يا عبد أكثر من تضرر من ظلم هذا القائد وسوء إدارته.

القيت بالخطاب جانبا ونظرت للحائط المواجه لي متعجبا من القدر الذي يحررنا ونحن مازلنا نعتقد بأننا نسيطر علي كل شيء ، فالقائد الباغي شديد القسوة أصبح في طي النسيان واكتفت القيادة بأن أوكلت إليه عملا إداريا لن يرضي طموحه ، تذكرت الحكمة التي تقول "إذا دعيتك قدرتك علي ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك".

خلدت لنوم هاديء مريح وشعرت بأن الأيام المقبلة طيبة ولن يطولني الظلم والبطش الذي تعرضت له دون سبب واضح رغم أنني لن أبرئ نفسي مما قمت به من سوء تصرف مع القادة ولكن النتائج دائما متصلة بالأسباب والبدائيات ولهذا فلا يجب أن نضع الإنسان في موقف العجز والظلم ثم نتساءل كيف قام وتصرف بهذا الشكل.

اليوم التالي نهضت منشرح الصدر وارتديت ملابسني وأصبح علي القيمة كما يقول البعض ، عدت إلي عملي بأمر مباشر من رئيس الجمهورية ورفع عني الظلم والغبن الصارخ كما حصلت علي كل مستحقاتي وها أنا عائد إلي

قيادتي للقيام بالواجب الوطني المنوط بي وقد شاهدت خلال عملي بمزلقان السكة الحديد مقدار التدريب العنيف الذي تقوم به جميع الوحدات بل كان رئيس الجمهورية متابعا لكل صغيرة وكبيرة ، هذه هي القيادة وقد دهشت لهذا متسانلا طالما الرئيس بتلك القوة والسيطرة فلماذا ترك القوات المسلحة في الفترة السابقة لحرب عام ١٩٦٧ دون إشراف مباشر؟ لم أعثر علي الإجابة الشافية.

غادرت المنزل ووقفت علي ناصية الشارع في انتظار السيارة التي سوف تأتي لتقلني إلي الإدارة كما أخبرني الضابط المسئول هناك ، كنت أعتقد أنها سيارة لوري عسكرية كما هو المتبع ولكن بعد قليل أقبلت سيارة جيب حديثة وهبط منها جنديان قاما بتأدية التحية العسكرية لي ليخبراني بأنهما أقبلا ليقلاني إلي القائد ، قفزت إلي داخل السيارة وأنا سعيد ومنشرح الصدر ، بعد أن سارت السيارة في طريقها فوجئت بأنها تسير في اتجاه مخالف لمبني إدارة السلاح ، تساءلت:

- أنتم رايعين فين؟ الطريق ده مش بيوصل لإدارة السلاح

أجابني الجندي المرافق بأنه يعلم ذلك ولكن سيادة القائد منتظر حضرتك في مدينة نصر ، أسعدني هذا لأن القائد ينتظر شخصي في مكان عملي الجديد ، توقفت السيارة أمام باب ضخم وأطلق السائق نفيها فأصابني التوتر حيث إن هذا الباب هو باب السجن الحربي مضرب الأمثال في التعذيب والذل لكل من قاده حظه العائر إليه ، إستجمعت شجاعتي فقد دخلت السيارة من الباب وأغلقت البوابات ثم توقفت السيارة وهبط منها الجنديان وأسرعوا لأحد المكاتب وبعد قليل شاهدت اثنين من ضباط الصف ضخام البنية وأقبلا في اتجاه السيارة وفتح أحدهما بابها بينما الآخر جذبني خارجها بقوة كدت أسقط معها أرضا من شدة

قوته ، نظرت إليهما بكل ضيق صارخا بهما:

- أنتم عارفين أنا مين وبتعملوا إيه؟

لم يجب أحد منهما بل اصطحباني كل واحد علي جانب وفي حالة من التكتيف لمنع حركتي وأنا مازلت صارخا بهما ، سرنا بممر علي جانبيه أبنية ولها شبابيك من أعلى يغطيها الحديد ومن داخل تلك العنابر كنت أسمع سببا موجها للمراقبين لي مع التحذير منهما وأنهما سوف يعتديان علي شخص بالضرب المبرح ، كنت في دهشة من كل ما يحدث وما نمي إلي سمعي ، توقف الرجلان وبسرعة تبادلا لكمي وضربي بعنف ، لم أستسلم كعادتي فرددت ضرباتهم بمثلها وأصبح الممر ساحة للقتال بالأيدي يرافقه السباب من كل نوع مع هتافات معادية من داخل عنابر السجن لمن يتولون قيادة هذا المبني اللعين ، كانت صرخاتهم عالية الصوت لهؤلاء المساجين المتواجدين بالعنابر والذين شاهدوا تلك المعركة وهم مصفقون لي ، أثناء هذا أقبل شخص ثالث وهوي علي جسدي بمطرقة لم أشاهدها وشعرت بأن الظلام حل مكان ضوء الشمس الساطع وسقطت أرضا مرتطما بأرضية الممر الأسمنية وسمعت لغطا وحدثا وأحدهم دفعني بحذانه ركلا في بعض أجزاء من جسدي مع سباب منحط يمثل بينتهم.

تبادل الرجال التهنة علي إنجاز المهمة ، وقفوا في انتظار شخص ما ، كنت أستمع لحديثهم وكل خطوات تحركوها لكن باقي حواسي ضاعت فلا أستطيع الحركة أو التحدث ، بعد قليل سمعت شخصا صوته أشبه بالأصوات التي يسمعا النائم حين يهاجمه كابوس متسانلا:

- عملتوا إيه في الواد ابن ؟

- خلاص يا فندم .. كله تمام .. بينما أجاب آخر باين عليه مات

- في ستين داهية .. بس أنا قلت لكم يا ولاد نقطع لسانه بس عشان يبطل كلام .. الأوامر جايه بكده .. ابن ... قاعد في القطر نازل كلام وسباب فينا وفي سعادة الباشا ولي نعمتنا .. خليه يوريني ح يعمل إيه .. طيب يوريني كده ح يروح للريس إزاي ويشتكي له .. اتفو عليك ظابط وسخ
- بس كده مات يعني طلعت روحه

- في ستين داهية ..

- طيب يا فتندم نجيب شوية ميه نرميها عليه يمكن لسه فيه الروح

- خساره فيه الميه .. واد يا خربوش طرطر عليه!! "تبول عليه"

أسمع صوت سقوط قطرات مياه علي الأرض ولم أشعر بها ولكنني شممت رائحة البول ، علق رئيسهم

- الله يرحمه .. بسرعة يا رجاله جهزوا الطرد "الطرد يعني لرجال السجن الحربي في هذا الزمان وضع الشخص الذي مات من التعذيب بداخل جوال ودفنه بالصحراء" وقبل الليل إدفنوا الجثة الرمة بصحراء بلبيس قريب من كلية الطيران وبلاش قريب من المعسكر ؛ لأن الأرض مليانه جتت وسخين زييه واحترسوا من الشرطة العسكرية لتكتشف الجثة ، كل واحد فيكم إجازة ٤٨ ساعة .. قدم الرجال شكرهم إلي المسئول الذي غادر المكان وهو يردد .. ح أشوف مكافأتى ح تكون إيه من الكبار اللي بنخلصهم من وجع القلب ، مازالت الأصوات تتعالي من داخل عناير السجن سبابا ولعنا لهم ولمن أصدر إليهم تلك الأوامر بينما تحدث الرجال الثلاثة من حولي بحديث يدل بأنهم وضعوا جثتي بداخل الجوال المخصص لمثل تلك الطرود ثم حملوني وألقوا بالشوال علي ظهر اللوري ، مازلت لا أشعر بأي شيء وقد ترك لي الله هذا المسجل البشري حتي

أسمع وأعلم بكل شيء يحدث لي.

'كنت أغفوا وأستيقظ وأنا ما زلت علي حالي هذا وعلمت منهم بأنهم جردوني من ملابس العسكرية واكتفوا بتركي بملابس الداخلية التي غطتها الدماء ، توقف اللوري وألقوا بي أرضا من فوق اللوري شعرت بأن عظامي تكسرت وآخر استعداد لحفر حفرة كي أدفن بها ، توقف الرجل يلتقط أنفاسه متسائلا:

- مش ده الضابط اللي مركب سنان ذهب .. أجابه زميله

- أيوه يا سيدي

- طيب ما نخلع سنانه الذهب ونستفيد بيها .. الزميل

- أيوه .. فكره حلوه ، طيب ح أروح أجيب البنسه من شنطة العده

- شعرت بأن أحدهم يفتح فمي عن آخره ثم يُخبر زميله بعدم وجود أسنان ذهب

.. يوضح له زميله

- ضابط وح يحط سنان ذهب أحمر أو أصفر ، ده حاطط ذهب أبيض من الغالي

وعشان يبقى لون السنان الطبيعي

- مش عارف أجيب الأبيض ده منين

- أبعد أنت وأنا عارف .. أبويا كان حنوتي وقبل دخولي الجيش كنت باشوفه وهو

بيقرب الميت بعد ما أهله يروحوا

شعرت بأن أحدهم يقوم علي فتح فمي عن آخره للمرة الثانية ثم حدث زميله

- أيوه أهه .. شفت الضرس الأبيض اللي بيلمع .. ناولني البنسه .. تسأل زميله:

- إزاي قادر تفتح حنك الميت دا بيكون صعب لأنه بيكون متخشب

- ده لسه ميت طازه ، يعني سخن ولسه مش اتخشب

- طيب .. خد يا خربوش وطلعها كلها مش تسيب فتقوته

كنت أشعر بأن الرجل يحرك ضرسي يمينا ويسارا بقوة وبدأت أشعر بالام
وفجأة شعرت بأن قضيبا ساخنا دخل رأسي وسمعت صرختي ونهضت وأنا لا
أري إلا قليلا بسبب الكدمات التي كانت تحيط بعيني ، شاهدت خيال الرجلين
يهربان من شدة المفاجأة صارخين عفريت الميت ، سمعت صوت نباح كلاب
وبعض الناس تنادي حراميه يا جدعان وأصبحت الأصوات كثيرة وأنا أبكي من
شدة الألم صارخا وأشعر بأن حنفية دماء تنفجر من فمي ، بعد قليل شعرت بلياد
كثيرة تمتد إلي ثم تحملني وشعرت بأنني أرقد وأسمع أحاديث وكلمات تدل علي
أن الله أنقذني والبعض يعمل علي منع النزيف المنبعث من فمي.

شعرت بكدمات مياه وصوت نسائي يحدثني:

- أنت مين يا دلعدى .. رد يا خويا دا ، أنت كنت ح تروح في شربة ميه لكن ربنا
وجف ربحك ، بعد قليل سمعت السيدة تسأل أحد الرجال.

- جبت الحاجه يا عليش

- أهه يا ست جواهر .. والله رحيت بلبيس جبتها من الأجزاء الخنجر وعرفته بأن
فيه واد حدانا وجع من فوج وابور الحرت واتعور وحدها ضررس انكسر وبينزف
.. مازالت السيدة تقوم بعملها ثم ناولها عليش شيئا ما وقال الابرة دية بعد ما
يخدها ح ينام ، شعرت بالابرة تدفع بداخل ذراعي وشعرت بمن يقوم بتغطية
جسدي وبدأت الأصوات تخفت رويدا رويدا حتي تلاشت ورحت في سبات
عميق.

استيقظت صباح اليوم التالي علي صوت السيدة "جواهر" التي أخبرتني
باسمها ، كنت أشاهدها من خلال خيوط الضوء الساقطة علي عيني وبين
فواصل الانتفاخات التي غطت جزءا كبيرا من وجهي ومن بينها جنوني وشملت

العينين ، حاولت أن تدفعني للحديث ولكنني كنت غير قادر علي التحدث أو أن يستمر احد بالحديث معي ، ساعدتني علي الجلوس وقدمت لي طبق طعام وأعتقد أنه فتة لبن بالعيش الفينو مكملة تعليقها كي أستطيع البلع نظرا لما حدث لضربي الذي خلع بعنف فأحدث تقطعا باللثة.

'كنت في حالة شديدة من الجوع ورغم هذا تناولت بعضا من الطعام بصعوبة ثم أعدت لها الطبق ، حاولت إقناعي بتناول الطعام فأشرت لها بأنني غير قادر ، حاولت التعرف عليّ ومعرفة اسمي وبلدتي وعملي فلم أستطع أن أجيبها حيث مازلت أشعر بالألم شديدة حين التنفس فقد طالبت الضربات الضلوع والحجاب الحاجز.

كانت "جواهر" تقارب الأربعين عاما من عمرها سيدة بيضاء جميلة ترتدي الكثير من الأساور الذهبية "العيرة" حتي لا يطمع بها أحد محاولا قتلها والحصول علي الذهب كل هذا علمته فيما بعد من المحيطين بها ، ابنة جواهر تدعي "سعدية" وقد حصلت علي البهاء والجمال والأنوثة من أمها ، لم يصل عمرها العشرين عاما وقد أقامت جواهر قهوة بلدي بمساعدة زوجها والد ابنتها الأسطي عبدالصمد الذي كان بارعا في الدق علي الطبله وإخراج نغمات راقصة جميلة كانت تدفع بسعدية لأداء رقصات تشد إليها انتباه الزبائن وغالبيتهم من سائقي اللواري فكانوا يقبلون علي هذا المكان لتناول الطعام وتناول الشاي وتدخين المعسل المغمس بالحشيش.

مساء نفس هذا اليوم أقبلت "جواهر" بصحبة شاب مماثل لي في العمر ومعها بعض الملابس الداخلية والخارجية وفهمت بعد هذا بأنها كلفت أحد السائقين بشرائها علي نفقتها ، طلبت من هذا الشاب أن يعمل علي نظافة جسدي من

القاذورات خاصة رائحة البول الكامنة في ملابسني منذ أن تبول "خربوش" عليّ لكي يختبر هل أنا مت أو مازالت علي قيد الحياة بعد ما حدث بداخل السجن الحربي.

كان الشاب هادنا طيبا حزينا علي حالي وقام بعمله بهدوء وبإتقان كأنه يقوم بنظافته الشخصية ثم ألبسني الملابس الداخلية والتي تتبعث منها رائحتها الدالة علي عدم استخدامها قبل ذلك وأعقبها بأن ألبسني جلبابا طويلا دون ياقة ذا لون رمادي ، أراح بدني ثم أقبل بعد قليل حاملا لي كوبا من الشاي أسعدني رؤيته ورائحته التي غزت أنفي وحمل ملابسني المتسخة وأعتقد أنه ذهب بها إلي "جواهر".

ما زال الشاب جالسا بجواري يحدثني ويطيب من خاطري وعلمت من حديثه أنه يعمل "تباع" علي لوري نقل وهو دائم التردد علي تلك القهوة حيث إنه يعمل مع السائق علي هذا الطريق ، بعد قليل أقبلت سعيدة وقامت بإلقاء التحية علي شخصي ولم تسمع مني إجابة فأخبرها التباع بأنه لا يستطيع الحديث مما أصابه لكنه يسمع كل شيء من الانفعالات التي يشاهدها علي وجهي حين التحدث.

جلست الفتاة أمامي واقتربت مني وأخرجت علبة صغيرة بها مرهم أو شيء من هذا القبيل وقامت بوضع بعض منه علي الأمانة المصابة والتي كانت كثيرة ومتفرقة بالجسم ثم ناولت العلبة للتباع قائلة : "خديا محمود حطله مرهم علي باقي جسمه أصل أنا مكسوفة" تركتنا مغادرة المكان فقام محمود بعمله بهدوء كما سبق وهو يدعو الله أن يتم شفائي حين قدومه المرة القادمة بعد عشرة أيام.

توالت عليّ الرعاية كما توالت زيارات الأسطي عبد الصمد وجواهر وسعيدة وبعض زبائن المقهي الذين علموا بما حدث وسمعت البعض منهم يتحدث

برغبته بإبلاغ المباحث والبعض رفض هذا ؛ لأن المباحث إذا وضعت عينها علي هذا المكان سوف تعتاد الحضور إليه وعمل كبسات تمنعهم من الحصول علي التعميرة الطيبة التي تسعدهم ، أثناء النهار لم تكن سعيدة تكلف بأى عمل خلاف الرقص سوى إعداد الطعام بينما تقوم أمها بإدارة المقهي يعاونها شقيقها "سطوحي" خال سعيدة.

بحكم صغر عمر سعيدة كانت راغبة في معرفة الأسباب وراء كل ما حدث لي وبطبيعتها اعتقدت بأن وراء هذا قصة حب قامت بيني وبين زوجة صغيرة فقام أهلها بالانتقام مني ، كانت الفتاة تتحدث بطيبة محاولة دفعي للحديث وأنا أنفي هذا بإشارة من إصبعي وهزة من رأسي.

بعد عدة أيام بدأت أتحرك قريبا من المقهي أو "الغرزة" كما قلت مساحة الأورام التي علت وجهي خاصة منطقة العينين فإستطعت الرؤية والابتسام وتناول الطعام ، كل الكلمات التي سمعتها بعد التعدي علي بالضرب داخل السجن من المسنول مازالت تطن بأذني "مطلوب قطع لسانه" تبين لي بعد هذا بأنه تم قطع لساني حيث شعرت بأنني لا أستطيع الكلام ، حاولت هذا عدة مرات وأنا بمفردي دون جدوي ، كنت أشير وتخرج من فمي أصوات "أأ ، ، إيا ، ، إياه .. إيدا .. وهكذا وهي تعبيرات ليس لها معني لمن يسمعها وحين تنامي إلي أذني تلك الأصوات هاجمني الحزن والبكاء ، ظلمت تلك الليلة أبحث في ذاكرتي عما قمت به من أخطاء ، لم أجد أو أعثر بل أن القادة الكبار من العسكريين والذين ارتكبوا أخطاءً كبيرة أدت إلي هزيمة الوطن واحتلال جزء مهم من أراضيه لم يحدث لهم ما حدث لي وبفرض أنني تعاملت مع العدو فكان هناك أقصي عقاب وهو الإعدام ، كنت غير قادر علي فهم تلك الأمور وشعرت بأن الله كتب لي

خطا من الشقاء وعدم الهناء وليس ما يحدث لي بسبب أخطاء ارتكبتها.
أصبحت أحد صبيان الغرزة أو القهوة وأصبحت معروفا بين الناس بإشارات
أو بكلمة " أه " فيشير لي أحد الزبائن قائلا وله يا " أه " ويعقبه الباقي بالضحك
، لم أكن أعترض والبعض منهم قبل مغادرة المكان كان ينفخني بقشيشا بسبب
حالتي التي تأثر منها كثير من الزبائن.

كانت كل حواسي سليمة إلا حاسة النطق وقد علمت أن من قام بضربي فنان
في عمله فهو راغب في قطع لساني أي منعي من الحديث والثرثرة مثل ما حدث
مع زميلي فتحي بالقطار وسمعتني أحد العملاء المتتبعين لما يقوله الشعب
المصري فوصل حديثي إلي المسئول الأكبر وأصدر تعليماته إلي زبانية جهنم
بالسجن الحربي بالانتقام مني.

ظهور الحقيقة

أرسل رئيس فرع شئون الضباط بإدارة السلاح للبحث عني سواء بسكني والذي كان مغلقاً أو بالسؤال لدي أسرتي بالإسكندرية وقد توقرت أسرتي لهذا ولكن المنسوب كان فصيحاً إذا عاد إليهم مرة أخرى وأخبرهم بأنه اتصل بقيادته بالقاهرة ليخبرهم بأنني غير موجود بالإسكندرية فعلم بأنني قد وصلت للقيادة وقدم شكره واعتذاره للأسرة ، شعر الضابط رئيس فرع شئون الضباط إنني مازلت غير منضبط وحصلت علي إجازة طويلة وبعد فترة زمنية أبلغ مدير السلاح الذي طلب من الجهات المسؤولة بالشرطة العسكرية "التحريات" بالبحث عني في كل مكان بمعاونة رجال المباحث.

خربوش

عندما توجه خربوش إلي قائده ليذكره بأنه للآن لم يحصل علي المكافأة التي وُعد بها حينما قام بمعاونة زميليه بقطع لسان الضابط عابد ، تنبه القائد ومنحه الإجازة مُعلقاً:

- صحيح اتأخرت شهر عن زميلك لكن ح تخدها .. أنا حقاني ومش بأضيع حق حد .. أنا بيني وبين ربنا عمار بس كل مشكلتي أني بانسي الصلاة" !!!
أسعده حصوله علي المنحة بالإضافة إلي الإجازة وأسرع بالسفر إلي عائلته بالصعيد وهناك بقريته كان سعيداً بتلك الإجازة التي جاوزت الأسبوع في أيامها.
كان يسير بطرقات القرية سعيداً بما قام به حيث كان يرتدي جلباباً أبيض اللون وقد هذب من شاربته وحلق ذقنه وتعطر بعطر من نوع "خمس خمسات"

شبراويشي للطور ، كان يشعر بالسعادة أمام أبناء قريته بل وصل إلي سمعه حديث بعض النساء وهن يتحدثن معلقات " بأن خربوش ولد عبدالمجسود أصبح عليه الجيمه وربنا فتحها عليه بشغله في الديش " ، فجأة شعر بشيء يلقي علي رأسه وله رائحة نفاذة ننته ، تلونت سحنته وجلبابه الأبيض بالوان من تلك القانورات والتي سقطت عليه من أعلي ، فقد ألفت إحدي نساء عبده الضبع عتيد الإجرام "بقصرية" ممتلئة بفضلات مريض لديهم من الشباك دون أن تشاهده أو تنبته للمارة ، غطت الفضلات الأدمية جسده ووجهه مما دفعه لأن يكيل السباب والشتام لأصحاب المنزل ، بعد قليل تنبيهه بأن هذا المنزل هو ملك لأحد أرباب السوابق وأنه مجرم خطير والذي يعيش ويحيا بالجبل وهو خارج علي القانون وبمساعدة أعوانه يقاوم رجال الأمن ، صمت لفترة صاغرا بل أسرع بأن قدم اعتذاره لمن وصل إلي سمعه السباب وأخبره أحدهم لولا اعتذارك لكان لسانك قد قطع تلك الليلة!!

عاد إلي منزله واغتسل بمعاونة زوجته ومازال منظره وهو مغلف بفضلات إنسان مريض تدفعه إلي القرف والرغبة بالقيئ ثم تذكر كلمة قطع اللسان تلك وعاد فكره إلي شهر مضى فقد تجرأ وتبول علي إنسان فأرسل الله إليه بمن أذاقه وبال ما فعله وتجراه وإعتداؤه علي إنسان ضربا وكاد أن يقطع لسانه ، توتر ونام تلك الليلة بانسا ولكنه إستيقظت منتصف الليل علي دقائق شديدة علي باب داره وعلم أن القادم هو "عبده الضبع" الذي سب أهله ظهر اليوم ، خشي ما سوف يحدث له وفر هاربا من الشباك الجانبي فتبعه عدد من المجرمين شاهرين السيوف والخناجر ، ظل يدعو بأقصى سرعة بين حوارى القرية الضيقة المظلمة المتربة وأثناء ذلك لم ينتبه فاصطدم بعربة كارو تقف في الظلام فسقط جريحا

فترك المطاردون الخارجون علي القانون مطارذته وتجمع الناس من حوله وحملوه والدماء مازالت تنزف من جسده وفمه وعلم بعدها بأنه فقد أسنانه الأمامية "القواطع" وأصبح بالتعبير البلدي "أطرم".

قطع إجازته حيث كان جسده ينتفض حين تذكره للضابط الذي عاون في قتله وكسر ضرس له وشاهده ليلا صارخا والدماء الغزيرة تنزف من فمه ، وصل إلي القاهرة واتجه علي الفور إلي إدارة الشرطة العسكرية وأدلي باعترافات تفصيلية ومازالت الدماء تنزف منه ، ألقى القبض عليه كما أرسلت الإدارة بعض مجموعات من رجال التحريات بالمنطقة لمحاولة حل اللغز ومعرفة مصير الضابط المفقود والذي أبلغهم عن مكان دفنه.

عابد

'كنت أتجول بين السائقين والتابعين أقدم لهم الشاي أو الجوزة بينما "سعدية" ترقص أمامهم بمنتهي البراعة وكان رقصها يثير غرائز الرجال ، 'كنت دائم التوقع بأن تهاجم هذا المكان مباحث المخدرات ومن المتعارف عليه أن صحراء بلبيس تعتبر من أحد أهم منافذ تهريب المخدرات إلي داخل مصر منذ قديم الزمن وحتى الآن.

شعرت "سعدية" بأني شاب أرقى حالاً ممن حولها سواء في سلوكي أو أثناء تناول الطعام رغم أنني لم أحدثها بكلمة واحدة ولكن من تصرفاتي أمامها وابتسامتي لها من حين لآخر فدفعتها هذا لمحاولة التقرب مني ، مازلت أفكر هل من الواجب علي أن أتوجه وأبلغ السلطات بما حدث لي ولكنني مازلت أخشي عاقبة من ينتظرني فلم أكن أعلم بأن هناك مجرمين آخرين يختفون خلف مكاتبهم

ومناصبهم الرفيعة ولا يخلون من أن يقفوا أمام رتبة صغيرة ويتجرءون علي فعل ما حدث من تعد علي شخصي كاد أن يؤدي بي إلي الموت.

بمعاونة خربوش الذي صاحب رجال التحريات العسكرية استطاعوا تحديد موقع الحدث الذي أودي بحياة عابد ، إنتشر الرجال الملتزمون بالمنطقة وهم يرتدون ملابس مشابهة كسائقين وعمال وبدو وتوالت المعلومات علي قيادتهم والتي تفيد بأنه منذ أكثر من شهر سمع البعض صرخات مؤلمة لشاب يتعذب أثناء الليل ، البعض أنهى معلوماته عند هذا الحد والبعض أزد وأضاف والبعض أفاد بأنه علم بأن جواهر الغازية احتفظت بهذا الشاب.

أصبح الهدف المحدد أمامهم هي 'غرزة جواهر الغازية' ، توجه الرجال إلي هناك وهم يقودون سيارة نقل تحمل بعض الأجوالة ، اقتربت منهم جواهر ترحب بهم وهي تتفحص وجوههم ، شعرت جواهر بأن هؤلاء الرجال من المباحث فلم تشاهدهم قبل هذا وهم يتلفتون ينظرون بكل مكان كأنهم يبحثون عن شخص ما ، بشجاعتها فضحت موقفهم طالبة منهم مغادرة المكان وإلا سوف تصرخ طالبة عون زبائنها الذين سوف يقتلونكم في الحال ، تحدث أحد رجال التحريات محذرا جواهر من أي تصرف أهوج سوف تدفع حياتها وحياة أسرتها نظير هذا وأخبرها بأن كل ما نريده هو الشاب عابد.

نظرت إليهم بدهشة وهي تنفي وجود شاب لديها بهذا الاسم ، أعاد الرجل تحذيره موضحا بأن جميع من بالمنطقة يعلمون بأنك احتفظت بالشاب عابد بعد الحادثة التي وقعت له منذ أكثر من شهر ، تنبئت جواهر محاولة تفهم الشخصية التي يبحثون عنها حيث قالت:

- جصدكم الواد "أه" ، تبادل الرجال النظرات وأشار أحدهم بأنه هو ، صاحت جواهر تنادي شقيقها سطوحي طالبة منه إرسال الواد "أه" للزيائن دول.
بعد قليل أقبّل "أه" في اتجاه رجال التحريات العسكرية وتأكّد لهم بأنه النقيب عابد والذين حصلوا علي صورته من ملف إدارة شؤون الضباط .

رحب بي أحدهم وسألني بصوت خفيض

- أنت عابد؟

أصابني التوتر ورحت أصرخ بصراخ الضُكّم وأعود للخلف وأشير بيدي بأن ابتعدوا عني مما دفع بجواهر للصراخ وهذا أشعل الموقف أكثر حيث كان الزيائن يشاهدوني وأنا أسرع بالهرب خشية هؤلاء الرجال ، حاول الزيائن التعدي علي رجال التحريات ولكنهم أشهروا الأسلحة في الوجوه فخشي الزيائن وعلموا بأن هؤلاء رجال إحدّي العصابات المنتشرة بالصحراء.

تسلل رجال التحريات وفتشوا المكان حتّي عثروا عليّ حيث كنت أستغيث باكيا لأن صوتي لا أسمعته ولا أستطيع أن أعبر عن خوفي من هؤلاء الرجال أتباع السجن الحربي أو البنيه صاحب الرتبة الكبيرة الذي أمر بقطع لساني وقد أرسلهم للمرة الثانية لقطع رقبتّي ، تجمع رجال التحريات حولي والبعض مازال يُشهر سلاحه في وجوه الزيائن وهنا أظهر قائد المجموعة تحقيق الشخصية العسكرية الخاص به فهذا من روعي حيث أخبرني بأنهم أتوا لإنقاذي بعد أن تمّ اللقاء القبض علي خربوش وباقي العصابة.

أخيرا تهلّل وجهي وهنا قام رجال التحريات التابعون للشرطة العسكرية بتأدية التحية العسكرية لي أي للنقيب عابد حيث أن جميعهم أقل مني رتبة

ودرجة ، صافحت من عاونني بينما كانت الدهشة تعلو الوجوه ما بين الدهشة والفرحة حيث انطلقت الزغاريد وأقبلت "سعدية" ترحب بي بطريقتها محاولة معانقتي بين صفير وصيحات السائقين وحدثتني بأذني قائلة:
- "كنت حاسه أنك حاجه كبيرة لكنك رحنت مني".

اتصل رجال التحريات لاسلكيا فأقبلت عدة سيارات جيب عسكرية وركبت إحداهما وقبل أن أغانر المكان أقبلت جواهر تحدثني بصوت عال:

- "خلاص يا خويا ، كل حاجه اتعرفت ما نتكلم بقي عايزه أسمع صوتك!!"
ابتسمت لها وأشترت إلي فمي بأذني لا أستطيع الكلام ، شاهدت جواهر وهي تضرب بيدها اليمنى علي صدرها مكررة:

- "أخرس ، يالهوي كنت يا سعدية ح تتجوزي أخرس"
انطلقت السيارات من أمام القهوة بين التصفيق والدهشة من جواهر والبكاء من سعدية التي بدأت قصة حب في سن المراهقة وكانت في منتصف الطريق ولكن أحلامها ذهبت هباء.

وصلت إلي إحدي المستشفيات العسكرية بالقاهرة برفقة رجال التحريات العسكرية وهناك التفت العديد من الأطباء حولي واستبدلت ملابس الجلباب البلدي إلي البيجامة مع استبدال جميع ملابسي الداخلية ونظافة بدني علي عجل ، أجلسوني علي كرسي متحرك ودفعوا بي من قسم إلي آخر خاصة أقسام الأشعة المختلفة والتحاليل المتنوعة ، بعد مضي يومين علي وجودي بالمستشفى التفت حولي العديد من ضباط الأجهزة المختلفة بالإضافة إلي مندوب من إدارة السلاح كما تواجد رجال النيابة العسكرية الذين وجدوا صعوبة في الحصول علي أقوالي حتي خبير الصم والبكم لم يستطع تفهم إشارتي ؛ حيث أخبرهم بأنني لم أولد بهذا

الوضع لذا فإشارتي مثل إشارات إنسان طبيعي يسمع ويتكلم ولهذا طلب مني ممثل النيابة العسكرية الإجابة كتابة علي كل سؤال مما سهل عليهم وعلي إجابة الأسئلة التي كانت مطابقة لما رواه لهم الشاويش خربوش مع بعض إضافة منه لم أكن أعلمها عن من وشي بي أو طلب قطع لساني كما أنني استكملت باقي الإجابات عما حدث لي بعد نزع ضرسني وهروب خربوش وزميله ثم التفاف هؤلاء الناس الطيبين من حولي والعمل علي علاجي علي قدر طاقتهم المادية وثقاقتهم الصحية.

كان السؤال المهم هو لماذا لم أبادر بإبلاغ المسؤولين عما حدث لي بعد أن تنبّهت ووعيت ما حولي فكانت إجابتي لهم صادمة حين أبلغتهم خوفاً بأن البعض يتعقبني بعد أن وصلت شكواي إلي رئيس الجمهورية مما دفعهم إلي الاعتقاد بأن هناك أصابع خفية راغبة بأن يظل الوضع السابق علي حاله وأن كل فرد يتجرأ ويرفع شكوي أو مظلمة سوف تصبح نهايته القتل أو عاهة مستديمة حتي يصبح عبرة للآخرين.

بقسم الأذن والحنجرة أفاد رئيس القسم بأن كل الأجهزة الخاصة بالتخاطب سليمة ، ولهذا أمر بعرضي علي قسم المخ والأعصاب ، بداخل هذا القسم أجمع الأطباء بأن فقدي للنطق ناتج من صدمة عصبية أثرت علي هذا الجزء حيث كان هو الجزء الفاعل في الصياح وطلب النجدة وأن الله كان لطيفاً بي فكان من الممكن أن يصاب عضو آخر أشد أهمية ونتيجته فقدي للحياة أو شلل ، كانت التوصية لأطباء هذا القسم بأن حالتي ليس لها علاج عضوي وأنه من المحتمل إذا تعرضت لصدمة عصبية مماثلة أن أتعافي.

سخرت في نفسي من رأي الطبيب وتساءلت هل أنا قادر علي مواجهة

صدمة عصبية أخرى؟ هل يجب عليّ أن أظل أترنح تحت ضربات القدر والبشر
حتي أشفي؟ الأفضل أن تنتهي حياتي بدلا من تلك الدوامة التي مضي عليها
عشرون شهرا منذ بداية حرب عام ١٩٦٧.

في قيادة السلاح طلب نائب القائد العميد ... لقاء المقدم فوزي قاندي السابق
وأخبره بأخر معلومات وصلت إليهم عن نشاط العدو في جنوب سيناء والتي تقيد
بان الإسرائيليين يعدون العدة لبناء قاعدة ضخمة يمكنهم منها إطلاق صواريخ
أرض أرض متوسطة المدى تغلق خليج السويس قريبا من الميناء حتي تمنع
مصر من استغلال هذا الميناء كما أنه من الممكن ضرب منشأة السد العالي الذي
أوشك علي الانتهاء لتحرم مصر من الاستفادة بهذا الإنشاء الهندسي الرائع الذي
سوف يفيد الاقتصاد المصري والذي تكلف مئات الملايين من الدولارات والذي
كان السبب الرئيسي لتأميم مصر لقناة السويس.

أفاد المقدم فوزي بان هذا العمل خطير للغاية ولا بد من الحصول علي كل
المعلومات المطلوبة عنه ولهذا سأله الضابط المسئول عن تلك العملية ومن
ترشحهم من الضباط الأكفاء للقيام بهذا العمل حيث لك الكثير من الخبرات
بالعمل بسيناء قبل أن يوكل لك العمل الحالي والبعيد عن تلك المنطقة ، كانت
إجابة المقدم فوزي بان أفضل ضابط لهذا العمل هو النقيب عابد المصري لما
يتميز به من خبرات وذكاء وحسن تصرف وقدرة علي تصوير المواقع ذهنيا بل
لجودته ودقته في عمل رسم توضيحي لمثل تلك الإنشاءات كما أنه قليل الكلام
يسمع أكثر مما يتحدث ولن يتحدث إلا إذا كان يريد بالتوضيح أو لم يقتنع
ولهذا فسوف تلاحظ سيادتك بأنه ينظر إليك حين تتحدث ويحرك رأسه كأنه

متفهم لكل شئ ويتركك دون حديث وقد اختبرته أثناء عمله معي بالقطاع وكان بارزا في هذا النشاط ثم أكمل حديثه بأنه علم بأنه يعالج حاليا بالمستشفى بعد عودته من سيناء بعد معاناة وصعاب لا مثيل لها وأنه من الممكن أن أندارس معه هذا الأمر.

شكره القائد وأخبره بأنه سوف يتولي هذا الأمر وعليه العودة إلي عمله المكلف به وأن طائرته سوف تقلع بعد أربع ساعات شاكرا سرعة الاستجابة حين استدعاه من المهمة الخطيرة التي كان يقوم بها لصالح الوطن بإحدي الدول الإفريقية ، غادر المقدم فوزي مكتب القائد متجها إلي منزله وجلس مع أسرته بعض الوقت وأثناء ذلك حاول الاتصال بالمستشفى وأخبره المرافق بأن النقيب عابد مازال تحت العلاج والملاحظة ولا يستطيع الحديث.

مضت الأمور علي ما يرام وتحسنت حالتي الصحية وغادرت المستشفى وقد منحني الطبيب إجازة ثلاثة أيام كنت غير راض عنها فكيف أتجه لأسرتي بالإسكندرية وأنا فاقد للنطق ، توجهت إلي شقتي بحدائق القبة وقضيت تلك الأيام بها وخلالها كتبت خطابا لأسرتي ذاكرا بعض الأحداث التي حدثت بالوطن خلال الأيام السابقة حتي تعلم أنني مازلت حيا أرزق ثم أتبعته بخطاب لإذاعة صوت العرب وبرنامج ألف سلام أرسل فيه بالتحية والتقدير لخطيبيتي الأنسة "رقية" وأهديتها أغنية أعطني الناي وغني للمطربة فيروز.

حين مغادرتي الشقة والتوجه لشراء طعام أو شراب كان بعض الجيران الذين يلتقون بي يصافحونني مهنئين لي علي أجازتي وأنا أبتسم لهم مصافحا دون حديث ، اليوم التالي توجهت لأداء صلاة الجمعة وبعد الصلاة التقي بي بعض الجيران يتحدثون معي والقوا علي بعض الأسئلة وأنا مازلت علي حالي بتحريك

رأسي والابتسام مما دفع بأحدهم وهو رجل كبير العمر يماثل عمر أبي وله من التقدير والاحترام لدي الجميع بأن استنكر ردة فعلي طالباً مني احترام الآخرين والإجابة علي تساؤلاتهم دون الحركة فقط ، أشرت له بإصبعي بداخل فمي بأنني لا أستطيع الحديث لحالة إصابة بجبهة القتال ، اعتذر الرجل واحتضنني هو ومن معه والبعض منهم سقطت منه بعض دموع التأثير.

عدت إلي شقتي وأنا مازلت في حالة من الوجوم والحزن فيها أنا أجابه الناس لأول مرة وقد أصبحت ابكم ولا أستطيع التعبير عما يدور بفكري وأخشي الإشارة فالكل يعلم بأنني إنسان سليم وكنت أثير المشاكل والأحاديث والضحكات فكيف أصبحت هكذا؟

كان الحزن ينتابني من حين لآخر كلما تذكرت حالتي ، الآن أصبحت مثل الحيوان الأعجم أتقوه بتعبيرات قصيرة غير مفهومة وأنا في حالة من الضيق لمحاولة توضيح من يحدثني بإجابتي وبكلماتي فيزداد حزني لردة الفعل خاصة حين يعتقد البعض بأنني أتعالي علي الناس ، شعرت بأن تلك نهايتي مثل ما اعتزاني هذا الشعور مرات عدة سواء في بداية الانسحاب وقد لقي كل من الصديقين "فاروق وسلمان" حتفهما وأصبحت بالقارب مصاباً أنزف الدماء وطيور النورس البحرية راغبة في افتراسي ، ثم هاجمني نفس الشعور وأنا جالس أرضاً أمام مزلقان قرية "نكلا" وأعمل خفيرا وأشاهد زملاء يتحركون أمامي بملابسهم العسكرية بصحبة جنودهم ، ثم أثناء عملي قهوجي بغرزة جواهر ، لقد كتب علي أن أظل حقل تجارب أو كبش فداء لمن لا أعلم عنهم شيئاً ، طفرت الدموع الغزيرة من عيني وأنا جالس بالظلام لا أستطيع مناجاة الله إلا بداخلي حيث حرمت من سماع صوتي منذ أكثر من شهر مضي ، كانت

دموعي مؤلمة مع تشنجات تصدر مني يصاحبها أصوات مخالفة لأصوات
البشر المعافين فهي أشبه بصيحات مثل الكلاب أو الذئاب.

صباح اليوم التالي سمعت جرس الباب فنهضت وقتحته وكان القادمُ محصل
الكهرباء الذي حادثني طالبا مني دفع الفواتير المتأخرة علي الشقة ، ناولته
المتأخرات التي طلبها ثم وجه إلي بعض الأسئلة وحينما عجزت عن الرد
وأشرت له بيدي اندفع الرجل صائحا:

- "يخرب بيت أهلك .. هو أنت أخرس .. ما فيش حد هنا أكلمه ، أنا مش عارف
الحكومة سايبه الناس ولاد الكلب الخرس والعُمي في البلد ليه .. المفروض
تلمهم وتموتهم" كان الرجل يتحدث بحرية حيث يعلم أن الأخرس لا يسمع ولكن
الأخرس الذي كان يقف أمامه يسمع ويعي كل شئ ، عصفت كلماته البذيئة
بكياني الجريح ، أشار إلي مغادرا وهو يشير بيده قائلا": "روح يخرب بيت
أهلك".

'عدت إلي داخل الشقة وعلمت ما هو في انتظاري في تعاملي مع الناس ،
جلست أفكر في الحل الأمثل لحالي وبعد جهد شعرت بأن حياتي توقفت مع بني
البشر وعلي الابتعاد والتعامل مع البُكم من أمثالي وهم الحيوانات ، يجب علي
أن أعيش وأحيا مع الحمير والخرفان والكلاب ، شعرت براحة لهذا الحل فتلك
المخلوقات لن تسيئ إلي شخصي بكلمة ، فإذا تحدثت مع الماعز أو الخراف
فسوف أسمع مأمأة وإذا حدثتهم فسوف تخرج مني كلمات دون معني مثل "أأ ..
أه أو أبا أباه" ولن يحقرني أحد منهم.

حوالي العاشرة صباحا وبعد مغادرة سليلط اللسان محصل الكهرباء أقبل أحد
الجنود وطرق الباب ففتحت له فادي لي التحية العسكرية وأخبرني بأنه أقبل

يلقاني حيث ينتظرنني الرائد ... بالادارة ، رافقه دون خوف أو وجل حيث كانت الأخبار قد وصلت إلي سمعي بأن النيابة العسكرية ألقت القبض علي كل المسؤولين بالسجن الحربي وأطلقت سراح السجناء بناء علي تعليمات عليا من الرئيس واستضافت هؤلاء المجرمين بدلا منهم وبدأت حياة جديدة أمام هذا المبني الذي شاهد وعاصر عذاب الآلاف وشاهد مقتل الكثير أثناء حالات التعذيب وبدأت أسرار أفعالهم المخجلة تتكشف وبدأ بالبحث عن جثث الكثير من الضحايا من أمثالي بل مدنيين ألقى القبض عليهم وعذبوا وشردت عائلاتهم.

وصلت إلي مبني الإدارة الذي دخلته لأول مرة وأنا شاب يافع وكلي نشاط وقلب نابض يعشق الوطن ولا يضرر الكره لأحد بينما في هذه المرة بعد مضي سبعة أعوام وقد أصبحت أحمل كرها ضد كل القيادات وأصبحت أبكم بفضل هؤلاء الذين كنت مع الآلاف غيري ندافع عن مكاتبهم المريحة بالقاهرة ، لقد عذب أصحاب الأيادي الناعمة أبناء الخشونة والحياة الصعبة بجبال وصحراء سيناء ، لقد حصدوا كل ميزة وخير ومكافآت بينما من تبقى منا علي قيد الحياة حصد الألم ونزف الدماء وانتهكت آدميته ، أين العادل؟ أليس أنت الله العادل الحق؟ لماذا لا تنتقم من عبيدك المفسدين؟ .. سمعت صوت الجندي:

- وصلنا يا فندم ، اتفضل علي مكتب سيادة الرائد ... أشرت للجندي بعلامة التحية والشكر بيدي .. سرت بطرقات المبني الفخم الأثري وكل من يلقاني الأقل مني رتبة يؤدي لي التحية العسكرية وكنت أبادلهم بمثلها فهي بعيدة عن منطق البكم.

بالمكتب نهض المقدم مرحبا بي حمد لله بالسلامة ، إتفضل ، هيه تشرب شاي والاقهوة؟ لم اجبه مما دفعه بأن ينادي الجندي المراسلة:

- اتنين قهوة يا خليل مطبوط ليا ولسيادة النقيب ، هيه ... قول لي علي اللي حصل من ولاد الملاعين بتوع السجن الحربي ، أه لو شفتهم دلوقتي ، حالتهم تصعب علي الكافر ، مش بترد ليه يا عابد؟ أنت لسه زعلان من اللي عملته معاك بعد ما رجعت من قبرص؟ أنت عارف أن الجيش أوامر ، المهم المقدم فوزي باعت لك سلام كبير " بدت السعادة علي وجهي وابتسمت وأسرعت بالإجابة:

- " أأا .. أه .. إده .. أفه" لم أنتبه لحالي ولكن الرجل صمت وتوقف عن الحديث وتبدلت سحنته وخاطبني بضيق:

- إيه اللي بتعمله ده؟ مش عايز تكبر وتتحمل مسئولية؟ أنت حر .. قوم اتفضل معايا علي سيادة العميد.... أنا غلطان أني بأتكلم مع ظابط مشاغب زيك ، أنا عارفك .. ملكشي كبير .. ورايا.

نهض المقدم ... وأنا أتبعه وكان الغضب مازال هو سيد الموقف .. أمام باب مكتب العميد طرق ... الباب مستأذنا بالدخول فسمع الأمر من الداخل .. تعالي يا ...

- النقيب عابد معايا يا فندم .. "سمعت عبارات الترحيب المشجعة التي تحدث بها سيادة العميد" أصبحت بداخل المكتب .. نهض العميد وترك المكتب وتقدم إلي منتصف الحجرة مصافحا لي طالبا من المقدم أن ينصرف لمكتبه لأنه راغب بالحديث معي منفردا .. ترك المكتب وهو مازال ينظر لي بكل ضيق وأعقب هذا قائلا:

- حاضر يا فندم .. تحرك مؤدبا التحية العسكرية.

التكليف بالمهمة

ألف حمد لله بالسلامة يا عابد .. الحقيقةُ سمعتك حلوة خالص وطبعا الملف بتاعك منور بقرار سيادة الرئيس بعودتك للخدمة .. دي شهادة يعتز بيها كل واحد .. المهم أنا طلبتك عشان أطمئن علي حالتك الصحية كمان أعرفك بأن فيه مهمة مستعجلة مطلوب لها واحد عنده خبرة وجدع والحقيقة المقدم فوزي هو اللي رشحك للمهمة دية .. أنا مش ح أطول عليك لكن من بكره ح تنضم لقوات الساعة وهناك ح يدربوك إزاي تتعامل مع كلاب الحرب "ظهرت البسمة علي وجهي فسوف أعمل مع أحبائي من البكم " ، اتفضل أنت دلوقتي وكل حاجة ح يقوم بيها سيادة المقدم نهضت وأديت التحية العسكرية وسمعت سيادة العميد متحدثا .. لو فيه اتنين زيك يا عابد!!

كنت أسير بالممر الواصل بين مكتب سيادة العميد والمقدم وأنا في دهشة من تكليفي بعمل مهم رغم ان الأطباء أكدوا علي حتمية تسلمي عملا إداريا بعيدا عن التعامل المباشر مع الناس وأن يتم التفاهم معي كتابة حتي أتعافي مما ألم بي ، لقد عثرت علي الفرصة السانحة فسيادة العميد عثر علي العمل المناسب لي لكي أعمل مع غير البشر ، إنهم الحيوانات وسوف أعمل مع كلاب الحرب ، ح تحلو وأسمع الهوهوه وهما ح يسمعوا مني آأه .. أده .. إياه

طرفت باب مكتب سيادة المقدم الذي نهض مصافحا لي وأشار لي وهو ممسك بتقرير المستشفى الذي وصله منذ دقائق واحتضنني معتذرا عما بدر منه من سوء الظن وقد غطت الدموع عيناه ، جلس أمامي يحدثني بهدوء كأنه يحدث طفلا صغيرا يتعلم القراءة والكتابة حيث كان يضغط علي الحروف ويتحدث

بمط الأحرف ، رن جرس التليفون وكان المتحدث العميد ... حاول المقدم أن يوضح للعميد بعض فقرات التقرير ولكن الرجل أخبره بأنه يعلم كل شيء يخص الحالة الصحية للنقيب عابد ، أعاد المقدم حديثه:

- يا فندم ده مش بيكلّم

- أنا عارف ودي من أهم صفات رجال المخابرات .. التكتّم ده شيء مهم

- يا فندم

- مش معقول يا سيادة المقدم نفذ الأمر بسرعة واعمل علي راحته

نظر اليّ وهو مازال ممسكا بالتقرير النهائي للمستشفى والذي يقع في نصف صفحة صارخا

- العالم دي مش بتفهم .. أعمل إيه؟

توتر لهذا وأثناء حنقه وضيقة طبق التقرير بيده علي هيئة كوره صغيره ووضعها بجانبه ثم أكمل اتصاله مع قيادة قوات الصاعقة وطلب من وحدة النقل التابعة للإدارة تجهيز سيارة لوري لتظل مع النقيب عابد وبعض الأشياء الإدارية .. ثم نظر إليّ قائلا:

- الجيش بيقول نفذ وابقى اتظلم!!!

أقبل أحد ضباط الصف العاملين بمكتب شئون الضباط وسلم المقدم نص الخطاب الموجه لقوات الصاعقة فوقعه وختمه بالختم وسلمه لي مصافحا داعيا لي بالتوفيق.

ركبت اللوري والسائق يعلم إلي أين نتجه ، ظللت أستعيد الدقائق الماضية وأنا في دهشة من أمرى والسعادة تغمرني بأن سيادة العميد عثر لي علي عمل يناسب حالتي ، علوندي الجزع فهذا معناه أنني سوف أظل أبكم باقي حياتي ،

لكن بعض الهدوء فرد شراع الأمان علي نفسي الحزينة حيث تذكرت بأن الكثير من الشباب فقتوا عضوا أو أكثر من أجسادهم أما فقد النطق فلا يقارن بما فقدته هؤلاء الرجال مستعيدا الحكمة التي تقول "إن السكوت من ذهب" ، بعدها أصابنتي رجفة فقد تذكرت ما حدث لي من جراء الذهب وفقدي لأحد ضروسي حيث اعتقد خربوش أنها من الذهب الأبيض.

وصلت إلي قيادة وحدات الصاعقة ولاحظت سرعة تنفيذ الأوامر والعمل هناك يسير بسهولة ويسر ولا يعقدون في العمل مثل وحدات المشاة ، تسلم مني أحد معاونين الخطاب ثم رافقتي لمكان الاستراحة ووجدت أنه قد أعد جدولا بالمواعيد الخاصة بي سواء للتدريب أو للراحة أو توقيات تناول الطعام ومكان كل نشاط وإسم قائد كتيبة كلاب الحرب كما ذكر اسم الصف ضابط المرافق لي أثناء هذا التدريب حتي نهاية الأسبوع حتي الانتهاء من التدريبات بعدها سوف أغانر المكان عائدا لوحدي مشفوعا بتقرير ، اعتقدت بأن الرجل يعلم بحالتي الصحية ولهذا لم يتبادل معي أي حديث مما أسعدني حتي لا يعاونني الإحراج مرة أخرى.

عصر هذا اليوم كان اللقاء الأول بالراند ... قائد وحدة كلاب الحرب الذي تدرب لمدة عامين بألمانيا علي هذا النوع من النشاط العسكري الخطير وقد عاد من ألمانيا برفقة فصيلة من تلك الكلاب التي تناسلت وانتجت جيلين حتي الآن ، كان الرجل محترفا في عمله يعاونه اثنان من الأطباء البيطريين العسكريين وبعض ضباط الصف والجنود.

توجهت برفقته إلي المبني المخصص لتلك الكلاب وشاهدت تلك الحيوانات المخيفة في حجمها وشراستها وقد فتحت أفواها رغبة في اقتراس أي غريب ..

شاهدته كيف يتعامل مع تلك الحيوانات التي أصابتهما الألفة مجرد أن شاهدته وشمّت رائحته ، كنت أشاهدها وأستمع لنباحها وأطبقه علي نفسي ، كان الرائد من حين لآخر يطلب مني الرأي أو يسألني عما يعن لي من استفسارات وأنا أبتسم له .. طلب مني أن أنادي علي أحد الكلاب وذكر اسمه "جدعون" لم أستطع نطق الاسم حاول معي ولم أستطع وتشجعت ناطقاً "إيه إيه .. أأ .. آه" ضحك الرجل قائلاً والله اسم حلو ثم نادي علي الصف ضابط المشرف طالباً منه استبدال اسم "جدعون" بالاسم الذي نطق به سيادة النقيب ، نظر إليّ قائلاً أرجو ان تعيده علي مسامع الشاويش خضر .. تجرأت قائلاً "إيه إيه .. أأ .. آه" أسرع الشاويش وأحضر ورقة وقلماً وطلب مني إعادة الاسم وكتبه وعرضه عليّ متسائلاً هل هو هكذا فأجبته "باه" مما دفع بالرائد والشاويش للضحك وشاركهم الضحكات.

توالت الأيام وأصبح "جدعون" اسمه الجديد "إيه إيه .. أأ .. آه" وقد أخبرني الشاويش أن هذا الاسم صعب للغاية حيث اسم جدعون أطلق علي هذا الكلب "انثي الكلب" منذ عام حيث أوضح قائلاً:

- أفندم .. دي كلبه قتيه .. ايوه والله .. زي ما تجول اكده إنها صبيه ما جبتشي غير بطن واحده وهيا من أهم الكلاب حدانا ومش بنكلفها بأيتها حاجه غير أنها تولد وتدرّب عيالها علي العمليات لكشف الألغام والمفرجعات والهجوم علي مواجع العدو وتدميرها .. هيه إحنا هنا بنعمل شغل يامه بس محدش يببص لينا وطلعوا علينا اسم " بتوع الكلاب!!

قام الرائد ... قائد وحدة كلاب الحرب ومعاونوه بجهد واضح مع تلك المخلوقات الذكية كما حاولوا أن يجذبوني للحديث معهم ولكن كل هذا لم يجد

لدي أية استجابة مما انعكس عليهم سلباً واعتقد القائد كما قال الشاويش خضر بأنهم بتوع كلاب وأنا جاي من المخبرات وراسم نفسي عليهم مما دفعه للابتعاد عني ، قبل نهاية التدريب بيوم أقبل علي القائد باشا معتذرا لي عن سوء الظن بي حيث أخبرني بأنه إتصل بالمقدم ... رئيس فرع شئون الضباط بالسلاح وعلم منه بحالتي ولهذا فهو يكرر اعتذاره وقضي تلك الليلة الأخيرة معي وظل يزودني بالكثير من المعلومات عن الكلاب وكيفية التعامل معها وما يثيرها وما يضايقها وقد ذكر عدة أسباب أمامي تؤثر علي تلك الكلاب وتجعلها في حالة من الهياج التام وقد يضر هذا بمن يتعامل معها وانحسرت تلك النقاط في : "عدم النظافة / الجوع والعطش / درجة الحرارة المرتفعة / أثناء فترة الحمل والرضاع / مواعيد التزاوج / سوء المعاملة"

انتهت الدورة التدريبية القصيرة للغاية وغادرت الوحدة صباح الخميس عائدا إلي منزلي وتوجه السائق بالسيارة إلي الوحدة علي وعد بإرسال ميكروباس الضباط إلي صباح السبت ، بعد أن حصلت علي حمام استبدلت ملابسني وتوجهت لنادي الضباط بمصر الجديدة وكانت معي ورقة وقلم وحين سألني جرسون المطعم عما أطلبه بعد أن عرض علي قائمة بالأطعمة كتبت له ما أرب حيث ضحك من هذا قائلا "أنا يا فندم بأفهمها وهيا طايره ، خلاص كل طلبات سيادتك جايه بعد شوية بسيطة."

جاست ساهما وبعد فترة طويلة! أقبل الجرسون وأحضر طعاما آخر مخالفا لما طلبته بل أنه أحضر طعاما لشخصين وأشرت له بأنني بمفردني فابتسم قائلا -'دوبل يا فندم

صمت وسكنت ورضخت فحالتي لا تسمح بالمجادلة ودفعت ثمن الطعام الذي لم

أرغب به ، غادرت النادي وأنا في حالة من الدهشة لما يقوم به الشعب المصري من فعلوه وعلاج الخطأ بأخطاء أكبر وأشد جسامة ، رددت بداخلي عمار يا مصر ، صباح اليوم التالي طالعت الصحيفة وعلمت بأنه سوف تقام مباراة بين النادي الأهلي والنادي الإسماعيلي بإستاد "ناصر" بمدينة نصر .. أسعدني هذا لأن مباريات النادي الإسماعيلي مع الأندية الكبيرة لها مذاق خاص.

استبدلت ملابسي وغادرت الشقة متوجها لأحد المطاعم حيث تناولت الطعام المصري المرافق للنكت والقشاش وهو الفول والطعمية ثم أعقبها التوجه للمقهى وشرب الشاي ومشاهدة المارة حتي حان موعد صلاة الجمعة حيث توجهت للمسجد وجلست بين المصلين وأنهيت الصلاة مغادرا إلي الإستاد لمشاهدة مباراة ودية حيث كان الدوري العام لكرة القدم متوقفا لظروف الحرب ، تزامنت مع الجماهير وقطعت تذكرة ودخلت مع المشاهدين ، بعد قليل تأكد لي بأنني بمدرج مشجعي النادي الإسماعيلي وأسعدني هذا فأنا أعشق هؤلاء المشجعين لكنني أعتب عليهم سوء تصرفهم وتوترهم حين يُهزم الفريق رغم أنني لم يسبق لي مشاهدة مباراة كرة قدم من الملعب.

كانت المباراة سجالا بين الفريقين ثم هدف مباغت للنادي الأهلي مما دفع بجمهور الإسماعيلي للزئير والإحتجاج والسباب ، المشجع الذي كان يجلس مجاورا لي زغدنني في صدري متسائلا :

- إيه يا له .. مش بتزقق معنا ليه ضد ولاد دين

- رفعت صوتي وأنا أصيح بكلماتي البسيطة " إبه إبه ... أأ .. أه"

لم أشعر إلا وهذا المجنون ينطح رأسه برأسي مع لعنات وسباب صائحا : الواد ابن دين ... تبع ولاد ... بتوع الأهلي .. تجمع المشجعون للنيل مني ولكن الله

ستر حيث سجل الإسماعيلي هدفا جعل النفوس تستريح مما دفع بهذا الهمجي إلي
تقبلي معذرا بقوله:

- لا مواخذه .. مش تغضب مني يا صحبي .. أنت وشك حلو عليا .. اسمك إيه ..
صمت أعاد السؤال فأجبت "إيه إيه .. أأ .. آه" ، ويا للدهشة حيث وقف صارخا
مصفقا "إيه إيه .. أأ .. آه" وجموع المشاهدين تردد خلفه وتصفيق حاد مما ألهب
حماس لاعبي الإسماعيلي كما ألهب هذا المعنوه رأسي برأسه المصنوعة من
الحديد فأحرز لاعبو الإسماعيلي الهدف الثاني فزاد التصفيق مما دفع بالمشجعين
لحملي طالبين مني التهاتف "إيه إيه .. أأ .. آه" وآلاف المشجعين من حولي هتافا
حيث انتهت المباراة بفوز فريق الإسماعيلي بالقاهرة بهدفين لهدف واحد
استطعت خلال الاحتفالات الهرب من هؤلاء المجانين حيث كنت سأفقد حياتي
بسبب التعصب.

صباح اليوم التالي أقبلت السيارة التي حملتني إلي الإدارة وهناك استقبلني
المقدم باستقبال طيب مندهشا مما ألم برأسي من "بطحة" وآثار الدماء
واضحة بها مع الانتفاخ .. ضحكت من ملاحظته وكتبت له ما حدث لي داخل
ملعب كرة القدم أمس مما دفع بالرجل إلي الضحك مصفقا يدا بيد.

بعد قليل استقبلني العميد ... متسائلا هل استقدت من الكام يوم اللي قضتكم
مع قوات الصاعقة ، أشرت له بمدى الاستفادة ، اقترب مني مُحدثا:
- عابد .. أنت مكاف بمهمة غاية في الخطورة والاهتمام ، وصلت إلينا معلومات
تفيد أن العدو يقوم بتجهيز قاعدة صواريخ عملاقة من الأسمت المسلح بمنطقة
جنوب سيناء قريبا من منطقة جبل كاترين ، القاعدة دي مهمتها ضرب خليج

السويس والسد العالي بعد ما ينتهي إنشاء السد هذا العام وقد انتهى العدو من ٨٠% منها حتي الآن ، المطلوب منك وبمساعدة دليل من المنطقة اللي ح يوصلك لمكان تقدر تراقب منه القاعدة بسهولة ، معاك جهاز لاسلكي موجة قصيرة ح تقدم تقرير كل يوم الساعة خمسة مساء لمدة خمسين ثانية بس وإلا اليهود ح يكتشفوا مكانك ، ح نزودك بساعة ستوب ووتش وح تحسب فترة الإرسال بالثانية ، المدة خمس تيام بس وح ترجع زي ما رحنا والدليل معاك وح يقدم لك كل تسهيلات والأكل والشرب والرجل ده بتاعنا وكل نفقاتك مدفوعة من الإدارة كمان حتلاقي لابس بدوي منتظر ك في مكتبنا بالسويس.

شاهدت سيادة العميد يرفع سماعة التليفون ويحدث شخصا ثم أعاد الكلمة ناظرا لي "روز" هيا اللي طالعه معاه ، طيب .. روز كويسه وعليها القيمة بس عيبها غاويه عياءة وكنت عارف أنها حامل .. ياه خلفت والله كويس طيب فيه حد ح ياخذ باله من العيال؟ علي خيرة الله .. أنهى العميد المكالمة التليفونية ثم نظر إلي:

- عابد حظك من السما ، ح تطلع معاك روز وهيا شاطره خالص ولها تجارب سابقة بس عيبها أنها مدلعه ثويه لكن ح نحاول يكون معاك حاجات تبسطها الكام يوم دوول وترجعوا سوا وخلي بالك ، روز دي من أهم عملاتنا وهيا ألمانية وغريته وبتفهم الهوا أه ومش تستهتر بيها ، ربنا يوفقك والمقدم ... بره وح يخلص كل حاجه.

هكذا غادرت مكتب العميد لتنفيذ مهمة علي درجة عالية من الخطورة والأهمية بصحبة السيدة روز الألمانية والتي تعشق الأناقة وما تتصف به من دلح بنات حواء ، أتساءل:

- يعني الحكاية ناقصة نسوان ودلع؟ يعني ما فيش واحدة تانية تكون جدعه ،
يعني بت صعيديه جدعه وبعدين ليه واحدة ست راичه معايا؟ الجيش ده بيعمل
حاجات الواحد لحد دلوقتي مش عارف لها سبب .. يا للا ... روز روز.
'عدت إلي مكتب المقدم ... الذي كان منفعلا ومشغولا وقلب أثاث المكتب
رأسا علي عقب ، حين شاهدي صاح قائلا':

- مش عارف تقرير المستشفى راح فين؟ من الصبح بادور عليه مش لاقيه ،
لازم الأقيه عشان أعرضه علي سيادة العميد اللي كل ما أقول له أنك تعبان
ومش تنفع في المهمة دية يمنعي من الكلام ، لازم أوريله حاجه مكتوبة وهو
حر يعمل اللي عايز يعمل ، إحنا علينا التنفيذ ونعظم ونؤدي التحية ونتبعها بكلمة
حاضر يا فندم.

أقبل عدد من الجنود فصرخ فيهم متسائلا':

- كان فيه ورقة ملفوفة ومكورة علي المكتب الأسبوع اللي فات ، عايز الورقة
دية ، أجابه أحد الجنود بأنه فهم بأن تلك الورقة ليست مهمة وألقاها بسلة القمامة
، طالبهم الرجل بالبحث عنها فلم يعثروا عليها وتبين أن قمامة يوم الخميس
ألقيت بالصحراء مع مخلفات باقي الوحدات العسكرية والتي يتم التحفظ عليها
لحين التخلص منها بحرقها حتي لا تقع أي ورقة بيد أحد عملاء العدو.

جلس المقدم ... وهو في حالة من الضيق ثم سمعته يتحدث مع المستشفى
طالبها صورة أخرى من تقرير النقيب عابد ، بعد قليل جاءه الرد بأن هذا لن
يحدث قبل مضي أسبوع لأن رئيس قسم المخ والإعصاب بأجازة وهو المسئول
عن التوقيع علي التقارير.

جلس الرجل متوترا وقد سقط بيده ، رفع سماعة التليفون متحدثا مع العميد

الذي سمعت صوته صادرا من السماعة ينذره بالمثل أمامه بالمكتب غدا لتوقيع الجزاء عليه لعدم تنفيذه للأوامر العسكرية ، نظر إليّ الرجل وهو في ضيق متحدثاً لي:

- ما هو مش ممكن الحكاية دية ، مش معقول ، مش ممكن يكون الرجل عارف أنك مش بتتكلم ويقول كده ويكلفك بالمهمة دية ، إزاي ح تتكلم في الجهاز اللاسلكي؟ أنا ح أفضل وراه لحد ما أوقف الحكاية دية.

أثناء انشغاله بتجهيز كل ما يتعلق بالمهمة رن جرس التليفون وبعد بضع كلمات امتقع وجهه وتبدل لونه ثم تركني علي عجل وعاد سريعا واستبدل الأفرول بالبدلة العسكرية وخطبني قائلا:

- معلشي يا عابد ، بنتي صفاء تعبت وراحت المستشفى العسكري وح تعمل الزايدة النودية ، لازم أكون جنبها والمساعد فتح الله ح ينهي كل حاجه ، دعواتك ليا.

غادر الرجل المكتب علي عجل وتبخرت كل وعوده بالبحث عن الدليل الذي سوف يعينني من تلك المهمة والتي لم أكن أخشاها بل كنت راغبا بها للابتعاد عن الناس وإلا كان من الممكن أن أكتب لسيادة العميد ورقة أوضح فيها حالتي الصحية ، كان الهروب من الناس كل ما أبغيه سواء خوفا من تعرضي للقتل كما سبق أو للابتعاد عنهم حتي لا أجابههم وما حدث في الأيام الأخيرة من سوء قول ورد فعل ضايقتي كثيرا خاصة محصل الكهرياء سليلب اللسان ، لم تمض ساعتان إلا وقد أعد المساعد فتح الله كل شيء وأقبل بعض المعاونين له ورافقتهم للتوجه لمكتب مخابرات السويس ، وصلت مساء نفس اليوم وكانت الرحلة شاقة ومؤلمة لأنني منذ الصباح مازلت أرتمي ملابسني كما أن هذا اليوم

تلك المعاملة للأجانب ثم تداركت الموقف بأنها تعمل في ظروف صعبة وأنها اعتادت علي هذا ، تحدث عنتر وأخبرني بأن علي الجلوس أسفل تلك المظلة وسوف يجهزها ويحضرها لي ، توجهت أسفل المظلة وغاب عني المساعد فتحي بينما توجه الشاويش عنتر لإحضار السيدة روز واستعدت حديثه " سوف أجهزها وأحضرها لك" ، بنس ما قلت أيها الشاويش لكن علي قدر فهمه.

مضي الوقت طويلا فغفلت أسفل المظلة وكان النوم هائنا وبعمق ، شعرت أثناء نومي بأن شيئا يتحرك بالخلف ويحدث أصواتا خفيفة بل شعرت بأن شخصا قريبا من رقبتني ثم سمعت صوت الشاويش ينبهني:

- لا مؤاخذه يا فندم .. روز جت ، معلشي صحناك من النوم ، أسعدني هذا وأن روز أقبلت تداعبني بتلك اللمسات الطيبة من شعرها الطويل الناعم ، أسرعت بتبديل وضعي حتي أشاهدها وأقدم لها التحية الواجبة ، استندرت مسرعا وفوجنت بشيء لم يخطر ببالي ، فقد كانت السيدة روز هي الكلبة روز والتي سوف ترافقني في مهمتي المقبلة ، نظرا لحالة البكم التي أنا عليها لم أستطع أن أصرخ بصوت مسموع ولكن انفعالاتي أصابت روز بالضيق فارتفع نباحها ، تذكرت حديث قائد وحدة الكلاب بقوات الصاعقة بأن سلوكي هذا ضايق روز فأخذت في ملاطفتها ومداعبة شعرها حتي هدأت واستكانت مما أسعد الشاويش معلقا:

- الأفندي بتاع كلاب صحيح! (القصد بالأفندي هنا الضابط)

سارت بي الأمور سيرا طبييا كنت خلال ذلك أحاول التقرب من روز بعد أن هدأت نفسي من المفاجأة التي فوجئت بها من أن المعاون لي سيدة ألمانية ليصبح المعاون لي الكلبة روز وهي من فصيلتي البكماء ، شعرت أن روز أقل

شراسة عما سبق وتفهمته من الضابط المسئول عن كتيبة الكلاب بقوات الساعة المصرية ، بل بعد عدة ساعات اقتربت مني محاولة التفاهم معي وفتح صفحة من العلاقة بين البكم ؛ لأنها لم تسمع صوتي مخالفاً بذلك بني البشر ولهذا فقد اعتقدت بأنني فصيل آخر من بني البشر ومعروف عن تلك الحيوانات ما تتمتع به من ذكاء وقدرة علي فهم أغوار الإنسان.

'قبيل المساء أقبل رجال مكتب مخابرات السويس وسلموني الملابس البدوية وهي عبارة عن جلباب أبيض وشيء يوضع علي الرأس مشابه لطرحة السيدات ذات اللون الأبيض وحذاء عبارة عن شبشب مشابه للذي يرتديه أبناء مصر بسيناء ، أقبل رئيس المكتب وتحدث معي بحديث قصير وأظهر لي جهاز الإرسال ، الجهاز عبارة عن راديو صغير وقام بضبطه علي الموجة القصيرة ومزود ببييرال يسحب ويرتفع حوالي خمسين سنتيمتراً وأشار إلي رقم الموجة والمحطة التي قام بربطها علي الجهاز وسلمني الساعة الميقاتية "ستوب ووتش" لم أتوجه إليه بأي سؤال حيث شعرت بأنني مقبل علي عمل جري يحتاج مني الهدوء وعدم التوتر أو الخوف المسبق مستعينا بالله وبخبرتي السابقة وبما واجهته من صعاب خلال العشرين شهراً الماضية منذ حرب عام ١٩٦٧ أشرت إلي روز فاقبلت نحوي تحرك ذيلها ولعقت يدي مما أسعد الشاويش عنتر الذي مازال بصحبتها حيث أشار لي بعلامة التأييد بأنني استطعت أن أقيم علاقة ألفة بيننا ثم تركني عنتر مع السيدة روز.

تحركت بنا السيارة العسكرية في اتجاه الجنوب وقد غشي الظلام المنطقة كما أن السائق كان يسير مستخدماً النور الميداني قليل الرؤيا حتي لا تشاهدنا قوة من الأعداء فترسل بإحدى طائراتها لمهاجمتنا ، بعد عدة كيلومترات توقفت بنا

السيارة وهبطت منها برفقة زميلتي روز وتبعنا السائق والمرافق لي من مكتب مخابرات السويس وسرنا حتي شاطئ الخليج ، هناك استقبلنا الرئيس عرفة الذي عرفني بنفسه ، نزلنا إلي بطن القارب الحديدي وقام بوداعنا المرافقين لنا والتابعين لمكتب السويس بدعاء لنا بالتوفيق والعودة بعد أسبوع.

تحرك القارب في الظلام الحالك وقد تبين لي أن هذا القارب قديم وأن ماكيناته ذات صوت مرتفع في جوف الليل وبالتالي يُصبح التعرف علينا أسهل ما يمكن ، بعد أربع ساعات رسي القارب علي الجزيرة الخضراء وهناك التقيت ببعض الضباط والجنود الأبطال الذين يقومون علي حراسة تلك الجزيرة المنعزلة تحت لهيب قصف الطائرات والنشآت الإسرائيلية الشبه مستمر.

الحمد لله استبدل هذا القارب العتيق المزعج بقارب من نوع "زودياك" وهو سريع الحركة عديم الصوت ، خلال تلك الرحلة كانت روز تلتمس الأمان بي ملتصقة راعبة بشعورها بالأمان وقد أعطيتها هذا الشعور سواء بهدوني أو بعدم الصباح أو الاحتجاج وهي لا تعلم أنني مثلها لا أتحدث ، قبيل الفجر وقبل شروق الشمس إستقر القارب علي الشاطئ الشرقي لخليج السويس وأصبحنا بجنوب سيناء ومن المحتمل أن تهاجمنا قوات العدو في أية لحظة ، أصدر مندوب المخابرات الذي يقود القارب صفيرا معنا ثم توقف وأعقبه بصفير من نوع آخر ثم توقف ، بعد قليل ظهر رجل قادم في اتجاهنا يرتدي الجلباب السيناوي الأبيض حيث قام بتحيتنا.

أمسك بيدي محاولا مساعدتي علي مغادرة القارب فقفزت علي الشاطئ وتبعتي روز بكل خفة ورشاقة محاولة الوصول إلي وجهي فجلست علي ركبتي فلعلقت وجهي كأنها تريد إخباري بشئ ما وأنا بدوري ملست برقة علي شعر

رأسها فعادت إلي وضعها هادئة مستكينة ، عاد القارب بمنسوب مكتب مخبرات السويس إلي الجزيرة الخضراء بينما سرت برفقة روز خلف الدليل الذي صافحني في بداية اللقاء و عرفني بنفسه "سليم" حركت رأسي مبتسما فانعكس هذا علي وجهه الطيب ، ظل الرجل يتحدث معي من حين لآخر وقد كست أشعة الشمس المنطقة.

جلسنا نستريح ، فقد سرنا خمس ساعات مرهقة دون طعام أو شراب ، كان "سليم" يحمل كيسا من القماش وبعد جلوسنا وضعه أرضا وقام بفتحها وأخرج منه لفاقة وناولها لي وهو يشير جهة روز بأن هذا طعامها وعليك أن تضعه أمامها وتداعب شعرها ونيلها ، نفذت ما قال وأشار ثم أخرج عبوتين من البلح "عجوة" ناوولي إحداها وجلسنا نتناول الطعام بهدوء وروز هادئة نتناول ما وضعته أمامها ، أخرج الرجل عبوة من البلاستيك بها ماء وكوبا من الألومنيوم أقرب في الشكل كأنه كوب واسع ووضع الماء به وناوله لي فشربت ثم تلاني وحصل علي عدة جرعات ثم أعاد ملئه وناوله لي كي أضعه أمام روز ، أنهت روز طعامها وقامت بإخراج لسانها تعلق به فمها من الخارج ثم توجهت إلي الطاسة وعبت من الماء ثم حركت رأسها بسرعة فنتطاير بعض الرزاز العالق علي الشعر المحيط بالقم وهدأت ونامت علي أحد أجنابها.

أشار سليم " جهة روز قائلا:

- هادي كلبه مش كلب .. وُحبلي!! .. كيف يا أخي بيعتوا إمعاك كلبه وُحبلي؟
لم أجبه فأنا أعلم منذ البداية بأن السيدة روز هي المرافقة لي ولكن الجديد بأنها "حبلي" وهذا سوف يزيد الأمر تعقيدا مما دفع بـ "سليم" بأن يعلق:
- كلتها خمس أو ست تيام وجبل ما تتهور ويركيها العصبي تكون عدت بالسلامة

لمصر.

أثارت كلماته مخاوفي ولكن ما باليد حيلة كما يقال ، قبيل الغروب وصلنا إلى الهدف وهو عبارة عن مرتفع جبلي قريبا من جبل "كاترين" ثم توجه بي إلى كهف صغير قائلا:

- هاذي مكانك وجدامك علي اليسار الهدف بحوالي ١٠٠٠ متر .. خذ هذا ، ناولني ما تبقي من طعام وشراب بالكيس و نهض سليم مودعا لي وأخبرني بأنه بالصباح "ح يعود" عليّ ومعه الطعام والشراب لي ولروز.
- أستودعك الله .. أوصيك ما تولع سيجاره وسبيك من حكاية الدخان والكيف هذه الأيام.

غادر سليم الكهف فتبعته ولكنه اختفي بالظلام كان يداً ألتقطته 'مسرعة به. حاولت جاهدا تقدير حجم الكهف ومساحته ولكن لم أستطع في ظلام الليل ، شعرت بأن روز إتصقت بي وحصلت علي غفوه لأنني لم أشعر بحركة صادرة منها أو محاولة لعلق وجهي كما كانت تفعل.

جلست مستندا' بظهري علي جدار الكهف المتعرج والذي ألمني كثيرا حيث كنت أبدل مكان جلوسي لكي أعثر علي مسند لظهري يعفيني من آلام الظهر ولكنني لم أفلح وورغم هذا خلدت في نوم هادئ لم يعكره سوي انتباه روز وإقترابها مني محاولة لعلق وجهي فأصابني هذا بالتوتر متسائلا: عن من فعل هذا فقد نسيت أن معي كلبا' ونسيت تلك التصرفات مما دفع بي للتوتر صائحا " إبه إبه .. أا .. أه .. أا .. أه .. أبا أباه" سمعت صوت روز الغاضب فحنوت عليها مقبلا'فمها الواسع وتذكرت الطعام فاخرجته من الكيس ووضعتة أمامها ، كانت روز أنكي مني فتخبرت طعامها المُعد لها سلفاً وتركت الطعام الآخر

والذي تبين لي أنه عدد من الفطائر المحشوة بالعجوة بينما كان طعام روز شيئا أشبه بفطائر المحشوة بالتونة أو مشابه ذلك وهذا دفعها لتناول التونة وتركت لي العجوة.

اليوم الأول

بعد ساعات قليلة أشرقت شمس سيناء الساطعة في بدايات شهر مارس من عام ١٩٦٩ يحدونني الأمل بأن أقوم علي تنفيذ تلك المهمة بنجاح ولكنني توقفت فجأة مندهشًا من حالتي الصحية والتي لا تسمح لي بالحديث ، كيف سأرسل برسالتني إلي الجهات المسئولة ، فبعد كل تلك الإجراءات يضيع كل ماتم هباءً وبالتالي لا يستطيع القادة اتخاذ القرار المناسب ، سوف يضطرون إلي إرسال شخص آخر وقد يؤدي هذا إلي تأخير في القرار المناسب وهذا قد يمكن الأعداء من تنفيذ خطتهم ضد مصر وشعبها.

أسرعت بوضع الجهاز في لفافة وغادرت الكهف بحذر ورغم هذا تبعتني روز والتي كنت أعتقد أنها قد خلدت في نوم عميق ، تخيرت مكانا مخالفا لطبيعة المنطقة وحفرت فيه بصعوبة ووضعت الجهاز خشية أن يفاجئني الأعداء وإذا شاهدوا الجهاز فسوف أعتبر جاسوسا والنهاية الحكم علي بالإعدام وهم يرغبون في زيادة عدد القتلي المصريين.

شاهدت الموقع المطلوب مراقبته ولكن ضوء الشمس كان معاكسا لي وبالتالي لم أستطع الرؤية بوضوح خاصة أن التركيز أثر علي عيني من كثرة التحديق في مواجهة أشعة الشمس ، انتظرت بعض الوقت حتي تحركت الشمس ومن ثم أستطيع المراقبة ، مر منتصف النهار فبدأت الرؤية تتضح ، ظللت أدقق

النظر وأنا مستتر ببعض الصخور ولا آتي بأية حركة ملفتة للنظر خاصة أنني سمعت صوت طائرة هليكوبتر فأثرت الاختباء حتي لا يشاهدني أحد ويكتشف مكاني ويضيع كل شيء رغم حزني وضيقني من عدم مقدرتي علي أن أقوم بتوصيل الرسالة.

بعد قليل أقبل "سليم" وتسلق المرتفع بلياقة بدنية عالية فقد ساعده الشباب وصغر السن والتمرس علي هذا العمل فهذا موطنه ، ألقى علي بالتحية ونظر إلي روز متسائلاً إن كانت أحدثت بعضاً من المشاكل ، حركت رأسي بالنفي ، وضع أمامي الطعام والشراب وقبل أن يغادر تساءل لماذا لا أتحدث معه ، أشرت له بيدي بأنني لا أستطيع الحديث ، نظر إليّ دهشة معتقداً بأنني أمازحه وأعاد سؤاله فتحدثت معه ببعض كلمات فشاهدت الدهشة والوجوم علي وجه الشاب ثم ابتسم قائلاً:

- والله المصريين دول عليهم أفكار عظيمة والله يا شيخ .. جابوا واحد أخرس عشان لو اليهود مسكوه يجيش بكلمة واحدة .. والله عظيم ، يبجي أنت ح تشتغل شفره يعني معاك كتاب شفره ، مد سليم يده بداخل الجلباب الذي أرنديه وأخرج البلوك نوت الذي أحضرته معي حتي أخط بعض الخطابات وأقوم بإرسالها إلي "رقية" بعد عودتي مباشرة عن طريق إذاعة صوت العرب كما حدث قبل هذا عدة مرات ، لم يشاهد أي شيء فأعتقد أن الشفرة كتبت بالحبر السري ، صافحني مغادراً المكان وأنا في دهشة من عدم العمق في أية ملاحظة حتي لو كانت حالة البكم".

كنت أتذكر المقدم ... الذي حاول توضيح الأمر للعميد والذي كان رافضاً لأي اقتراح بخصوص هذا الشأن لدرجة أنني اعتقدت بأن العميد يعلم بحالتي

فليس من المعقول أن يعلم رئيس فرع برتبة مقدم بخبر مهم مثل هذا ومن غير المنطقي ألا يعلمه العميد.... ولكن هذا ما حدث ويحدث وفي بعض الأحيان لبعض المسؤولين بداخل النظام العام بمصر وهو استقواء صاحب السلطة بقراراته رغم عدم دقتها أو خطئها في بعض الأحوال ، كان يعتريني الضحك أحيانا علي حالي هذا وتذكرت أنه لو وقع علي الاختيار بأن أعمل مديعا بالإذاعة ورفض المسئول حجج كل المحيطين به وطلعت علي الهواء أنيع برنامجا وتفوهت بما لا أستطيع سواه من كلمات قليلة ليست ذا مدلول " إيه إيه .. أا .. آه .. آاا .. آه .. أيا أباه" ، فسوف أصاب بالحيرة والرجفة.

تتيهت علي صوت محركات ضخمة مقبلة جهة العمل الإنشائي وهي تحمل معدات ثقيلة من حجم الناقلات العملاقة المشابهة لجرارات الدبابات والتي تحمل أثقالا" تزيد عن السبعين طنا ، تبينت بأنها "لونشر" إطلاق الصواريخ حيث كان العمل الإنشائي قد قارب علي الانتهاء وبالتالي أحضروا تلك المعدات لت تركيبها ثم يعقبها تركيب الصواريخ ؛ والتي لن يتعدى هذا الشهر من الآن ، لقد كان سابقا شديدا مع الزمن بين القيادة بمصر والإسرائيليين الذين لو استطاعوا الانتهاء من إنشاء تلك القاعدة لهدوا جنوب مصر وخليج السويس بعد أن فقدنا خليج العقبة ولأصبحت مصر محاصرة من البحر الأبيض بالأسطول السادس الأمريكي والآن خليج السويس مهدد بقذفه صاروخيا.

عصرًا كانت الشمس مانلة جهة الغرب وقد أطلقت أشعتها الغائبة بظهوري فشاهدت الموقع مشاهدة واضحة مؤكدة بل شاهدت الجنود وهم يتحركون وفي بعض الأوقات كنت أسمع أصوات أحاديثهم حين تهب رياح الجنوب إلي مكمني هذا.

مكتب العميد

انتظر الرجال المنوط بهم متابعة رسالتي الأولى بينما جلس العميد ... بمكتبه إنتظاراً لنتيجة الرسالة الأولى ، بعد قليل أقبل عليه أحد الضباط الذين يعملون علي الأجهزة المعدة لالتقاط الرسائل ووجهه مكفهر فتوجس العميد خيفة خشية أن أكون وقعت بيد الإسرائيليين متسائلاً:

- ما تمش اتصال؟

- تم يا أفندم بس مش فاهمين الكلام

- إزاي كده سمعني الرسالة .. أصاب الرجل الذهول متسائلاً هل أوصيتم عابد بأن يرسل المعلومة شفريا ، نفي هذا فأسرع بطلب رئيس شئون الضباط وأسمعه نص الرسالة فاندفع الرجل وأخبره بأن الضابط عابد لا يتكلم أشاح الرجل بيده قائلاً قلت ليا الكلام ده قبل كده ، أنا عارفه أنه كتوم!!

- يا فندم عابد أخرس ، ران سكون وصمت مطبق علي المكان وقد ارتبك العميد ولم يعد يدرى كيف التصرف بينما ظل المقدم يوضح له هذا الأمر والرجل أصابه الاضطراب متسائلاً:

- إزاي ح أقابل القادة اللي طلبوا مني معلومات عن القاعدة؟ أقول بعث لهم ضابط أخرس ومعاها جهاز لاسلكي عشان بيعت رسالة ، دي ح تكون أكبر نكته في التاريخ ، أخرس وأبكم يعمل مزيعة ، طيب والعمل؟

- ننتظر لحين عودته ونبعث واحد تالي

- ده ياخرنا أسبوع يكون اليهود عملوا كل حاجه

- مش قدامنا غير كده حتي يقوم العميل "زلطة" بإبلاغ "سليم" بأن فيه واحد جاي ، مش قدامنا غير كده وبلاش نستلم رسائل عشان اليهود ما يوصلوش

لموجة الراديو.

- طيب علي خيرة الله والمصيبة اللي حصلت اكفوا عليها ماجور بلاش فضايح
- حاضر يا فندم.

اليوم الثاني

شعرت وأدركت بأنه لا بد لي من التصرف والتغلب علي موضوع الإرسال
اللاسلكي والعتور علي بديل ، جلست ساهمًا بعض الوقت وأثناء ذلك شاهدت
بعض الطيور الملونة والجارحة من نسور وصقور تحيط بالمنطقة من حين
لآخر بل كانت تهبط خلف قمة المرتفع الذي أقيم به ، أنار الله بصيرتي بفكرة
استخدام الحمام الزاجل ، صمت برهة أفكر ، أين هذا الحمام الذي يعلم أين يقع
مكتب سيادة العميد ... بالقاهرة.

إذا لا بد من البحث عن بديل ، تبديل وضع الشمس فأصبحت الصورة واضحة
للمرة الثانية وبالتالي تأكد لي ما شاهدته بالأمس ، قررت رسم كروكي أو
خريطة أو أي رسم توضيحي للقاعدة والعمل علي إرسالها للقيادة بأقصى سرعة
وإن لم أستطع فسوف أحملها معي حين العودة وبالتالي أكون قد أنجزت جزءا
مهمًا من مهمتي تلك ، أخرجت البلوك نوت والقلم وبدأت أنظر للقاعدة وأخطط
كل تفصيلاً بوضوح مستعينا بنقطة بزوغ شمس الصباح لتكون هي المرشد لي
للجهات الأصلية للموقع.

استمر هذا الحال حوالي ساعتين حتي أنجزت المهمة بنجاح ولم يتبق سوي
بعض البيانات التي يجب عليّ أن أضيفها حتي يمكن تحديد الموقع من جهة
الخليج ومن جهة جبل كاترين وبالتالي يمكن للقيادة التصرف معه أو بإرسال

قوات خاصة تقوم بالإجهاز عليه ، بعد قليل أقبل "سليم" وبعد أن بقي عليّ التحية وضع أمامي الطعام والشراب وأخبرني بأنه سوف يظل جالسا معي بعض الوقت ، لأن الدوريات الإسرائيلية منتشرة بكل مكان وإحتمال أن شخصية عسكرية مهمة قد تصل في تلك الأوقات وبدلا من إحتكاكهم بي فسوف أظل جالسا بجوارك ، شاهدت معه عبوة من الزنك من التي يستخدمها الجيش لحفظ ذخائر الأسلحة ، أشرت إليه مستفسرا ما الذي بها؟ أجابني:

- فيه يا خوي حية "أنثي الثعبان" رهيبة جوي وهيا مغلبه الناس واي معزه أو غنمه يتبعها علي الفور ، 'دهشت من حديثه ثم أكمل: علشان كده جبت شوية "جير حي" وناوي أحطه في فرخه وإلا أرنب وأرميها جدامها علشان لم يتبعها تجوم الميه اللي في جسم الحية تتفاعل مع الجير تجوم تحرجه "تحرقه" هو وأهله ، ربنا يخلصنا منها هيا وكام ضبع مخوفين كل البدو النواحيدي ، أني ح سيب الجير هنا وخليه متغطي بالزلط علشان يفضل مفعوله جوي ولما تخلص مهمتك أجيب كام زلمه من الجبيله ونخلص عليها علشان الناس خايغه منها خالص.

طرات علي بالي فكرة ، لماذا لا أكلف "سليم" بتلك المهمة فهو قادر علي الحركة ويمكنه التصرف بدلا مني ، أخرجت البلوك نوت وكتبت له رسالة وعرضتها عليه ، قرأ رسالتي بإمعان مردداً:

- والله يا شيخ فكرتك هايله ، ربنا يعطيك العافية

أسعدني قبوله لتلك الفكرة مما دفعني لإعادة الكتابة متسانلا عن أبعاد هذا الموقع عن الخليج وعن جبل كاترين ظل صامتا لفترة ثم غادر الكهف مستترا وظل ينظر يمينا ويسارا ثم أقبل وأفادني بكل المسافات التي تفيد بتحديد الموقع ، كما

سألته إن كان يوجد أسماء هينات ونقط ارتفاع ومثلثات قريبة منا ، غادر المكان وغاب حوالي الساعة ثم أقبل مبتسما وأخبرني بأنه توجد علامة أسمنتية مكتوب عليها رقم ١٣٢ ، أعدت الاستفسار كتابة ، ما شكل تلك العلامة هل هي كتلة من الخرسانة مصمتة أو علي هيئة مثلث ، أجابني علي الفور بأنها ليست علي شكل مثلث مما يفيد بأنها نقطة إرتفاع وتلك النقاط وضعت منذ زمن الإحتلال الإنجليزي وتم رفعها علي الخرائط المساحية سواء الخاصة بهيئة المساحة المصرية أو القوات المسلحة وبالتالي تحدد المكان بدقة مع البيانات المرسلة بالمسافات والاتجاهات الأصلية "الشرق والغرب والشمال والجنوب" يمكن هذا القيادة بأن تخرج بحسابات دقيقة للموقع.

أضفت بعض البيانات بعدد اللونشرات التي سوف تندفع من فوقها الصواريخ وحجم المبني ومساحته التقريبية ومدخل ومخرج القاعدة حتي عدد الجنود والضباط العاملين بها ، شعرت لحظتها بأنني أنجزت ما كانت تبغيه القيادة بل أكثر وذلك بالاستعانة بتلك الرسومات التوضيحية والتي كتبت علي كل جزء منها ما أعتقده بأنه يفيد عن بيانات القاعدة من مخزن الصواريخ والمولدات الكهربائية والاستراحة الخاصة برجال القاعدة والطرق الرملية الواصلة إليها وأيسرها ومن بينها الطرق شبه المعبدة والتي كانت تتحرك عليها حاملات قواذف الصواريخ بالإضافة إلي رسم حقول ألغام أفراد حول القاعدة مما يتطلب الدقة في مهاجمتها حتي لا تقع القوة المهاجمة في حقل الألغام.

سلمت " سَليم" الرسم التوضيحي والذي أعجب بدقته مؤكدا لي بأنه سوف يلتقي بزميله "زلطة" الليلة لأمر مهم ، كتبت له بأنني أطلب منه أن يتم إيصال تلك الرسالة بأقرب وقت ممكن لمكتب مخابرات السويس ، ضحك من حديثي

مؤكدًا لي بأن "زلطة" له من الخبرات الكثير ويعلم أكثر مني ومنك بهذا وهو معروف لديهم بمصر ، نهض بعد أن كان يجلس بوضع القرفصاء طوال تلك الساعات ، ولم ترهقه تلك الجلسة المؤلمة لنا ، استودعني علي وعد بالعودة لي صباح الغد.

شعرت بعد أن غادر "سليم" الكهف بأنني علي أحسن الأحوال ، نظرت جهة روز فأقبلت علي تحرك أذنيها دليلًا علي سرورها مع بعض قبلات من فمها الطويل علي وجهي ثم تحدثت لي ببعض مفردات تجمعنا " هه هيبويه هاو" رددت عليها " إيه إيه .. أأ .. آه .. أأ .. آه .. أبا أباه" نامت علي جانبها ثم انقلبت علي ظهرها وبدأت ألاحظ بروز حلمات ضرعها ، حمدت الله أن المهمة قاربت علي الانتهاء قبل أن يقترب موعد الوضع لصغارها وتحدث لي المشاكل التي أخبرني عنها قائد وحدة كلاب الحرب.

اقتربت الشمس من موعد غروبها ولم أرغب في توجيه رسالة عديمة الجدوي قد تكشف موقعي كما أنها قد تبخر طاقة الكهرياء الموجودة بالجهاز فقد احتاج إليها فيما بعد رغم أنني لن أحتاج إليها ، لأنني لن أستطيع إرسال أية رسالة إلي قيادتي ، فتحت اللقافة كي أتناول الطعام علي بقايا ضوء غائب راغب في الوداع لهذا اليوم الذي فتح الله عليّ بتلك الفكرة والتي كنت أدعوه جهرا بأن يوفق "سليم" فيما هو مقبل عليه وألا تقوم دورية معادية باعتراضه وينكشف كل شيء وتضيع منا تلك المعلومات الخطيرة ويلقي علي القبض وأودع السجن لحين البت في أمري.

فوجئت بأن "سليم" قد أحضر "نصلا" أي خنجر طويل ووضعه بلفافة الطعام ، توقفت لبرهة وأنا أدقق النظر إليه ثم أمسكته ، كان النصل حادًا ولامعًا

و تذكرت مقولة " سَلِيم" والتي أخبرني بها في اليوم الأول حين تساءل هل أحمل سلاحا للدفاع عن النفس؟ نفيت هذا بإشارة من رأسي فابتسم مخبراً إياي بأنه سوف يحضر لي سكيناً كبيرة يساعديني في الدفاع عن نفسي ضد الذئاب أو الضباع المحتمل أن تزورك أنت وروز والتي لن تستطيع الدفاع عنك بسبب حالتها تلك وعليك يا زلمه أن تصل هذه السكين بعصا طويلة ليصبح رُمحا حتي إذا هاجمك أي حيوان مقترس تهاجمه به فقد يفر منك أو تقتله ، لقد تذكر " سَلِيم" وعده والحمد لله بأن المنطقة هادئة وليس بها حيوانات مقترسة وقد مضى علي وجودنا ليلتان دون أي شيء يذكر.

تركنا الكهف فشاهدت العصا الطويلة والتي يبلغ طولها ثلاثة أمتار ، وهي مستقيمة وبدا لي أنها مصنوعة من خشب الزان القوي وبجوارها حبل رفيع من حبال النايلون التي كنت أشاهدها في المظلات التي كنا نتدرب عليها بمدرسة المظلات وهي حبال قوية تستطيع أن تحمل أطنانا من الأثقال ، أدهشني هذا فلم أشاهد الحبل أو العمود الخشبي قبل هذا وتأكد لي بأن " سَلِيم" أحضرها وتركها خارج الكهف حتي يدريني علي التفكير والاعتماد علي النفس فمن الذي يأتي إلي كل يوم سواء ، ضحكت من أفكار هذا الشاب الذي يقارني بالعمر ولكنه أنشط مني بدنيا ؛ لأنه نحيف جداً وبالتالي فإن وزنه خفيف حيث لا يحمل دهونا ، قررت ترك هذا الرمح للصباح وبعد قليل أصابني نوع من التوتر ؛ حيث أمضيت الليالي السابقة دون تعدي من أي حيوان عليّ فمن المحتمل أن يُقبل عليّ حيوان تلك الليلة ، سري الخوف بداخلي وأسرعت للسكين وجلست أمام الكهف أعد الرمح قبل أن يكسو الظلام المكان ، بعد جهد أتقنت ربط السكين بالعصا الخشبية وشعرت بأنني مثل الإنسان الأول بهيئتي تلك سواء من الجلباب ومما

حولي من المرتفعات غير المنتظمة ومن الصخور المختلفة الألوان وبصحبتني كلب كبير الحجم بل زاد حجمه أكثر من المعتاد بسبب الحمل.

كانت روز تنظر إليّ وهي مستريحة حيث أقبلت عليّ تكافئني ببعض القبلات التي كنت أخشي منها حينما أنظر إليّ أنيابها وأسنانها الأمامية الطويلة الحادة ، احتفظت باللفافة الأخرى بجانبني ووضعت لفاقة الطعام أمامها ، حين اقتربت من الطعام ارتدت بسرعة وأصدرت أصواتا تدل علي خوفها وجزعها ، أدركت بأن الطعام سام ودهشت كيف يتصرف معنا " سَلِيم " بمثل هذا التصرف ونحن روحان أبكمان.

مازلت روز غاضبة فجمعت الطعام ووضعتّه جانبنا ولكن روز دفعت بي من ظهري ثم سبقتني ووقفت أمام باب الكهف فتبعتها فسمعت نباحها والذي لم أسمعه منذ المرة الأولى ونحن بالسويس ، كان نباحها 'مرعباً' وبعد قليل تنامي إلي سمعي أصوات حشرجة ، وشاهدت عيوناً لامعة بالظلام أدركت علي الفور بأن بعض الأعداء من الحيوانات راغبة باستقبالنا بعد أن تجاهلنا ثلاثة أيام ، أسرعت وأحضرت الرمح لكن الحيوانات المقبلة واصلت تقدمها وبدأ حجمها يظهر أمامي بوضوح ، ظهر المستور بالظلام لقد كانت الظلال لضبعين من ضباع سيناء المقترسة القاتلة والتي تشبه في شدة اقتراسها النمر الآسيوية.

لم ترتجف روز وأخذت وضع القتال وفتحت فمها وظهرت أنيابها وأطلقت العديد من الأصوات التي تدل علي أنها سوف تقتل من يتقدم منها ، في لمح البصر شاهدت الضبعين علي بُعد أمتار قليلة فهجمت روز علي أحدهم ولكن الآخر هاجم روز وأصبح الضبعان حول روز محاولين اقتراسها ورغم صراخها إلا أنها مازالت تتعارك معهما وقد التحف المكان بالغبار وسمعت

مغلوبا علي أمري ولم أعد إنسانا صالحا لأي شيء حتي للدفاع عن نفسه وعن زميلته روز أمام أعداء بني الإنسان ، أيقنت صدق وذكاء الطبيب الذي أوصي في تقريره بأن أظل أعمل بمكتب بعيدا عن الناس ولا أكلف بأعمال بها نقاش وأن تتم العناية بصحتي وحالتي النفسية وأن حالتي تلك لا علاج لها ؛ لأنها ليست مرضا عضويا بل أنها صدمة عصبية ولا علاج لها إلا بصدمة مماثلة ، تنبهت لهذا وها قد حدثت الصدمة ، ناديت روز بصوتي فلم أسمع سوي العبارات المسبقة ، نظرت إليها في الظلام الحالك مردداً بحديث لا يصل إلي أذني لقد أصبحنا معاً في عالم البكم.

دفعت البرودة الشديدة بليل الصحراء من شهر مارس إلي التصاق روز بي وأنا التصقت بها ، ظللنا علي هذا الوضع حتي ظهر ضياء يوم جديد ونحن أحياء ومن المؤكد بأن الضباع تركت المكان فلم أسمع لها صوتاً كما أنها لن تظل خارج الكهف أو هذا الجحر نهاراً فهي حيوانات ليلية مثل الذئب والتعالب بدأت الرؤيا تتضح أكثر فأكثر ، شاهدت روز وهالني الجروح والقطوع بجسدها ، نهضت مستندا علي الصخور المحيطة بي من كل مكان وملست علي شعرها بهدوء ثم بدأت بقطع شرائح من جلبابي مستخدماً أسناني وربطت بعضها علي جسد روز مما دفعها للنعق وجهي ورأسي كعادتها وبالتالي حذوت حنوها فهذه هي إشارة الشكر والإمتنان لمن لا يستطيع الكلام.

انتظرت قدوم " سَلِيم " ولم أسمع له صوتاً ، إعتقدت بأنه أتني وغادر المكان حين حضر ولم يعثر علينا نحن الإثنين ، تحركت روز وصعدت لأعلي الحفرة ونظرت إلي تنادي عليّ ببعض النباح خفيض الصوت ، حولت اللحاق بها لكنني شعرت بأن شيئاً يؤلمني بقدمي اليسري ، نهضت وتسلمت الحائط المتعرج

بصعوبة معتمداً علي قدمي اليمني ويديّ حتي وصلت لأعلي الحفرة واستنشقت هواء هذا اليوم الغريب علينا ، تحركت بصعوبة في إتجاه الكهف والذي لم يكن يبعد سوي أمتار قليلة وفوجئت بشيء أسعدني حيث شاهدت الضبع ملقي أمام باب الكهف مخرجاً بدمائه ومازال الرمح مغروساً بجسده ، بعد قليل نبحت روز بعد أن اتجهت بنظرها ونظرت بأسفل وأقبلت علي محاولة أن ألحق بها ، سرت بصعوبة وبحفرة بين الصخور مماثلة للحفرة التي وقعت بها شاهدت الضبع الثاني وقد دقت عنقه ، نظرت لأعلي حامداً الله بكلمات عاجزة من الفم صادقة من القلب " إيه إيه .. أأ .. آه .. أأ .. آه .. أبا أباه".

'عدنا إلي الكهف وشاهدنا الطعام كما هو ، أقبلت روز علي الطعام بنهم وتحيرت فقد كنت أعتقد بأن الطعام سيئ ولكن تبين بأن الطعام صالح وتكثر به كمية اللحوم وهذا ما دفع بالضباع لأن تقبل في اتجاهنا ، حمدت الله وشكرت " سَلِيم" علي كل ما قدمه ويقدمه لنا ولولا هذا الرمح لكانت الضباع أهلكتنا بمخالبها وأسنانها الطويلة التي تمزق جسد الفريسة وهي مازلت علي قيد الحياة. نظرت إلي روز وهي ما زالت تُحدث أصواتاً هادئة كأنها تقول لي أفضل معاً الأكل ولكني ابتسمت لها مما دفعها لأن تزيج لفاقة الطعام من أمامي وجلست مواجهة لي ووضع يديها الأماميتين علي كتفي وعاد إليها صوتها الهادئ ، أمسكت بقطعة من اللحم ووضعتها قريباً من فمي متسانلاً بإشارة مني "أكل" حركت رأسها وأقبلت تعلق وجهي ، قضمت قطعة من اللحم التي كانت شهية للغاية وأعتقد أنها لحم ماعز ومعد اعداداً جيداً وللمفاجأة أنه لم يكن هناك طعام بتلك اللفاقة سوي اللحم ، نظرت إلي روز وقلت ما بداخلي دون صوت أو همهمة " أنتِ تساوي تمنك ذهب ياروز" يا بخت من ح تكوني من نصيبه!!

هزت رأسها بشده وتنبهت أنني أحادث كلبا وليس إنسانا فأمسكت فمها الواسع مقبلاً متحدثاً ، يخرّب بيت عقلك ، أنت فاهمه كلامي؟

حركت رأسها لأعلي وأسفل علي غير عادة الكلاب وكأنها تتصرف مثلي حين أكدت علي ما قلته أو فهمته ، مازلنا نتبادل الطعام وحينما شعرت بأنها تناولت قسطا كبيرا دفعت بقدمها اليمنى قطعة لحم في اتجاهي فأمسكت بها مما دفعها إلي مواصلة الطعام ، توقفت روز عن الطعام وأشارت لي بفمها الواسع نحو عبوة البلاستيك فأسرعت وأحضرت الطاسة والعبوة وفتحتها وصببت لها الماء فشربت منه الكثير حيث تبين أنها كانت عطشي بشدة وقد نسيت أن تلك الأنتي حامل وتغذي أطفالها وتزودهم بالماء مثل بني الإنسان.

أنهينا طعامنا فاقبلت علي وهي تشير بفمها نحو جسدها بما يعني أن أعيد فحص إصابتها ثانية ، نزعنا الأربطة بهدوء وتفحصت الجراح التي كانت كثيرة لكن نزعنا الدماء توقف ، أعدت ربط الجراح ثانية لامسأ شعر جسدها مهددا عليها حتي استكانت ونامت واضعة رأسها علي ساقني ، راحت في نومها ولكنني مازلت يقظاً في انتظار " سَلِيم" الذي تأخر عن مواعده ساعة علي الأقل ، شاهدت جلبابي وقد تمزق وتلون بدماء روز الحبيبة ، أيقنت بأنه من الواجب علي أن أنتبه منذ الآن لاحتمال اقتراب أعداء من الكائنات الأخرى بخلاف بني البشر.

اقترب الغروب و" سَلِيم" لم يأت بعد وأدهشني هذا واعتقدت بأنه قرر القيام بمهمة تسليم الخريطة بنفسه إلي المسؤولين المصريين بالسويس ، وضعت الرمح بجانبني وفتحت اللقافة الأخرى ثم أعدت إغلاقها وأشرت إلي روز بهذا فأيدت تصرفي بإشارة وصوت هادئ بما يعني كلامك مطبوط حيث لم يأت " سَلِيم"

هذا اليوم وبالتالي سوف أحتفظ بطعام ومياه المساء لباكر ولا أعلم الظروف
المحيطة بنا الآن.

فقدت العون والمساعدة

امس كانت نهاية اليوم الثالث ومازالت آثار هجوم الضباع بغرض اقتراسنا بادية علينا ، كنت كلما تذكرت تلك الحيوانات ازيد خوفي ورعبي منها فهي كبيرة الحجم وذات رأس كبير وجسد مغطى بخطوط بالعرض بلون رصاصي علي الظهر ويفصل تلك الخطوط بعضها عن بعض خطوط صفراء كما أن عرض الخط ثلاثة سنتيمترات تقريبا أما افواها فهي مخيفة جدا لحجمها الكبير وصوتها المرعب وهي تميل للخلف عن الأمام بعدة سنتيمترات ودائما فاتحة الفم حتي تخيف العدو بأسنانها الفتاكة كما يسقط اللعاب من فمها دائما.

هذا هو اليوم الرابع وقد تعدي ضياء النهار ودخل علينا الليل المرعب ، كنت في خوف علي الدليل بأن يلقى القبض عليه من الاعداء وهو يحمل الرسالة والمعروف عن العدو مهارته في تجنيد الكثير من الناس لتزويده بالمعلومات سواء كرها تحت التهديد بالقتل أو السجن أو رغبة بالمكافآت السخية ومن الجائز أن يكون "سليم" قد وقع فريسة لأحد هؤلاء العملاء.

سليم داخل القبيلة

عاد "سليم" إلي قبيلته وبعد الغروب التقى بزميله "زلطة" لبحث بعض المعلومات التي وصلت من القاهرة ، أظهر له "سليم" الرسم التخطيطي الذي زوده به "عابد" بعد أن أوضح له بأنه قد تبين له أن هذا الضابط أخرج وبالتالي لن يستطيع تزويد القيادة بما طلبته منه ولهذا لجأ لتلك الحيلة ، شاهد "زلطة" الرسم وأشاد بمن قام به رغم أنه لم يشاهد الموقع المراد الحصول علي معلومات

عنه لكن الواضح أن "عابد" كان دقيقا فيما يقوم به وأخبره بأنه بالصباح سوف يتوجه إلي الجزيرة الخضراء لتسلم مكافآت رجاله وسوف يتحرك بعدها إلي السويس لتسليم هذا الرسم إلي المكتب هناك مع التنبيه عليهم بأن يسارع مكتب السويس بإيصال هذا الرسم إلي المكتب الرئيسي بالقاهرة.

صباح اليوم التالي تحرك "سليم" كالعادة متجها إلي لقاء "عابد" حاملا معه الطعام والشراب ، شاهد سيارة عسكرية إسرائيلية مغروسة في الرمال والجنود يحاولون إخراجها فأنشروا وإليه بأن يأتي لمساعدتهم ، ترك الطعام جانبا وتوجه لمساعدتهم حتي نجحوا وغادرت السيارة الرمال التي غرست بها وتوقفت علي المدق التي تتحرك عليه السيارات دائما ، توجه "سليم" لأخذ الطعام فشاهد أحد الجنود قد فتح العبوة وبدأ في التهام الطعام مما أغضبه فسب هذا الجندي مما دفع بزميله إلي التعدي عليه بالضرب ، تبادل "سليم" والجندي العراك مما أشعر باقي الجنود بالإهانة بأن يقوم هذا المتخلف الهمجي المسلم بالتعدي علي زميلهم ففتح أحدهم النار عليه فسقط مصابا بعدة جروح.

أقبلت سيارة عسكرية أخرى علي صوت إطلاق الرصاص وشاهدوا البدوي 'مصابا وتعرف عليه أحد رجال الأمن الإسرائيليين موضحا بأنه من قبيلة "....." وأن شيخ تلك القبيلة يقدم يد المساعدة لهم وبالتالي سنفقد هذا العون فأسرعوا به إلي المستشفى العسكري الميداني لمحاولة إنقاذه.

هذا هو اليوم الخامس وقد تعدت الساعة العاشرة صباحا ولم يحضر "سليم" في مواعده لليوم التالي ، شعرت بأن شيئا سيئا قد حدث له واعتقدت بأن خريطة الموقع التي قمت برسمها هي السبب الأول فيما حدث له حيث كانت

مواعيد حضوره منضبطة قبل أن يتسلم مني تلك الخريطة ، أصابني الضيق والألم لما حدث وشعرت بأنني المتسبب الأول فيما حدث له كما انتابني اليأس والقنوط لفشل مهمتي ، كنت أفكر بالعميد الذي اعتمد علي شخصي وكان يشيد بما أقوم به كما أن المقدم فوزي سوف يصيبه خيبة الأمل حيال ما لم أستطع أن أقوم به لصالح الوطن.

مازلت أشاهد النسر تحوم حول المكان الذي قتلت فيه الضباع بل بدأت في الهبوط لافتراسها وأصبحت تتقاتل أمامي لانتهاهما ، أثار هذا حفيظة روز ولكنني أشرت إليها بالهدوء والسكينة ويكفي ما عليه حالنا الآن فقد أصبحنا دون طعام أو ماء ، كنت أشاهد النسر بعد هبوطها وتناول وجبتها تتجه إلي المنطقة التي بخلف الكهف ثم تعود فرادي معاودة تناول الطعام ، خرجت أتابع تلك الظاهرة ورافقتني روز وتحركنا سيرا فوق الهينات المتعرجة وغير المنبسطة والتي تعيق السير ، مازلت أشاهد الطيور من علي بُعد وهي تهبط ثم تظهر ولهذا تأكد لي بأن هذا هو عشهم وعرينهم أو أن هناك عينا للمياه ولكنني استبعدت هذا لأن " سَلِيم" لو كان يعلم هذا فلماذا يتحمل مشقة حمل المياه لمسافة طويلة.

تحركت في الاتجاه التي كانت تقصده الطيور ، سرت مسافة طويلة حتي شاهدت العديد منها يقف علي الأرض ، أسرع الخطا بينما كانت روز تسير بثقل فقد أنهكها مجهود السير مع الاثار الناجمة من الجراح التي مازالت بجسدها رغم أنني أصُبت أثناء سقوطي ولكن إصابتي تلك لم تكن بالخطورة التي شاهدتها علي روز ، شعرت بأنني سرت أكثر من ثلاثة كيلومترات وهذا باديا من الفارق في التوقيت حين بدأت حتي انتهيت وشاهدت الطيور تقف أرضا.

أخيراً شاهدت عين ماء صافية أسرعت أهول متجها إليها ولكن روز نبحت في اتجاهي وأنا مازلت سائراً فقد ألم بي العطش خاصة بعد أن بذلت هذا المجهود المضني وقد تصبب العرق مني غزيراً ، شاهدت روز تعترض طريقي وأنا أحاول إثناءها عن فعلها هذا مما دفعها إلي الوقوف علي أقدامها الخلفية ووضعت القدمين الأماميتين علي كتفي ولعقت وجهي وأنا أسير إليها بإبني اقتربت من الماء ولم يتبق علي الوصول إليه إلا عشر دقائق ولكن لدهشتي أنني شاهدت ثعباناً ضخماً لم أشاهد مثله طوال حياتي حتي في حديقة الحيوان ، كان الثعبان قريباً من بركة الماء يعمل علي اصطيد فرائسه من الحيوانات الصغيرة والطيور ولهذا ظلت النسور متخوفة من الاقتراب منها.

كان الثعبان ذو الألوان الرمادية مشابها لطبيعة الأرض مما دفع بروز إلي السير خلفي مبتعدة وأنا بالتالي توقفت عن السير لاهت الأنفاس سواء من مجهود السير أو مما رأيته ، كان الثعبان كبير الحجم فقد تعدي طوله ثلاثة أمتار أما محيط جسمه فلا يقل عن ثلاث بوصات أي ما يقرب من أكثر من سبعة سنتيمترات ، عدت للخلف وأنا غير قادر علي التصرف وقد ألهمت أشعة الشمس جسدي وجروحي ، شاهدت بالمنطقة بعض بقايا حيوانات نافقة كذلك بعض بقايا وحدة عسكرية وأعتقد بأنها وحدة لقوات المظلات حيث شاهدت عربة جيب وقد غلفها الصدأ وعليها شعار قوات المظلات المصرية ، شاهدت بعض العدد المتناثرة كما شاهدت بعض أوعية الوقود سواء بنزين أو سولار مخبئة أسفل الصخور والأحجار ، جلست بعض الوقت لأحصل علي أنفاسي وقد اختبأ الثعبان أسفل صخرة مستغلاً ظلها ليبتعد عن حرارة الشمس حتي يضل فرائسه. شاهدت روز تتألم ونامت أرضاً ، عدت إليها مقرراً العودة إلي الكهف ولكنها

لم تستطع السير ، حاولت إقناعها ولكنها أشارت بفتحها إلي بطنها ولاحظت أن بطنها قد ازدادت إنتفاخا ، حاولت حملها فتألمت وأصدرت بعض الأصوات المعبرة عن ذلك وشعرت بأنها ثقيلة عليّ يديّ ، أصبحت في موقف سيئ للغاية فسوف أظل بجوارها ولن أترك تلك الصديقة بمفردها ، جلست أفكر كيف أمد لها يد العون ، طرأ علي فكري بأن أعمل لها نقالة فأسرعت إلي إطار كاوتش سيارة فارغ ملقي بجانب السيارة الخردة فحملته عائداً إليها ، قررت أن أضع روز بداخل هذا التجويف ثم أحملها علي ظهري ، قطعت جزءاً من حواف الكاوتش فأصبح متمسعا وحملت روز ووضعتها به وهي مازالت ناظرة لي بعيون شبه دامعة حيث مازالت تعاني الألم جروحها.

أسرعت بالبحث بداخل بقايا السيارة فعثرت علي بعض سيور من المشمع السميك ، أحضرته وربطت به كاوتش السيارة بحيث كانت روز نائمة به وبطنها لأعلي وظهرها علي باطن الكاوتش جلست أرضا ووضعت التجهيزة المصنوعة من المشمع من أمام وجهي بحيث يقع الثقل علي كتفيّ وأصبحت روز بداخل الإطار الكاوتش وتمائل في وضعها خلف ظهري ما يحمله الطلاب الصغار من حقائب مدرسية ، نهضت بصعوبة لثقل وزنها ، تحركت سائرا تحت أشعة الشمس العمودية ولهيبها بالإضافة إلي اللهب الناتج من احتكاك الكاوتش ذي الحمل الثقيل علي ظهري ، كنت أشعر بأنني أسير مثل أي إنسان سكير حيث كنت أترنح وازداد هذا المجهود وأصبح لا يطاق خاصة حين التسلق بعض المرتفعات ، ظللت سائرا حتي اقتربت الشمس من المغيب وقد وصلت باب الكهف ، جلست بهدوء ووضعت إطار الكاوتش علي جانبه ثم أخرجت روز التي كانت تنفصد عرقا ، وضعتها أسفل جلبابي حتي لا تصاب بالبرد نتيجة

العرق والهواء اللافح الذي بدأ يهاجم المنطقة ، تسللت بهدوء لداخل الكهف بعد أن جف جسدها وهي تصدر نغمات حزينة أدركت منها أنها علي وشك الموت . شعرت بأن معركة الحياة أو الموت أصبحت أمراً واجباً لا مناص أو فرار منه ، يجب عليّ قتل هذا الثعبان الذي حرمني وحرم الطيور من المياه فقد أفسد علي الجميع حياتهم ، صباح اليوم التالي توجهت بمفردي إلي عين المياه وشاهدت الثعبان مازال حارساً تلك العين ، جلست منتظراً أية فرصة لملاء الوعاء الذي كنت أحمله فقد أفقدتنا قلة الماء النشاط والتفكير ، مازالت النسور تقف أمام المياه راغبة في انتهاء أية فرصة للحصول علي ما تحتاجه ، بعد قليل تشابك نسران في عراك دامي حتي سقط أحدهما جريحا وبسرعة البرق حاول الثعبان التقاط النسر ولكنه أسرع بالهرب مختبئاً بين الصخور ، كان واضحاً بأن هذا الثعبان في حاجة شديدة للطعام ولهذا فهو يحاول أن يتصيد أي طائر ، بسرعة مددت العبوة البلاستيك مستخدماً الرمح إلي الماء وبعد أن كادت تملأ حاول الثعبان مهاجمتي ولكنني كنت أسرع منه وعدت للخلف عدة خطوات بعد أن نجحت في الحصول علي الكثير من المياه ، جلست قليلاً ثم لاحظت أن النسر الجريح سقط وتدرج أمامي وعلي وشك الموت ، أمسكت به وُعدت بهُ مسرعاً إلي " روز " بعد أن عببت بعض الماء .

مازلت سائراً حتي وصلت إلي الكهف قبيل العصر وقد تحسنت حالة الطقس وتلاشت شدة الحرارة ، شاهدت " روز " مازالت نائمة وتحرك رأسها بصعوبة ، صببت لها الماء وقربتّه من أنفها ، تشجعت ونهضت وهي تلعق المياه ثم توقفت وبعض قطرات تسقط من فمها بداخل الإناء ، ظلت علي هذا الحال حتي ارتوت ، أحضرت لها النسر ووضعتّه أمامها ، أصابها القرف وابتعدت عنه .

هاجم الظلام المنطقة ورحت في نوم عميق استيقظت علي صوت قرقشة أو شيء يؤكل ، لقد كانت السيدة " روز " تتناول طعامها حيث أنهت علي النسر بالكامل ولم تترك لي سوي الريش قلت :

- الحمد لله إنها جت علي نفسها حبتين والتواضع حلو وأنت فاكراه نفسك مين؟ مضت عدة أيام وأصبحنا في احتياج شديد للماء ، تركت " روز " بعد أن وضعت بقايا الماء أمامها بالطاسة ونظرت إليّ كأنها تخبرني بأنها راغبة في مياه مثلجة! عقدت العزم علي التوجه للبركة وحملت معي العبوة الزنك التي حفظ " سلّيم" بداخلها علي قطعة الجير الحي كما أخذت معي رمحي وعبوة الماء وقررت عدم العودة إلا بعد أن أصفي حسابي مع ذلك المخلوق الخطير.

وصلت إلي البركة ووجدت أنها مازالت علي وضعها ، النسر تحاول سرقة بعض نقاط من المياه وحين تشاهد أية حركة صغيرة من الثعبان تعود مسرعة أو تطير ، ما حدث منذ عدة أيام حدث اليوم من اقتتال النسر ، سقط أحدهم قتيلاً فأسرعت بسحبه بالرمح مما أثار ضيق الثعبان ، ابتعدت عن هذا المكان حتي أتجنب غدره وهناك فتحت باطن النسر وأخرجت جميع أحشائه ونظفت ما بداخله بالرمال ثم وضعت قطعة الجير الحي بداخل غلاف من البلاستيك مما كان يحمله " سلّيم" إليّ وبداخله الطعام ولففت الغلاف حول الحجر الجيري والذي كان باديا علي ملمسه الحرارة ثم قطعت بعض خيوط من الحبل المحيط بالسكين ، كانت الخيوط البلاستيك رقيقة جدا كأنها خيوط صنعت من الحرير.

أريد أن أخیط بطن الطائر حتي لا ينتبه الثعبان لما بداخله وتغطي زفارتة المكان ، نظرت حولي فشاهدت شجرة من الشوك ، نزعت شوكة وأصبحت أستخدمها كأنها إبرة فأقوم بعمل ثقب ببطن الطائر ثم أدخل به الخيط الرفيع ومن

الجهة الأخرى أقوم بالربط ثم أعد فتحة أخرى وهكذا حتي أنهيت غلق بطن النسر ، تحركت بحذر من خلف الصخرة القابع بأسفلها الثعبان ، كانت الصخرة ممتدة للأمام مثل طاقية اللاعبين أي للصخرة رفرف ويرقد بأسفله الثعبان ، صعدت لأعلي الصخرة وألقيت بالطائر أمامه فقفز الثعبان عليه بسرعة والتقمه في الحال.

أسرعت بالعودة إلي البركة مواجهها الثعبان ، أشاهده وقد اختفي نصف الطائر بداخل فمه ، كنت متخوفا بأن يحدث مفعول الحجر الجيري في بداية البلع وينتبه الثعبان ويلفظه من فمه لكن هذا لم يحدث ، ظل الثعبان في ابتلاع النسر حتي اختفي حيث كنت أشاهد انبعاج جسم الثعبان حتي وصل إلي منتصف الجسم حيث ستتم عملية الهضم بالضغط وبالعصر مستخدما عضلاته وبالتالي يتفتت الحجر الجيري وتلتصق بمعدة الثعبان المبللة.

ظللت جالسا لأكثر من ساعتين أحرقتني خلالها أشعة الشمس وشعرت بأن رأسي أصبحت ثقيلة وسوف يغالبني النوم فنهضت واقفا حتي لا يفاجئني النوم أمام حجر هذا الكائن السام الخطير ، بعد قليل لاحظت تحرك الثعبان ثم ازدادت حركته حتي أصبحت عصبية ثم فجأة قفز بنصفه الأعلي إلي بركة المياه راغبا في الشراب تأكد لي بأن الثعبان سوف يلفظ أنفاسه ، عب الثعبان من الماء ثم غادر البركة وأثناء توجهه إلي أسفل الصخرة قفز لأعلي وشاهدت خروج دخان أبيض من فمه أعقبه قفزات لأعلي ثم شاهدت أنتفاخا وسط جسم الثعبان وأعقبه انفجار قصمه إلي عدة أجزاء وتناثر جسده أسفل وأمام الصخرة.

الحمد لله .. قلتها وأنا راغب في الصباح ولكنني حرمت من تلك النعمة فأخذت أصفق وقد شاركتني النسور تلك الفرحة بالشرب من البركة ثم فردت

أجنحتها بطريقة تدل علي أنها تقوم برقصة سعيدة ، تأكد لي بعد قليل أن مياه البركة سليمة وغير مسممة حيث تناولت النسور مياهها وظل بعضها جالسا بمحيطها بعض الوقت ثم طارت لأعلي ، ملأت العبوة بالمياه وقد شعرت بأنني مازلت أجد التفكير والتدبير بعد أن شعرت إنني إنسان أقل مقدرة عن الآخرين لفقدني نعمة النطق والحديث.

أثناء عودتي شاهدت أرنباً جبلياً فانتظرت كامناً حتي إذا أصبح في مرمى الرمح وقذفته به فأصبته في الحال ورغم حزني عليه إلا إنني فرحت لعودتي إلي " روز " بطعامها.

استقبلتني " روز " بسعادة وكاد لسانها ينطق ببعض كلمات مشجعة مثل ربنا يخليك ليا يا حبيبي يا عابد يا مستنتي ومهنيي ، حين شاهدتني أدخل عليها بالأرنب والمياه نهضت لاستقبالي وأغدقت علي بحبها وحنانها بحصولي علي حضن ناعم أعقبه بعض لعقات من فمها ، وضعت " الغلة " أمامها كما يقول التجار ، تناولت الأرنب مباشرة وعبت من الماء الكثير ، كنت سعيداً بأنها تتناول الطعام رغم إنني حرمت منه أياماً ثلاثة وبذلت من المجهود الكثير ولكن هذا واجب الرجال !!

قبيل الغروب شاهدت حيوان " الورل " وهذا الحيوان هو نسخة مصغرة من التمساح وقد خلقه الله ليأكل الثعابين فيهجم عليها قاضماً رأسها أولاً ثم يبدأ بتناول الباقي ، حيوان مدرع ونيله قادر علي جرح أي إنسان نظراً للزوائد العظمية الكثيرة به كما أن أسنانه رفيعة وقاتلة ، تبعته جرياً حتي اقتربت منه والقيت عليه بحجر ثقيل فخدمت روحه في الحال ، أحضرت السكين وقمت بتقطيع أجزائه وتنظيف بطنه من الأحشاء بالرمال وتناولت لحمه بالظلام وأقبلت

عليّ " روز " فتناولت ما تبقي منه من الفشه والأرجل!!

بداخل الإدارة

تعددت الأيام المقررة لكي ينهي عابد مهمته والغد هو اليوم الخامس من شهر مارس من عام ١٩٦٩ لم تصل أي أنباء عن عودة عابد بل علي العكس فقد وصلت أنباء عن إصابة " سَليم " دليل عابد والمعاون له والذي سوف يراه حتى إنتهاء مهمته ثم يعمل علي إعادته ، كل تلك المعلومات وصلت إلي العميد ... فأنارت ضيقه وتوتره وأصبح يردد:

- "الواد أخرس والدليل بيموت بالمستشفي ومحدث من أتباع زلطة عارف مكانه ، بعدين يارب ، إيه الحكاية مالها ملخبطة ومش ناويه تعدي علي خير وأنا قدامي ثلاث تيام وأقدم تقرير لرئيس الأركان عن الموضوع ده ، عونك يارب. لم تمض ساعة إلا وحدث اتصال من مدير مكتب السويس بمكتب العميد الذي أسرع بالإجابة معتقداً بأنه قد وصلته معلومات تفيد العثور علي عابد ، استمع الرجل إلي حديث مدير مكتب السويس الذي أخبره بأن زلطة راغب فى الحديث معه ، توتر العميد فهو لم يتحدث مع زلطة من قبل بل زلطة يتحدث مع معاونين له ولا بد أنه قد حدث شئ خطير يدفع بالمسئول عن جميع العملاء بسيناء للتحدث معي ، استرها يارب ، قدم زلطة نفسه ثم تطرق إلي صلب الموضوع مباشرة حيث أخبره بأن لديه رسالة خطية من عابد وفي منتهي الأهمية وقد سلمها إلي مدير مكتب السويس لإيصالها إلي سيادتكم ، انتهت المحادثة وأمر العميد مدير مكتب السويس بإرسال الرسالة مع مندوب ضابط علي عجل إلي الإدارة.

عاد الهدوء إلى العميد وشعر بأن المقدم فوزي كان مُحقا في مدحه وثنائه علي عابد ، فهذا عابد الأبكى يرسل برسالة خطية بعد أن حرم نعمة الحديث وبعد أن أصيب المعاون له فتصرف الشاب ، كان العميد يرجو الله أن تكون تلك الرسالة ذات أهمية وتغطي الغرض من إرسال ضابط للعمل خلف خطوط العدو وهذا يعتبر خطراً علي الضابط.

مضت ساعات ثلاث كان العميد خلالها يعد الدقائق والثواني وها قد وصل مندوب مكتب السويس فأمر العميد بإحضاره فوراً إلي مكتبه علي غير عادة القادة من استقبالهم للضباط الأصغر والذين لا يهتمون بهم ، بداخل المكتب أدي الضابط التحية العسكرية الواجبة عليه وسلم العميد الرسالة والذي أمر الضابط بالانتظار بالاستراحة وأمر معاونيه بتقديم طعام الغداء له والذي مضى عليه أكثر من ساعة لحين طلبه ، فض العميد مظروف الرسالة الذي أضافه " سَلِيم " ثم تطلع إلي الورقة الداخلية مما دعاه للصياح طالباً معاونيه بأقصى سرعة ، أقبِل المعاونون وأطلعهم العميد علي الرسالة وقد أيقن الرجال بأن عابد ضابط استطلاع ومخابرات علي أعلي مستوي من طريقة رسمه التوضيحي للقاعدة والبيانات المضافة خاصة نقط الارتفاع التي وضعها علي الرسم مما دفعهم جميعاً للتوجه لمشاهدة الخريطة المنصوبة علي الحائط وأشاروا إلي نقطة الارتفاع وأصبح الهدف محدداً لهم ويعرفونه مثل مكتب القيادة الذي يعملون ما بداخله.

ارتفعت معنويات رجال الإدارة خاصة العميد الذي طلب لقاء عاجل مع رئيس الأركان قبيل الموعد المحدد له والذي كان يخشى اقترابه نون بيانات عن الهدف ، حدد الموعد باليوم التالي نظراً لحساسية اللقاء وفيه عرض العميد

رسالة عابد بعد أن تم تكبيرها إلي عشرين ضعفاً وعمل عدة نسخ لممثلين الأسلحة المختلفة بالاجتماع ، أصدر رئيس الأركان تعليمات مباشرة لقائد قوات الصاعقة بإرسال قوة لا تقل عن عشرة رجال تحت قيادة ضابط كفاء إلي الموقع وتدميره علي ألا يعود إلا بعد انتهاء المهمة وإذا لم يتم تدمير الهدف فلا يجب عليهم العودة علي أن يتم هذا خلال عشرين يوماً من الآن كما أمر العميد بمعاونة رجال الصاعقة بتلك المعلومات وبمساعدة رجاله الذين لديهم خبرة عن طبيعة تلك المنطقة.

بدأت تعد العدة لتنفيذ تلك المهمة والتدريب علي أرض مشابهة وإعداد الأدوات والمتفجرات المستخدمة حيث كانت تعليمات رئيس الأركان صارمة بالتدمير الكامل للقاعدة وقتل أكبر عدد من أفراد العدو.

ظللت علي هذا الحال لمدة تجاوزت الأسابيع الخمسة خلالها طال شعر رأسي بغزارة وأصبح جلبابي عبارة عن هلاهيل قذرة وليس لها لون وأصبحت رائحتي أشد سوءاً من الحمير والبغال وأظافر يدي كانت تقصف من شدة طولها ، نسيت سماع أصوات وأحاديث بني الإنسان ، شعرت بأن " روز " قد اقترب موعد وضعها ، كنت راغبا بالاستعداد لهذا اليوم السعيد في حياة الأسرة وتذكرت لو كانت الظروف تسمح لأحضرت عدداً من الأباريق والقلل لزوم السبوع ولكن الظروف لا تسمح وقد جار الزمن علي " روز " وأصبحت تقبل بأي شيء حتي القليل منه وعادت لتعيش عيشة أهلها في بدء الخليقة وتقصف شعرها الجميل ولم تعد تهتم بأنقتها كسابق عهدها!!

أسرعت الخطي بعمل خزين للطعام من أجل تلك الأم وأبنائها ولو استطعت

إعداد حلبة وموغات لفعلت ولو كنت أعلم بأن القدر سوف يتركنا بتلك المنطقة لأكثر من خمسة وثلاثين يوما بدلا من خمسة أيام لأحضرت كل شيء لتلك الأم وأطفالها لكن الظروف كانت صعبة علي حائنا وأصبحت أعيش مع " روز " حياة بدائية بعيدة عن الترفيه وعون الخدم والطهاة ، نظرت إليها متحدثا " إيه إيه .. أأ .. آه .. أأ .. آه .. أبا أباه" حيث كنت أقصد دوام الحال من المحال سيدتي الرقيقة ، أعطتني مؤخرتها كان كلامي لم يأت علي هواها.

غشي الظلام المنطقة خارج الكهف فتحركت روز ببطء وتكاسل إلي داخل الكهف ، تبتتها وقد أثرت عليها ظروف الحمل فنامت علي أحد أجنابها فلحقت بها نائما قريبا منها كي ألبى لها ما تحتاجه فقد بدا عليها الإرهاق والإعياء ومن تأثير الإرهاق والتعب رُحت في سبات عميق ، تنبتهت علي نباح بطيء كسير مثل أي إنسان يتألم باكيا ، هدهدت علي ظهرها ولكن الشيء الغريب أنني لمست شيئا مبتلا أعقبه سماع أصوات رفيعة حادة ، توترت وخشيت أن يكون قد أتى حيوان أو ثعبان وقد لمستّه ، ابتعدت قليلا فسمعت نباحها أشد قوة عن السابق ، عدت قريبا منها فقد شعرت بأن هذا النباح هو طلبا للنجدة.

بعد قليل إزدادت الأصوات الرفيعة ، تنبتهت لأن تلك الأصوات مشابهة لأصوات الكلاب الصغيرة التي تسرع بصوتها ، اقتربت أكثر ونمت علي بطني ولمحت حركة من كائنات صغيرة بجوار " روز " ، كدت أصرخ سعادة فلقد وضعت " روز " جراءها (الكلاب الصغيرة) وكان " سليم" هو الصائب الوحيد في ملاحظته تلك حين أخبرني قائلاً بأن تلك الكلبة حبلي ، جلست بجوار الأم وصغارها وكنت من حين لآخر أقبلها مهددا علي شعرها فتقوم بلعق يدي مصدرة أصواتا طيبة كأنها تقول لي "مرسي" أو أشكرك ، شعرت

بأنني أحمل حملاً ثقيلاً علي كاهلي فقد أنجبت السيدة " روز " ولا أعلم عدد صغارها حتي الآن ولم تشركني في ولادتها ولم تطلب مني أن أحضر لها طبيباً أو داية حيث كان الله معها.

كنت أستعجل قدوم الصباح حتي أري وأتصرف لإطعام تلك الأم المسكينة ، مضي عليّ الوقت وشاهدت ميلاد يوم جديد كما شاهدت ميلاد كائنات جديدة ، ركزت نظري في الصغار فلم أستطع حصرهم لالتصاقهم ببعض وبياطن " روز " ، سمعت صوت مصات صغيرة فقد كان الصغار ممسكين بحلمات الأم ، خرجت الدموع من عيني لقدرة الخالق ، انحنيت أقبلها فبادلتنني القبلات ، حدثتها بإشارات بأنني سوف أحضر لها طعاماً وشراباً ، فتحت فمها وأخرجت لسانها كأنها تخبرني بأنها تحتاج لكلا النوعين.

أمسكت برمحي استعداداً للصيد مثل أبونا آدم عليه السلام وقيل أن أغادر الكهف سمعت أصواتاً كأنها لحيوانات وبعض من أبناء بني البشر ، 'عدت خوفاً علي " روز " وصغارها ولكن لحكمة الله فقد أطل عليّ من باب الكهف فتأتان غاية في الجمال ورقة وأحدهما ابتسمت لي قائلة:

- كيفك عابداً؟

- نظرت إليها وقد إندفعت الدموع من عيوني ، أقبلتنا إلي داخل الكهف بطيبين من خاطري وهن يحملن الطعام والماء ، شعرت بسعادة غامرة وأخذت الماء وصبيته بالطاسة أمام السيدة روز التي كانت تلعب المياه بصوت مسموع ، تحدثت إحدي الفتيات قائلة:

- "اللهم صلي ع النبي" كلبتك ولدت يا زلمه ، والله سلّيمَ خبرنا من يومين بأن كلبة الزلّة حتجيب صغارها جبل ما تعود لمصر ، هوه اللي طلب منا تعود

عليك ونشوف أغراضك وحاجتك ، مش تعتب علينا ولا علي "سليم" لأنه لسه محجوز بالمستشفى ، هتفت الأخرى:

- شوفي يا سلمي ، هادي الصغار أربعة وشكلهم حلو خالص

- نظرت إلي الفتاة الأخرى معلقة:

- هذا حجيجي كيف الأم والأب حلوين وزين!! اندفعت الفتيات بالضحك ثم فتحت إحداهن اللفافة وقدمت لي الطعام ، كان الطعام بكميات كثيرة ويحتوي علي الأسماك ، وضعت الطعام أمام روز فنهضت تتناوله بينما الصغار احتجوا علي هذا بإصدار أصوات رفيعة مسرعة وأحدهم تعلق بحلمة أمه ثم سقط أرضا صارخا ، مازالت " روز " تتناول طعامها وقد رغبت في تقديم الشكر لي فأقبلت نحوي محاولة لعق وجهي وكنت لاحظتها أتناول بعض المياه فابتعدت عنها ، شاهديتها وهي تنظر إلي بكل ضيق وألم وقد تركت الطعام ، فأسرعت إليها محاولا الاعتذار ولم ترض عنى إلا بعد أن قبلتها عدة قبلات مطعمة بالسماك اللاصق على فمها ، عادت فلعلقت وجهي وأصبحت الزفارة والقذارة هي حالي.

'عدت أنظر إلي الفتيات راغبا بمعرفة من هن ثم أمسكت الورقة وكتبت اسم " سليم" فقرأته إحداهن وأخبرتني بما حدث لسليم وأنه مازال بالمستشفى حينما ذهبت "كاملة" لزيارته ، علمت منهن أنها ابنة عمه وخطيبته وهو الذي أخبرها بصوت خفيض بمكاني هذا طالبا منها الاحتراز وأن تأتي إلي بالماء والطعام وأن تصطحب شقيقته الأصغر "سلمي" ، ظلت سلمي وكاملة يتحدثان معي وأثناء ذلك ظهر علي باب الكهف بعض من الماعز والخراف وحينما شاهدت ذلك أصابتنى الدهشه فطمأنتنى الفتيات بأن هذا القطيع الذي أقبلن به للرعى

يعمل على تغطية الزيارة وقد وعدتني كاملة بمتابعة إمدادى بالطعام والشراب من حين لآخر.

تساءلت كتابة: هل معهن ماعز ندر لبنا؟ أسرعت سلمى وشاهدتها تحضر إحدى إناث الماعز ذات الضرع الكبير وجلست بعد أن أحضرت الطاسة وقامت بحلب الماعز أمامى حتى أنهت مهمتها وقد امتلأت الطاسة عن آخرها ، بعد تلك الزيارة السريعة الخاطفة ودعتنى الفتيات وقد أدخلتا السعادة والبهجة إلى نفسى وبعد أن غادرتا الكهف ظللت أراقب " روز " وصغارها وأنا في غاية السعادة من علاقة الصغار بهم ، كنت أشاهد " روز " وقد التف جسدها علي هيئة هلال وقد نام الصغار بهذا التجويف دون أن يتركوا حلمات صدرها حتى وهم نيام ومن ينتبه من نومه أشاهد فمه يتحرك دليلا على أنه يحصل على المزيد من اللبن ، توجهت إلى مكان الطاسة وعببت من لبن الماعز الجميل الممتع الشهى ، أشرت إلى " روز " ببعض منه ولكنها عادت ونامت مستتدة برأسها على الأرض تاركة صغارها يرضعون ويلهون وينعمون بالأمان بداخل ذلك التجويف ثم قربت ما بين أرجلها الأمامية والخلفية حتى أصبحت تحيط بصغارها ونظرت إلى كأنها تقول لى تصبح على خير.

عودة الفرعون

اليوم التالي لهذا الاجتماع الذى عقده الفريق عبدالمنعم رياض مع القادة وإصداره الأوامر بتدمير قاعدة الصواريخ الإسرائيلية وإذا لم يتم هذا فلا يجب أن تعود القوة المكلفة بذلك ، هذا يعنى أن المهمة انتحارية ولا بد من التنفيذ ، إشتعلت جبهة القتال بين مصر وإسرائيل بالاشتباكات الدامية بالنيران خاصة سلاح المدفعية وخلالها دمرت المدفعية المصرية أرتالاً من لواري العدو المحملة بمعدات وتجهيزات هندسية كانت مُرسلة لقواتهم على قناة السويس ، كانت تلك أول معركة بهذا العنف وقد ألجمت المفاجأة وقوة النيران ألسنة الإسرائيليين ، اليوم التالي استشهد رئيس الأركان الفريق عبد المنعم رياض الذى أصدر أوامره أمس الأول بتدمير القاعدة الإسرائيلية بجنوب سيناء.

ما حدث لرئيس الأركان ألهب عزيمة الرجال وتصميمهم على تدمير القاعدة أخذاً بثأر رئيس الأركان ، اندفع الرجال فى التدريبات العملية بالذخيرة الحية وباستخدام كل ما هو حديث للحصول على أكبر نتيجة مرجوة من تلك العملية ، كانت هناك رسالة يرغب رجال تلك المهمة إيصالها إلى قائدهم الشهيد الذى ضرب أروع الأمثلة بقيادة قواته على الخطوط الأمامية ونال الشهادة ، لقد كان تصرفه بحق نبراساً لمن لحقوا به وساروا على نهجه بأن يكون القائد فى نفس الخندق مع جنوده إسوة برسولنا الكريم ، كانت رسالة رجال الصاعقة أننا سوف نسير على خطاك أيها الشهيد العظيم يا من أصدرت إلينا هذا الأمر والذى كان آخر أمر عمليات أصدره عبدالمنعم رياض.

شعرت بأن "روز" تحاول إيقافى حيث كان الظلام حالكا بخارج الكهف ، نهضت من فوق الرمال والحصى التى أصبحت فراشى والهواء غطائى متسانلا بإشارات من يدي ، ماذا تريدان؟ همهمت قليلا بصوت خفيض وتحركت وسبقتنى ووقفت أمام باب الكهف فتوترت أعصابى واعتقدت أن بعض الضباع ترغب بالأخذ بثأر من قتلناهم منذ أكثر من شهر مضى ، حملت رمحى وجلست قريبا من " روز " التى مازالت واقفة وقد رفعت أذنيها لأعلى ناظرة جهة القاعدة التى لن يأتى من جهتها أى حيوان معادٍ ؛ لأن بتلك الجهة جرف شديد الوعورة مثل الحائط ولا يمكن لأى كائن أن يتسلقه.

أسرعت " روز " بالعدو إلى داخل الكهف فتبعتهما وشاهدتهما تحتضن صغارها بقوة ولم تمض لحظات إلا وشاهدت أضواء مبهرة بخارج الكهف وأصوات انفجارات مدوية دفعت ببعض الأحجار الصغيرة بالداخل للسقوط وتطايرت بعض ذرات الرمال من حولنا ، لم تنقطع الانفجارات ومازالت تدوى والضوء يضرب فى كل اتجاه ، أسرعت بعد أن استعدت هدونى إلى خارج الكهف أتابع ما يحدث حيث كانت الانفجارات تهز المنطقة بل وعلى ضوء الانفجارات شاهدت الكتل الخرسانية للقاعدة تتطاير وخلال هذا شاهدت وسمعت حين خفت أصوات الانفجارات صوت أسلحة صغيرة وبدا أن قتالا بالأسلحة الصغيرة دائرا الآن.

حضر الملعون الأكبر الطيران الإسرائيلى وألقى بالمشاعل وقام بقصف بعض الأماكن واستخدم الصواريخ تارة والقنابل تارة أخرى ثم استخدم رشاش الطائرة ، عدة دقائق وشاهدت العديد من طائرات الهايكوبتر تغطى سماء المنطقة وعلى أضواء الحرائق الناتجة من الانفجارات شاهدت العديد من الجنود

يغادرون الطائرات العمودية ومازلت معركة الرشاشات قائمة بين القوات المصرية والإسرائيلية ، كانت سعادتى وفرحتى لا يستطيع أحد أن يقدرها فلقد أتى ما قمت به بمفعوله سواء بدقة الرسومات أو البيانات التي أضفتها للرسم مما دفعني للضحك والتصفيق متحدثا بصوت عال " إبه إبه .. أأ .. آه .. أأأ .. آه .. أبا أباه".

ظللت أتابع المشهد الذى أمامى وكأننى أشاهد فيلما سينمائيا عن الحروب ، فجأة تناثرت القذائف على ظهر الجبل مما دفع بى للاختباء وسمعت نباح "روز" وبعض أصوات صغارها ، توقفت القذائف وإنبلج ضوء الصباح فعدت للظهور لأمتع عيني بهذا المنظر الجميل ، لقد شاهدت القاعدة وقد كُمرت تماما والصبات الخرسانية تفتت وأثار الدخان مازلت على بقايا الجدران بل شاهدت الجنود الإسرائيليين يحملون قتلاهم وجرحاهم وينقلونهم إلى الطائرات الهليكوبتر التي هبطت على الأرض ومازلت الطائرات القاذفة تشق عنان السماء باحثة عن المتسبب فيما حدث بينما كنت أتجول قريبا من الكهف لمعاينة ما حدث.

كنت ألتمس الحماية من بعض الصخور مختبئا بين فواصلها ، سمعت صوت مأمأة قريبا منى ، أرهفت السمع وأجلت ببصرى فشاهدت "عزة" تلتمس الحماية بالصخور مثل حالى ، أسرعت إليها متجنباً الظهور خشية الإصابة ، اقتربت منها وهددت على جسدها بهدوء ، نظرت إليّ ثم عادت تسمعنى صوت المأمأة مرة ثانية ، حاولت مساعدتها على النهوض ولكنها لم تقو حيث كانت تسقط أرضا كلما رفعت جسدها ، انحنيت عليها وحملتها إلى داخل الكهف مسرعا مما دفع بـ "روز" للاحتجاج مطلقة بعض النباح فقد شعرت بأننى أحضرت لها "ضرة أو غريمة" أسرعت إلى روز طالبا منها الهدوء ، جلست

قريباً من "العنزة" وقربت منها الماء فارتوت وتبين لى أنها فى احتياج شديد إلى الماء.

عادت العنزة تطلق نداءها ، نهضت ووقفت على أرجلها المرتعشة والتي كانت تهتز فشاهدت أن بطنها كبير ومتضخم وسوف يسقط أرضاً ، شعرت بأن "العنزة" حبلى كما أفادنى قبل هذا بأكثر من شهرين الصديق " سَلِيم" ، بعد مضى وقت قليل سقط من مؤخرتها بعض نقاط من سائل ثم تلا هذا بروز شئ قاني اللون وزاد ألمها فارتفع صوتها وهبط بالتوالى صغيرين ، كنت أشاهد بروز رأس الصغير ثم جزءاً من جسده وفجأة يسقط بسرعة أرضاً لامع الجسد مبتل ، تكرر الحدث مرتين وعدلت العنزة من وضعها وقامت تلعق صغارها وروز تراقب الموقف ، لقد أصبح الكهف مستوصفاً للولادة ومن سيكون عليه الدور القادم ، ظللت ساهماً مما أشاهده وأراه من حكمة وقدرة العلى القدير ، شاهدت العنزة تجول ببصرها بداخل الكهف ، أعدت إحضار الماء لها ولكنها رفضته أيقنت أنها فى احتياج للطعام فأسرعت للفة الأخرى والتي احضرتها الفئتان بالأمس وفتحتها فشاهدت بعضاً من الطعام وقطع عجوة والعديد من أرغفة الخبز الطرى ، قربت قطعة منه إليها وبسرة وجدته بين فكئها تقوم على مضغه ونظرت إلى تحدثنى بطريقة المأماة:

- أرجوك بعض الخبز ، أنت مش بتفهم وعارف أنى والده ومحتاجه طعام ، قدمت اعتذارى لها بطريقة الإشارة ثم بجملتى الشهيرة " إبه إبه .. أأ .. آه .. أأ .. آه .. أبا إباه" أسرعت فأحضرت بعضاً من قطع الخبز ، بعد أن انتهت أعدت إحضار طاسة المياه فعبت منها وانزوت تحمى صغارها اللذين كانا يرغبان بالوقوف وكلما حاول أحدهما الوقوف كنت أشاهد أرجله يصيبها الرعشة ثم

يسقط أرضا ، لم يستكن الصغيران مما دفع بأمهما إلى معاونتهما بلعق أرجلهما لأعلى ولعق رأسيهما ، لاحظت أن رعشة الأرجل قلت قليلا وبعد مضي حوالي الساعة كان الصغيران يجريان حول أمهما وفي بعض اللحظات يتوجهان إلى روز محاولين لمسها مما دفعها للنباح فأصيب الصغيران بالخوف وأسرعوا إلى الأم حين سمعا النداء.

جلست أفكر في تلك المعضلة ، فقد ازداد عدد الضيوف على الكهف بصغيرين يرغبان بالرضاعة والرضاعة تحتاج إلى الطعام وليس من المعقول أن أطعم الماعز طعام الإنسان من خبز وجبنة وأتناول أنا طعام الماعز من حشائش قريبة منا ولهذا فيجب علي الخروج لإحضار بعض الحشائش ، غادرت الكهف بكل حذر وقد دفع هذا " روز " لأن تنبهني بالمخاطر من هذا التصرف ، ولكنني ما زلت أتحرك بحذر وقد اقتربت من بقعة الحشائش الخضراء ، استخدمت السكين واستطعت جمع حزمة كبيرة سوف أقدمها إلى الأم الماعز.

أثناء عودتي سمعت صفارات قذائف قريبة منى وانفجارات متتالية لا تبعد عنى خمسين مترا ، اعتقدت بأن الإسرائيليين شاهدوني ولكن زال عنى هذا الخاطر بعد أن سمعت انفجارات قذائف بعيدة عنى فتأكد لى بأنهم يقتشون المنطقة ويقصفون قصفا عشوائيا ، زحفت فوق الصخور المحدبة ونالني الكثير من الجروح والخدوش ، اقتربت من الكهف فشاهدت "روز" تراقب عودتى وحين اقتربت منها قفزت فوقى تعطرنى بلعقات كثيرة ، أخيرا أصبحت أمام الأم الماعز ومجرد أن شاهدت الحشائش حتى نهضت تعلن سعادتها بالمأمة الكثيرة وتهز زيلها واندفعت تتناول طعامها.

جلست سعيدا بأننى استطعت إحضار طعام لها ، بعد قليل سمعت أصوات

طائرات هليكوبتر كثيرة فوق منطقة الكهف والأماكن القريبة ، تأكد لي بأن الأعداء يبحثون عن من نفذ تلك العملية وهم متأكدون بأنهم فروا ولهذا فهم يقومون بتلك المطاردة ، اختبأ الجميع بداخل الكهف وفجأة شاهدت كلبا ضخما يقف على باب الكهف سرعان ما أطلقت "روز" بعض النباح فأسرع الكلب في اتجاهها واعتقدت بأن معركة سوف تنشب بينهما لهذا أسرعت بإعداد الرمح ولكن المفاجأة أنهما التقيا لقاء ود وحب من العناق بينهما واللعب معا.

جلس الاثنان يتناجيان عن أخبار الأهل بالقاهرة حيث تبين أن هذا الكلب هو من نفس فصيلة السيدة روز وقد أقبل برفقة من نفذوا تلك العملية الشجاعة وتحت المطاردة هرب في أى اتجاه حتى وصل إلينا ومن المحتمل أن السيدة روز أرسلت له ببعض إشارات الحب الذى تعود عليها قبل ذلك.

كنت أجلس وحولى تلك المجموعة من مخلوقات الله وأنا فى دهشة من أمرى فقد وصل عددنا إلى عشرة أنفس ولا يوجد بيننا مخلوق يستطيع الحديث والكلام ولا يعرف كل واحد منا لغة الآخر إلا سليمان الحكيم نبي الله ، لقد أصبحنا مثل الشعوب والقبائل المختلفة والمختلطة وتجمعنا ظروف وأحداث واحدة ، وكان قصة أهل الكهف تعاد من زاوية لقاء الإنسان بالكلب ولهذا فلن يخزلنا الله سبحانه وتعالى.

كل فترة أتوجه لمراقبة الموقع المدمر الذى خلا من أية حركة لكن مازالت بعض الطائرات الهليكوبتر تفتش المنطقة بل وبعض الجنود يتجولون فى بعض الأماكن يطلقون النار عشوائيا ، كنت أدعو الله بالألا يقبل أحدهم لهذا المكان فسوف يفجرونه ويقتلون الجميع ، حل المساء فخرجت أستوضح المكان وفجأة سمعت صوت جندي إسرائيلي يطلب منى الانتطاح أرضا حيث صوب مدفعه

الرشاش إلى صدرى ، وقفت برهة ولكن بسرعة الضوء سمعت نباح "روز" التى قفزت على هذا الجندى فأطلق سلاحه بعيدا عنى ثم سقط أرضا وابتعد إلي أحد الأخاديد الصخرية العميقة ، ولكن الجندى الآخر أطلق النار على روز فسقطت أرضا تعوى وبنفس السرعة شاهدت صديقها الضيف يهاجم الجندى الآخر وأصابه بجروح مما دفع بالجندى إلى الهرب بالظلام فسقط من ارتفاع كبير أرضا وسمعت صرخته بعد أن سمعت صوت ارتطامه بالأرض.

شعرت بالنصر والفرحة ولكن روز أقبلت علىّ تعرض إصابتها ، فلقد أصابتها رصاصة غادرة بذيلها فقطع الجزء الأخير منه ، قطعت قطعة أخرى من جليابى الذى لم يتبقى منه إلا جزء صغير ولم يعد يصلح جلبابا بل أصبح كأنه قميص إفرنجى ؛ حيث تعرت ساقى حتى الركبة ، كنت أداوى جرحها وهى مازالت على حالها من شدة الألم ، تهاست مع صديقها الجديد ثم شاهدته يسرع بمغادرة الكهف واعتقدت أنها طلبت منه أن يختشى علي دمه ويروح أجزاياته يجيب لها علاج.

عاد صديقها بعد ساعة وفى فمه أرنبان استطاع اصطيادهما وقتلهما ووضعهما أمامها فأقبلت عليهم شرفة ، شعرت بمدى الحب بين تلك الفئدة ومدى التعاون فيما بينهم ، مازالت الماعز تتناول طعامها ومن حين لآخر أشاهد الصغيرين يقبلان أسفل أمهما فيدفع كل صغير برأسه الصغيرة ضرع الأم ثم يضع فمه بالحلمة يسحب منها طعامه الذى وهبه الله له وبعد أن يحصل على الجرعة المناسبة لهما يجريان قفزا لأعلى ويلهوان.

مازالت أسمع أصوات صغار "روز" وهم غير قادرين على الرؤيا أو النشاط مثل أبناء العنزة ، بل لا يتركان مكانهما بحثا عنها فقد وجهتهم منذ البداية

بأن يظلوا بمكانهم لحين عودتها كي تتطعمهم بل أن أحد الصغار كان 'مشاغبا' وتحرك متجها نحو العنزة ولكن "روز" أسرعت وأمسكت به من عنقه بأسنانها ووضعته بجوار إخوته فرغب بالمغادرة ثانية فعادت إليه وبأسنانها عضته برأسه فصرخ وظل ساكنا ، أسعدنى هذا وما للتربية من أصول.

نشاط الكلاب

اليوم التالى رغبت روز بمغادرة المكان للبحث عن غذاء لها ولعائلتها ، كنت غير مستريح لتلك الصداقة الشديدة التى ربطت بينها وبين الكلب الجديد ، أظهرت احتجاجى واعترضت طريقها حيث كنت أخشى تعرضها لأي مكروه ، أخيرا رضخت لرجائها وتركتها تتحرك بصحبة هذا الصديق الذى كان يتجاهلنى وكاننى لست ربا لتلك الأسرة وعليه الخروج والدخول كما يترانى له ، أقنعت نفسى بتجاهلهم وتركتهم فمن المحتمل أن تكون قد جمعت بينهم قرابة أو ما شابه ذلك ويرغبان بالانفراد ببعضهما بعيدا عن هذا المتطفل عابد.

تحركت مغادرا الكهف وظللت سائرا فى ظلمة الليل حتى وصلت إلى منطقة الحشائش وضربت برمحي بداخلها حتى أتجنب وجود أفاعى أو عقارب بداخلها ثم قطعت الكثير منها وعدت إلى العنزة التى أسعدها ذلك ، أقبلت تأكل بنهم وقد أضنانى الجوع فهى تنال طعامها والكلاب أيضا ولم يفكر بى أحد ، اقتربت منى العنزة وحركت فمها حتى أسفل بطنها وأمسكت بفمها إحدى حلماتها وحصلت منه على بعض اللبن ثم مامات ونظرت لى ، نظرت إليها محاولا معرفة ما ترغب ، أعادت حركتها مرة ثانية ثم اتجهت إلى الحشائش لتتناول وجبتها ، تفهمت قصدها فقد رغبت بأن تخبرنى بأن طعامك عندى بهذا الصرع.

أسرعت وأحضرت الطاسة التى كانت بها بقايا لبن وقبله السمك والماء وأصبح لا لون لها ، إقتربت منها ونطحت برأسى ضرعها مثل ما يفعل صغارها ويبدو أن نطحتى كانت شديدة فاحتجت وناولتنى نطحة من رأسها كادت قرونها أن تحدث بى عاهة ، أمسكت برأسى وشعرت بأن بعض الدماء تسيل منه ، أعدت المحاولة بيدي فنظرت إلى وبفمها العشب ثم أكملت عملية الحلب مثل ما فعلت الفتاة أول أمس ، أسعدنى نزول اللبن من ضرعها علي هيئة رحات رفيعة شديدة الاندفاع ، تماديت فى هذا فنظرت إليّ ومأملت بما يعنى كفاية وخليك قانع لأن أولادي في احتياج له ، نفذت رغبتها وشكرتها ببعض لمسات على ظهرها ثم تواريت بأحد الأجناب أمتع نفسى بهذا الطعام الرائع حلو المذاق والذى تبقى البعض منه فوضعتة جانبا وقمت بتغطية الإناء بكراسة البلوك نوت.

مضى أكثر من نصف الليل ولم تعد "روز" وصديقها فخشيت أن تهرب معه وتترك لى الأطفال كما يحدث في بعض الأحوال عند بعض الناس ، سمعت صراخ الصغار فقد أضناهم الجوع بل تحرك بعضهم يتحسسون طريقهم فاقتربوا منى بل أن بعضهم دخل أسفل الجباب يعبث بما أسفله وخشيت على نفسى فأخرجتهم من هذا الجحر ووضعتهم بداخل حجرى ، سكنوا لبعض الوقت ومن حين لآخر أسمع بعض صراخ خافت الصوت ، كنت أشعر بألم شديد على حالهم ورغم تفكيرى في كيفية مساعدتهم إلا إننى لم أتنبه أو أتذكر بأن الكثير من اللبن موجود بالطاسة.

تنبهت من نومى قبيل الفجر فلم أجد الكلاب الصغيرة التى تركت حجرى ولم أشاهد "روز" وصديقها واعتقدت بأنهم خرجوا خارج الكهف وسوف يضلون

الطريق أو تفترسهم النسور الجبلية الخطيرة ، لكن للدهشة أنني شاهدت الكلاب الصغيرة تنام بجوار "العنزة" وهم يمتصون اللبن منها بينما أبناء العنزة ينامان خلف ظهرها ، اقتربت أكثر فشاهدت الأفواه تتحرك بعملية المص ونظرت إلى العنزة وشاهدت الراحة على وجهها الطيب ، نظرت للجهة الأخرى وخرجت من عيني بعض الدموع الحارقة والغزيرة لقدرة الله الرحيم الذي لولا رحمته لمات الكثير من الأحياء على وجه الأرض ، عدت لأمتع نظري بهذا المنظر الخلاب الذي يعجز أي إنسان عن وصفه ، هدأت الكلاب الصغيرة فنهضت الماعز واتجهت إلى العشب تحصل على طعامها لكي ينتج معملها المزيد من الطعام لبنى الحيوان والإنسان على السواء.

غادرت الكهف وجمعت الكثير من الحشائش وقد غطاها الندى الرطب فساعد هذا على أن تحصل العنزة على الماء مع طعامها كان الطبيعة رغبت في مساعدتها ، عادت العنزة ووقفت أمامي وصغارها أسفل منها ترضعهم بعد أن وهبتني الطعام ثم وهبته لصغار "روز" أيضا ، بعد الظهر نامت العنزة وأسرع صغار روز إليها طالبين الحماية والأمان فلم يضربهم الجوع بعد لكنهم كانوا في احتياج لأهمهم وشعروا بأن هذا الكائن أهمهم لأنهم لا يبصرون بعد وحاسة الشم لديهم مازالت ضعيفة.

قبيل الغروب أقبلت روز وصديقهما وتبين لي أنهما قابلا صعابا كثيرة ، كان هذا باديا من أصوات المحركات خارج الكهف وأزيز الطائرات ، كنت أشاهد ضرع روز متضخما ، توجهت لأطفالها بحضن العنزة وقامت بلعق كل واحد منهم عدة لعقات ثم تركتهم وعادت لتنام بعيدا بينما قام الكلب بالوقوف أمام باب الكهف ، أشرت إليه فأقبل علي يهز ذيله فداعبته راغبا بأن يقدم لي بعض

الاحترام وقد فعلها ببعض لعقات بسيطة ثم توجه إلى عمله كمراقب للموقف بالخارج.

استمر هذا حالنا لفترة طويلة واعتقد أنها تعدت الشهور الثلاثة أي أننا أصبحنا بشهر يونيو أو يوليو بالتقريب ، وهذا نابغ من مشاهدة نمو الماعز والكلاب ، أصبحت الوحيد الذى يستفيد من لبن الماعز ، لقد أصبحت مثلهم ولم اسمع بداخل الكهف سبائا أو عتابا فالجميع أبكم.

كنت من حين لآخر أتوجه لبركة الماء أحمل الكثير منه لأفراد العائلة وبعد أن نمت العائلة أصبحوا يرافقونني سيرا حتى البركة للشرب وتناول الطعام الذى يرغبه كلٌ منهم حيث كنا نعود وقد امتلأت البطون وشرب الجميع وأصبح الجو أمامي خاليا للتمتع بلبن العنزة التى كانت تعطيه لى بكل صدر رحب ونفس هادئة.

شعرت ببعض الهرش والحكة بصدري وأسفل إبطى وبين ساقى ثم وصل إلي رأسى وكان هذا واضحا بالكلاب التى كانت تحك جسدها بعنف بجدار الكهف ، تأكد لى بأن القمل انتشر بيننا وما له من عواقب على الصحة والراحة البدنية ، حين توجهت إلي البئر تفحصت عبوة الوقود الموجودة ، كان هناك برميل من السولار مغطى ببعض الصخور وبرميل آخر من البنزين ، أزلت الحجارة والطوب من أعلي برميل السولار وبصعوبة إستطعت فتح الطبقة التى تغطي فتحة البرميل من أثر الصدا ، استقبلتني رائحة السولار المميزة ، توجهت للسيارة الخردة وعبئت بمحتوياتها وأتيت بخرطوم البنزين الذى كان جافا متماسكا فأخذته وبنفس لينة استخدمته لأن أية محاولة لإصلاحه وفرده سوف يُقطع وينقسم إلي أجزاء ووضعته بالبرميل ، بخوذة من المتواجدة حولى سحبت

بعض السولار من البرميل مستخدما فمي وأعدت دفعه بالخوذة حتي امتلا نصفها ، أغلقت البرميل وجلست قريبا من السيارة الخردة ووضعت يدي بداخل الخوذة فابتلت بالسولار ، كنت أمشط بأصابع يدي شعر رأسي ، ظلت علي هذا الحال حتي ابتل شعر رأسي كأنني قمت علي غسله ، كنت أشعر خلال هذا بأن حشرة القمل تتحرك سريعا محاولة الهرب من رأسي ولكن السولار قضى عليها وشعرت ببعض الراحة ، نفذت ما قمت به أسفل إبطني وبين ساقبي وبشعر صدري ، كنت مبتلا بالسولار ، كانت " روز " من حين لآخر تقبل جهتي محتجة علي تصرفي هذا رغم أنها وأطفالها وصديقها يتألمون من حشرة القمل الرهيبة والتي شاهدت حجمها فوصل إلي حجم حشرة البق أي أضعاف المعدل العادي ، بصعوبة نفذت خطتي علي روز وصديقها والصغار أما العنزة وصغارها فلم يصبها ما أصابنا وكان هذا باديا علينا فقط باستثنائها وصغارها وتبين أن الكائنات من أكلة اللحوم تصبح عرضة أكثر لتلك الحشرة.

شاهدت مرآة السيارة القديمة وأزلت عنها الأتربة ونظرت بها فشاهدت نفسى مثل الإنسان البدائي حيث الشعر الطويل الأشعث الأغبر ولحيتي القذرة الطويلة ولن يستطيع أى كائن من كان أن يتعرف عليّ ، قضيت يوما ممتعا مع أسرتي تلك وقبل أن أعادر المكان قمت بملء الخوذة عدة مرات بالمياه وصببت على الكلاب ثم على بدني حتي أقلل من رائحة السولار النفاذة ثم عدت بصحبة العائلة إلى الكهف لنواصل حياتنا وقد قارب شهر أغسطس على الانتهاء.

'كنت من حين لآخر أفكر ، لماذا أنا جالس القرفصاء مع تلك الحيوانات ولم أفعل أى شئ يفيد جيشى ووطنى؟ هل يجب عليّ انتظار التعليمات؟ هل القتال والعمل يحتاج أوامر وتعليمات؟ لا بد لى من التصرف ويجب عليّ أن أتحرك

وأغادر هذا الكهف في أى اتجاه آخر غير عين الماء.

صباح اليوم التالي عاد إلي سمعي أصوات الماعز والأغنام وظهور البننتين الجميلتين أبناء عمومة "سليم" رحبت بهما وقدمتا لي الاعتذار بسبب تواجد الجيش الإسرائيلي الذى قلب المكان بحثا عن قوات كوماندرز مصرية دمرت موقعا لهم وقتلت مالا يقل عن اثنين وعشرين غير أربعين جريحا لقد ظلوا يحاصرون المكان طوال الأربعة أشهر الماضية ولم يعثروا علي أحد ومازالوا في حالة من الضيق والتوتر.

قدمت الفتيات لي الطعام وتساءلت عن تلك الرائحة فكتبت لهما ما أصابنا فوعدتني كاملة بأنها سوف تحضر ماكينة حلاقة الشعر لتهدب بها شعر رأسي ويمكن أن تمنحني موسى حلاقة أطلق بها نقني مما أسعدني كثيرا وكتبت لها بأنني راغب بصابونة فهزت رأسها بالموافقة ، غادرتا المكان بعد أن تركتا الطعام والمشرب ، حسب وعدهما حضرنا صباح اليوم التالي وقامت كاملة بحلاقة شعر رأسي "زبرو" فشعرت بأنني أقل وزنا وأن الهواء يمر من علي رأسي بل أنها أخبرتني بأن حشرة القمل تركت برأسي حفرا طويلة وعميقة كان أحدا قام بها مستخدما آلة حادة وأصابني بها ولكنها أكدت لي أن القمل مات وهي تشاهده بين الشعر ، أشرت لها برأسي علامة الشكر ثم قامت بقص شعر لحييتي ثم نظرت إليّ معقنة:

- زين والله ومليح يا عابد وهذا ما هو جولي ولكنه جول سلمي !! التي أصابها الخجل والكسوف ، تركت الفتاتان بعضا من المون وقالتا أن "سليم" مازال غير قادر علي السير 'معتددا' علي قدميه وانه في تحسن مستمر ويطلب منك زيارته حيث إنه غير قادر علي الحضور ، قدمت شكرى بالحركة والإشارة وغادرتا

المكان بعد أن تركت الصابونة ولفافة غير لفاقة الطعام.

حملت الصابونة ورغبت بالتوجه لعين المياه لأحصل علي حمام منذ خمسة أشهر وترددت ثم فتحت اللفافة الأخرى وقد أدهشني ما تحويه حيث أحضرت ملابس داخلية وخارجية رجالي وفوطة وجه بالإضافة إلي قطعة الصابون ، رفعت رأس ويدي لله أدعو لها ولشقيقتها ما تقومان به من أجلي ، أسرعت الخطي جهة البئر فلحقت بي أفراد العائلة من الكلاب والماعز وهناك عبيت من الماء مستخدما الخوذة وحصلت علي حمامي وأنا أصرخ فرحا مردداً " إبه إبه .. أأ .. أه .. أأأ .. أه .. أبا أباه" أنهيت حمامي وجففت جسدي وارتديت الملابس النظيفة الجديدة وقد تخلصت من شعر رأسي وطول لحيتي وقبلها بيومين تخلصت من حشرة القمل الضارة.

بدأت الحركة تنشط بالمنطقة وقد نمت الكلاب الصغيرة وتعدي عمرها الستة أشهر ، وهذا يعني أنها سوف تصبح معدة للإنجاب ومعنا هنا المعلم "قدورة" وهذا هو الاسم الذي أعجبني لكي أطلقه علي الكلب الضيف النكر ولكنه لم يعلم به لأنني لا أستطيع النطق به وأن قدورة سوف يباشر نشاطه في الإنجاب وأمامه أكثر من عروس صغيرة ولا يتقيد بقوانين الزواج ، بدأت حركتي في اتجاهات متعددة والتقيت ببعض البدو وتبادلنا السلام من علي بُعد خشية اكتشافهم لي بأنني أحرص واحتمال أن يكون العدو يعلم عني تلك الحقيقة ويبحث عني في كل مكان.

أهل الكهف

منذ حوالي أسبوعين و "قدورة" مستمر في مغادرة الكهف دون إذن مني ثم يعود بعد عدة ساعات ، أشرت إلي روز بأن قدورة يلعب بديله خصوصا إنك من غير دليل! أجابتي بنباح يعني أنك يا عابد مش بتفهم حاجه! حتي الكلاب تعتبرني أغبي منهم رغم أنني أجزم بأن تلك الحيوانات تتمتع بذكاء يفوق بني الإنسان لكن هذا لا يعني بأنني غبي خاصة أنني أصبحت منهم وأبكم مثلهم.

مازلت "كاملة وسلمي" تحضران يوميا تحملان لنا الطعام والشراب والمؤانسة التي كنت أفتقدها لفترة طويلة تجاوزت الستة أشهر ، كنت ألاحظ وذا كما بنا بقلب "سلمي" مما دفع بشقيقتها "كاملة" لأن تبتمس وهي تنظر إلي بطرف عينها كأنها تدفعني للتجاوب مع شقيقتها ، كنت سعيداً بتلك المشاعر ولكن حالة البكم لم تجعلني قادراً علي التواصل والاندماج حيث كنت أبتمس وأحرك يدي ورأسي فليس لي أدوات للتعبير غير هذا مع الجملة الشهيرة التي كنت أتحدث بها والتي لم أفهم معناها حتي الآن.

هذا يوم عادي في حياتي الرتيبة الهادئة ولم يحدث عليها أي تغير يُذكر فلقد تحطمت آمال الإسرائيليين بعد تدمير قاعدتهم الصاروخية وعلمت من حديث كاملة بأنهم رفضوا إعادة بناء القاعدة مرة أخرى مسترشدين بما أنزل علي نبيهم موسي بكتابهم المقدس بأنه في تلك المنطقة عاش موسي مع أهله ولهذا غضب الله عليهم بأن أرسل بعض المصريين ودمروا تلك القاعدة مثل ما حاولوا تدمير موسي ولهذا فلن يقوموا بإعادة البناء مرة ثانية ولديهم الطائرات القادرة علي الوصول لكل حي ومنزل وعشة بمصر.

نهض "قدورة" وأقبل عليّ لاعتقا وجهي بحب زائد علي غير العادة رغم أنه بالأمس عاد حزينا مهموماً وبث حزنه إلي "روز" التي اقتربت منه نابحة بصوت خفيض ، لقد كان الحزن والألم واضحين علي ملامح "قدورة" وقد أدهشني هذا خاصة حالة عينيه والتي لم تكن مفتوحة بحجمها الطبيعي فقد أغلق منتصفها ونام أرضا بوضع أبي الهول فاردا أرجله للأمام والأرجل الخلفية أسفل جسده ووضع مقدمة فمه بالرمال وهذا دليل علي حزن ألم به ولم أستطع أن أفهم ما يعانیه بل أنه رفض تناول الطعام واعتقدت أنه سطا علي بعض القوم وأكل دجاجة وعاد ثانية بهذا المنظر ومن المحتمل أنهم شاهدوه ولقوه درسا شديدا وانضرب علقة محترمة.

مازال قدورة يهيمهم عبارات وإشارات غير مفيومة ووقف أمام باب الكهف يحرك ذيله في كل اتجاه وينظر إليّ مما دفع بـ "روز" للاقتراب مني ونبحت عدة نبحات تحذيرية أي بما يعني أفهم أيها الغبي ورافق "قدورة" فليديه بعض المعلومات التي تفيدك ، تبعت "قدورة" الذي كان يسير بخطي ثابتة محركا ذيله من حين لآخر ناظرا إليّ كل فترة قصيرة ليتأكد أنني ما زلت أتبعه ، مضت أكثر من ساعة كنا نتسلق خلالها مرتفعات ونهبط منخفضات حتي كاد الإعياء يصيبني وحرارة شهر سبتمبر الشديدة ألهمت جسدي ، شاهدت قدورة يتوقف أمام مدخل كهف مظلم وبأعلاه من الخارج شاهدت خلايا نحل العسل الجبلي بكميات كثيرة بل كنت ألاحظ الخلايا الشمعية ذات الحجم الكبير.

نظر إليّ "قدورة" بما يعني أتبعني فتبعته إلي الداخل وبعد عدة خطوات لمحت طيوراً صغيرة تطير قادمة من الداخل إلي الخارج وقد تبينتها وعلمت أنه "طائر الخفاش" وقد اضطربت في بادئ الأمر ، كان الظلام يعم المكان

وسمعت نباحًا حزينًا لقدورة ، تنبّهت إلي أنني احمل علبة كبريت وعلبة سجائر بجيب الجلباب التي أحضرته الفتيات ولم أدخن رغم حبي للتدخين ، أخرجت علبة الكبريت وسيجارة وأشعلت عودا من الثقاب ثم أشعلت السيجارة وأنا أنظر هكذا للأمام لأتابع إشعال السيجارة ، فوجئت بمنظر لن ولم أشاهده في حياتي من قبل مما دفعني للصرخ بصوت عال تردد صداه بداخل الكهف وهويت علي الأرض وشعرت بأن رأسي 'كسرت من شدة الصدمة ، أقبل عليّ "قدورة" محاولا إسعافي دون جدوي وبعد قليل شممت رائحة وسمعت صوتا لا تنساه أذناي ، أبصرت هكذا فشاهدت قليلا للتفجير مشتعلا من سقوط السيجارة فوقه مما دفع بقدورة لالتقاطه وجري بأقصى سرعة حاملا إياه إلي خارج الكهف ، تنبّهت لهذا محاولا الوقوف ولكني لم أستطع حيث باقى حبل التفجير التف حول إحدي ساقي وكان في نهايته العبوة المتفجرة والتي لا يقل وزنها عن خمسة كيلوجرامات من مادة "TNT" وهي مادة شديدة الانفجار ، أعانني الله بأن جذبت نهاية الفتيل من المفجر وسمعت بعدها بثوان صوت احتراق نهائى بصوت ينفس حرارته الشديدة ، هذا الصوت الذي يشبه صوت خروج هواء من خرطوم دفع الهواء حين يقوم العامل بدفعه بداخل كاوتش السيارة ، صرخت من شدة الموقف وقد ابتل جسدي من شدة الاضطراب لما ينتظرنى وبكيت كما لم أبك من قبل ولم أتحكم في أعصابي فحاولت النهوض مستعينا بالحائط ولم أستطع الوقوف فتحركت مستعينا بيدي وركبتي إلي خارج الكهف مثل الماعز والكلاب ، كنت خلالها لا أشاهد ضوء النهار دون وضوح حيث كانت دموعي شديدة وأعصابي منهارة وشاهدت "قدورة" يقف أمام مدخل الكهف فأقبل عليّ يبثني ألمه مثل ما كانت تفعل "روز" وكأنه إنسان يبكي ، لم أستطع أن أطيب

من خاطره فقد كان هو الآخر يشكو ألما ، جلست أرضا ومسحت عيوني بطرف جلبابي فوضحت لي الرؤيا وشاهدت الكلب يقترب مني ويعرض عليّ فمه المحترق من محاولته الناجحه لإنقاذي أو قل إنقاذ من بداخل الكهف.

قبلت قدورة وطيبت من خاطره ولم يستطع أن يلحق وجهي من الآلام التي كان يعاني منها ، نهضت وسرت بجانبه ولكنه رفع قدميه الأماميتين ورتب بطرف أقدامه التي بها المخالب علي وجهي مما ساعدني علي الهدوء وشاهدته يسرع ويختبئ أسفل صخرة علي مسافة مائة متر تقريبا أسرعت خلفه وبعد أن جلست التقط أنفاسي شاهدت عددا من الجنود الإسرائيليين يرافقهم أحد البدو والذي يعمل لديهم دليلاً وتحدث معلقاً:

- هادي آخر كهف بهادي المنطجة.

طلبوا منه الابتعاد لأنهم سوف يقتحمون الكهف ، أشاهد الجنود يتوجهون لفتحة الكهف التي تسع دخول سيارة صغيرة ولكن المفاجأة غير المتوقعة انتشار كاسح لأسراب النحل حتي خيل إليّ بأنني لم أعد أشاهد مدخل الكهف ، اضطرب الإسرائيليون وأسرعوا يهرولون في الاتجاه المعاكس وبرفتهم البدوي حتي ابتعدوا عن الكهف وتجنبوا لسعات النحل ، بعد قليل عاد النحل إلي الخلايا ليكمل عمله وقد أدهشني هذا فقد دخلت هذا الكهف منذ دقائق في وجود النحل ولم يحدث لي أي شيء إذا ما الذي أهاج النحل.

تذكرت الآية القرآنية .. قال الله تعالى " وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ... صدق الله العظيم

أعود لأتذكر ما الذي حدث لي منذ ساعة بداخل الكهف ، مجرد أن أشعلت السيجارة بداخله شاهدت هياكل عظمية بشرية لعشرة من جنود الصاعقة ينامون

بجوار بعضهم البعض في صورة منتظمة ، كما كانت العبوة الناسفة والتي قام قدورة ببطولة فائقة بنزع فتيل التفجير منها معدة للتفجير بالإشعال إذا هاجمهم الأعداء لكن الموت كان أقرب إليهم من وصول الأعداء ، كادت تلك العبوة أن تؤدي إلي هلاك الجميع بسبب سقوط السيجارة المشتعلة التي رغبت بتدخينها ولكن الله لطف بنا نحن البكم.

أشرت إلي قدورة بان نعود إلي روز وقبل أن نصل إلي الكهف الذي نعيش به اتجهت إلي عين الماء لأقوم بنظافتي الشخصية بعد ما ألم بي ، لقد تأكد لي أن هذا الكلب الوفي كان يقوم كل يوم بالبحث عن من رافقهم في عملية تدمير القاعدة حتي عثر عليهم ، احترمت نكاء ووفاء تلك الحيوانات ومازلت أشاهد صمت الكلب متأثرا بما لحق به من حريق أصاب فمه وحرق بعض الشعيرات التي تحيط به.

وصلت إلي عين الماء وتحللت من ملابسي واستخدمت الخوذة وقمت علي ملئها وصيبت الماء علي بدني كي أتخلص من الأوساخ التي علفت بي بعد سقوطي بداخل الكهف والعرق الغزير الذي نتج من خوفي لما شاهدته ، أسعدني ما أقوم به وطراً علي بالي أغنية المطربة ليلي مراد "باحب اتنين سوا يا هنايا في حبيهم الميه والهوا طول عمري جنبهم" كنت أسمع الألحان بأذني ولكن المدهش أنني سمعت صوتي مما أثار فضولي معتقداً بأن أحداً قريباً مني يغني معي مما دفعني للصمت فلم أعد أسمع أصواتاً ، بدأت الغناء مرة ثانية فسمعت صوتي صمت لم يعد هناك صوت ، تنبّهت إلي أن شخصاً قريباً مني محاولاً قراءة حركات فمي ويغني بدلا مني ، جاء بخاطري أن أنفوه بشيء لا يعلمه أحد غيري ، تحدثت قائلاً:

- حبيبتي رقية ، بعدها صرخت فلقد سمعت صوتي ، أعيدها ثانية فأسمع صوتي وأنا أنادي علي روز ، صرخت بأعلي صوت قائلا " أنا باكلم ... هيه ... باكلم والله باكلم معنتش أخرس ، الله معنتش أخرس ، الله أكبر " جثوت علي ركبتي راغبا بالصلاة فتنبهت إلي أنني عار دون ملابس ولا يجب علي أن أف أمام الخالق علي هذا الوضع.

أسرعت وأنهيت حمامي وغسلت ملابسني وارتيبتها مبتلة ووقفت في اتجاه القبلة بالتقريب والذي كنت أعلم اتجاهها من أمام الكهف منذ وصولي إلي جنوب سيناء ، قمت بتأدية صلاة خاشعة كثرت خلالها الأدعية وهي صلاة جهر وليست صامتة رغم أن التوقيت كان بعد الظهر بقليل ولكني رغبت بأن يسمعي الله وكلي أتأكد أنني أتكلم ، أنهيت الصلاة وهي صلاة شكر ثم تبعها بصلاة الظهر وأثناء ذلك كان الكلب يقف أمامي ينظر إليّ بدهشة وهذا كان باديا عليه من نظراته الحائرة وكان يحرك رأسه بميل لأحد الأجناب ثم يحركه للجانب الآخر وكأنه يقول لي ماذا تفعل يا بني الإنسان.

'عدت إلي الكهف أحسن حالا ومجرد أن دخلته رفعت صوتي لأبشر أسرتي قائلا عابد بيتكلم " هيه .. الأرض بتتكلم عربي وعابد بيتكلم .. هيه " تركت روز أطفالها وأقبلت عليّ وقفزت فوقني وهي تلعق وجهي وتبعها صغارها والجميع يقبلني فلقد شعروا بتغير حدث علي شخصي كما نهضت الماعز تسمعي صوت الأمامة الجميل :انها تخبرني بانها تتحدث هي الأخرى ، جلست أرضا تحيط بي أسرتي أحدثهم لأول مرة بحديث صريح واضح عما شاهدته برفقة "قدورة" الذي كان يحتج في بعض الأحوال خاصة حينما أشرت إلي إصابته فنهضت "روز" وكافأته بلعق جسده مما دفع بأبنائها ليقفزوا ويهزوا

ذبولهم.

شاهدت مائدة الطعام التي أحضرتها الفتيات أثناء رحلتي مع "قدورة" ولم يقربها أحد ، ففتحها وقد اجتمعت الأسرة من حولي ، أخذت أول قطعة لحم ووضعتها في فم "قدورة" وشعرت بأنه غير قادر علي تناولها ولهذا تركت باقي الأسرة تتناول طعامها وتوجهت إلي المعزة وقمت بعمل كل الإجراءات حتي تسمح لي بالحصول علي حليبها الميمون ، حصلت عليه بداخل الطاسة ووضعته أمام "قدورة" فاقرب منه ثم تناوله بسعادة فأقبل علي سعيدا محاولا علق وجهي ولكنه تذكر أنه مصاب فرفع قدميه الأماميتين للأمام وقربهما من بعضهما البعض كأنه يقدم لي تحيته فأسرعت أهدده عليه.

نامت الأسرة قريرة العين في تلك الليلة ولكنني تنبّهت منتصف الليل بأنني شاهدت رؤيا جميلة بأنني أتكلم ، جلست سعيدا لتلك البشري محدثا نفسي قائلا "والله يا عابد لو حصلت الحكاية صمت وسكت فقد سمعت صوتي ، كدت أصرخ وتنبّهت أنه من المحتمل أن يقبل علي الأعداء حينما يصل صوتي إليهم وتضيع مني الفرحة ، لم أستطع النوم وأنا أتذكر الشهور السبعة الماضية التي قضيتها أبكم بسبب تعدي بعض المجرمين علي شخصي رغم أنهم حصلوا علي عقوبات رادعة ولكن ما نذب الضحايا ، لقد راودني شعور بأنني خرجت من قبري الذي ظلت به تلك الفترة ، إن الأخرس والأبكم إنسان بانس فلقد جربت تلك الحالة.

ظلت أستعيد ما شاهدته بالأمس وقررت أن أتماسك وأن أعود لزيارة من شاهدتهم على أن يرافقتي كل من "قدورة .. و .. روز" لقد شعرت أن هذا المكان به آية مثلما كنا نسمع عن بعض أصحاب الكرامات ، أتساءل كيف أشاهد عددا

من الهياكل العظمية؟ لا أستطيع استيعاب ما شاهدت فهو شيء صعب للغاية على العقل البشري.

اليوم التالي نهضت من نومي منشرح الصدر وجلست أتحدث مع أسرتي بحديث لا فائدة منه ولكن لغرض التأكد من سماع صوتي وأنني أصبحت سليما معافى ، أسرعت إلي المكان الذي خبات به جهاز الإرسال بغرض إرسال رسالة بأنني بخير ولكن الطاقة بالبطارية فرغت وانتهت ، كنت راغبا بمشاهدة أي إنسان حتي يؤكد لي بأنه يسمعي وأنني أتكلم فلا يؤكد هذا سواي وكيف هذا ، لا أجد أحدا يسير بالقرب مني ، جلست مع أسرتي أتناول الطعام وشعرت بأن "قدورة" أحسن حالا عن أمس ومازالت "روز" تتحرك بدلال أمامه بينما كان مشغول البال بما شاهده والذي حدث له ولزملائه أبطال الصاعقة ، أقبل وفد الحسان وقمن علي تحيتي فرددت عليهن التحية ، إحداهن صرخت فرحاً والأخري ظلت صامئة غير مُصدقة ما تسمعه وتشاهده ، تنبّهت الفتاة وقدمت لي تحيتها بحرارة شديدة كادت معها أن تحضنني ، أسعدني أن إثنين أكدتا لي بأنني أصبحت سليما معافى.

طال الحديث فأصبح هناك تجاوب وحوار ، حاولت الفتاتان أن أخبرهما بالسر الذي أدي لأن أعود للكلام ثانية ، أخبرتهما بأن هذا من عند الله ، تأكد لي بأن سلمي تنظر إلي نظرات باسمة حاملة ، لقد كانت الفتاة تتمتع بجمال طبيعي مشابه لما تتمتع به "رقية أبو السعادات" ولكن سلمي كانت أكبر منها عمرا بحوالي العامين ثم تنبّهت بأن عمر "رقية" الآن مساو لعمر سلمي ، كانت "كاملة" تجلس وتستمع لحديثنا باسمة سعيدة فرحة بأن شقيقتها الصغري أصابها سهم الحب من فوق جبل كاترين ، كررت "كاملة" رغبة "سليم" وأسرتهما بأن

أقوم علي زيارتهم ؛ حين شاهدت كاملة العنزة تذكرتها علي الفور وأكدت أنها من القطيع وضاعت منها واعتقدت بأن ذنبا أو ضبعا افترسها فأخبرتها بما قامت به من تزويدي بالحليب المنعش لذيد الطعم فايدت كل منهن ما قلته ، وعدتهما بأن أقوم علي زياة القبيلة بعد غد ولا داعي للحضور غدا لإحضار طعام حيث مازال الطعام متوفرا ، أشارت كاملة بأنه من الممكن أن يقوم أحد الكلاب بمرافقتهم إلي القبيلة ويعود ليرافقتني بعد غد وتأكدت من حسن الفكرة كما نبهتني كاملة بأن أعود بالماعر الثلاث لأنهن في حالة من الاستعداد للحمل ، وافقتها الرأي وبأنني سوف أصطحب الماعز مع الكلب وأشرت إلي "قدورة" بمرافقة الفتيات فاصغى لحديثي وسار برفقتهم والقطيع علي أن يعود بعد أن يعلم طريق الوصول إلي القبيلة والذي تبين لي فيما بعد بأنه لا يبعد عن هذا المكان بأكثر من خمسة كيلومترات يتم قطعها في ساعة واحدة.

عاد "قدورة" بعد أن هبط الليل بظلامه وجلس مجاورا لي كأنه يخبرني بأننا رجال ويجب أن نكون بجوار بعض دائما ، 'كنت سعيدا' بهذا الكلب الذي تأكد لي أنه لا يقل نكاءً عن "روز" وأنه قد قام بعمل مهم مع شهداء الصاعقة والذي شاهدت بقايا أجسادهم الشريفة ، أوينا إلي مضاجعنا أرضا فوق الصخور وأصبحت مثل أسرتي من النوم أرضا دون غطاء لا تحجب عني خشونة حصي الأرض أو تحميني من برودة الليل.

كشف الحقيقة

صباح اليوم التالي وبعد أن تناولنا طعام الإفطار تحركت بصحبة "قدورة" إلي الكهف وحين اقتربنا شاهدت العديد من سيارات الجيش الإسرائيلي تعالين

المكان وتقوم بالتحقيق حول أسباب مهاجمة أسراب النحل للدورية ، ظللت
مختبئاً لفترة ليست بالطويلة ثم أسرعت السيارات تغادر المكان وأعتقد بأنهم
وضعوا لافتة تمنع رجالها من التحرك بتلك المنطقة تجنباً لأضرار النحل.

أسرعت بالدخول إلي داخل الكهف دون اعتراض من أسراب النحل وتأكد لي
أن هذا من عند الله فلقد أصبح النحل حارساً علي شهداء الصاعقة يمنع أي كائن
ضار بهم ، أشعلت عود ثقاب بيد مرتجفة وتقدمت إلي نهاية الكهف وظللت
واقفاً ولم أشعر بنهاية العود الذي احترق فأصاب أطراف أصابعي فتنبهت
وعدت بإشعال عود آخر وبحثت عن شيء أقوم بإشعاله حتي عثرت علي شمعة
كبيرة الحجم ، قربت منها عود الثقاب فأضأت الكهف ، لم تكن إضاءة شمعة
ولكنها إضاءة روحانية إلهية حيث كان الضوء يعم المكان سواء قريبا من
الشمعة أو حتي نهاية الكهف والمدخل ، لقد كان الضوء مشابها لضوء الشمس
في الصباح الباكر فتشاهد ضوءاً دون مشاهدة مصدره.

جلست علي ركبتي خاشعاً أشاهد هذا المنظر الملانكي الرهيب الذي يجمع
بين الخوف والرغبة وبين التقديس والإحترام ، إختلط علي الأمران ، قرأت ما
تيسر من بعض آيات الذكر الحكيم وبعض من سور "جزء عم" وأنا مازلت
مسلطاً نظري علي هؤلاء الشباب وأعتقد بأن أعمارهم صغيرة ولا يزيد عمر
أحدهم عن عمري فلم يتعد أكبرهم عمراً عن الثلاثين عاماً ، أنهيت تلاوتي
الخاشعة المترددة ، اقتربت أنفحص الهياكل ،

كان الرجال العشرة ينامون صفًا واحدًا وكل فرد مجاور للآخر ولا يفصل
بين كل واحد والمجاور له سوي شبر مسافة "٢٠سم" وتبين لي بأنهم جميعاً
رتبوا هذا الوضع بحيث تكون الأجساد مواجهة للقبلة وهم في وضع النوم علي

الجانب الأيمن وقد وصلوا لتلك الحقيقة باستخدام البوصلة والذي شاهدت اثنتين منها ، كان الرجال علي هيئة واحدة ، هياكل عظمية وكل واحد ينام على جانبه الأيمن محتضنا سلاحه وممسكا به بكلتا يديه.

الأفرولات المموهة والسلاح الشخصي مرتب بحيث كل شخص أعد العدة بأن يستقبل شخصية عظيمة فقد علموا النهاية والتي يتمناها كل إنسان حين يتوجهه للحرب إسوة بالصحابة الأجلء ، ظلمت أنظر إلي تلك الهياكل وأفكر: هل أصبحتم الآن في جنة الخلد ولم يتبق منكم سوي تلك الذكري حتي إذا شاهدها نفر من الناس أكد للجميع بأن الله قال قول الحق في آياته حيث قال الله سبحانه وتعالى:

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)
فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) .. صدق الله العظيم .. سورة آل عمران.

أديت صلاة بعدد من الركعات علي أرواح الشهداء مساو لعددهم وتوجهت بالدعاء لهم وما دعائي يساوي شيئا بما وعدهم الله به ، عدت أدقق النظر فلا أعلم من هذا أو ذاك فجميعهم شكل واحد وهيئة واحدة ورغم أنهم هياكل عظمية فقد تلاشي مني الخوف الذي داهمني بالأمس وفك لساني وعقنتي وجعلني أنطق بقدرة الله وكما قال رئيس قسم الأمراض العصبية إنني أحتاج لصدمة عصبية شديدة تصحح ما نتج من الصدمة الأولى ، لقد حققها الله لي بتلك الصورة الجميلة التي أشاهدها.

أتحدث إليهم : لقد نلت كل تقدير بالدنيا والآخرة لكن الآخرة أبقي وأعظم وقد

ينساكم من بالدنيا خاصة من المسئولين ولكن الله لا ينسي عباده ولا ينسي وعده "فقد صدق وعده" وما هو عليه الحال الآن؟ هل سوف أصل إلي رتبتم بالآخرة؟ لن يحدث هذا وسوف أموت ويهال علي التراب مثل الملايين السابقين واللاحقين ولكنكم معشر الأبطال تدفنون بملابسكم ولا تغسلوا كي تلاقوا الله يوم القيامة بدمائكم وإصابتكم ، هنيئا لكم.

مازلت أحاور الشهداء متسائلا بأسئلة كثيرة يغلب عليها الكفر والإلحاد ، احتج قدره علي تصرفي هذا فحاول منعي بأن وضع إحدي أرجله الأمامية علي يدي لم أهتم به وحين رغبت برقع رأس أحد الشهداء التفت أسنان قدورة علي معصمي وأصدر أصواتا تدل علي أنه سوف يقترسني ، تنبئت وتساءلت ما الذي أفعله؟ منذ دقائق كنت أسبح بحمد الله ونعمته وقدرته والآن أتصرف بتصرفات تدل علي عكس ذلك ، جلست أسفل أقدام الشهداء باكيا متحدثا:

- قوموا من نومكم وخليكم معايا ، أنا لوحدي هنا من تمن تشهر ، ح أجنن ، حد يقوم معايا عشان نونس بعض ونحاول نرجع مصر ونكمل شغلنا مع الجيش ، ليه مش بتردوا عليا؟ ليه .. ليه .. واندفعت بالبكاء وغادرت الكهف جالسا أمامه فشاهدت بعضا من أسراب النحل تحوم حولي ، حدثتها .. أستغفر الله .. أستغفر الله.

عادت أسراب النحل ثانية إلي الخلية ، شاهدت قدورة قادمة وفي فمه كتيب صغير ثم توقف أمامي وأسقط الكتيب علي ركبتي ولعق وجهي وجلس بجواري ، كانت عبارة عن نوته صغيرة في حجم كف الإنسان وكان باديا عليها تلونها بالدماء أو من آثار الديدان التي قامت بتحليل جثث الشهداء.

ترددت في قراءة النوتة ، قرأت اسم الله وحاولت القراءة ، كانت الصفحة

المواجهة لي تحمل رقم "٧" قلبت الصفحات حتي عثرت علي الصفحة الأولى
أقرأ ما كتبه الشهداء:

بسم الله الرحمن الرحيم " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ نُورِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ "

صدق الله العظيم.

اليوم الموافق التاسع عشر من شهر إبريل من هذا العام ١٩٦٩ صدر إلينا
الأمر بالتوجه إلي جبل كاترين وعلي بعد ٥٠٠ متر شرق نقطة الارتفاع رقم
١٣٢ لتدمير قاعدة الصواريخ والتي تحمل اسم "موردخاي جور" والعمل علي
إحضار أي رأس متفجرة لأحد الصواريخ بها ، لقد انتهى تدريبنا العنيف علي
مدي أسبوعين وها نحن ننطلق للتنفيذ والله الموفق.

مساء نفس اليوم ركبت المجموعة المكونة من تسعة رجال عظام وأنا
برفقتهم قاربًا متجهًا إلي ساحل سيناء الشرقي ، لقد وصلنا قبل الفجر بمعاونة
أحد الأدلاء الذي ساعدنا في الاختباء حتي جنوح الظلام وتحركت القوة وكان
برفقتنا أحد كلاب الحرب والذي تدرب معنا لتنفيذ تلك المهمة ، بعد أن سرنا
لمدة ثلاث ساعات وفي ليلة شديدة الظلام وصلنا إلي الهدف وقد تركنا المرافق
حسب الخطة ، الكلب المرافق يتبع مجموعة التفجير حيث كان يتأكد بعدم وجود
ألغام حتي وصلنا إلي القاعدة وقمنا ببث العبوات الناسفة والتي كان مسيطرا
عليها عن بُعد وهذا نوع جديد من المفجرات لم يتوفر لدي القوات المصرية من
قبل ، كنا مستعدين لنسف القاعدة والتي كانت مكتظة بالجنود والمعدات ويحيط
بها سياج من السلك الشائك وكشافات قوية مضيئة ورغم هذا تمت عملية بث

الألغام بسهولة ويسر نظرًا للتدريب العنيف والدقيق ، الآن يستعد الملازم أول مهندس خبير المفرقات بالتوجه لفك رأس التوجيه لأحد الصواريخ حتي نعود به للقيادة ، وهو المطلوب الثاني لكن المطلوب الأول كان نصف القاعدة ، سار الضابط خلف الكلب بمسافة ولم يكن يتحرك حتي يشاهد الكلب قد سار مسافة آمنة أمامه فكان يتبع طريق سيره بعد أن يتأكد بأن المكان أصبح آمنًا ولا تعوقه الألغام.

نجح خبير المفرقات المهندس ميشيل في مهمته وأقبل مسرعًا يحمل الرأس المتفجرة والتي زاد وزنها عن سبعة كيلوجرامات وقبل أن يصل إلينا هاجمته كلاب الحراسة الإسرائيلية ودفع هذا بطلنا "سحاب" والذي تميزه العلامة البيضاء بين عينيه " ، تركت القراءة ونظرت جهة الكلب فشاهدت العلامة التي تحدث عنها قائد المجموعة للتأكيد وشاهدتها وابتسمت قائلاً:

- يخرب عقلك يا سحاب ، اندفع يلحق وجهي ونبح بنباح السعادة والسرور ، الآن علمت اسم الكلب الغريب والذي كنت أطلق عليه بداخلي اسم قدورة وقد أسعده أن يسمع اسمه بعد عدة أشهر مضت" أعود لأكمل قراءة مذكرات النقيب مصطفى قائد المجموعة.

قلوب سحاب الكلاب الإسرائيلية واستطاع تسهيل عودة الضابط وهذه البطولة لكل من الكلب والضابط نفعتنا لسرعة نصف القاعدة بعد أن ظهر العديد من الجنود المدججين بالسلاح يطلقون علينا النار دون تحديد ، كان الانفجار رهيبًا حيث وضعنا عبوات شديدة الانفجار بكميات مضاعفة ، ارتجت الجبال واشتعلت السماء بضياء الانفجارات ومما زاد من قوتها تواجد كميات كبيرة من الصواريخ التي كانت بالقاعدة ، أشرت للرجال بسرعة الانسحاب إلي ثنايا الجبل للحماية

والاختفاء وطلبت من الرقيب فتحى أن يظل في وضع الدفاع لستر انسحاب الرجال ومن هو فتحى إنه أحد أبطال رجال الصاعقة في الرماية ، ظل فتحى يقاوم جنود الأعداء ويطلق نيران رشاشه عليهم بغزارة مما سهل علينا الانسحاب الآمن ، بعد أن عدلنا من وضعنا وحين بدأنا في فتح النيران علي جنود الأعداء أسرع الرقيب فتحى منسحباً حتي اقترب منا ، تخير مريضاً لنيران رشاشه وقام بفتح نيرانه علي الأعداء فأسرعنا نكمل انسحابنا وظل يقوم علي حمايتنا بنيران مدفعه الرشاش وبكفاءته المعهودة حتي وصلنا إلي ثنايا الجبل الأمامية وفتحنا نيران أسلحتنا حتي نستر انسحاب فتحى حتي اقترب منا ولكن الإسرائيليين كثفوا من قواتهم بحضور قوات محمولة جواً بالهليكوبتر من القاعدة القريبة وقامت الطائرات بإطلاق مدافعها الرشاشة علي المنطقة وظل فتحى ثابتاً في موقعه الأخير وشعرت بأنه أصيب حيث كنت أشاهد الانفجارات من حوله ثم سقط أرضاً وكان مازال يطلق نيرانه علي الأعداء .

بعد عشر دقائق عم الظلام المنطقة وركز العدو مجهوده في عملية الإنقاذ والإسعاف بعد أن شعر بأنه لا توجد مقاومة ، تحرك فتحى في الظلام وقام "سحاب" بمساعدته حتي وصل إلينا وحين شاهدته قادماً باتجاه الكهف ابتسم لنا قائلاً مبروك يا سيادة النقيب ، أسرعت إلي لقائه وأخذته بين ذراعي وساعدته حتي دخلنا إلي داخل الكهف بينما ظل رجلان من رجالي مع سحاب بالخارج للمراقبة ، طلب مني أن يشاهد الرأس المتفجرة فأحضرها له أحد الرجال وعلق قائلاً: والله إحنا رجاله بصحيح ، معانا جدعان من الشرجية والمنوفية والمنصورة وكمان أخويا نخلة جرجس الواد العترة وعلي رأسنا سيادة النقيب والباش مهندز ميشيل اللي فك الجلجلة الرهيبة دي .. يا بوي.

طلب منا أن نضعه في وضع النوم جهة القبلة لأنه شاعر أن مواعده مع الله قد أزف ، كانت الدماء تنزف من صدره وكتفه اليمنى بغزارة وتبين لي فيما بعد أن خمس رصاصات من النوع الثقيل اخترقت جسد هذا البطل ثم سمعت صوته وهو باسم الوجه حيث أضأت كشافا صغيرا فعلق قائلا:

- باجولكم إيه .. إنا لله وإنا إليه راجعون والشاطر فيكم يحصلني ، علت البسمة الوجوه بما فيها فتحي وحمد صوته وارتد نفسه مرة واحدة وأسلم الروح بيننا ، لم نبكه فنحن نعلم أننا ملاقون الله خاصة في تلك المهام التي بعمق قوات العدو ، تبادل الجميع القدوم إلي الجثمان وتقبيل جبينه والدعاء له.

جلست أستعيد الأسابيع القليلة الماضية يوم أن وقع علي وحتي الاختيار للقيام بتلك المهمة ، ورغم التدريب العنيف ووجود القادة الذين وفروا لنا كل شيء لضمان تحقيق المهمة ونجاحها إلا إنني كنت أخشى عدم دقة المعلومات عن تلك القاعدة وهذا من الممكن حدوثه في بعض الحالات ، حين اقتربت من القاعدة وجدت أن الصور والرسومات التي كنا نشاهدها وأعدت لها مجسمات بموقع التدريب كانت مشابهة طبق الأصل لما أشاهده منذ هبطنا علي ساحل خليج السويس الشرقي ونحن نتقدم أيضا متجهين إلي القاعدة حتي الجهات الأصلية ومسافة السير ونقطة الارتفاع بالخريطة والتي تؤكد لنا أننا قد وصلنا إلي جبل كاترين ، بل أن نقطة الارتفاع رقم ١٣٢ تقع خلفنا مباشرة بنصف كيلومتر ، بعد الانتهاء من تنفيذ المهمة كنت تواقا لهذا الضابط الهمام الذي يعمل مع قوات الاستطلاع خلف الخطوط المعادية وقررت بعد عودتي أن أبحث عنه وألقاه وأقبله وأقدم له التحية والتقدير مني ومن زملائي ضباط الصف والجنود فقد كان له النصيب الأوفر لنجاح مهمتنا والحمد لله.

صباح اليوم التالي ١٩٦٩/٤/٢١ قامت الطائرات القاذفة بدك الجبل بالقنابل وكنا نسمع أصوات الانفجارات تهز الجبال الضخمة ثم قذائف صاروخية بكل مكان وبعدها بيومين ملاً سفح الجبل القوات الخاصة تبحث عن منفذي تلك العملية ، لقد جن جنون الإسرائيليين حيث كانوا راغبين بالعثور علي من نفذ تلك العملية وكما يقول المثل "بيدي لا بيد دايان" !! سألت الرجال: سوف نبقي هنا ونقاتل لو حضرت أية قوة حتي نتهي الذخيرة ثم يعقبها قذف قنابل يدوية وبالنهاية نقوم بنسف أنفسنا بالكهف بباقي العبوات ولهذا طلبت من خبير المتفجرات أن يجهز جميع العبوات من حولنا وأفادني بأن المتفجرات عن بُعد ليست موجودة فأخبرني الجندي شوقي بأنه تركها بداخل العلبة عند أول الجبل بجوار شجرة الشوك لأنه لم يستطع التحرك ومعه كل تلك الأحمال ، طلبت منه أن نستخدم القنابل سريع الاشتعال والذي أتينا به لاستخدامه في حالة عطل المتفجرات الأوتوماتيك.

هذا هو اليوم الثالث الذي مضى علينا وهو مثل الأيام السابقة حيث كنا في حيرة فنحن راغبون في دفن فتحي والصخور بداخل الكهف من الصعب الحفر بداخلها ولذا فنحن نحتاج إلي إخراجهم من داخل الكهف ونهبط به إلي الوادي لدفنه بالرمال اللينة ، كان الملاحظ لنا بعد مضي الأيام الخمسة أن جثمان فتحي مازال نديا طريا لكن رائحة التحلل والعفن بدأت تظهر علي جسده.

في اليوم الرابع مات الجندي سعيد فقد مضى علينا أربعة أيام دون ماء ، اليوم الخامس شاهدت سحاب يحمل الزمزية في فمه وأسرع بها خارج الكهف وعاد بعد ساعتين ونصفها ممتلئ بالمياه ، قبلته قبل أن أحصل علي جرعة ماء وشرب الرجال وحمدنا الله ، اليوم السادس كرر سحاب بطولته وأصبح هذا هو

تصرف سحاب اليومي كما أن رائحة التحلل عمت الكهف وكانت في البداية لا تطاق ولكن الأنوف أزكمتها الرائحة وأصبحت كأنها شئ عادي لكن غير العادي هو منظر تحلل الجثث والذي كان يثير الخوف بداخل من بقي علي قيد الحياة ، قوات الكوماندز الإسرائيلية مازلت تحتل قمم الجبال وطائرات الهليكوبتر مازالت تحلق بالمنطقة فلقد تأكد لهم بأننا لم نغادر الجبل لأنهم احتلوا شاطئ الخليج ولم يعثروا علينا وبالتالي نحن محاصرون وكان تقديرهم صائبا ، بعد قليل شاهدت شعيب يعاني سكرات الموت حاولت أن أروي ظمأه ببعض قطرات من الماء متبقية ولكنه أسلم الروح فقرأت عليه الفاتحة وأغلقت جفنيه مثل باقي زملاء ، كنت أشاهد زملائي وهم يسقطون يوميا نظرا للحالة الصحية السيئة التي أصبنا عليها رغم ما يفعله لنا سحاب ، اليوم الأخير أشعر باقتراب نهايتي وانظر لمن مات سواء سعيد أو شعيب وبدأت تظهر عليهم علامات التحلل و عمت الرائحة الكريهة المكان.

اليوم الثاني عشر ، قمت أنا ضياء باستكمال ما كتبه قاندي النقيب مصطفى بعد أن لاقى ربه ، لم يتبق سواي وصبحي والضابط المهندس ميشيل عزيز الذي أشاهده وهو يحتضر ولم يعد يسمع بل امتنع عن شرب الماء ونخله الذي أشاهده يعاني سكرات الموت ، نهاية اليوم مات صبحي وفي الصباح لحقه حضرة الضابط الشجاع ميشيل ، أشاهد الرأس الموجهة للصاروخ بجواري بشكلها المخروطي ولونها الفضي ولا أعرف كيف نقوم بإيصالها لقيادتنا حيث أخبرونا بأنها في غاية الأهمية ، سوف يرسل الله بمن يقوم علي نقلها إلي القاهرة.

اليوم الثالث عشر مات جميع رفقائي وأشاهد الديدان المنبعثة من أجسادهم الطاهرة ورغم هذا لن أقوم بتسليم نفسي وسوف أظل علي حالي لألحق بهم ،

اليوم الخامس عشر أشعر بنهايتي قد قاربت حيث أغفو كثيراً وأنتبه قليلاً وقد ضاعت مني كل فكرة وتاهت ذاكرتي ولكني أداوم علي الكتابة حتي تعلم مصر أن أبناءها نفذوا مهمتهم ولم يبخلوا عليها بأرواحهم ورفضوا التسليم ، سوف أتلو الشهادة كما تعودت كل يوم و.....

بكيث هؤلاء الرجال الذين ضحوا بكل شيء حتي يؤمنوا وطنهم وشعبهم وياليت شعبنا العظيم يقدر ما قاموا به ، كنت أتحرك مثل الديك الرومي منتفخ الأوداج معتقداً بأنني قمت بما لم يقم به أحد ، أؤنب نفسي:
يا شيخ روح اتهبب عليك وعلي اللي عملته أمال الرجالة دوول نقول عليهم إيه؟ لا يجوز عليهم غير الرحمة والمغفرة وأن مثواهم جنة الخلد بجوار رب العرش.

جاست ساهما ثم تنبعت لوجود الرأس المتفجرة فأسرعت ودخلت باحثاً عنها وحملتها وكانت ثقيلة للغاية تحركت بها وبجوارري البطل سحاب الذي لو تمكن من الكلام لقال كل شيء ولكن الحمد لله لما قام به الشهداء وما كتب ولولا هذا ما علمت بقصتهم وموضوع الرأس المتفجرة ، لقد تركت ما كتب بجوارهم حتي يظل سرهم معهم إلي يوم القيامة ، بعد مجهود من عناء السير وصلت إلي الكهف وأنا أحمل الرأس المتفجرة وقد أعياني المجهود النفسي والبدني ودرجة الحرارة الشديدة لشهر سبتمبر ، وضعت الرأس المتفجرة جانباً وشاهدت طاسة الماء فشربت منها ووضعت رأسي علي الحائط ورحت في سبات لم اصحُ منه إلا قبيل الغروب لهذا النهار الطويل.

هذا هو اليوم التالي لما حدث مع أبطال الصاعقة ، توجهت حسب وعدي مع كل من "سلمي وكاملة" إلي مكان إقامة قبيلتهما بصحبة صاحب البطل الأسطوري والذي قدرته واحترمته وكنت أنظر إليه كأنه قائد عسكري كبير يرتدي القبعة ذات الإطار الأحمر ، وصلنا إلي مخيمات القبيلة وأقبل علي بعض الأطفال يتساءلون عن سبب قدومي للقبيلة ، وضحت لهم رغبتني فأسرعوا بي في اتجاه عائلة "سليم" والسعادة تغمرهم بهذا الوافد الجديد ، كانت سلمي هي أول المستقبلين لي ، هذه الفتاة الرقيقة الحاملة والتي تشع نورا وبهاءً وسحرا - كيفك عابدي؟

- الحمد لله .. سلمي!! قربي مني شوية .. أنتِ حلوه خالص

- دا سكوتك عابدي كان نعمه .. أول ما اكلمت خزمت

- يعني كلامي وحش؟

- زين والله لكنني أمزح معاك وإلا؟

- لا والنبي بلاش وإلا .. فين "سليم"؟

- متشوج لسليم كنت فكرانه أنك متشوج لحاجه تانيه؟

- هيا دية الحاجه التانيه اللي جيت عشانها

- دا أنت حكايتك حكاية ، ح أعود ومعني سليم ... غادرت المكان في لمح البصر

وظللت أتابع ظلها حتي اختفي.

شاهدت سليم مقبلاً نهضت فرحبت به وتبادلنا القبلات والأحضان حيث لم

أشاهده سوي ثلاثة أيام فقط حيث كان فتياً سريع الحركة يقظاً ومتنبهاً دائماً ،

لاحظت أنه يسير متوكلنا علي ذراع "كاملة" التي رحبت بي متسائلة بلهجة

باسمة:

- يا تري "سلمي" رحبت بيك؟ ابتسمت وظللت صامتة مما دفع بسليم للحديث
- سلمي دوشنتي بحديثها عنك والله يا أخي ، هذا الحديث ما كان له نهاية ولا
جرة معرفة لكن في الحجيجه هيا مبسوطه منك كثير وزى ما بتجولوا في مصر
أنها رايداك وبتحبك ، احتجت كاملة علي التصريح الواضح مما دفع بسليم إلي
التوضيح بأن الزلمه ما هو خابر حالها أصبح كيف وهيا عامله كيف العنزة
المترملة واللي تيسها "الذكر" مات وبجت وحيدة

أظنت مني ابتسامه علي تأثير البيئته وطبيعة العمل علي أحاديث الناس فلا
يمكن أن يقول مثل هذا الحديث الطيب إلا لمن يحيون بتلك الأماكن وتكون البيئته
عنصرًا فاعلاً في التشبيه والاستعارة فجميع المحسنات البلاغية تأثرت بمن
حولهم.

غادرت كاملة المكان وتوجهت لإحضار الطعام والشراب لكيينا ، اقترب
مني سليم يخبرني:

- والله أنت راجل زين وتسوي حمل بعير ذهب ، شوف الرسم اللي سويته ونفذه
الدفعه وبهدل اليهودا وخلاهم بيلفوا حولين نفسهم ، تعرف كنت عايز أصرخ
وأجول إن الولد الزين ده صاحبي وأنا كنت بأساعده لكن جفلت علي سري
وسرك وسر بلدنا مصر ، تعرف الدفعة موتوا كام من اليهودا النجسين؟ والله يا
شيخ ما ح تصدج روايتي ، موتوا خمسة وأربعين ومعمورين مائة ، بأجول مائة
وكانت المستشفى حولي وأنا محجوز فيها كلها جرحي ومنصابين من عملية
كاترين ، تعرف اليهودا بيتكلموا أن فيه جهاز خطير المصريين سرجوه وده اللي
بيجول للصاروخ روح ناحية عابد أو روح ناحية سليم ومش لا جينه وعملوا
مكافأة مليون دولار ، تصور مليون دولار وولاد الحرام المجرمين وجطاعين

الطرح والمهربين موزعين رجالتهم يدورا علي الجطعة المهمة.

- وتفكر لاقوا الحثة دية يا سليم؟

- لا ما عثر عليها حد

- يمكن الدفعه خدوها معاهم وهما راجعين؟

- يمكن ، لكن اليهودا بيحولوا للمشايخ أن الدفعه المصريين لسه ما روحوا للديار

وهما موجودين بسينا واحتمال كبير أنهم ماتوا من الحصار لأنهم بيأكدوا أنهم لو

لسه عايشين كانوا عملوا تدمير وجتل فيهم ربنا يغورهم يا أخي!! تشجعت

وأخبرته بأنني لي طلب رخيص الثمن عال القيمة

- وضح يا زلمه

- كنت عايز "حجرين" بطارية أشغل الراديو أسمع أغنية والا نشرة أخبار ، بدل

ما أنا قاعد سهمان من يوم ما جيت معاك أول مرة

- أي والله يا زلمة أنت محتاج تروح عن نفسك اليومين دوول ، نهض متحركا

ببطء مما دفع كاملة لأن تحضر فطلب منها ما سبق وطلبتة منه فأسرعت

وعادت بعد قليل وأحضرت عددا من تلك البطاريات الجافة ليعمل الراديو وكان

العدد مضاعفا لما طلبت

أثناء حديث سليم كنت أفكر بأنني والحمد لله كفيت علي الخبر ماجور مثل

ما يقول العامة ولن أخبر أحدا منهم بشئ فلقد أصبحت المكافأة مغرية لأي

شخص أن يفعل أي شئ أمام المال وما قرأته بمذكرات الشهيد مصطفى يحدد

مهمة الرجال وتلك المهمة الثانية فقد نفذوا الأولي ومطلوب إنجاز الثانية ولا بد

لي من أن يكون لي فيها نصيب ، كنت أشعر بضالتي أمام ما قام به هؤلاء

الأبطال مقارنة بوضعي الساكن ولم أفعل شيئا يذكر يجعلني فخورا بنفسي

وعلمي.

أقبلت سلمي تحمل طعاما شهيا وتبعتها كاملة ثم أتى بعض رجال القبيلة الذين رحبوا بي ثم أشار "سليم" لأحد الرجال قائلاً هذا هو عمي رمضان ووالد "كاملة" خطيبتي وإن شاء الله ح نجوز بعد أربع جمع " أربعة أسابيع " ، ثم ابتسم لي وعلمت معني تلك الابتسامة ثم شاهدت إشارة من كاملة أثناء قدومها تحمل بعضا من الطعام وهي تغمز بعينها جهة والدها ثم نظرت إلي الجانب الآخر جهة سلمي التي كانت تشعر بحرج بالغ أثر علي تصرفاتها المعتادة.

لقد وصلت الإشارة ولم أعد أعني هل أتقدم لسلمي؟ أو أظل علي عهدي مع رقية؟ ومن يضمن لي بأن رقية مازالت تحتفظ بعهدتها معي لقد مضى ما يقارب العام والنصف منذ مغادرة دارهم ولا حس ولا خبر سوي بعض الرسائل التي أرسلت بها من إذاعة صوت العرب واحتمال أنها لم تسمعها ، شعرت بأن رأسي بها شواكيش ودوشة وأنا راغب بالاستقرار ، أفكر بأن سحاب أصبح أمامه خمس عرائس والعنزة أحضرتها معي بناء علي توصية من "كاملة" حتي تلتقي وبناتها بالتيس "الذكر" وسوف أظل علي هذا الوضع "وحداني ح أعيش كده وحداني" كما غني المطرب فريد الأطرش ، تنبهت علي صوت سليم والذي طلب مني أن أستمر في تناول طعامي وألا أشرد منه علي حد قوله لي مما أضحكني وقلت له 'معلقا :

- ده تعبير خاص بالمعيز والغنم يا سليم

انتهينا من تناول طعامنا وأعقبه تناول الشاي وانصرف الرجال وبقيت أنا وسليم وعمه الشيخ رمضان والد البنيتين الذي تركنا لفترة قصيرة علي وعد بالعودة ثانية ، اقترب مني سليم وأخبرني بأن كاملة أكدت له بأن عيوني متجهة

نحو سلمي وتساءل هل ترغب بها فتكلم والدها أو إذا كنت لا تفكر بها فاتركها تتعرف علي "تيس" آخر ، ماهذا يا سليم تيس وغنمه وشرود ، أجبته بأنني أعشق تلك الغنمة وأرغب بأن أفتح كبير الغنم في هذا فضحك من حديثي ودفعني في ركبتي علي مزاحي العبيط.

رفع "سليم" من صوته متسائلاً وبين عمي رمضان فأشارت له كاملة والتي كانت تجلس مستتدة بظهرها علي جذع شجرة نخيل بينما سلمي مختبئة بالجانب الآخر من جذع الشجرة وأخبرته بأنه قادم وبالفعل شاهدت الرجل مُقبلاً بعد أن أشعل سيجارة وجلس بعد أن رحب بي ، بعد قليل قدم سليم مذكرة شفوية له عن حالي وأخبره بأن الشاب عابد زين الشباب وراجل وطني وله مستجبل كبير بمصر وأنه راغب في مصاهرتنا في ابنتك سلمي فما جولك يا شيخ؟

أمسك الشيخ رمضان بعصا صغيرة وانشغل في تسليك أسنانه ثم بصق بصقة جافة بأحد الأجناب قائلاً "والله ما أجد أرد طلب فاتحني فيه ابن أخي سليم وبعد كام جمعة ح يجوز كاملة بنتي وأنا موافح ومش عايز منك مهر لأن الحالة حرب وأنت سايب ديارك وعايش بانتنا "بيننا" وربنا يبارك لك فيها ، قدمت له شكري وتقديري وبانني سوف أعمل جاهداً علي إسعادها ولن أضرب بها وسوف نكون أسرة ثم طار خيالي محدثاً جاري قائلاً: أنا يا سحاب سوف أكون أسرة مثلك ولنظل أوفياء تتبادل الزيارات ونلتقي أنا وأنت وتجلس روز مع سلمي وتتزه العائلتان معاً.

أفقت من أحلامي علي صوت الشيخ رمضان يعرض علي رأيه " خبرني براك " بأفكر نجم الشمال في عرس واحد مع سليم وكاملة وبكده تبجي الكلفه بسيطة ، نورني براك الزين خصوصاً أنت ما لكشي معارف بالديار هادي ،

تنبهت بأن عائلة " روز " سوف تحضر معي هذا الفرح وسوف يشهد سحاب إذا تواضع علي عقد القران مما دفع بي للابتسام وقد تضايق الشيخ رمضان من تصرفي هذا ولكن سرعة إستجابتي لاقتراحه أزال كل أثر للضيق حيث قلت: إنه نعم الرأي والمشورة عمي رمضان الذي نهض طالبا حضور العروس والتي حضرت وهي خجلي وُدّهشت لهذا وقد تركنا والدها لبيشر أسرته بهذا النسب واقتربت منها متسائلا:

- جري إيه يابت؟ ما أنت كنتي زي القرد من نص ساعة ، خلاص بقيتي وش كسوف؟

- كده يا عابد ، طيب بعد ما نجوز ح خليك تنام فوج النخلة!!!!!!
لم يسعنا أنا وسليم سوي الضحك لتلك الفتاة الشقية الجميلة التي كانت تعطر أي مكان بضحكاتها وحديثها الجميل مع ترديدها لبعض أغاني شادية ونجاة ، كانت سلمي حلمًا يتحرك وظلا ملونا ليس بأبيض أو أسود وكانت سرايا ملموسا وسرايا نقيًا طاهرا ورائحة ندية متجددة وشراعا هاديا لسفينة الهداية والنجاة ، النظرة إليها تشبعك والبسمة منها تفرحك وصوتها الشجي يطربك إلي عالم الأحلام وفوق هذا فهي تحب اللهو والضحك والقفشات وهي آخر عنقود الأسرة المكون من خمسة رجال وثلاث فتيات ، ودعت الأسرة بين السعادة والابتسام وتحركت سلمي تصحيني بضعة أمتار واقتربت منها متسائلا

- مش ح اشوفك يا بت؟ أجابتنني:

- لما تشوف العنزة في بطن أمها!!!

'عدت إلي بيتي وجلست بين أفراد أسرتي وقد غاب عنا ثلاثة هم "العنزة وبناتها" فقد توجهن للسيد تيس لزوم الإنجاب والخلفة وبسلامته قاعد في مكانه

واللي عايزه يروح له ، رجالة آخر زمن.

كنت عائدا وبرفتتي سحب والليل أرخي خيوطه فعم الظلام وسرعان ما تبدد قليلا علي ظهور ضياء القمر لتلك الليلة السعيدة في حياتي ولم يكن هناك ما يثير ضيقي سوي ذكري "رقية" تلك الإنسانة الرقيقة الجميلة والخالة زهرة وما قامت به معي هي وبناتها ، كنت أحاول أن أجد السبب والمبرر لما تعهدت به منذ أكثر من ساعة مع الشيخ رمضان وهل من الحكمة أن أظل غير قادر علي العودة إلي القاهرة ومُحاصراً دون رعاية ودون أسرة أعيش بجوارها وأحيا بينها ، هل كتب علي الزمان أن أعيش أبكم سبعة أشهر ثم أظل أعيش مع حيوانات دون بني الإنسان إلي أن يشاء الله خاصة أنني أصبحت أتكلم إذا فانا في أشد الحاجة لمن تؤنس وحدتي وتقف بجانبني.

لم ولن أصبح ناكراً لجميل أسرة أبي السعادات ولن أكون خاننا لميثاق الحب بيني وبين "رقية" وماذا أفعل لو عدت إلي أسرتها وعلمت أنها تزوجت؟ لن يكون هناك حساب من دونه وهل تلك الأسرة تعلم بأنه ميثاق غليظ؟ وكيف يكون هكذا ونحن في حالة حرب وأنا بعيد عنهم وبيننا مسافات ، أعتقد بأنني اتخذت القرار المناسب ، كنت راغبا بالتوجه إلي منطقة الشيخ زويد ولكن القدر وضعني هنا ولم أنته من مهمتي بعد فقد تجددت المهمة بالعثور علي الرأس المتفجرة وسوف أبذل قصاري جهدي لإرسالها إلي القيادة بمصر.

سمعت صوت نباح "سحاب" منبها السيدة روز بأن برفتتي رجلا واحتشمني شوية وسبيك من الدلع بتوع اليومين اللي فاتو ، نهضت روز واستقبلتني بترحاب وبعض اللعقات وكأنها تعلم بما نويت فنهضت تقدم تهنئتها لي بينما توجه سحاب يغازل إحدي بناتها وتركته دون أن يظهر الضيق عليها .

مفاجأة عابد المصري

جلست هامداً استعيد الساعات الماضية وقد شعرت بمتعة الأسرة وصحبة الناس التي فقدتها منذ حرب عام ١٩٦٧ أي منذ عامين ونصف قضيتها في مشاكل الإنسحاب والجروح العميقة التي ألمت بي وعلاج بدائي وحب ملانكي وبطولات قمت بها مع شباب مصري وطني ثم عودة للوطن بطريقة مغامرات شبيهة بما يقوم بها "جيمس بوند" ثم توتر بالعمل وعرض علي لجنة الضباط والإستغناء عن الخدمات وأصبحت عاطلاً وسُحبت مني جميع الأوراق العسكرية ثم عملي كخفير مزلقان حيث كنت أطيب من خاطري بأن خرتشوف رئيس الدولة الكبرى بالإتحاد السوفيتي فصل من عمله وعمل ناظر محطة سكة حديد يعني أصبحنا زمايل يا عم خرتشوف ، ثم ما حدث من قرار الرئيس بعودتي وعودة المئات من الضباط الذين زج بهم بالمحاكمات وقرارات الفصل التي صدرت من لجنة الضباط للتخلص من بعضهم بدعوي أنهم أحباب المشير .

- يا ولاد الإيه ... فيه ضابط مفعوص زي حالتي برتبة نقيب من يومين ح يكون مصاحب المشير دا لو صاحبت راند يبقي أنا من المحظوظين.

ثم تلي هذا السجن الحربي وأصبحت أبكماً وُعدت ثانية للخدمة ومحاكمة زبانية السجن الحربي ثم إرسالي إلي تلك المهمة المقدسة والتي ظللت بها وقد قرأت ما كتبه الشهيد مصطفى عما قُمت به لتنفيذ تلك المهمة ، لقد عاد إلي صوتي وعادت إلي أدميتي التي نُهبت وانتَهكت مرارا تحت زعم أي شيء ، ما حدث منذ ساعات أتلج صدري وطيب من ضيق قلبي فأصبح لي وليف سوف يؤنس وحدثني.

لقد أيقنت بأن من لم يذوق طعم وحب النساء ولم يشعر بحنانهن كمن عاش حياة جافة دون معني ومن أهمل وفرط في تلك الحياة بعد أن ذاق حلاوتها وأنسها وبهجتها كمن حكم علي نفسه بالموت البطيء إنهن متعة الحياة الدنيا وهن السند للرجل في جميع المحن وقد شعرت بهذا مع رقية وشعرت به مع سلمى وهذا ليس تناقضا بين الإثنين ولكنه تأكيد لما حباهن الله فقد منحهن تلك النعمة.

هرولت إلي خارج الكهف أتلصص المكان الذي نفتت به جهاز الإتصال ، بعد جهد عثرت عليه وُعدت به وجلست أمام الكهف وظللت أقوم علي نظافته بقدر الإمكان مسترشدا بضوء القمر الساقط من أعلي السماء ، أحضرت بطارية التشغيل الجافة ووضعتها بداخل الجهاز فأضاءت لمبة التشغيل الحمراء بما يفيد بأن الجهاز مُعد للعمل ، حركت المحطات وسمعت بعض الخرقشة ثم بعض إذاعات أجنبية ولم أستمع لإذاعة عربية ، جلست قليلا أستعيد حياة بني البشر فتأكد لي بأن الراديو كان مضبوطا علي الموجة القصيرة وموجة إذاعة الراديو العادية تعمل علي الموجة الطويلة ، بسرعة حولت الموجة إلي الطويلة وكانت المفاجأة السعيدة لي بأن أستمع لموسيقار الأجيال محمد عبدالوهاب وأنا بأعلي جبل كاترين وقريبا من السحاب والنجوم لأسمع قصيدته الرائعة جبل التوباد التي هزت مشاعري سواء من الألحان أو الكلمات والغناء كما أنني لأول مرة منذ شهور طويلة أستمع للموسيقي والغناء والذي كان ينجي النفس والمشاعر الإنسانية بعد ما ألم بي من مشاعر إنسانية متناقضة متضاربة بين الحزن لما شاهدته علي رجال الصاعقة والفرح والسرور الذي تمتعت به منذ ساعات قلائل ، كانت الأحاسيس والمشاعر تتناوبني من حين لآخر وتدفع بعواظي وانفعالاتي ،

لهذا الحبيب الذي يناجي حبيبته ، قيس بن الملوح يناجي ليلي العامرية وبعض مقاطع من قصيدته الرائعة والتي أصبحت مضرب الأمثال لهذا الحب العفيف والعشق الذي أدي في النهاية لذهاب عقله ولم يجتمع شملهما لتعنت الأسرة حيث كنت أستمع لأبيات من الشعر العربي الممتع.

جبل التوباد حيّك الحيا وسقى الله صبانا ورعى
فيك ناغينا الهوى في مهده ورضعناه فكنت المرضعا
وحدونا الشمس في مغربها وبكرنا فسبقنا المطلعا
وعلى سفحك عشنا زما ورعينا غم الأهل معا
هذه الربوة كانت ملعبا لشبابينا وكانت مرتعا
كم بنينا من حصاها أربعا واثنينا فحونا الأربعا
وخططنا في نقا الرمل فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعى

لم تزل ليلي بعيني طفلة لم تزد عن أمس إلا إصبعها
ما لأجارك صمًا كلما هاج بي الشوق أبّت أن تسمعا
كلما جنتك راجعت الصبا فأبّت أيامه أن ترجعا
قد يهونُ العمرُ إلا ساعة وتهونُ الأرضُ إلا موضعا

أنهي المطرب شذوه وغناه وكننت لحظتها مثل السكر الذي فقد عقله ويبحث عنه بين الصخور الصغيرة وبين حبيبات الرمل التي تسير فوقها الحبيبة رقية ، ياه ، يا لها من حياة ويا لتأثيرك وفتنتك علي شخصي ، أدمعت عيوني بالشجن مثل ما أدمع قلبي بالألم ، أنها اللحظات الفارقة في عمر الإنسان المحب الولهان

ومابين الشقاء والسعادة لحظات هنية قليلة تفصل بين الاثنين مثل اللحظات التي تفرق بين الليل والنهار.

أويت إلي فراشي أرضا وكانت الدموع هي رفيقي في النوم حيث كانت مشاعري فياضة لأقصى مدى ، خشيت علي نفسي من هبوط حاد بقلبي الضعيف الذي تألم كثيرا لأفعالي وتصرفاتي أو تصرفات الآخرين الأشد مني سلطة وقوة ، جلست أستعيد الأحداث ما بين حزن وسرور ، حزنت علي نفسي بأنني لم ألق الله علي تلك الدرجة من الإيمان مثل أبطال الصاعقة وأرواحهم الزكية التي وهبها الله عز وجل دفاعا عن الوطن ومصر وشعبها.

عدت إلي نومي بعد أن استقرت حالتي ونهضت قبل أن تبلغ الشمس مطلعها وتوجهت إلي عبوة الماء شديدة البرودة من طقس الليل القاسي وقد تعودت علي هذا حين تنخفض درجة الحرارة ليلا فيقشعر بدني فتدفع بدرجات الحرارة لتقاوم هذا البارد الزاحف علي ، توضأت واصلت الفجر والصبح وجلست أستعيد بالله وقمت بتلاوة ما أتذكره من آيات الذكر الحكيم فسمعت صوت تلاوتي والذي شعرت بأنه عذب إلي درجة كبيرة فتنبهت أسرني البكاء وأصدر أحدهم نباحا بعد أن انتهيت من التلاوة كان أحدهم يقول الله عليك يا شيخ عابد ، الله يفتح عليك فتلك الحيوانات تعبد الله مثلنا دون ضوضاء.

خرجت من الكهف أتفقد المنطقة وقد أسبغ الله الهدوء علي المكان عدت أجلس حيث كنت في انتظار عودة الماعز التي وهبني الطعام الهنيئ لفترة طويلة دون احتجاج أو اعتراض ، عدت ثانية إلي الكهف هادنا أنتظر الخير القادم من أي مكان فقد أصبحت مثل الطيور أبحث عن طعامي اليومي ، بعد قليل سمعت أصوات الدواب ثم ظهر علي باب الكهف الوجوه الطيبة البيضاء

والتي تشبه صفحة لبن أبيض رائق ، لقد أقبلت الشقيقتان برفقة الماعز الثلاث بعد أن قام "التيس" بواجبه الذي خلقه الله للتكاثر والنمو حتي ينعم به أبناء آدم من طعام وشراب لبهيمه الأنعام ، سمعت تحية الصباح الخارجة من الأفواه الجميلة كأنها نغم حالم قادم من السماء:

- صباح الخير عابد

- اهلا صباح الخير كاملة وسلمي ، نورتم المكان .. سمعت ضحكات الأنتي الرقيقة.

- طبعا مش حداك وكل "طعام" وهاذي العنزة إمعانا .. يا للا إتجوت ، مدت لي يدها بالطعام فأرسلت به إلي قومي من ذوات الأربع ، أمسكت بيد سلمى أداعبها فحاولت التمتع مما زاد من رغبتى في ملاطفتها ، تركتتا كاملة وجلست مجاورة لباب الكهف الخارجي ، جلست بجوار سلمى متلاصقا لها ناظرا بعيونها لعلها تنبئ بما ترغب وتريد ، جلست أداعب كفى يدها بيدي فجذبت يدها من يدي قائلة:

- كهارب يا عابد ، بعد يداك عنى يازلمه ، أنت عمائك ح توديني في داهية ، سمعت صوت كاملة من الخارج:

- الأيام جاية ، بلاش عجلة

استمر الحديث ثم شاهدت كاملة مقبلة عليّ وقد حابت إحدي إناث الماعز وجاءت إلي بعبوة اللبن تقدمه لي قائلة:

- اتفضل عابد بالهنا والشفا.

شربت البعض منه وعاد الحديث الشيق يدور بيني وبين سلمى وتطرق إلي الزواج وما سوف يحدث وهذا دفع بالفتاة إلي الخجل وغادرت المكان وهي

تصيح:

- مش ح تشوف وجهي إلا ليلة الزواج ، دا انت مصيبة و عليك جوه تهد إقبال فتذكرت أغنية شادية وهي تغني لبطل فيلمها صلاح ذو الفقار في فيلم مراتي مدير عام وأضحكني تعبيرها.

غادرت الفتاتان الجميلتان المكان وظللت بجوار أصدقائي الذين انتهوا من طعامهم وتركوا لي طعامي والذي لم يتناولوه وقد اصطحب "سحاب" إحدتي بنات "روز" للتنزه معها خارج الكهف فقد أنهى علاقته بالأولي وقد جاء الدور علي الثانية وقبلها روز ، شعرت بأنه بعد شهرين من الآن سوف يمتلئ الكهف بصغار الكلاب ويتبعها الماعز لقد أصبح الكهف كهف الحيوانات المستأنسة.

أحضرت ساعة الأستوب ووتش وساعتي التي حفظتها معها حيث لم أكن في احتياج لاستخدامها حيث اعتمدت في التوقيت علي ظهور وغروب الشمس وأصبحت أجيد التوقيت بهذا الشكل.

قاربت الساعة علي الخامسة إلا ربع بعد الظهر ، ربطت رقم الموجة والمحطة وظللت متابعاً الساعة ثم بالتوقيت حركت الأستوب ووتش وأرسلت بأول رسالة ناطقة:

"عابد المصري يتكلم ، أنا بخير وياريت ترسلوا لي برسالة علي برنامج ألف سلام بصوت العرب بشيء لا يعلمه أحد إلا سوانا حتي أتأكد من أنكم تسلمتم الرسالة لأمر مهم ، الوداع الآن".

أغلقت الجهاز وجلست في حالة من الهدوء والترقب في انتظار موعد إذاعة برنامج ألف سلام ، من حين لآخر أنظر إلي رأس الصاروخ مردداً:

يارب أستطيع أن أرسل بهذا الجهاز الخطير والذي لا أعرف أي شيء عنه.

لم يتبق علي الغروب سوي ساعتين فأسرعت بالخروج لعين الماء بصحبة "سحاب" الذي عاد منذ قليل ، حملت الماء وعرجت علي منطقة الحشائش فقطعت الكثير منه وعدت إلي العنزات الثلاث وألقيت بالطعام أمامهم فاندفعوا إليه وملأت العبوة الزنك بالماء فقد زاد عدد من يحتاجون إليه.

ظلت اليوم التالي والذي يليه في حالة من الترقب فليس أمامي أي شيء أفكر فيه سوي موعد إذاعة برنامج ألف سلام حيث كنت علي يقين بأن الرسالة لم تصل أو أن من التقطها لن يحترمها ، قبل الموعد فتحت الإذاعة حيث نشرة الأخبار والتي انتهت ثم التعليق علي الأنباء ثم بدء البرنامج بالمقدمة الموسيقية المحببة للناس وقتها ثم سمعت حوارا بين اثنين من الرجال وأحدهم يسأل الآخر عن مزلقان "نكلا: والآخر يجيبه ويوصفه له معددا بأن أحد الخفراء كان يعمل مع عم شحاتة وترك هذا العمل بينما عم شحاتة ظل يعمل كما نصحه بأن يذهب إلي عم شحاتة وسوف يخبرك بالشخص الذي تبحث عنه وعليك أن تخبره بأننا جميعا في انتظار أخباره أو أن يقوم بزيارتنا إذا كان قد ضايقه البعد وبلغه تهنئه جميع الخفر بما جد عليه وعرفه بأن بعض الأبناء استمعوا لصوته العذب وأنه من الممكن أن ينافس عبدالحليم حافظ.

صرخت مما أفزع أهل الدار وصدر من بعضهم النباح للإستفسار فتوجهت إليهم جميعا "مقبلا" وكل حيوان يتصرف معي مثل الآخر وتبين لي أنهم تأكدوا من أن بني الإنسان هذا مجنون منذ ترك البُكم وتحدث ، شعرت بأنهم يرددون : ربنا يشفيه!

لقد وصلت رسالتي وأرسلوا لي بالدليل القاطع بأنهم يعرفونني فمن يعلم بحكاية عملي خفيرا بمزلقان نكلا سواهم حتي عم شحاتة لا يعلم بأنني كنت

ضابطا بالقوات المسلحة.

في اليوم والتوقيت أرسلت برساتي التالية والمهمة حيث كنت أحاول أن أرتبها وأعدّها الإعداد الجيد ولهذا قمت بعمل بروقات عليها مستخدما الساعة الميقاتية حتي لا أتجاوز الوقت المحدد لي "خمسون ثانية" وفي الوقت نفسه تُعطي الرسالة المعني المطلوب مع رجاء الرد علي نفس البرنامج.

كانت رسالتي كالتالي: أنا محافظ لكم علي الطربوش واللي الله يرحمه مصطفى جعفر سابه أمانة حتي أسلمه للورثة وعايز أشوف مين عايز يخده لأنها أمانة وأنا منتظر جوابكم.

لم تستغرق الرسالة ثلاثين ثانية حيث كانت قصيرة وواضحة ، إقرب موعد البرنامج وهو برنامج أسبوعي وجاءت الرسالة بالبرنامج بإهداء أغنية شط إسكندرية للمطرب محمد قنديل وأعقبها صوت المذيعة ترسل بأغنية البرنامج لكل الأحبة وعائلة أبي طربوش وتخبرهم بأن الحاج فوزي طربوش سوف يقوم بزيارتهم علي العنوان المعروف لديهم وشكرا علي تلبية الدعوة.

لقد قرر القادة إرسال مندوب بهذا الشأن ولم أعلم بالموعد وبموعد البرنامج التالي لذا طلبت منهم في اليوم التالي بعض الأغراض الخاصة لزوم فصل الشناء وأني منتظر الزيارة وأنا مازلت أقيم بنفس الشقة ونفس العنوان منذ تركت الأسرة.

واصلت حياتي وجاء اليوم الموعود برسالة من أغنية لم أكن أنتظر سماعها كما أن المذيعة عادت لتذكر جميع المستمعين بأن موعد البرنامج القادم في نفس التوقيت ، وأن الخريطة الإذاعية ثابتة لهذا البرنامج الذي يتابعه الكثير من أبناء الشعب العربي وترسل بكل تحياتها وتحيات أهل نكلا إلي عائلة أبي طربوش مع

إهداء أغنية عبدالحليم حافظ "يا سيدي أمرك أمرك يا سيدي ولأجل خاطرِكَ
خاطرك يا سيدي " .. بعد انتهاء الأغنية شكرت الله وأن موعد التسليم الأسبوع
القادم ، كنت مضطربا من تلك الرسالة بأن يكون الإسرائيليون متابعين الإرسال
وفهموا المعاني المرسله والمستقبله ولكن هذا صعبٌ للغاية لأن الشفرة لها نظام
محدد وفك رمز منها يتبعه فك كل الرموز وحيث إن الحديث غير متجانس
وكلام علي علاته فلن يحدث أي شيء يُذكر.

مضي الوقت بطيئا وأنا مازلت حذرا متوترا ومما زاد من صعوبة الموقف
أن دورية إسرائيلية صعدت لأعلي الجبل قريبة مني تطارد حيوانا لا أعلم ما هو
وسمعت إطلاق بعض الأعيرة النارية ثم سمعت ضحكاتهم وشاهدتهم هابطين
الجبل وقد أمسكوا بالفريسة وأعتقد أنه نوع من الغزال الصغير المنقط مما دفع بـ
"سحاب" للنباح فأشرت إليه بالسكون فصمت علي الفور.

في اليوم المحدد ومن أعلي قمة الجبل وأمام الكهف أشاهد بعض الجمال وبعض
البدو خلفها يسرون بزيمهم المعروف وأسمع أحدهم يتحدث قائلا:
- والله يا أخي بأرغب بالصلاة في هذا المكان الجميل ، العبادة فيه شيء رائع ،
سوف أقف هنا وأصعد لعين الماء للوضوء ، تحدث آخر معقبا:

- سوف يطلقون عليك فوزي العابد!! شعرت بأنني المقصود ، ظلت في مكمني
حتي اقترب الرجل من قمة الجبل وشاهدته وعرفته لقد كان المقدم فوزي قاندي
في بداية عهدي بالخدمة وأحد الرجال الذين لهم من الصولات والجولات
الاستخباراتية الكثير ، تراجعت إلي داخل الكهف حتي أصبح الرجل واقفا أمامي
من الخارج وقد نبحت "روز" فطلبت منها أن تصمت ولكنها لم تدعن لأمرني
فطلبت من "سحاب" أن يأمر زوجته بالصمت فشاهدته وقد فتح فكيه وأخرج

صوته غاضبا فصمتت روز علي الفور ، اقترب مني المقدم فوزي واحتضنني والدموع تملأ العيون ثم سلمني لفافة الملابس وتساءل أين الطربوش فتوجهت به لأخر الكهف حيث هتف قائلاً:

- برفو عليك يا عابد ، راجل بصحيح ، ضربة معلم ، شرحت له علي عجل كل شئ وموقف شهداء الصاعقة والمذكرات التي تركوها خلفهم حيث كانت الفرحة تغطي وجهه فشاهد الدهشة علي وجهي فأمسك بيدي قائلاً:

- فيه حد ح يفضل عايش للنهائية؟ شوف بقي الموتة بتاعتهم عامله إزاي؟ والله وحياء عيالي أتمناها وأنا جاي هنا أهه ، عمرك شفت واحد في رتبتي بيعمل كده بس المهم أوصل للهدف ومش أموت فطيس

- كلامك صحيح ، نهض ممسكا بالطربوش والذي شعر بأنه ثقيل الوزن عظيم الفائدة متسائلاً:

- تحب ترجع والاختليك وتوصل لنا كل حاجه ، احنا كلنا افكرنا إنك ودعت الدنيا.

- لا أنا ح أفضل بس ممكن توصل جواب لأهلي؟

- بكل ترحاب ، جلس الرجل ساكنا حتي انتهيت من كتابة خطابي علي صفحات البلوك نوت والتي تشمل بعض الكلمات من السلام والتحية لأسرتي ، قدمت شكري للمقدم فوزي والذي طمأنني علي أن راتبتي يصل لأسرتي في موعده ، أضفت هذا بالخطاب طالبا منهم أن تعيش حياتها حيث إنني مشغول بعملتي وربنا يعمل اللي فيه الخير وتنتصر مصر الحبيبة وذكرت أسماء إخوتي وأحبائي وبعض معلومات حديثة أخبرني بها المقدم فوزي.

غادر المقدم فوزي المكان حيث كان يهبط صخور الجبل مثل النمر الأرقط

حتى شاهدت ظله أسفل الجبل بالوادي بعدها واصلات القافلة سيرها ولم أشاهد اتجاه سيرهم بعد هذا ، حمدت الله علي إرسال الطربوش راغبا بأن يصل إليهم بسلامة الله وقد أفادني بأنهم سوف يستخدمون برنامج ألف سلام ليرسلوا علي موجته بكل التعليمات أو ردود الرسائل اللاسلكية القصيرة التي سوف أرسل بها إليهم مستقبلاً.

الحمد لله ، قلتها وأنا جالس خارج الكهف أستمع لبعض الأغاني والتي كانت تهزني طربا وشعرت بأنني اقتربت من الحياة الإنسانية وأن الأيام المقبلة سوف تكون خيراً علينا جميعاً وقد صقلت التجربة معدني وأصبحت ملماً بالكثير من خبايا الصحراء والعمل خلف خطوط الأعداء.

خطوة للأمام

شعرت بنشوة النصر ، فما تم تحقيقه حتي الآن أنلج قلبي من فائدة وقيمة الجهاز مما دفع بالقيادة لأن ترسل لي بالمقدم فوزي الخبير بشئون سيناء وهذا يدل علي أهميته ، قررت أن أبدأ بالحصول علي المعلومات فهذا عملي وقد أصبحت مكتمل القدرة بعد أن من الله عليّ بالشفاء وأستطيع أن أتحدث وأستمع لصوتي كما أن جهاز الإرسال يعمل الآن بكفاءة وحدث اتصال أكثر من مرة مع القيادة كما أن كلاب الحرب المدربة ترافقتني بالإضافة إلي بعض من المعدات التي تركها الشهداء الأبرار والتي علي درجة عالية من الأهمية.

تذكرت وجود بعض القنابل اليدوية حينما كنت أقرأ مذكرات الأبطال وبأن حقيقة من المشمع بها العديد من أجهزة التفجير الميقاتية والتي لها عداد مثل الساعة وتضبط مدة الأمان ثم بعدها تنفجر العبوة ، قررت إحضار كل تلك

الأغراض وإخفاءها بعيداً عن أعين الخطرين من المهربين أو الجنود الإسرائيليين الذين قد يصلون إلي هذا المكان مرة أخرى رغم أن النحل بأمر إلهي هاجم الدورية مما دفع بكل أفرادها للهرب ولم يستطيعوا دخول الكهف.

نهضت متجهاً إلي الكهف وتبعني "سحاب" الذي كان يعشق السير بصحبتني خاصة حين التوجه لمكان الشهداء ، مازال الوضع كما هو ولكن الجديد أن أسراب النحل أعدت أعشاشاً أخرى جديدة حيث امتلأت أقراص الشمع بالعسل وقررت الحصول علي جزء منه ، بداخل الكهف أضأت الشمعة وعثرت علي ما أريد سواء من عبوة الديناميت التي كانت أن تتسف المكان في بداية الصدمة أو القنابل اليدوية والتي كانت من النوع الدفاعي وهي قنابل شديدة الانفجار وخطيرة وتصيب العديد من الأفراد حين تقذف عليهم.

'عدت إلي كهفي بصحبة الرفيق سحاب وجلست أتفحص القنابل ونزعت عنها المفجر حتي لا تنفجر بي أو بأسرتي الصغيرة من الكلاب والماعرز ، تنبهت بأن سحاب يرسل بإشارات للكلاب الصغيرة والتي هي في مرحلة الشباب فأقبلت عليه ولاحظت أنه يقوم علي تدريبها علي كيفية شم رائحة البارود ، أسعدني هذا وقررت أن يقوم الأستاذ سحاب بتدريب هؤلاء الكسالي علي تلك المهمة ويقود وحدة الكلاب المدربة أما روز فقد ركزت مهامها للإنجاب وأنا علي للتخطيط والاتصالات والماعرز للإنجاب وتزويدي باللبن ، لقد توزعت المهام ، اتجهت لمكان يبعد عن الكهف مسافة بعيدة نسبياً وخزنت ما كنت أحمله معي من متفجرات ونزعت المفجر من أصابع الديناميت وُعدت بإصبع واحدة من تلك الأصابع شديدة الانفجار ، أشرت إلي سحاب وعرضت عليه المفجر فنظر إلي راعباً بالمزيد فوضحت له بعلامة الانفجار وبأصوات مرتفعة

، هز رأسه قليلاً ثم أسرع وغادر المكان وأقبل بعد نصف ساعة حاملاً في فمه العبوة المفقودة والتي كانت عبارة عن شنطة من شنط الجيش المصنوعة من الشمع القوي ، فتحتها باحتراس بعيداً عن أسرتي حيث كان بها مجموعة من اللعب الصغيرة المصنوعة من الكرتون وقد طُبع عليها اسم مصنع رقم كذا الحربي وكتب عليها بالإنجليزية "Mad in Egypt" أي صناعة مصرية أسعدني هذا بأن ترتقي صناعة الأسلحة والذخيرة بمصر حتي لا نصبح تحت رحمة الدول الكبرى.

فضضت إحدى العبوات وشاهدت المفجر والذي كان مشابهاً للمفجر الحراري الذي أظهرته إلي سحب منذ ساعة ولكن يزيد عليه دوائر رقمية تتحرك باليد ومنها تقوم بضبط الزمن المراد أن تنفجر معه العبوة بعد أن تضغط علي زر بأعلي المفجر ليبدأ التوقيت في السريان ، إنه مفجر رائع لو أحسن استخدامه رغم أنني لم أستخدمه من قبل ولكن من السهل التعامل معه ، توجهت ثانية لمخزن الذخيرة الخاص بي وحفظته مع باقي الذخائر والقنابل وُعدت ثانية وسلمت سحب إصبعاً من الديناميت والذي لا يسبب أية خطورة بسبب عدم وجود المفجر به.

أسرع سحب يضع العبوة بعيداً وطلب من الكلاب الصغيرة البحث عنه ، كانت العملية في بدايتها بطيئة وصعبة ومع مضي الوقت أصبحت عادة وقد تنبهت حاسة الشم لديهم علي اكتشاف الديناميت ، أصبح هناك طابور يومي يقوم به سحب وفي بعض الأحيان تساعد روزه حينما تفرغ من أعمال المنزل بعد أن تعود وقد أعدت طعامها وطعام بني جنسها من فئران وأرانب جبلي وأي طيور أخري تعثر عليها كما كنت أداوم علي أن يرافق الماعز أحد الكلاب أثناء التهام

الحشائش لحراستها خشية النسور الجبلية من أن تفترسها.

أوفت "سلمي" بعهدا ولم تعد ثانية لزيارتي ولكن كاملة كانت تأتي حاملة معها الطعام معطرا بالسلام والتحية من سلمي ، لم أشعر بضيق لهذا فهي عروس ويجب أن تتدلل علي زوج المستقبل ببعض تصرفات بنات حواء ، بعد أن غادرت كاملة المكان حصلت علي وجبة شهية من لحم الماعز الشهي والتي قالت لي بأنه من إعداد سلمي فتناولته وأكلت أصبعي خلفه فأكل الحبيب مثل طعم الزبيب.

فضضت اللقافة التي أحضرها لي المقدم فوزي حيث شاهدت بعض الملابس الجميلة البدوية و "خف" أو ما يسمي بشبشب بدوي بديلا عن الشبشب البالي الذي كنت أرديه وتقطع وتهرات أجزاء منه مما دفعني لارتداء حذاء أحد الشهداء من داخل الكهف ، كما شاهدت جلبابا مزينًا مخالفا لما يرتديه أبناء البدو ، في اليوم التالي عرضته علي كاملة التي هفتت سعيدة بأنني أحضرت جلباب العرس المشابه لجلباب "سليم" ونظرت إلي نظرة ذات مغزي ثم فتشت جيوب الجلباب وعثرت علي علبة قطيفة مزينة وفتحتها فشاهدت بداخلها إسورة ذهبية وخاتمًا من الذهب مناسبًا لمقاس سلمي لأنها اختبرته ومعه خاتم أو دبلة فضية لي.

عادت تنظر إلي بتساؤل ولم يكن لدي أية إجابة ، بعد أن غادرت المكان علمت أنه من المؤكد بأن القيادة علمت بالاتفاق بيني وبين "سليم" وأرسلت بهديتها تلك وهذا يؤكد أن القيادة تبارك هذا الزواج ، نظرت لأعلي شاكرًا الله علي نعمته وفضله وسوف يسعد هذا سلمي حين تعلم عن تلك الهدايا رغم رضاها ورضاء والدها بأقل القليل ، أعدت شكري لله بما تم.

كان من ضمن الأشياء المرسلة من القيادة علبة من "الكولونيا" الغالية وبعض ملابس داخلية وخارجية ومشط ومقص وقصافة أطافر وبعض من تلك الأشياء الجميلة التي تبعث علي الحياة ، شعرت أنني أحييا مع ملايين المصريين وأن القيادة كلفت نفسها ودفعت تلك النفقات من أجلي ثم تبادل إلي ذهني بأنه من الجائز أنهم استقطعوا هذا من راتبي!! ولكن المهم الآن هو الاحتياج إلي تلك الأغراض في هذا التوقيت وهذا المكان الناتئ عن الدنيا.

اليوم التالي توجهت إلي أسرة "سلمي" والتقيت بالرجال كي أعد العدة للزواج الذي كان موعده بعد أسبوع من الآن وأطمئن أيضا علي صحة "سليم" ، هناك تساءلت عن المكان الذي سوف نتزوج به ، عرضت علي الأسرة أن أقيم بينهم بخيمة سوف تُعد لهذا الغرض وحين عرضت عليهم الإقامة بالكهف انزعجت سلمي ولكن والدها الشيخ رمضان تدخل بأنه من الممكن بعد يومين من الزواج أن أرحل بصحبة سلمي ومعني الخيمة ونقيم قريبا منها حتي أروي الكلاب والماعز وسوف أزود بعدد آخر منها لزوم العيش والحياة.

هكذا أصبحت راعي غنم مثل بداية انسحابي من سيناء لدي أسرة رقية ، كنت أتساءل لو كنت أعلم المستقبل لآتجهت بالدراسة بكلية الطب البيطري حيث كنت سأقدم خدمة ممتازة لتلك المخلوقات النافعة المفيدة.

بحفل عرس جميل علي طريقة أبناء سيناء وبمصاحبة الأغاني الشعبية والرقصات الجميلة والتي يغلب عليها الرقص بين الشباب باستخدام السيوف وإضاءة المشاعل بالمنطقة والعديد من الخراف والماعز التي تم نبحها وقامت النساء علي شيها علي النيران وتناول الشاي وشرب البن باستمرار جلست أرضا بجوار "سليم" وقد ارتدي كل عريس منا حلته الجميلة وهي عبارة عن

جلباب أبيض مطرز بعد أن قام حلاق القبيلة بواجبه من حلق الشعر والذقن لي وإزالة بعض شعيرات زائدة بالحاجب والأنف أعقب هذا حصولي علي حمام من الماء الساخن الأقرب إلي الغليان والتطبيب بالروائح الذكية ، كنت أشعر بأن جسدي وجبهتي ملتئمة من كثرة ما قام به المزين من تجريف وجهي حتي كاد أن ينسلخ الجلد عن اللحم.

أقبل بعض الشباب علينا وهم يحملون صواني الشاي والحلوي كما أقبل رجال القبائل المجاورة لتقديم التهنئة لهذا العرس المزوج فالشيخ رمضان علي موعد مع الفرح والسعادة بزواج ابنتيه في وقت واحد ومثل هذا الحدث في المجتمع البنوي يطغي بالسعادة وفرحة الأهل بزواج البنات مبكرا فهذا أقرب للراحة والشعور بالرضا ، اقبل شيخ القبيلة وهو رجل نحيف البدن وقد تقدم به العمر أعواما طويلة ويرتدي حلة أفخم من التي ارتديها أنا وسليم كما أقبلت زوجته ورغم عمرها الكبير إلا أنها كانت علي مستوى رفيع من الأناقة وحسن الهندام وعلمت فيما بعد أن إسرائيل ترسل بطائرة هليكوبتر كل أسبوعين للشيخ وزوجته بغرض التنزه والعلاج والحصول علي بعض الرعاية من النظافة والأناقة بالإضافة إلي الخيمة الكبيرة التي أحضرتها له ولأسرته والمزودة بكل أسباب الراحة بدءا من الأسرة المريحة والمرآح والكهرباء وجهاز التليفزيون وتليفون لاسلكي يتصل بالقيادة الجنوبية حين الحاجة أو حين علمه بأي شيء قد يعكر صفو الأمن بالمنطقة.

لقد كان النظام الإسرائيلي يسعي لاستقطاب زعماء تلك القبائل رغم رفضهم لهذا فهم غاضبون علي المحتل ولكن لم يكن أمامهم أي خيار إلا الاختيار بين تلك الخدمات أو الاعتقال والسجن وقد رأي هؤلاء الرجال أنه من الأفضل لهم

ولأبناء القبيلة عدم الاصطدام بالعدو فليس هذا في صالحهم وهم يعلمون بأنهم إناس ليس لهم أمان والخطر والتآمر من طباعهم بل وجدوا أن تلك العلاقة قد تساعدهم في الحصول علي إعفاء بعض رجال القبيلة من الاعتقال والحبس الذي كان يطول الجميع فلقد ابتعدوا بسلوكهم هذا عن مواجهة العاصفة لحين زوال السبب ولهذا لم يعتبرهم رجال القبيلة بأنهم خونة بل كان الجميع يقدر لهم حكمتهم وتحملهم التعامل مع العدو لإبعاد الضرر الذي من الممكن أن يصيب أفرادها.

قام الشيخ رضوان شيخ القبيلة بعقد القران حيث المجتمع القبلي لا يعتد بالمأذون بين أهل سيناء فكل شئ بأمر الشيخ وكلماته أمر نافذ علي الجميع حيث يتبعون الشريعة الإسلامية في جميع معاملاتهم ، وهذا هو القانون المعلن والمنفذ وبهذا تم زواج كل من "سليم الهادي علي ربة الصون والعفاف كاملة رمضان كما قام بعقد قراني أنا عابد المصري علي ربة العفاف سلمي رمضان" بعدها أطلقت النساء الزغاريد السيناوية والتي لها طعم مخالف لما يصاحب الأفراح بمصر لكنها تصب في قالب واحد وهو السعادة والبهجة ، وزعت الحلوي والمشروبات كما قامت زوجة الشيخ بإهداء العروسين قلادة ذهبية جميلة وقبلت كل عروس ، بعد قليل توجهت أنا و"سليم" إلي داخل الخيمة حيث ارتدت العروس ملابس جميلة زاهية الألوان وقدمت إلي سلمي الإسورة الذهبية التي أسعدتها أيما سعادة.

اصطحب كل منا زوجته إلي الخيمة التي أعدتها له القبيلة علي مسافة مناسبة من موقع الاحتفال ، ظل هذا السامر وذاك الاحتفال حتي منتصف الليل ثم تلاشي بناء علي أوامر السلطات العسكرية الإسرائيلية.

كانت ليلة سعيدة بكل المقاييس ولا يشعر بهذا إلا من اكتوى بالوحدة وسوء العيش والبعد عن الناس حيث كنت أعيش وأحيا مثل الإنسان الأول البدائي ، لقد أصبحت أحيا وأعيش مع عروس جميلة ورغم أنها تشاكسني من حين لآخر بدلع بنات حواء إلا إنني كنت أحسد نفسي على تلك النعمة التي وهبها الله لنا حيث قال في كتابه الكريم .. بسم الله الرحمن الرحيم:

" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) .. صدق الله العظيم

كانت ليلة العرس جميلة رائعة ، فى تلك الليلة نمت على كليم مصنوع من وبر الجمال فشعرت بأنني أنام فوق مرتبة من الحرير الطبيعى الناعم وودعت الحصى والزلط الذي جعل بجسدى ندوبا وانخفاضات.

كرست العائلة كل جهدها لرعاية العروسين والأزواج سواء من توفير الطعام والشراب والحلوى أو الأحاديث الطيبة المرحة كما أصبحت كل من سلمى وكاملة يعتريهن الفخار والسعادة بالزواج خاصة زواجهما معاً فى ليلة واحدة فهذا فال طيب وحسن ، اليوم الثالث توجه معى بعض أبناء القبيلة بثلاثة جمال تحمل الخيمة وبعض الأثاث البدوى لإقامة 'عش الزوجية بأعلى جبل كاترين وبرفتنا قطيع من الأغنام والماعز وعلمت بعد هذا بأنها فكرة واقتراح من سليم حتى لا يرتاب العدو فى شخصى .

تخير الشيخ رمضان مكان إقامة الخيمة قريبا من عين الماء حيث شاهد بجوار هذا المكان بعضا من الكهوف النظيفة ونظر إلي فرحاً معللاً بأن هذا سوف يقلل مجهودك فى رفع المياه إلى الخيمة كما أشار إلى من معى من الأصدقاء "الماعز وأبنائها والكلاب" حيث قال بأنهم سوف يحتاجون للماء بكثرة

وقد شاهدت آثار "العُشار" أى الحمل عليهم جميعا وسوف يزدادون عددا.
الآن سوف يُصبح لى قطيع من الأغنام والماعز وأنا أعلم أن سلمى تجيد عملها فى هذا المضمار ، سوف أكون كتيبة مقاتلة من الماعز والأغنام والكلاب!! أضحكنى هذا التعبير وتلك النظرة للمستقبل.

هكذا مضت بنا الحياة تشاركنى فيها أسراب النسور الجبلية المقترسة والتي اعتادت بأن أضع لها الماء فى عجوات قريبة من العين وإذا تجرأ أحدا من تلك الطيور على الاقتراب من البركة يهاجمه سحاب نابحا فيبتعد وكان هذا هو حال جميع من يعيش حول البركة.

كنت أشاهد سلمى تتحرك ذهابا وإيابا لتعد الطعام وتنظف الأواني وتغسل الملابس وقد أعدت السيارة الجيب المتهاككة كمنشر لملابسنا ، فى كثير من الأحوال أنظر حولى وأنا أحيأ وأعيش فى تلك البقعة العزيزة على مصر والبعيدة عن موطنى الإسكندرية وأنا بالأحرى بعيد عن أهلى وزملاء العمل من الضباط والجنود وملابسى العسكرية التى اعتدت على ارتدائها فتصينى الدهشة والسعادة فى أن واحد بين النقيض وضده ، لقد شعرت أن نسمة طيبة أرسل بها الله إليّ بتلك الزوجة الجميلة الوفية الضاحكة والتي كانت فى أوقات فراغها تحدث الماعز والأغنام وقد شعرت بأن تلك الحيوانات تعرف ما تقول بل حين كانت تشير لإحدى إناث الماعز ثم تربت على ساقها بأن اقبلى كنت أشاهد الماعز مسرعة إليها تهز ذيلها.

كانت سلمى تقوم على حلب الأغنام والماعز وتعد لى أفضل وأشهى طعام وكانت أحضر لها كل يوم قرص عسل نحل فكانت تضيف العسل إلى اللبن مع بعض الشمع فتعد لى طعاما شهيا لأقصى درجة لم يتدخل بنو الإنسان فى إضافة

أى شئ صناعى إليه ، كنت أتذكر أن هذا هو اللبن الذى كان يقات منه رسولنا الكريم أثناء عمله لدى السيدة خديجة ، إذا فأنا أحذو حذو رسولنا الكريم راغبا بأن أحذو حذوه فى جميع المجالات وهى أمنية عزيزة على كل مسلم ومسلمة وليتنى أستطيع؟

مازال سحاب يقوم بواجبه فى تدريب الكلاب الشابة على كيفية التعرف على المتفجرات ثم تطور إلى كيفية بث المتفجرات فى الأماكن التى كنت أشير إليه بها فيتجه إلى هذا أو ذاك المكان يحفر برجليه الأماميتين ثم يعود وينبح بنباح معين فأشاهد أحد الكلاب قادمًا إليه نابحا بصوته الرفيع كأنه يقول له نعم يا أفندم مما يدفع بسحاب إلى تحريك فمه ونباح بأصوات متفرقة أو متداخلة فيتجه الكلب إلى العبوة الرمزية التى كنت أعددتها دون مفجر ثم يلتقطها بفمه ويتجه مسرعا إلى المكان واضعا تلك العبوة مما يدفع بسحاب بنداء خاص به فيعود قادمًا إليه ثم يتجه سحاب ممسكا بنفس العبوة بفمه الواسع ويتحرك بحذر ناظرا يمينا ويسارا حتى يتأكد بأنه بعيد عن عيون الأعداء ثم يضع العبوة ويقوم بدفنها وإخفائها بالرمال القليلة بالمكان المختار وبالتالى يطلب من تلاميذه بإعادة المحاولة مرة أخرى مع الأخذ فى الاعتبار الحذر من الأعداء.

ظل سحاب على هذا الوضع حتى تأكد من تفهم الكلاب الأربعة لمهمة حمل المتفجرات وكيفية إخفائها والحذر من مراقبة العدو ، كنت أراقب هذا المشهد وشعرت بأن جميع الكلاب تفهمت مهمتها ثم تطور التدريب إلى نقطة أخرى بأن وضعت بالعبوة بشئ مشابه للمفجر ويخرج منه خيط صغير وبعد أن يتم إخفاء العبوة بمكانها المطلوب يقوم الكلب نفسه بمسك طرف الخيط بفمه ويجذبه للخلف ثم يعود مسرعا فيتم تشغيل التوقيت الموجود بالمفجر ، ظل هذا الحال

أياماً أخرى.

بعد مضي أيام وأسابيع تذكرت أنني لم أطلق على الكلاب الصغيرة أسماء بعد ولهذا رغبت في تسمية كل كلب باسم معين حتي تعلم جميعاً أن هذا الاسم خاص بهذا الكلب فأطلقت أسماء (الزهرة والمشتري وعطارد والقطبي) علي الكلاب الأربعة وظللت أنادي كل كلب باسمه والكلب يتجاهل هذا الاسم مما يدفع بسحاب الي التوجه إليه ويقوم بعضه عضه صغيرة تدفع الصغير لإخراج أصوات الأنين مما يدفع بأهمهم روز إلى إطلاق نباح الغضب ولكن سحاب لم يكن يابه بهذا.

الأسبوع الرابع منذ الزواج أصبح كل كلب يعلم اسمه فإذا قلت:

-قطبي .. تعالي بسرعة .. أشاهدها تقبل مسرعة في اتجاهي مما يدفعني إلى أن أملس على ظهرها وأقرب من فمها أعطيها بعض الحب مما يدفعها للنباح السعيد محركة ذيلها يمين ويسرى ، نأكد لي بأن جميع الكلاب قد وعت عملها وتفهمت أسماءها والآن جاء الدور لعمل دورية يومية للحصول على بيانات عن العدو ، يومياً كنت أخرج مع سحاب ونصطحب معنا أحد الكلاب ، فهذا يوم الزهرة وأثناء السير ينبح سحاب خافضاً صوته مشيراً بفمه جهة ما مما يدفعني للاختباء وبعد عدة دقائق تظهر قريباً منا دورية أو طائرة معادية ، تكرر هذا عدة مرات دون أن يقوم الصغير بنفس التصرف حينما يقترب منا شيءٌ معاد مما دفع سحاب إلى الضيق فدفعه هذا إلى عض الزهرة مثلاً فتصدر نباحها المماثل لنباح سحاب فتختبئ وبعد قليل تظهر لنا عربة مدرعة معادية مما يدفعني بعد أن تمر من أمامي إلي تقبيل الزهرة وملامسة شعرها فيسعدنا هذا وتقفز تلعب من حولي وحول سحاب.

تعدى التدريب والعمل شهرين أصبحت خلالها الكلاب الأربعة تجيد عملها وتعلم أسماءها بينما ظلت روز تقيم بالكهف بجوار زوجتي سلمى لحمايتها من النسور الجبلية التي كانت راغبة في اقتناص ماعز أو خروف صغير كما أن سلمى وروز كانتا تتحدثان عن أحوالهما وكل أنثى تفتح قلبها للأخرى عن أحوال المعيشة ومن المحتمل ضيق كل واحدة من زوجها رغم أنني وسحاب نعمل يوميا ونسير بضعة كيلومترات تقريبا للحصول على المعلومات التي دأبت في الفترة الأخيرة على إرسال رسالة شبه يومية للقيادة حتى لو تكررت المعلومة وهم بالقيادة يقومون بدراسة كل كلمة وحرف وتوقيت الدورية ويخرجون بالنتائج فهذا ليس من صميم عملي.

كنت أواظب على سماع برنامج ألف سلام فقد أصبح هو الوسيلة المهمة والوحيدة للحصول على الأوامر حيث جاءت لي رسالة بإهداء أغنية من المعلم فوزي والعائلة مع إرسال أغنية فايدة كاملة "يا واد ياسماره كفايه شطاره" وعلمت منها أن أكتفى بتلك المعلومات حتى تأتي إلي رسالة أخرى.

ظهرت بوادر الحمل على سلمى وأسعدني هذا سعادة كبيرة ونظرت إلى سحاب وروز والماعز والأغنام من حوالى صارخا "بقينا زى بعض وبلاش فتاكه" وقد بدى علي أجبائنا من الحيوانات السعادة بإطلاق النباح والمأمة وقد قبلت تلك التهينة من أصدقاء عائلة أبى طربوش.

رغبت فى زيارة الشهداء ، فمزال منظرهم يدفعنى إلى التأمل فيما قاموا به ومن تصرفهم بالقبول بالموت جوعا وعطشا دون تسليم أنفسهم للعدو كأسرى ، كنت أتساءل عن جسارة هؤلاء الرجال وعظمتهم ، لقد مضى على استشهادهم العام وقد بدأ عام ١٩٧٠ منذ أسابيع قليلة وكنت أسمع من الراديو عما يحدث

للإسرائيليين علي جبهة القناة ، بل زدنى الشيخ رمضان والد زوجتى سلمى
بمعلومة استقاها من شيخ القبيلة القريب من اليهود بأن الجنود الإسرائيليين
أصبحوا يهربون من الخدمة بالمنطقة الجنوبية المواجهة لمصر وقد تم الحكم
على الكثير منهم بالسجن كما أخبره بأن الإصابات أصبحت كثيرة بخلاف
الموتى ومن أجل هذا أعدوا مستشفى العريش بأحدث المعدات الطبية وأشهر
الأطباء المتخصصين فى إصابات الحروب لعلاج المصابين حتى لا يرسلوا بهم
إلى داخل إسرائيل ويعلم الشعب بالمأساة التى يعيش بها جيشه الذى لا يهزم.

أنجبت إناث روز الأحفاد وشعرت بأن سحاب ينظر إلى الصغار من أبنائه
بسعادة ، نظرت فشاهدت من حولى ثمانية عشر جرواً صغيراً.

أصابتنى الدهشة متسانلاً عن كيفية إطعام كل تلك الأعداد بل عن كيفية العثور
لهم علي أسماء وكيف يقوم سحاب بتدريب هذا العدد الهائل ، لقد وصلت أعداد
الكلاب مجتمعة إلي أربعة وعشرين ، وقد حزت إناث الماعز والأغنام حذوهم
وكل أنثى أنجبت صغيرين وبالتالي أصبح عدد الصغار من أبناء تلك الفصيلة
اثنتى عشرة معزة وخرؤفا صغيرا مما دفع النسور الجبل بعد مضى شهرين إلى
مغادرة المنطقة خشية على أرواحهم من هذا العدد الكبير.

نظرت إلي سلمى وبعيونها الجميلة اقتراحا بأنه من الواجب إبعاد سحاب عن
هذا القطيع ؛ لأن كل أنثى سوف تحمل مرتين بالسنة ولو فى كل مرة أنجبت فى
المتوسط أربعة أى ثمانية من الجراء الصغيرة لأصبح لديك ما يزيد عن ستين
جروا كل عام وهذا سوف يبعدك ويشغلك عن عمالك ، كان الاقتراح جميلا ولكن
كيف هذا وأنا لا أستغنى عن سحاب كما أنه كلب عائلى يعشق الأسرة والإنجاب
وقد تأثر بالحياة مع المصريين ، أصبحت مشكلة كبيرة أمامى ولكنها أبدلت

الاقتراح بالعمل بأن يأتى أحد رجال القبيلة المتخصصين فى هذا العمل ويقوم على إخصاء سحاب وجميع الذكور وبالتالي يتوقف الإنجاب.

وجدت الاقتراح جيدا ولكني عدت ثانية أفكر: ماذا ستفعل إناث الكلاب حين تشد بهم الرغبة للإنجاب وقد تذكرت حديث قائد وحدات كلاب الحرب بأنه فى مثل تلك الأحوال تصبح الكلاب عنيفة وعدوانية ، إن هذا يخالف الطبيعة التي خلقها الله عليها ، نظرت إلي سلمى فوجدتها ساكنة فقد بدأت تظهر عليها آلام المخاض وهذا دليل على اقتراب موعد الوضع ولهذا تحركت بها إلى موطن القبيلة والتي كانت دائما ما ترسل لنا بالأهل والأقارب للزيارة وأنا كنت بدورى أقوم على زيارتهم بصحبة سلمى ولقائى مع "سليم" وشقيقتها كاملة والتي كان باديا عليها هي الأخرى حالة الحمل.

أثناء السمر والحديث مع صديقى "سليم" أقبل رجلان وجلسنا معًا وتلفت سليم يمنة ويسرى ثم قال هذان الرجلان من خيرة رجال سيناء ، إنهما من منظمة تحرير سيناء ، عقدت المفاجأة لسانى حيث كنت أسمع عما يقوم به هؤلاء الرجال من أعمال لم تذكر بالإذاعة المصرية حفاظا على سرية المعلومات ، أشار لهما سليم وأخبرهما بعملى مما أسعد الرجلين مؤكدين بأن عملا مشتركا سوف يفيد ما يقومان به ، أكدت لهما ذلك ، عاد بصحبتى إلى الكهف بعد أن تركت حبيبتى سلمى التي كانت مثل نسمة طيبة رطبة أقبلت علي بعد قنيط يوم شديد الحرارة من شهر يونيو بالصحراء.

استضفت الرجلين بالكهف فهو محل معيشتى وعملى وجلست مع الضيفين اللذين أمدانى بالكثير من المعلومات عن العدو والذي لا يتمكنان من إرسالها إلى مصر مما دفعنى لأن أخبرهما بأن تلك هي مهمتى الآن ، أخبرتهما بالعبوات

المتفجرة التي معى وقد أسعدهما هذا كما طلبا منى أن أزودهما بأحد الكلاب للمعاونة فطلبت من سحاب مرافقتها وكان شبه رافض. أمرى مما دفعنى لأن أنهره ، نبج نباح الحزن ورافق الرجلين بعد أن حصل علي العديد من القبلات من زوجاته الخمس وأبنائه الثمانية عشر ثم قفز علي أثناء وقوفى لوداع الرجلين ولعق وجهى فتأكد لى أنه يصلحني فاحتضنته وهو واقف مما أسعد الرجلين وأخبرتةما باسمه وأنه خبير بالمفرقات ، تحرك الرجلان برفقة سحاب وقد شعرت بسعادة لتخلصى من هذا المزواج الذى كان سيملاً سيئاً بأجود سلالات الكلاب الألمانية المخصصة للحرب واقتفاء الأثر والكشف عن المفرقات والعتور على المخدرات.

دموع وأحزان

استأنفت الاتصال بالقيادة حيث كنت أمددهم يوميا ببعض المعلومات التي كانت تستغرق خمسا وأربعين ثانية ثم أغلق الجهاز ، كانت المعلومات التي وردتني من الرجلين غاية في الخطورة سواء من نوعية الأسلحة الجديدة الحديثة والتي كانت تندفق علي ميناء العريش حتي تصبح قريبة من ساحة المعارك كذا الإنشاءات الهندسية ، إستمر هذا الحال عشرة أيام حتي انتهت الرسائل فسمعت برنامج ألف سلام أغنية كفاية يا عين للفنان فريد الطرش.

توجهت إلى كهف الشهداء بصحبة روز وجلست أمامهم أقرأ فاتحة الكتاب ترحما عليهم داعيا الله بأن ألحق بهم وأن أصبح علي نفس خطاهم ، مازالت أناجي الشهيد فتحى ولكن تبين لي بعد هذا أنني أناجي الله سبحانه وتعال متسانلا - أنتم حاسين بياه؟ أكيد مبسوطين ، ياه عليكى يا مصر الحبيبة لو مش فيه ناس حلوه وجدعان زى الرجالة دية كانت الناس ماتت ، مصر الحلوة ولدتك وولدت بتوع السجن الحربى ، شيء غريب لكن دى إرادة الله ... ثم وقفت مخاطبا الجميع : حبابيى الشهداء ناوى من بكره ألم صخور وحجاره وأقل عليكم كهفكم احتراما لكم زى اللى حصل مع أهل الكهف ، السلام عليكم أهل الدار الآخرة أنتم السابقون ونحن اللاحقون "بعدها تلوت فاتحة الكتاب".

تركت الكهف وأنا أنظر كل فترة خلفى كأننى ودعت أحبابا عظاما أعرفهم ويعرفوننى ، كنت أنظر من حولي للتعرف علي كيفية الحصول على أحجار من تلك الصخور النارية القاسية؟ ابتعدت بعض الشئ عن الكهف ثم سمعت أصوات أحجار تتساقط ، نظرت خلفى فشاهدت الغبار خارجا من فتحة الكهف أسرع

أعدو حتى وصلت إليه ثم توقفت أمامه لاهث الأنفاس وقد توقف سقوط الأحجار ، نظرت بالداخل حيث كان الظلام حالكا كنت أتساءل:

- ياتري الحجارة وقعت علي الشهداء؟

ترددت بالدخول خوفا من يستمر سقوط الأحجار ولكنني تشجعت بأنني كنت أتمني أن ألحق بهم ، تسللت من فتحة صغيرة ودخلت إلي الكهف بصعوبة فقد أغلق أكثر من ٩٠% منه ، دهشت لأن الأحجار سقط بمقدمة الكهف ولم تسقط علي الشهداء ، حمدت الله وغادرت الكهف ووقفت أمامه أنتظر سقوط حجر أو أكثر حتي يتم غلق الكهف ، لم يحدث هذا وقد أقبل الظلام سريعا ، نظرت من حولي فشاهدت بعض أحجار أستطيع حملها ، توجهت وحملت إحداها لم تكن ثقيلة كما توقعت ، وضعت الحجر ثم أتيت بأخر حتي أتممت إغلاق الكهف علي الشهداء ولم أشاهد خلايا النحل بأعلي الكهف ومن الجائز أنها رحلت إلي مكان آخر بعد أن وصل إليها الأمر بالانتهاء من مهمة حماية الشهداء ، تلك كانت آية من آيات الله المتكررة طول الزمان لكي يعلم الناس بأن الله قادر علي كل شيء.

غادرت المكان والدهشة هي حالي وكل فترة زمنية أحرك رأسي ذات اليمين وذات الشمال ، وصلت إلي بيتي وقلعتي ونظرت إلي الكهف فشاهدت سراجا مضينا فأدهشني هذا وقد توقعت بأن سلمي أنجبت وأقبل أحد أقربائها وأحضرها ، كنت أهرول إلي الكهف مما دفعني للسقوط وإصابة كاحلي بالتواء ، تحملت الألم حتي وصلت المنطقة أمام الكهف والخيمة وأنا أحلم بكل ما هو جميل متسائلا :

- يا تري ولد والابنت؟ كله خير ، ياه على وحشتك يا سلمي دا أنتى لكي حب

كبير في قلبي صحيح بتعاكسيني شوية لكنك حلوه وما فيش بعد كده شقاوة وحلاوة ، توقفت لأحصل علي بعض الهواء فقد أرهقتي الإعياء من كثرة السير وحمل الأحجار ، أرهقت السمع لعلي أسمع بكاء أو "وأوة الطفل" لكني لم أسمع شيئاً ، ناديت:

- أيوه يا سلمي ، عابد جاي بسرعة ودخلت الخيمة مندفعاً فشاهدت "سَلِيم" يجلس وقد غطت الدموع عينيه.

إحتضنته متسائلاً:

- إيه المفاجأة الحلوة دية؟ إمال فين سلمي؟ روح و مترجعشي إلا ومعاك سلمي.
إزداد بكاء الرجل مما دفع بالخوف إلي قلبي فقاومت الخوف وأبدلته ببعض كلمات مشجعة قائلاً:

- أنا عرفت كل حاجة ، نظر إليّ قائلاً:

- ليه محدش شاف سحتك لما عرفت كل حاجه؟ أدهشني تعبيره الخارج عن الذوق واللياقة فأجبته:

- يعني توقعت الحكاية دية

- يا رجل ، أنت مش عندك عجل ولا جلب

- إيه "سَلِيم" ، كلامك النهارده مش كويس ، خلاص يا سيدي العيل مات ربنا يعوضنا عنه ، انفجر صائحاً
- سلمي هيا اللي ماتت.

جلست صامتاً وعادت إليّ ذكري فقدي للنطق بعد حادثة الاعتداء عليّ من رجال السجن الحربي و عيون سَلِيم مازالت تتزف دموعاً بينما أنا تجمدت الدموع بعيني وأصبحت أسمع طنيناً وأشاهد طشاشاً من حولي وأشعر بأن أيادي

كثيرة تهزني وتحركني حتي كدت أن أختق بعد أن شعرت بأن تنفسي توقف ،
شاهدت "سليما" يسرع إلي قائلا:

- "وحد الله يا رجل" مش تعمل في نفسك هادي العمائل ، استمر حديثه بكلام لا
أعي ما يقول أو يحدث لي.

تنبهت علي صوت مشابه لصوت حبيبتي ، لقد كانت كاملة والتي جاءت
تعمل علي إفاقتي من غيبوتي ومحنتي تلك وقد ترك أهل المتوفاة الحزن
واهتموا بي وقد سمعت من يقول:

- هادي الزلمه ح يحصل مرته ، الله يكون في عونہ ، مين يا تري ح يرربي
الطفلة الرضية لما يحصل أمها؟ ربنا يُلطف.

أفقت من محنتي وسعيت لأن أظل حيا من أجل الزهرة الحبيبة التي تركتها لي ،
نهضت وجفت الدمع الذي كان يسيل مني كما يسيل السيل المندفغ من أعلي
الجبل ، نهضت وشاهدت رجال القبيلة ونساءها وعلمت بأن سليم نقلني علي
ظهر الجمل وعاد بي إلي القبيلة خشية علي حالي مما ألم بي أمامه ، أشرت إلي
كاملة وطلبت رؤية سلمي فأمسكت بيدي ودخلت إلي الخيمة وشاهدتها تنام دون
حرك وضياء وجهها الصافي يحيط بمكان رقود جسدها ، انحنيت أرضا وقبلت
يدها ثم جبينها متحدئا معها:

- سلمي ، مش ح أتأخر عليك ح أربي بنتنا وأحصلك ، أنا عارف إنك في الجنة
لأن اللي بتموت وهيا بتولد يكون مكانها الجنة ، أي والله كنت أسمع الناس
العواجيز حوالين مسجد سيدي المرسي أبي العباس بيقولوا كده.

أثناء الليل ظل بعض الرجال يتلوون آيات من القرآن الكريم وأنا بعيد الذهن
عنهم حيث كنت أحلق مع سلمي في الماضي منذ أول لقاء تم بيننا حين أقبلت

بصحة شقيقتها كاملة بعد أن أرسلهم سليم للاطمئنان علي حالي ، كنت أيامها عاجزا عن كل شيء فما زلت أبكم ولا أحمل معي طعاما أو شرابا وأنام أرضا فوق الحصي وطال شعر رأسي ولا أشاهد إنسانا أحادثه وظل شريط الذكريات معها حتي آخر لقاء وهي تضاحكني رغم آلام الحمل بأن أقوم علي "إخصاء" سحاب متسائلة:

- ح تربي ولادك وإلا ولاد سحاب؟

لقد كان هذا هو سؤال المستقبل يا ابنة الشيخ رمضان ، أقبل صباح يوم جديد وفيه تنعي الدنيا فراق تلك العروس الرقيقة ، توجهت مع الرجال ورفعنا الفقيدة إلي مثواها الأخير ، كنت علي وشك القفز بالحفرة التي ستهال عليها الرمال ولكنني شاهدت صورة الرضيعة تشير إلي باكية "حرام مش عايزه أبقي يتيمة الأب والأم" ، عدت مسرعا من أفكاري وشعرت بأن الشيطان كاد أن يسيطر علي.

إنتهت إجراءات الدفن وتلقي العزاء وكدت أعاذر المكان قبل أن أشاهد ابنتي الحبيبة والتي كان ثمن حضورها للدنيا باهظا حيث لاقت أمها ربها ، أقبلت علي كاملة تحمل الطفلة ، شعرت بأن الدنيا بدأت من جديد فقد كان شكلها وحجمها الصغير وهي تخرج صرخاتها بصعوبة يلمس أوتار قلبي فيعزف لحن الخلود ، قبلتها وشعرت برائحة سلمي ، سلمتي كاملة مندبل يد سلمي والتي طلبت منها أن تسلمه لي وعلمت بأن هذا المندبل الذي كانت كاملة تجفف به عرق سلمي من أثر "حمي النفاس" والذي لم يستطع شيخ القبيلة أن يعثر لها علي مكان بمستشفى العريش العسكري حيث كانت مكتظة بالعسكريين الإسرانيليين الذين قتلوا أو أصيبوا خلال الأسابيع الماضية قبيل إيقاف إطلاق النار.

تركت العائلة رغم المحاولات العديدة لإثنائي عن البعد عنهم حتى أستأنس بهم وأبتعد عن شبح الحزن ولكن شبح الحزن غادر موقعه وحل محله شهاب النصر وشهاب ابنتي وقد نسيت أن أعرف ما اسمها فأسرعت بالعودة متسائلا " ما اسمها وعلمت بأنها لم تسم بعد وطلبوا مني تخير اسم لها ، لم أفكر وقلت " رقية" وقد أسعدهم هذا الاسم ولا أعلم سببا لذلك.

عدت إلي أحبائي أبناء قبيلة أبي طربوش وقد أقبلت عليّ روز لتعرب لي عن خالص حزنها بأن لعقت وجهي ويدي مرات عدة وجلست أمامي أرضا ووضعت أنفها بأرضية الكهف وكل فترة تطلق نباح الحزن الذي كان يتردد صداها بين أجناب الكهف ، أقبلت بناتها وأحفادها الصغار والتف الجميع من حولي ثم أقبلت الماعز والأغنام وكان لسان حالهم يتساءل أين حبيبتنا سلمى التي كانت تجمع العشب وتضعه أمامنا؟ أين تلك الحبيبة التي بأصابعها الرقيقة الناعمة كانت تجعل الضرع يتساقط منه اللبن دون جهد أو عناء ، نعلم أنها رحلت بجسدها ولكنها لن ترحل من ذاكرتنا ، اقترب مني البعض مُحركا قرونه يهزني كأنه يشد من أزري.

اليوم التالي جاست هادئا أمام الكهف حتى المساء لدرجة أنني لم أتناول طعاما أو شرابا فشاهدت روز تدفع بإحدى الماعز قريبا مني وكان باديا عليها أن ضرعها منتفخ وممتلئ باللبن ، تنبتهت وحلبت بعضها منها وارتويت وُعدت إلي شرودي وتأملاتي ومن حين لآخر أخرج منديل سلمى الذي يحمل عبق رائحتها قبيل الرحيل فأقبله وأحصل علي شهيقة عميق كي أسعد روحي وأنفي برائحتها الطيبة.

اليوم الثالث وهو يوم إذاعة برنامج ألف سلام ومن خلاله سمعت مواساة

وعزاء الأصدقاء لفقدى لزوجتي مع إهداء أغنية شادية ليالي العمر معدودة ، بعد سماعي لتلك الأغنية هاجت مشاعري حتي كدبت أن أصاب بالعمي من كثرة البكاء وقد اجتمعت الحيوانات جميعها من حولي ولا أشعر بما كانت تتصرف به أو تقول حتي أن الكلاب الصغيرة اقتشنت حجري وأصبحت مثل البائع الذي يقوم ببيع الكلاب بالسوق ، من حين لآخر كنت أشاهد أقدام روز الأمامية وهي تسمح عن عيونها شيئاً ما حيث كنت أفكر هل تبكي مثلي؟ وقد تبين هذا فإن تلك الحيوانات تتأثر أكثر من الإنسان حيث من ينطق يعبر عن مشاعره أما الأبيكم فلا يستطيع فيعبر عنه بالصراخ والدموع وهذا ما لمستهُ أثناء حالة البكم التي عشتها أشهراً طويلاً.

وصلت إليّ التعليمات علي نفس البرنامج في صورة حوار بين رجلين التقيا بالمذبة وهي تتساءل إلي أين كنتما تتجهان وكانت الإجابة بالعودة إلي الشمال فهذا أيسر وأحسن وسوف يفيد أبنائي أما هنا فقد ضاق بي الحال وجف المداد وحين طلبت منهما سماع أغنية ما طلبا أغنية محمد عبدالوهاب يا مسافر وحدك وفابتني.

أهاجت تلك الأغنية جبل الذكريات مع حبيبتي سلمي وعادت بي إلي حالة الشجن والألم مرة أخرى ، أشرت إلي أحبائي بأننا سوف نغادر المكان وأشرت إلي روز ليلا جهة النجم القطبي بأنه من باكر سوف نتجه إلي هذا المكان ، هزت ذيلها المقطوع وكأنها تتساءل وما مصير سحاب فأشرت إليها بأنه سوف يعود قريباً ويلحق بنا.

صباحاً هب الجميع إلي الطعام وشربوا الماء وملأت بعض الأوعية وتحركنا لنغادر هذا المكان الذي بدأ مقفراً بعد أن أصبح غنياً مبهجاً ثم عاد إلي أول عهده

مقفرا بعد تلاشي ضوء شهاب سلمي ، كان تحركنا بطيئا حيث لم تتجاوز أعمار بعض الكلاب الشهرين والتي كانت تتوقف ويشد نباحها طالبة الطعام فتسرع الأمهات لعملية الرضاعة ، كنت أنظر حولي وهذا العدد الغفير من الكلاب والماعز والخراف غير مالوف حيث كثرة الكلاب واضحة ، اقترب مخزون المياه من النفاذ فالأمهات يرضعن أطفالهن ومعى الكثير منهن.

الحمد لله بفضل روز وشجاعته وإخلاصها وصلنا إلي المحور الأوسط بعد أن قطعنا حوالي ٢٥٠ كيلومترا في خمسة أيام تحت أشعة الشمس الحارقة وقد أصاب الإرهاق من معي والذين كانوا علي مستوي عال من التحمل ، هناك وبواسطة أسراب طيور الغربان عثرنا علي بئر ماء ضخمة تشبه بركة الماء ويطلق عليها " سد الروافع " ويجمع المياه من آثار سيول الأمطار والتي تصب في هذا المكان ، عشنا بهذا المكان فالماء متوفر بالإضافة إلي الأعشاب وقد شاهدت روز والأمهات الصغار وهم يقومون بحالات القنص والصيد للعديد من الحيوانات البرية بالمنطقة كما تمتعت الماعز والخراف بالنباتات المنتشرة حول البركة وأصبح الطعام متوافرا ، بعد أن شعرت أن الصغار حصلوا علي اللبن من الأمهات توجهت إلى إحدي الماعز وعينت ضرعها الممتلى باللبن فعبئت منه وارتويت وحمدت الله ، لقد قطعنا شوطا طويلا للوصول إلي الشمال كما وصلتني التعليمات ، كنت في شغف لسماع أى تعليمات أخري ، غدا موعد البرنامج ، سعدت بمقدمة البرنامج وموسيقاه الجميلة ، سمعت إهداء من عم شحاتة وجميع العاملين بالمزلقانات بخفير نكلا الجدد والذي يهتم بعمله وهم يواسوته علي فقد زوجته ويقدمون له أغنية "بيت العز يا بيتنا" للمطربة فائزة أحمد.

ادهشني هذا ولم أتعرف علي حل لهذا اللغز ، بعد خمسة أيام أكملت سيرتي مع كتيبة أبى طربوش متجهين شمالا ، مضي علينا يومان دون العثور علي ماء وقد وصل بنا الظمأ أشده وسقط من جراء هذا بعض الرضع من الجوع والعطش وقد خيم شبح الموت علينا خاصة أنني كنت أحمل أثقالا متمثلة بالعبوات المتفجرة والقتال اليدوية والمفجرات وجهاز الراديو ، قبيل ظلام اليوم الثالث ونحن في حالة من الإعياء شاهدت رجلا بدويا يركب الجمل مقتربا منا ، حاولت الكلاب النباح ولكن صوتها لم يخرج من فمها ، نهضت أشير إليه ولكني سقطت من الإعياء .

تنبهت وقد غطي الظلام المكان وشاهدت الرجل البدوي يُقرب الماء من فمي ولا حظت أن الكلاب والحيوانات الأخرى تشرب الماء وقد عمدت الحركة والنشاط بينهم ، تناولت الماء وبعد عدة دقائق تناولت جرعة أخرى وشعرت بأنني أحياء مثل الآخرين ، كدت أصرخ حينما شاهدت ملامح الرجل حيث التبس علي شكله لكن صوته لم يلتبس علي حيث حادثته قائلا:

- عم أبو السعادات!!! تنبه الرجل متسائلا:

- كيفك؟ الزلمه يعرفني؟

- أيوه .. أنا عابدي!!

- عابدي ، هون عابدي هذا؟

- عابدي خطيب بنتك رقية!!!!

بيت العز

كانت النظرات الأولى المتبادلة بيني وبين عم أبى السعادات حافلة بالأسئلة

والترحاب وكل المشاعر الطيبة ومن حديثي معه علمت كل ما حدث لأسرته خلال السنوات الثلاث الماضية والرسائل والأغاني التي كنت أرسل بها إلي أسرته وابنته "رقية" ، كان الرجلُ مشجعا لحالة الحب التي تولدت بيني وبين ابنته رغم بعض التقاليد التي تسيطر على أبناء سيناء لكن هذا الرجل اختبر الحب في بداية شبابه وتزوج عن قناعة بمن أحبها ورغم أن القبيلة قاومت حبه ونفته مع أسرته ورغم كل هذا ظل متمسكا بالحبوبة وتزوجها وأنجب منها البنين والبنات ومن أجل هذا كان الرجل يشعر بأن ابنته تعيد التجربة للمرة الثانية وأنها تسير علي درب الأب والأم معا.

كان يحدثني عن عروض الزواج التي عرضت علي ابنته وهي رافضة كل تلك العروض حتي أن شقيقتها الصغرى "عائشة" عرض عليها الزواج أيضا ولم تقنع إلا بعد زواج رقية بمن تحب وقد هاجمهم الهاجس بعدم عودتي إليهم مرة ثانية لانشغالي بما يحدث بمصر أثناء العمل بل أنه من المحتمل أن يعترض أهلي علي زواجي من بنات سيناء مثلما اعترض أهله علي زواجه من بنات الإسماعيلية.

علمت منه بأنه كان يقوم بعرض بضاعته علي بعض قبائل المحور الأوسط وهو الآن عائد إلي بيته وأسرته مجبور الخاطر حيث بيعت كل بضاعته وتسلم أمواله فورا حيث كان الإسرائيليون راغبين في إسعاد البدو بسيناء فأمدوهم بالمال حتي تحدث مقارنة بما كان يتم معهم أثناء الحكم السابق من أبناء وطنهم والآن.

اليوم الثالث لهذا اللقاء غير المتوقع وقد تبدل الحال وعاد النشاط لأبناء قبيلة أبي طربوش بعد أن فقدنا خمسة رضع من الكلاب ومعزة واحدة من جراء

العطش والجوع وجفاف ضرع الأمهات ، واصلنا تقدمنا بصحبة عم أبي السعادات متجهين إلي بيته "بيت العز" حيث تفهمت الشفرة الآن.

كان كل ما يلقاني خلال الأيام السابقة هي التعليمات الصادرة لي بأن كل ما أقوم به هو الحصول علي المعلومات فقط ولا أزج بنفسي في أي مناقشات فكل شخص محدد له عمل ، هذه هي التعليمات الصادرة لي من القيادة ويجب عليّ تنفيذها فالقيادة تعلم كل شئ وهذا ما أثبتته الأيام والشهور الماضية فقد علموا بنية الزواج من الراحلة سلمي ثم أرسلوا لي تلك الهدايا ؛ إذا لا بد أن هناك أشخاصا آخرين يفتقون أثري ويعلمون كل شئ عني ولهذا لم أعد أخالف التعليمات رغم عثوري علي أهداف معادية أستطيع بكنية كلاب أبي طربوش أن أحدث بهم خسائر ولكنني كنت أراجع رغم خبرة الكلاب وتوافر المعلومات وعبوات النسف بناء علي تلك التعليمات التي تصدر للتنفيذ وليس للمراجعة والمساومة فهذا هو وضع الجيوش النظامية العريقة.

واصلت مشواري إلي الشمال بصحبة أبي السعادات حيث كانت وجهته داره بمنطقة الشيخ زويد ، كل ما أخبرني به من معلومات سواء الحديثة أو القديمة كان له أثر كبير في تصور الوضع العام بشمال سيناء فالرجل ينتقل من مكان إلي آخر مصحوبا بتصريح يحدد له المناطق المسموح له بالتجول بها ولهذا لم تحدث له مشاكل تذكر إلا في بعض الأحيان حين يقاجأ بالتفتيش لما يحمله ويكتشف أفراد الجيش الإسرائيلي بأن الرجل يحمل ملابس وأقمشة تخص النساء وفي غالب الأمر كان الإسرائيليون يعلمون كل شئ عنه.

واصلنا السير لمدة أربعة أيام متواصلة قطعنا خلالها ثمانين كيلو مترا وكان لوجود أبي السعادات معنا فائدة كبيرة حيث كنا نسلك الطرق الآمنة ومصادر

المياه التي يعلم أماكنها كما أنه وضع الكلاب والماعز الصغيرة فوق الجمل مما ساعدنا علي التحرك بسرعة في وقت أقل عن السابق ولم يكن يتوقف إلا حين سماعه نباح الكلاب الصغيرة برغبتها بالطعام فنحصل علي راحة حيث أشاهد الكلاب والماعز والخراف الصغيرة تسرع كل منها إلي أمها والتي تعرفها وتشم رائحتها فتستقبل الأم رضيعها بكل حنان من لعق جسده ثم يضع حلمة الثدي أو الضرع في فمه محدثا أصواتا صغيرة مناسبة لحجمه كأنه يخيف الآخرين بأن ابتعدوا عني وبعد امتلاء البطون تبدأ الألعاب البهلوانية فوق ظهر الأم ومشاهدة إخوته.

ما أشاهده كان يبعث في نفسي الشجن والحب ويدفع بي إلي تذكر ابنتي الرضيعة "رقية" متسائلا هل تحصل علي رضعتي من خالتها كاملة التي أنجبت صغيرها الذكر وقد وعدتني قائلة لا تشغل بالك برقية وسوف أكون الأم البديلة لها وطيب من خاطري في آخر لقاء شاهدتها فيه وكان هو اللقاء الأول والأخير ، طفرت من عيني بعض الدموع لما حدث لي ولسلمي ورضيعتنا الصغيرة ، نهضت مستغفرا الله وأديت صلاة العصر وشكرت الله علي ما يمنحنا إياه من نعم فهو الموجه والسند لبني البشر بل لتلك الحيوانات العجماء.

اليوم الخامس وأثناء السير شعرت بنسمات البحر تهب علينا وهذا يدل علي أننا اقتربنا من الوصول إلي بيت العز التي طلبت مني القيادة أن أقرب منه كي أرسل لها بكل المعلومات الخاصة بالعدو من هذا المحور الذي يعتبر من أهم محاور سيناء في التحركات العسكرية ، نظر إلي أبو السعادات كأنه يخبرني بأنه راغب بأن أنتظر حتي يعلم أهل بيته بقدم ضيف عليهم بالغد وما استنجنه أوضحه لي بعد قليل حيث قال:

كيفك عابد ، والله بدي تحك ظهرك هذا اليوم بتلك المنطجة وتعود علي الدار
باكر كيف يعلم الحريم بالدار أن الزلما عابد جادم علي زيارتنا كيف يستجبلوك
أحسن استجبال يليج بجيمتك ومحبتنا لك ، الدار جريبة بعد مسيرة ساعتين فبط
ح تلمح الدار جريبة من البحر كيف تركتها ، والله الصبايا بناتي عشجوك يا
زلمه كيف ابني عيد.

وافقتة الراي رعم شوقي إلي رؤية رقية فحبي لها لم يفتر رعم زواجي لكن
بعد وفاة سلمي ازداد حبي لها أكثر فكنت راغبا بمن يعوضني ما فقدته بل فكرت
بالمستقبل بان أحمل رقية الصغيرة لتحيا بيننا ونعيش أسفل سقف واحد حتي لا
أشتت بين شمال وجنوب سيناء ، أشرت إليه بصحة الراي فترك لنا المياه التي
معه وكانت كميتها معقولة تناسب الأمهات الرضع ولم تكن هناك أية مشكلة
تذكر فالعشب متوافر وبعض الحيوانات الصغيرة أشاهدها تجوب المنطقة وما
لروز من براعة في الاصطياد بسهولة.

غادرنا أبو السعادات وظللت أتذكر لقاء الغد وهل مازالت رقية علي حالها
وهل مازلت فتي أحلامها التي اقتنعت به أم أن السنين والشهور الماضية مسحت
هذا الحب تحت وطأة الزمن ومشاكل الحياة اليومية واليأس من عودتي مرة
أخري ، عاد إلي حديث والدها بأن أسرته والصبايا بالدار يعشقونني ولا يقول
هذا الرجل للرصين مثل هذا الكلام إلا إذا كان متأكدا من تلك المشاعر أو أن
زوجته زهرة أخبرته عنها مرات عدة ، وهذا ما منع الأسرة من عدم الموافقة
علي من تقدم من الشباب إلي رقية يخطب ودها راغبا بالزواج بها.
أمضيت ليلتي تلك ساهما وطارت بي الذكريات إلي نهاية عام ١٩٦٧ وقد بلغ
الحب أشده بيني وبين رقية هذا الحب الذي كدت أن أهدمه بعدم الأمانة علي

نساء الدار رغم أن الأم أخبرتني أمامهن بأنني شقيقتهم والبديل عن ابنها عيد بل أطلقت عليّ هذا الاسم وهذا دليل قوي عليّ ثقتها بي وحبهم لي أيضا ، الحمد لله قتلها وأنا صاحب في ذكرياتي وقد غلفتها المشاعر الإنسانية الرقيقة الطيبة لتلك الأسرة وشعرت أن المصريين شعب رقيق المشاعرُ محب للخير حتي لو بدرت منه بعض بوادر العنف أو أي شئ غير عقلاني في التعامل.

مازالت ذكري ما حدث لي علي يد رجال السجن الحربي تعاودني من حين لآخر وكدت أحقد عليهم لاعنا هؤلاء الناس ثم تذكرت الشاويش خربوش الذي توجه من تلقاء نفسه للشرطة العسكرية واعترف بما قام به من التعدي علي شخصي مما فتح باب التحقيقات الواسعة للمسئولين هناك وأدي في النهاية إلي محاكمتهم جميعا أمام محكمة عسكرية أدت في النهاية إلي طردهم من الخدمة وأودعتهم نفس عنابر السجن أعواما طويلة ولولا شجاعة خربوش واستيقاظ ضميره ما علم أحد بما حدث لي أو لآخرين ، أسعدني تمتع شعب مصر بتلك الصفات الطيبة رغم أنه في بعض الأحيان أشاهد بعض الناس يُسارعون بالغضب لكن بعد دقائق يزول هذا ويتدخل المصلحون لتقريب وجهات النظر مما أدي في النهاية إلي اختراع كلمة "معلشي.. وده غلبان سييه ياكل عيش .. وبلاش خراب بيوت ؛ حتروح من الله فين" " وقائمة كبيرة من تلك التعبيرات الطيبة.

ما أحلي الرجوع إليه

استيقظت صباح اليوم التالي واغتسلت وهدمت من ملابسي وتناولت طعام إفطاري مع الأمهات وذكري الماعز والخراف "التيس" حيث كانت الأمهات قد

انتهت من إرضاع الصغار ، تحركنا في اتجاه البحر قاصدين دار أبي السعادات ، كان الطريق قصير المسافة طويلاً علي النفس المشتاقة المحبة ، مازلنا نسير حتي شاهنت الدار عن بعد ، كدت أهول مسرعا ولكني تماسكت حتي لا أصل مرهق البدن كما خشيت علي الصغار التي لن تستطيع اللحاق بالأمهات مما يدفع بها للمكوث بجوارهم وبهذا أبعثر كتيبة أبي طربوش.

استقبلتنا أصوات نباح الكلاب لديهم وقد أجابتهم كلابنا بنفس اللغة والتي وضح منها أنها ليست عدائية ، خرج علي أثر سماع أصوات هذا النباح الصغيرة زينب وقد نمي عودها وصارت أطول وأصلب بنيانا ، أسرعت شقيقتها عائشة خلفها وهي تنظر إلينا بدهشة وتساءلت من تكون؟ تأكد لي بأن أبا السعادات لم يخبر أسرته بأنني قادمة لزيارتهم ، اقتربت أكثر وقد تنبهت زينب حيث هتفت:

- خوي عابد

اندفعت إلي فرعتها بصعوبة لأعلي وقبلتها من وجنتيها مثلما كنت أفعل بالسابق ، أسرعت إلي عائشة هي الأخرى وأصبحت عروساً ناضجة فصافحتني بشدة باسمه وسمعت صوتها عاليا وهي تنادي شقيقتها:

- رجيه ، تعالي وشوفي مين بدارنا؟

شاهدت رقية تغادر باب الدار وقد نمي جسدها أيضا وأصبحت أنسة رقيقة الملامح وقد ظهر بهاؤها وأصبحت عروساً جميلة وتقدمت ناحيتنا وهي مضطربة كأنها تتساءل هل هذا عابد أم شخص آخر ، اقتربت مني فاتجهت إلي لقائنا وتوقفنا أمام بعضنا البعض تنظر إلي وأنا باسم الثغر أنظر إليها ، كانت مشاعري سريعة ومضطربة وشيء يدفع بي بالاقتراب منها واحتضانها لأنها

خطيبي وشيء آخر يمنعي طالبا مني الصبر وبأن التقاليد لها اليد العليا ،
أسكت بيدها مصافحا ووضعت جبهتي علي جبهتها وملست علي ما ظهر من
شعر رأسها الطويل أسفل الإيشارب التي تضعه علي رأسها مثل أمها وباقي
شقيقاتها وهمست بأذنها:

- يا حبي .. تورد خذاها بحمرة الخجل المناسبة لسنها وحياتها ولم تستطع الإجابة
، قطع علينا سحابة الغرام تلك ظهور والديها علي عتبة الدار حيث سمعت
الخالة زهرة تزغردُ مرحبة بالحبيب العائد بعد سنين طوال ، تقدمت منها ممسكا
بيد رقية خشية أن تضع مني مرة ثانية بينما تكفلت عائشة بزملاني بكتيبة أبي
طربوش وأوتهم إلي الحظائر مع أقرانهم من نفس الفصيلة.

تلاقت الأيادي بالتحية مع الخالة زهرة التي تورد وجهها الرقيق الجميل ثم
ظهرت من خلفها ابنتها نغيسة مرحبة بي هي الأخرى ، أخيرا جلست بالمجدد
"الأنثريه أو الصالون" والتفت الأسرة من حولي والبعض تحدث بآثني أصبحت
أشد قوة وصلابة عن ذي قبل وأخري توضح بأن ازداد لون وجهي سمرة وهذا
دليل علي تعرضي لأشعة الشمس فترة طويلة ، نهضت كي أؤدي صلاة الظهر
فقد اقترب موعد صلاة العصر ، عدت من صلاتي وقد أعدت المائدة العامرة
باطيب الطعام ثم سألت عائشة والدها هل عابد هو الشخص الذي أخبرتنا بأنه
قادم بالغد لزيارتنا وعلينا استقباله أحسن استقبال ونعد له طعاما جيدا؟ ابتسم
وحرك رأسه مما دفع الفتيات للضحك ، تناولنا طعامنا وتحدث الجميع باستثناء
رقية التي كانت راغبة في سماع حديثي لها وحدها فأنا هنا من أجلها وهي
الأخرى حبست نفسها عن الزواج من أجلي فلا أقل من أن نجلس بمعزل عن
الأخرين كل منا يبث الآخر لواعج فراق السنوات الماضية.

أسرع النهار بالمغيب وحل الظلام مكان ضوء الشمس الدافئ للندى ، مرت
الساعات سريعاً مع الأسرة الطيبة والتي لي ضلع لديهم وهي رقية ، أشار إليّ
أبو السعادات بأن حجرتي مازالت تنتظرني ، ودعتهم وصعدت إلي حجرتي
برشاقة أحسد عليها فقد دفعت دماء الحب بجسدي للنشاط والحيوية محاولة طي
صفحة الشهر الماضي برحيل سلمي ، ظللت جالساً بأعلي السطح حيث كنت
أسمع هدير الأمواج كما حدث منذ ثلاثة أعوام مضت كما عطرت أنفي رائحة
اليود المتصاعد من أمواج البحر وحركت شغاف قلبي ما شاهدته علي رقية من
نمو لجسدها انعكس بالتالي علي مفاتها.

مضي من المساء عدة ساعات وسمعت صوت صعودها للسلم وشممت
رائحتها التي لا أستطيع نسيانها حيث لا يستطيع أحد التحكم في حاسة الشم
فالأنف تشم والأذن تسمع دون أي سيطرة مني علي تلك الحواس ، شاهدتها تقف
أمامي وقد انعكس ضياء القمر الساقط علي صفحة الماء فأضاء سطح الدار
بضياء أبيض شفاف وأقبل من خلف رقية فحدد حدود وملامح جسدها وهي تقف
أمامي وقد أمسكت يدها باليد الأخرى ، أشرت إليها بأن تجلس بجواري هزت
رأسها غير موافقة بل أشارت إليّ بأن أنهض وأقف أمامها ، نهضت ووقفت
أمامها فانعكس ضياء القمر علي وجهي فاقتربت مني قائلة:

- كان لي حج اني ما أجوزشي غيرك

قبلت كفي يدها فكادت تسقط أرضاً وهي تسحب كفي يدها من يدي وضحكت

قائلة:

- كهارب .. كهارب

أخيراً جلسنا أرضاً نتحدث وأنا ألاعب بعض خصلات شعرها التي طارت

بفعل هواء البحر بجانب خديها ، طالبت النظرات ثم أخبرتني بأنها سوف تهبط الآن عائدة إلي حجرتها ولنا لقاء بالغد فجرعة اليوم كبيرة ويكفي هذا ولنؤجل الحديث والنظرات لباكر ، نهضت فنهضت معها وقبلت يدها فطابت مني ألا أفعل ذلك فهي تخشي علي نفسها من السقوط من فوق السلم لما تحدثه تلك القبلة بمشاعرها وأعصابها ، هبطت علي مراحل وكل مرحلة أو كل عرضة سلم تهبط تقف عليها ومازالت تنظر إليّ حتي هبطت لصحن الدار ورفعت يدها اليمني بعلامة القبلة بالهواء واختفت عن عيوني.

هكذا عدت إلي بيت العز وشعرت بالهناء بعد العذاب وارتويت حبا وعطفا بعد الأم وعذاب فراق زوجتي الأولى سلمي ، نمت بهدوء وسعادة كما لم أنم من قبل ونهضت بالصباح أحسن حالا وأسعدتني ليلة الأمل المبهجة خاصة أنني شعرت بأن رقية نمي جسدها حيث قام "خراط" البنات بفعله معها مما أصبحت عليه أحسن بهاء ورونقا وقد صقلتها السنوات الثلاث الماضية وقد أعدتها أمها لتكون زوجة وأما ، قضيت عدة أيام ثم غادرت الدار لمدة أسبوع حيث كنت مكلفا بعمل مهم وهذا ما أخبرت به العائلة ولم يحاول أحد منهم معرفة العمل المنوط بي فهم يعلمون بأن عملي يغلفه السرية والكتمان ، اصطحبت أحد الكلاب الشابة معي وتركت روز ترعي باقي أسرتها ، تحركت لاتجاه ما حيث كنت راغبا بأن أقترب من ميناء العريش لرصد كل ما يحدث به من تحركات ، لقد توقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل وأعقب هذا وفاة الرئيس جمال عبدالناصر وشعرت بالحزن والضيق بأن نفقد القائد في منتصف طريق التحرير لكن مصر ولادة وسوف يأتي من يستطيع أن يكمل مسيرة الكفاح.

التزمت أحد الأماكن أسفل بعض أشجار النخيل التي أمامي مباشرة وبجوارها

بيارة والتي كنت أشاهد بعضها قبيل حرب عام ١٩٦٧ إن البيارات بشمال سيناء آية من آيات الله هناك ، فيبعد أن تقطع مسافة بين الرمال الناعمة والتي تؤثر علي السير تفاجأ وأنت بأعلي هضاب الكثبان بوادٍ صغير ضيق بين تلك الكثبان الرملية لكن بهذا الوادي بقعة خضراء يحيط بها محيط من الرمال الصفراء ، هبطت وهناك شاهدت عين مياه ساحرة نقية رائحة الطعم لا يزيد قطرها عن المترين وعمقها لا يزيد عن الربع متر وتخرج منها المياه من باطن الأرض باستمرار حيث يحصل البعض منها علي الماء ، يحيط بتلك العين أشجار الرمان والتين والعنب والزيتون والنخيل وبعض الأعشاب التي تتغذي عليها الجمال والأغنام والهواء العليل يحيط بتلك المنطقة بالإضافة إلي ظلال الخضرة اليانعة.

في الموعد المحدد قمت بفتح جهاز الإرسال وأرسلت بأول رسالة قدمت خلالها بعض البيانات التي أخبرني بها أبو السعادات ، ظلت علي هذا الحال خمسة أيام انتهيت خلالها من إرسال كل ما علمته من أخبار منقولة وليست مشاهدة عينية حيث كنت أنهي الرسالة بأنها منقولة دون ذكر المصدر ، قررت العودة إلي دار أبي السعادات وأثناء عودتي شاهدت أرتالا من الناقلات الضخمة للجيش الإسرائيلي وهي تحمل معدات عسكرية ، ظلت بمكاني هذا عدة أيام دون إرسال آية رسائل حتي أعلم ما تنقله تلك الناقلات التي كانت متشابهة فيما تحمله وأيضا في حجم وشكل المنقول فوقها كما أنها كانت مغطاة بمشمع سميك ، في إحدى المرات توقفت إحدى تلك الشاحنات ونزل منها بعض الجنود يعيدون ربط المشع فوقها مما ساعدني بأن أشاهد ما تنقله ، كان من الواضح أنها تشويينات هندسية من الحديد والأسمنت وما شابه ذلك ، ظلت علي هذا الحال خمسة أيام أخري ثم ابتعدت عن المكان وأرسلت برسالتي تلك إلي

في موعد إذاعة البرنامج تلقيت رسالة من القيادة سمعت خلالها حوار غنائي بين الأسطي فوزي والصبي "بلية" يأمره فيها بأن يعود لمراجعة الماكينة حتى يتأكد من جودة إصلاحها ، تلك الجملة أكدت لي بأنه يجب علي أن أكرر مراقبة تلك القوافل والشاحنات العملاقة فالقيادة راغبة بالمزيد لتخرج بالاستنتاجات الخاصة بالعرض من إرسال تلك المعدات ، توجهت ثانية لمراقبة الطريق المغادر لميناء العريش متخذاً مكاناً آخر حتي لا يرتاب أحد بي حيث كنت أنفن الجهاز بمكان يبعد عني أكثر من كيلومتر وشاهدت نفس المعدات مع شحن لؤادر وبلدوزرات ، وهذا يؤكد ما سبق مراقبته بأن هناك تجهيزات هندسية سوف يقوم بها العدو ، قمت بإبلاغ الرسالة وبعد هذا عدت إلي دار رقية حيث استقبلتني الأسرة بترحاب وحب كعادتهم.

تحدثت مع والد رقية بخصوص زواجنا وهل من المناسب الزواج الآن أو أن هناك رأياً آخر بداخل الأسرة وقد كانت إجابة الرجل منطقية حيث أخبرني بأن رقية إنتظرتك لمدة ثلاثة أعوام وهذا يعني بأنها راغبة بك ولهذا فنحن ننتظر مشورتك ورغبتك ، أسعدني حديثه الشيق وأكدت له أنه خلال شهر سوف أنهى الكثير مما أقوم به بعدها نستعد للزواج وبالتالي انتشر الخبر بداخل الأسرة فعم الفرح والسرور.

طلبت مني القيادة دخول مدينة العريش وعلي الحذر لكي أنقل إليهم بعض معلومات عن الجيش الإسرائيلي ومشاعر أبناء العريش تجاه المحتلين ، المطلب كان صعباً للغاية ولهذا طلبت من روز أن ترافقني فأسعدنا هذا حيث كانت تشعر في الأونة الأخيرة أنني أهملتها بعد حضور سحاب ، توجهنا إلي مدينة

العريش ومن حسن حظي أنني لم أكن أحمل معي جهاز الإرسال فإذا بدورية تستوقفني راغبة بمشاهدة تصريح السير الذي أحمله ، أخبرتهم بأنه فقد مني خلال السيول التي حدثت بداية هذا العام وأنني متجه للعريش بخصوص هذا الشأن.

تشكك قائد الدورية في حديثي معه خاصة حين شاهد روز وأخبر زملاءه بأن هذا كلب من سلالة نادرة وأنه من الكلاب التي تقتنيها وحدات الكوماندز الإسرائيلية ، توجه أحدهم لربط روز بحزام من الجلد فهاجمته فالتف بعضهم حولها راغبين بالإمساك بها حتي إذا تكالبوا عليها أصدرت نباحها الحزين فحاولت التدخل لمساعدتها مما ساعد روز علي الهرب وسقطت أنا بأيديهم بعد أن أصابتي بعض الجروح أثناء الشجار معهم ، نقلتني الدورية إلي أحد المعسكرات القريبة من مدينة العريش وهو معسكر لإيواء المجرمين المشكوك في تصرفاتهم وسلوكهم ، بداخل المعسكر شاهدت أحد الرجال الذي التقيته مع سليم ودفعت بسحاب لمساعدته وزميله ، فوجئ الرجل بي وسألته عن سحاب فأخبرني بأنه هرب من الأسر حين كان معه وما زال مقيما مع زملائه وقد ساعدهم كثيرا في بعض العمليات الناجحة ، طلب مني مساعدتهم بإمدادهم ببعض المتفجرات المزودة بمفجر ميقاتي "زمني" ، أخبرته بمكانها طالبا منه الاحتراز حتي لا يعلم العدو عنها مع ترك البعض منها لي فمن الجائز أن أستطيع الهرب وأستكمل باقي نشاطي ضد العدو ، بعد مضي عدة أيام تم الإفراج عن هذا الرجل والذي يدعي مسعد.

بعد مضي أسبوع علي بهذا السجن الصغير حيث كنت أقيم بحجرة من الطوب والأسمنت وعلي بابها يقف حارس مزود بالسلاح ويقدم لي الطعام مرة

واحدة وهو عبارة عن كرنب مسلووق وطعمه سيئ للغاية ، ليللا والهدوء يغمر المعسكر شعرت وسمعت بحركة من الطاقة الحديدية التي يدخل من خلالها ضوء الشمس وتيار الهواء لداخل الغرفة ، نظرت فإذ بي أشاهد سحب ومسعد معا فكنت أصرخ فرحا حيث بحث عني سحب حتي عثر عليّ وأقبل الاثنان علي زيارتي مثل أي مسجون يقوم أفراد أسرته بزيارته سمعت بعض الأصوات وقد أخبرني مسعد وهو بطل من أبطال المقاومة بسيناء بأن عليّ الانتظار بعض الوقت وسوف يتم الإفراج عنك وعن بعض الأسري الآخرين من زملائي وما عليك سوي السكون والاحتراز.

أسعدني بأن زميلي من منظمة تحرير سيناء قد أقبل بعد الإفراج عنه محاولا تخلصي من هذا السجن ، بعد قليل نظرت من أسفل باب الحجرة فشاهدت ما لم أكن أتوقعه ، مجموعة من فدائيي منظمة تحرير سيناء تهاجم المعسكر بالرشاشات والعبوات الناسفة ، بعد قليل شعرت وسمعت انفجارات بالمعسكر هزت المكان بل انفجر أحد حوائط الحجرة مما أصابني برأسي من سقوط حجر عليه لكنني أصبحت حرا وقد سمعت صافرات الإنذار تدوي بداخل المعسكر ودوي إطلاق النار في جميع الجهات وأعقبها نباح بعض الكلاب وصرخات بعض الجنود حيث هاجمت كلاب أبي طربوش الجنود الذين يبحثون عن المهاجمين ، أسرعت بالهرب في اتجاه البيارة حيث الليل قد خيم علي المكان باستثناء المعسكر الذي مازالت النار مشتعلة به.

بعد هذا علمت الحقيقة ، فقد توجه مسعد مع زملائه قريبا من منزل أبي السعدات حيث سبق وأخبرته بالمكان الذي كنت أخبئ به العبوات الناسفة ، هناك قاموا بإعداد البعض منها وأقبلوا مع سحب حتي يتعرف عليّ كما صاحبهم

بعض أبناء سحاب لمقاومة العدو ، فجرروا المعسكر وحرروني من الأسر أيضا
كما حرروا باقي زملائهم وحين هاجمتهم كلاب المعسكر تصدت لهم مجموعة
الكلاب من أبناء كتيبة أبي طربوش.

وصلت إلي البيارة بعد أن أرهقني العدو تلك المسافة ، بعد قليل سمعت حركة
قريبة قائمة ، خشيت أن يكون ذنبا وأنا بمفردي دون سلاح ، بعد قليل شاهدت
صغار بعض الكلاب ممن اشترك في هذا الهجوم ، قمت بملاعبة بعضهم كما قام
البعض منهم بلعق متبادل دليل علي السعادة والحب بين تلك الفصيلة ، ارتوي
بعضهم بالماء وأنا أنظر لتلك الحيوانات الذكية المخلصة التي قدمت يد المساعدة
لأفراد منظمة تحرير سيناء لكي تفك أسري وأسر زملائهم؟

امضينا يومين حول البئر بعدها تحرك الموكب في اتجاه منزل أبي السعادات
وهناك حصلت علي راحة عدة أيام وفي إحدى الليالي لشهر أكتوبر من هذا العام
١٩٧١ جلست بأعلي السطح مع رقية أبثها بعضا من حبي وأخبرتها بخبر
زواجي من سلمي ، كنت أتوقع تصرفا سيئا أو ما شابه ذلك ولكنها وضعت
رأسها علي صدري باكية سوء حظ رقية الصغيرة طالبة مني بحق الإسلام
والعشرة بأنه إذا حدث زواج بيننا فعلي أن آتي برقية لتعيش بيننا ، وعدتها ذلك
بعد أن يبلغ عمرها أربعة أعوام حتي يشتد عودها.

كنت أعتقد أنه سوف يحدث رد فعل سيئ من أبيها أو أمها ولكنهما استقبلا
الخبر كأنه شيء عادي لأن هذا حق أصيل أباحه الله للرجل المسلم ولكن الحزن
كان سيد الموقف علي حال رقية وقد أسعدهم وأخرجهم من هذا الحزن وتلك
الكتابة أن خالتها كاملة تقوم علي رعايتها وإرضاعها.

حين انفردت بنفسى شعرت بالسعادة لما قامت به كلاب عائلة أبى طربوش من أجل إنقاذي حيث تبين لي أن التدريب كان مهماً فقد قام سحاب بتوجيه رجال منظمة تحرير سيناء إلي دار أبى السعدت مستعينا بحاسة الشم واتجهوا إلي المخزن الذي أقمته بعيدا عن دار رقية ثم اتجهوا إلي الصندوق الصفيح الذي كنت أحفظ بداخله بالمتفجرات وحصلوا علي البعض من تلك المتفجرات ، كما نبح سحاب يطلب معاونة بعض الكلاب الرشيدة المدربة وتوجهوا جميعا إلي مكن حبسي علي حدود مدينة العريش حيث روز وسحاب يعلمان بكل ما يخص المفجرات ولكن روز لم تكن في كامل لياقتها ، وظلت مع الصغار وتركت سحاب وباقي الكلاب البالغة للقيام بتلك المهمة التي أسعدتني بسعادة لا أستطيع وصفها.

هكذا ظللت علي هذا الحال وخلال أشهر قليلة تزوجت أنا و رقية وعشت مع الأسرة أقوم ببعض الأعمال من رعي وزراعة لعدة أيام ثم اختفي أياما أخري أقوم خلالها بواجبي الوطني وقد بارك الله في القطيع المهدي إلي من عائلة سلمى وزادت أعداده وأصبح الخير يملأ المكان.

وقف إطلاق النار علي القناة وماذا كان يحدث بداخل سيناء؟

بداية شهر نوفمبر من عام ١٩٧١ تم زواجي من رقية وبعدها بعدة أيام أقبل علي زيارتي شخص لم أشاهده من قبل ولكنني سمعت عنه ، لقد كان الشيخ زلطة وهذا اسم رمزي وليس حقيقياً الذي أبلغني سلام وتحية "سليم" وزوجته كاملة وأن ابنتي رقية بخير ثم قدم لي مبلغا من المال وحين اعترضت علي ذلك أفادني بأنه 'مرسل لي من القيادة حتي أعيش من دخل لي ولا أظل عائلة علي أسرة زوجتي موضحاً لي بأن هذا أيضا ما حدث معك حين زواجك من سلمي ولكن المبلغ حينها سلم إلي صديقك وعديك "سليم" لإخفاء الموضوع ، شد الرجل علي يدي مشيداً بما أقوم به حتي الآن ثم ودعني مغادرا الدار ، غادرني الشيخ زلطة وأنا أستعيد الأعوام السابقة فلقد تبين لي أن كل ما قام به سليم معي سواء من تلقاء نفسه أو من تكليف سلمي وكاملة بإمدادي بالطعام كان بتكليف من القيادة والتي تقوم بدفع ثمن كل هذا حيث يقوم الشيخ زلطة بتسليم كل نفقاتي إلي سليم مما أشاع بنفسه الراحة وبأنني بالفعل لم أكن عائلة علي أحد حيث كنت في مهمة رسمية وتقوم حكومتي بدفع كل نفقاتي.

لقد أصبح لي زوجة وحجرة بأعلي الدار ولي دخل ثابت سوف يأتي إلي كل عدة أشهر وعلي أن أوصل العمل بناء علي ما يصل إلي سمعي من تعليمات صادرة من هذا البرنامج الذي أصبح حلقة الوصل بيني وبين القيادة ، شعرت بالنعيم الإنساني بعد زواجي من رقية والتي لم تكن تختلف عن الراحلة سلمي في

شئ سوي أنها هادئة الطباع وخجولة لأقصى درجة ويمكن أن تجلس ساكنة تتأمل ما حولها لفترات طويلة كما ظلت علاقتها بالغناء مستمرة ولم تنقطع.

مازالت او اصل إرسال رسائلي إلي القيادة عن التحركات العسكرية وقوافل اللواري التي تحمل التجهيزات الهندسية ، لا توجد رسائل وتكليفات من القيادة لي بما يعني بأن ما أقوم به يفني بالغرض والمطلوب ، إنتهي عام ١٩٧١ وبدأ العام التالي وظللت أقوم بما سبق وأن قمت به وبنفس طريقة إرسال المعلومات ، في منتصف هذا العام تطورت الأحداث حيث شاهدت اللواري تنقل معدات صاروخية والعديد من قطع الدبابات الحديثة والتي كنت أجهلها حيث إنها مخالفة لما حصلت عليه من معلومات نظرا لأن تلك الدبابات حديثة الإنتاج فكان الواجب علي أن أدقق في تلك المعلومات والاستعاضة بالرسم بديلا عن الصورة.

نفذت ما كنت أقوم به بجنوب سيناء بقاعدة الصواريخ حين قمت بتوضيح ما شاهدته برسم توضيحي وأعدت القيام به للمرة الثانية برسم صورة مطابقة لأشكال الدبابات والعلامات الفوسفورية عليها وأرقام اللوحات علي كل دبابة وارتفاع البرج وحجم الماسورة وعيارها ، لم أترك صغيرة ولا كبيرة إلا وقمت بها حتي أعطي صورة واضحة لما أشاهده وأراه لأنني أعلم بأن القيادة لها مصادر أخرى غيري وما أرسل به من معلومات قد يؤيد أو ينفي بعض المعلومات التي وصلت أو سوف تصل إلي القيادة ، تذكرت الكلمتين الأخيرتين والذي قالهما لي زلطة قبل أن يغادر الدار حين قام علي زيارتي منذ أكثر من عام:

- كل ما ترغب به من رسائل أو أي شئ من احتياجاتك سواء مني أو من القيادة

عليك يا رجل بأن تكتبه لي وتضعه بكيس بلاستيك حفاظا علي الورج من مياه السيول وتضعه بجوار الدبابة المدمرة بجوار الساحل وبحفره أسفلها وتضع فوجها حجرين في حجم "البرتقالة" وأنا كل أسبوع بأبعث زلمه يدور علي الرسائل اللي بأجمعها وأبعث بيها للقيادة ، فاهم كل أسبوع يا زلمه.

أصبح هذا هو البوسطجي الخاص بي ومن أجل هذا أسرعت وتوجهت إلي موقع الدبابة المدمرة منذ عام ١٩٥٦ وهي قريبة من دار أبي السعادات وقد غلفها الصدا ونفذت تعليمات زلطة ؛ في موعد إذاعة البرنامج سمعت حوارا بين كل من بلية والمعلم فوزي حيث أقبل الصبي وسمع المعلم فوزي الذي قال له:
- براقو عليك يا واد يا بليه ، طلعت أشطر من زمايك وسريع ، أنت واد عترة وجدع وخذ النص فرنك وبقشش بيه علي نفسك!!

أيقنت من تلك الرسالة بأن المعلومات التي أرسلت بها قد وصلت ولم تصلهم معلومات شبيهة من المصادر الأخرى حيث كانوا راغبين بتأكيدا أو بالإضافة عليها.

مضت الأيام علي تلك الوتيرة ولم تنقطع رسائلي التي لم تكن منتظمة ؛ لأن كل رسالة لا بد أن يكون بها الجديد من المعلومات أو تأكيدا لمعلومة سابقة ، عشت أياما جميلة برفقة رقية وقد ظهرت عليها أعراض الحمل وأسعدني هذا خاصة أننا أنشأنا حجرتين بأعلي الدار كما أضفنا بعض الأثاث لنشعر بالمزيد من الراحة وقد أفاض هذا علي الأسرة جوا من التفاؤل والسعادة والبهجة.

كلما اقترب موعد وضع رقية كنت أخشي عاقبة ما حدث لزوجتي سلمي من آثار حمي النفاس التي أودت بحياتها خاصة تُدرة الأطباء أو بمعني أصح الطبييات ثم تراجع عن مخاوفي بأن الله رفيق بالأمهات وستقبل كل ما يخبئه

لنا القدر فليس لنا يد بما يحدث وما علينا سوي العمل والأخذ بالأسباب ونلقي
بعقب المستقبل علي الله وحده.

الحمد لله أنجبت رقية طفلا جميلا بشهادة والديها وخالاته رغم أنني لم أتبين
ملامحه حيث إن الأطفال حديثي الولادة لا تستطيع أن تميز شكلهم أو تستطيع
وصفا لهم ولكن الآخرين أسعدهم الحدث مما أضاف علي زينب الصغري سعادة
واضحة حيث شعرت بأن هذا الطفل سوف يصبح مسؤوليتها فليس لها أشقاء
أصغر منها كي تلاعبهم.

حين سألتني رقية عن اسم المولود أشرت لها باسم فتحي ، لم تعترض أو
تتساءل عن السبب حيث مازالت سيرة الشهيد الشاويش فتحي وما قام به مع
زملائه تطن بأذني ، كما أن اسم فتحي يذكرني بزميلي فتحي الذي طلب مني
كتابة تظلم لرئيس الجمهورية علي فصلي من الخدمة من الجيش وقام بتوصيلها
إلي الرئيس وعدت بقرار جمهوري شملي وشمل العديد من الضباط المظلومين
والذين زجت بأسمائهم في غمرة تصفية أتباع المشير بينما كانت الحقيقة هي
تصفية حسابات وعمليات انتقام وتملق للرئيس وخطب وده بالتخلص من أتباع
الراحل المشير.

واظبت علي رسم ما أشاهده من أشكال وأنواع الأسلحة والمعدات وكنت
أضعها بالمكان الذي أشار به زلطة ، كانت إشارات البرنامج الإذاعي توضح لي
بما يعني بأن تلك الرسائل قد وصلت بكلمات وتعبيرات عادية مثل الواد بليه
رسمه طلع هايل وخذ درجات متفوقه وهايل يا بليه ودايما كده مما كان يسبغ
علي السعادة والبهجة ، في إحدى المرات كتبت رسالة إلي زلطة برغبتي
بإحضار ابنتي رقية إلي أسرتي وأنتي راغب بها وأرجو أن تخبر "سليم" بتلك

الرغبة ، كنت أنتظر منه ردا ولكن للأسف لم يأتي أي رد وفي إحدى المرات حين توجهت لأضع رسالة جديدة عثرت علي ورقة اعتقدت أنها رسالة كتبها ولم يأت أحد من أعوان زلطة ويتسلمها ولكنها كانت رسالة من عائلة زوجتي المتوفاة كتبها كاملة ترسل لي فيها بكل تحية وتخبرني بأن رقية في أحسن الأحوال وأن والدها الشيخ رمضان يرجوني بأن أترك معهم الطفلة عدة أعوام حيث إنها تُشبع رغبته وحنانه وتذكره بابنته الراحلة.

كانت الرسالة مؤثرة علي مشاعري وقررت أن أكتب رسالة أقرهم فيها علي رغبتهم تلك ، وفي إحدى المرات أرسلت برسالة بنفس الطريقة إلي الشيخ رمضان أشكره وأحبيه علي دماثة خلقه وأني أوافق الرأي بأن أترك معه رقية عدة أعوام إلي حين نموها وسوف أحاول زيارتهم حين تسمح ظروفهم بذلك كما أرسلت بكل تحية لأم سلمى ولشقيقتها كاملة وباقي أشقائها وصديقي سليم.

مضت الأحداث هادئة طيبة وفجأة تنامت الأخبار إلينا من الإذاعة بحدوث بعض الاشتباكات بين الجيشين المصري والإسرائيلي علي خط القناة ، أدت مؤشر الراديو وأذهلني ما أسمع سواء من مصر أو الإذاعات الأجنبية عن القتال الدائر بين الجيشين وسرعان ما وضحت الصورة بالعبور العظيم ووصول آلاف الجنود المصريين إلي الجهة الشرقية لقناة السويس ثم سماعي لانهبان النقاط القوية وسرعان ما ذاب خط بارليف تحت نيران شباب مصر القومي.

رغم شعوري بالسعادة والفخر إلا إنني كنت حزينا لعدم مشاركتي في تلك المعارك مباشرة حيث كنت راغبا بقتل بعض الإسرائيليين ، عادت إلي ذاكرتي بما حدث منذ خمسة أعوام أو يزيد بمهاجمة دورية إسرائيلية بصحبة بعض شباب سيناء العظيم ثم ما تلا ذلك من إرسال معلومات قيمة للقيادة أفضت بأن

قام رجال الصاعقة المصرية بنسف وتدمير تلك القاعدة ، إذا فأتنا لي ضلع بما تقوم به قواتنا ولولا هذا السيل من المعلومات لما كان لدي القيادة معلومات صحيحة عن العدو الذي أقوم أنا وزملاء لي بإرسال المعلومات إليهم رغم عدم معرفتي بهؤلاء فنحن نعمل كجزر منعزلة عن بعضنا البعض حتي إذا سقط مصدر لا يسقط الباقي بالتتابع.

أثارت المعارك من حميتي فزدت من نشاطي بإرسال المزيد من المعلومات وتوجهت كعادتي إلي مسافة عدة كيلومترات برفقة روز وقمت بإرسال رسالة وأثناء ذلك هاجمنا دنبان فتركت الجهاز يعمل وانشغلت مع روز في الدفاع عن أنفسنا وبعد أن فرت الذئاب وبعد أن نال روز الكثير من الجروح ، جلست فشاهدت بأن الجهاز مازال يعمل وقد تعدى زمن عمله أكثر من عشر دقائق وهذا يعني بأن الإسرائيليين قد حددوا مكاني ، أشرت إلي روز بأن تسرع بإخفاء الجهاز بعد أن قمت بإغلاقه ، بعد أن أسرعت تعدو به شاهدت سيارتين جيب عسكرية إسرائيلية بها العديد من الجنود المدججين بالسلاح وهبط منها ضابط اعتقد أنه برتبة كولونيل "مقدم" حيث كان الظلام شديداً .

أمسك بي الجنود بعد أن اعتدوا علي بالضرب المبرح وسرعان ما شاهدت روز تقفز علي أحدهم وحدث هرج وأطلقت الأعيرة النارية في كل اتجاه فاصيب البعض بجروح كما أصيبت روز برصاصة في قدمها اليسرى الخلفية ، استطاعوا السيطرة علينا وحملتنا السيارة إلي داخل الحدود الإسرائيلية حيث أودعت معتقل "عتليت" الرهيب بينما اختفت روز عن نظري وتأكد لي أنها لاقت حتفها وحرنت لهذا كثيرا .

بعد علاج استمر أسبوعين للإصابات التي حدثت لي جراء تعدى الجنود

الإسرائيليين عليّ توجهوا بي إلي مكتب التحقيق العسكري ومجرد دخولي أشار إلي قائد المكتب والذي كان برتبة ميajor "راند" بأن أجلس ، بعد أن جلست رحب بي الضابط قائلا: أهلا بالرائد عابد أحد فرسان المخابرات الحربية المصرية ، سقط في يدي ؛ فقد علم الرجل عني كل شيء ثم استمر يتحدث وهو يقرأ من ملف أمامه ويعيد حديثه بأننا فشلنا في الوصول إليك حيث كنت حريصا لدرجة كبيرة وتنتقل من مكان لآخر وقد أثارنا هذا التصرف وكنا نتمني أن نلقي القبض عليك ونذيقك بعضا مما أدقنا إياه.

ظل الرجل يلقي عليّ بالأسئلة والتي كنت أجيب عليها في الغالب مؤكدا ما يقول حيث علم وعرف كل الأخبار التي أرسلت بها وقد استطاعوا تسجيلها وصنفت علي أنها بصوت شخص واحد وكتب بالملف رقم سري لهذا العميل الذي يبحثون عنه ليل نهار ، كانت كل الرسائل أمامه وعلمت منهم بأنني تسببت لهم في الكثير من المتاعب وقد حاول الضغط عليّ لمعرفة الأشخاص الذين قتموا لي يد العون ولكني أخبرته بأنه لا يوجد معاون لي ولو أن أحدا قدم يد العون لي لسقطت بأيديكم منذ فترة ، نظر إلي كأنه يخبرني بأن هذا صحيح.

أهم سؤال وجهه إليّ : لماذا قمت بهذا العمل وهو التجسس علي جيشنا وأنت تعلم أن عقوبة هذا الإعدام؟

أجبتّه بأنني أعلم بهذا وأنا قمت بهذا العمل مثل ما كنت ستقوم به؟ سألني هل أنت نادم علي ما قمت به؟ رفضت كلمة الندم وأن ما قمت به هو من صلب عملي مثل ما يقوم زملاء لي بالحرب الآن والبعض يُقتل والبعض يصاب تلك هي الحرب.

استمر الحديث والنقاش بيننا طويلا ثم عاد وعرض عليّ الأسئلة والإجابات

عليها والتي تم تسجيلها حيث كنت صريحا فيما يخص المعلومات التي قال إنني أرسلت بها إلي القيادة بمصر ، في نهاية التحقيق سأنتي عن جهاز الإرسال فأخبرته بأنني طلبت من كليتي بأن يلقي به بالبحر حين شعرت بخطأ ما ارتكبته من إطالة زمن الرسالة فعلت بأنني قد كشف أمري ، حاول العمل علي غسل أفكاري من جهة إسرائيل وأنهم شعبٌ محب للعرب ومصر بالذات وأنا بدوري أخبرته بأن كل ما تقوله كلام غير صحيح وأنا الذي عاصرت حرب عام ١٩٦٧ وشاهت وتألمت لما حدث للمصريين وأنا واحد منهم.

أنهي الرجل التحقيق بالتوصية بإحاطتي لمحكمة عسكرية عليا للبت في أمري ونظر إلي قاتلا المحكمة العسكرية العليا بتتق بأحد الأحكام يا إعدام أو سجن مدى الحياة ، ابتسمت له طالبا بأن يكون الحكم علي بالإعدام فقد أنهيت عملي بكفاءة حسب اعتقادي فأشار بتحريك رأسه مؤيدا ما قلت ، زج بي بالسجن داخل حجرة صغيرة مع أسير آخر وظللت علي هذا الحال ثلاثة أشهر نلت فيها من ألوان التعذيب الكثير.

في أحد الأيام أقبل قائد إسرائيلي كبير لم أشاهده من قبل ولكنني سمعت أوامره الصارمة بعدم تعذيبي ؛ مضيفاً بأن المصريين علموا بما يحدث لي ولبعض الأسري ققاموا بتعذيب أسرانا لديهم وأن العين بالعين وأنهم طلبوا أن يقوم الصليب الأحمر الدولي بزيارتي بالغد للتأكد بأنني لم أعذب وأعامل معاملة طيبة حيث كان الرجل في دهشة من تسرب هذه المعلومات من المعتقل ووصولها للمصريين.

أمام الصليب الأحمر أوضحت لهم ما لاقيته علي يد هؤلاء القساة وأظهرت لهم ما بيدني من آثار التعذيب والكي بالنار وقد أثار هذا حفيظة رئيس اللجنة

الذي أمر بفتح تحقيق مع مدير المعتقل يُعرض بعدها علي الأمم المتحدة ، غادرت اللجنة المعتقل ، بعد هذا بقليل أقبل رئيس المعتقل ليخبرني بأنهم لا يعاؤون بالأمم المتحدة ثم انهال عليّ ضربا بخشبة غليظة سقطت علي إثرها أرضا فاقدًا للوعي.

تم نقلي إلي المستشفى ولاحظت تحسنا في المعاملة ، بعد عدة أيام وأثناء حديث متبادل مع أحد الأطباء الأجانب وهو من ضمن الذين قدموا لمساعدة إسرائيل أثناء الحرب عن السبب في تحسن المعاملة الآن ؛ ابتسم لي ثم اقترب مني وهمس بأذني بأن الإسرائيليين علموا بأن المخابرات الحربية المصرية تقوم بتعذيب رجال المخابرات الحربية الإسرائيلية والذين ألقى القبض عليهم داخل النقاط القوية أخذا بثأر عابد المصري وغيره مما أذهل الإسرائيليين بأنه يوجد شخص ما يرسل بكل ما يحدث للمصريين وحرصا علي سلامة رجالهم حسنوا من تعاملهم معك ومع الآخرين.

أما عن الأسير الذي أقيمت معه بحجرة واحدة فكان مصابا من قبل وقد بترت قدمه اليميني من المفصل بين القدم والساق ، سرد عليّ الرجل حكايته فالوقت طويل والزمن بطيء وقد أصابه العجز والوهن وأصبح غير راغب بالحركة لهذا فالكلام بيننا هو العلاج لكسر سكون الزمن وصمته ، عرفني بنفسه ولأترك حديثه لي كما تذكرته بعدها بعدة أعوام حيث قال:

- لا بأس عليك يا فندم ، ح تعدي ، كل غمة وبتعدى لكن اللي بيفضل منور وله جيمه هوه الصابع اللي اتحط في عينهم ، أنا عرفت انك غلبتهم ووريتهم النجوم في عز الضهر ، باين عليك تعبان ومش سامع حديثي ، خلاص مش ح أتحدتت .
- اتكلم ، افضل اتكلم ، عايز أنسي الأثم اللي في كل حته بجسمي

- أعرفك بنفسي ، 'جندي مجند بديع حنفي وكان حضرات الضباط يبتلجوا عليا بديع الزمان الهمذاني والله يا فندم ما أعرف واحد بالاسم ده جلت في بالي يمكن يبتملجوا علي حالي ، أنا يا فندم من ضمن وحدة عسكرية كانت بتتسحب ثاني يوم حرب ٦٧ وأنا كنت مجند علي ورشة لواء مدرع عامل خراطة وبرادة يعني أفضل أبرد في الحديدية من دوول خمس أو ست ساعات لحد ما يوافق مجاسها المطلوب اللي جال عليه سيادة الرائد قائد الورشة ، انسحابنا كان بالليل ، وإحنا متحركين سمعت فرجة وضرب من كل ناحية ونار في كل جهة وسمعت زملا يبتالموا من الإصابة والموت لكني شعرت بأن حاجه حامييه أكثر من موس الحلاجه ضربت رجلي وشعرت بناقورة دم طالعه منها ، عدت نفسي لأنني كنت نايم منبطح وجلست لا جيت الجزمة اليمين متعاصه دم ومن داخلها رجلي المبطوعة والدم نازل منها زي الحنفيه ، جلت في بالي ح تموت يا بديع لكن بعد شوية ملجيتش حد ريحي غير الشهدا حتي المتعورين جدروا يتحركوا لكن أنا والشهدا بس ، جلعت سترة الأفول وربطت بيها رجلي لأن النزيف كان نازل زي الميه اللي نازله من الحنفيه اللي من غير جلدة ، فضلت كده لحد الصبح ، كنت بأشعر أن روحي بتروح وتيجي ، جلت عليك العوض يا بديع حتموت ومرتك فتحة حتورثك وتجاوز الواد حبيب اللي كان غاويها جبل ما تجوزك وهو واد كسيب لأن أبوه تاجر حبوب وكسب بتاع البهائم ، الصبح شفت جماعه حراميه جم يجلبوا فينا ويخدوا اللي في جيب كل عسكري ميت لحد ما وصلوا ليا وشافوني بين الحياة والموت ، واحد منهم جال نضربه علي نفوخه بحجر ونخلص منه والثاني جال حرام يا عالم شوف الراجل بيطلع في الروح ، رج جلبهم علي حالي وخدوني معاهم وهناك في المتوي بتاعهم داخل الجبل جالولي

ح نعالجك يا زلمه واتحمل الألم لأن من غير اللي ح نعمله حتموت ، سلمت نفسي ويدي لله ، لكن والله يا فندي أنا عمري ما شعرت بألم زي اللي حصل ليه لأنهم جابوا زيت مغلي وحطوا فيه جصبة رجلي المقطوعة ، بقيت أصوت كيف الحرمة اللي جوزها طردها نص الليل ، والله كنت خجلان من دي العمائل لكن الألم ما لوش نهاية ، كنت شايف الرجاله واجفين وكل واحد حاطط صابعه في دنه من صوتي ، فضلت أصوت وأنتطط لحد ما رحمت في دنيا غير الدنيا .

- ياه يا بديع ، دا أنت اتحملت حمل كبير

- لكن عمر الشجي بجي يا فندم ، اسمع المهم وهو اللي جاي والامش هواك

- هوايا جدا جدا دا أنا شاعر إنني خفيت من ألمي ، قول يا بديع أنا سامعك

- مش ح أطول عليك ، بعد ما الجرح نشف وخف والألم جل معنتش باعرف أمشي ساعدوني وعلت عكاز كنت أحطه تحت باطي اليمين ، كنت باشعر بتعب في الأول لكن بعد كده أصبح عادة لكن إيدي اليمين كانت متعطلة لأنها ماسكة العكاز ، افتكرت إنني شفت واحد حدانا في البلد

- أنت بلدك إيه يا بديع؟

- أنا من الأصل من بلد ريح أسوان لكن جيت مع بوي من زمن وعشنا في الإسماعيلية لأن أبوي كان عامل في ترسانة الجناة ، وأبوي بنا دار في بلد اسمها أبو عطوة وأنا لما كبرت أبوي ساعدنا إنني أشتغل في الترسانة جام المشرف شغلني في حكاية البرادة لأنه لجي جسمي كبير وجوي ، أكمل يا أفندم الحكاية ، كان ريحنا في البلد بأبو عطوة راجل زين لكنه بجي زي حالاتي وعرفت بأنه إنصاب في حرب ٥٦ لكنه مكنش عامل عكاز لكنه عمل وصلة خشب تعوض الطول إللي إنقطع وده كان بيسمح له أنه يشتغل بيده التنيين ، فضلت أدور لحد

ما جيبت حته خشب وبمساعدة الناس اللي أنا عايش إمعاهم وفروا ليا كل حاجه وعملت حزام أربط بيه الوصله اللي مكمله طول رجلي وزى ما حضرتك شايف بجيت زي السليم بس كل الحكاية بآرك وأعرج حبتين.

- والله أنت راجل جدع ، لكن من يوم الانسحاب وأنت لسه عايش هنا؟

- أيوه ، ح أروح فين بحالتي دية لكن المهم أن الرجاله اللي كانوا معايا بدعوا يجاوموا العدو لأن الإسرائيليين ملهمش دين ولا زمة ، كنت بأساعدهم بأي حاجه وأنا عايش معاهم وفي يوم طلبوا مني أساعدهم وأعمل لهم سيوف أو خناجر بدلا من استخدام البندجية لأنها كانت بتكشفهم والعدو يضرب ناحيتهم النار علي طول ، طلبت منهم أن يجمعوا بنادج وسناكي اللي سابها الجيش أو مدفونه ريح الشهدا كمان عايز مبارد حديد ودية موجودة بورشة الوحدة اللي إنصبت فيها ، في ليلة رحمت معاهم لحد مكان الورشة المدمرة وفضلت أفرز في العدد لا جيت حاجات يامه ومهمه جبتها إمعاي ومن بينها طبعاً المبارد الحديد وكان عددها كبير ، فضلت أبرد في السونكي لحد ما بجي زي الخنجر وأحسن وجاموا وضربوا بيه العسكر اليهود وكانوا مبسوطين بالحكاية دية ، في ليلة فكرت إنى أعمل حاجه وأستخدم البندجية من غير رصاص ، الفكرة إنى كنت بأبرد السونكي لحد ما يجمل عرضه من تدين سنتيمتر لحد ما يبجي أربع مللي وكنت أجره علي ماسورة البندجية ، والله يا فندم كنت أفضل أبرد بالأسبوع لحد ما أخلي السونكي كيف سيخ الحديد بتاع الراجل اللي بيشوي الكبد ، الفكرة إنى أحط السيخ ده من فم الماسورة ويفضل يسجط لحد ما يجف ويبجي قدام إبرة ضرب النار ، أول ما أضغط علي التتاك يجوم كتلة التراباس تتدفع بسرعة شديدة تحت ضغط الياي وتدفع السيخ للخارج بسرعة شديدة وبنظرية التنشين نستطيع

ننشن علي العدو لكن عيب الحكاية دية كانت حاجتين في نظري وهي أن المسافة لا تزيد عن مية متر الحاجة الثانية كل سيخ حيموت يهودي ح أفضل ابرد في سونكي ثاني لمدة أسبوع.

- صحيح عملية صعبة إلا إذا كان فيه حد يساعدك

- فعلا تتين من الشباب بيسعدوني وأنا أجفل المجاسات في النهاية وبكده كان السيخ يا خد يومين لكن كمية السناكي ح تجل أما عن مسافة المية متر كان الشباب مبسوط منها لأن الشباب كانوا بيهاجموا العسكري الإسرائيلي من مسافة الميت متر بدل من الطعن المباشر.

- أيوه بس العدو مكنتش بيضرب علي الرامي اللي ضرب عليهم؟

- كان بيضرب في أي اتجاه لأنه ليل ومش شايف السيخ ده جاله منين لأن ما فيش نار خارجه من فم ماسورة البندجية كمان كانت بتصيبهم المفاجأة لما يسمعو صراخ زميلهم والدم نازل منه لأن الضرب كان بالرغبة أو بالصدر.

تعرف يا فندم الشباب دول فين؟ مشتركين في منظمة تحرير سينا وأنا عضو بيه لكن كل عملي هو تجهيز الأسياخ دية اللي مات منها كثير من العدو وفي مرة هاجم بعض الجنود المنطجة ولاجوني وحدي وجبضوا عليّ وأنا هنا مستنظر الحكم عليّ وفيه ناس بتجول أنهم ح يروحوني لمصر.

قضيت عدة أيام مع هذا الرجل الذي ظل بعيدا عن وطنه لأكثر من سبعة أعوام وقام بهذا العمل الخطير والمبدع ، كنت أنظر إليه وهو نائم وأشاهد قممه اليمني المبتورة وأنا في دهشة من أبناء مصر الذين إذا أخلصوا قاموا بأعمال رائعة.

صباح اليوم التالي شاهدت من شباك الزنزانة أحد ضباط معسكر الاعتقال

قادما وبعد أن فتح الباب قال لي باسماء: "جاءتك زيارة" دهشت لهذا حيث كنت
وجلا ومتخوفاً علي أبي السعادات بأن يكشف نفسه بعلاقتي به ولكن قطع
تفكيرى سماع نباح كلب وظهور روز التي قفزت علي وأنا ما زلت جالسا
وتبادلنا العناق ولعقت وجهي كما لم يحدث من قبل وتحسنت قدمها الخلفية التي
أصيبت فنظر إلي الضابط وأخبرني أنه تم علاجها وأن إدارة المعسكر رغبت
بالاستيلاء عليها لكن بعد العلاج تبين لهم بأن هذا الكلب عنيف ولهذا قررنا
إطلاق سراحه فرغبت بإحضاره إليك من أجل الوداع.

نظرت إلي روز نظرات ساهمة وحدثتها ، روجي لسحاب وعيالك ، فاهمة ،
بلغى سلامي لكل من "قطبي وزهرة والمشتري وعطارد" مما أضحك بديع
والضابط الإسرائيلي ، احتجت روز بنباحها فأشرت إليها وحدثتها بطريقتي
القديمة " إبه إبه .. أأ .. أه .. أأ .. أه .. أبا أباه" مما دفعها إلي النباح ثم عادت
تنام علي صدري تعلق وجهي كأنها تخبرني بأنني أعلم بأنك في وضع صعب
حينما سمعت النداء القديم والذي كان يعني لها أنني بائس وحالتي سيئة ، تحركت
بعد أن جذبها الحارس من الحبل وأنا ما زلت أخطبها : علي البيت علي طول
وبلاش لكاعة مما دفع بالضابط إلي الضحك معتقداً بأنني أمزح معها ولكنني
كنت راغباً بأن تعود إلي دار أبي السعادات.

لقاء الأجابة

أطلق سراحي أنا وباقي الأسري بعد أربعة أشهر علي وقف إطلاق النار واتفقت مع بديع علي اللقاء وزيارته بالإسماعيلية سواء في عمله بهيئة قناة السويس بشركة التمساح أو بقرية أبو عطوة التي يقيم بها ، سارت بنا اللواري العسكرية الإسرائيلية عدة ساعات حتي منتصف سيناء غرب الممرات حيث تواجد عدد من جنود هيئة الصليب الأحمر الدولي تقوم بمراجعة أسماء الأسري العائدين ، كان يقف في الاتجاه المقابل عدد من ضباط وجنود الجيش المصري الذين استقبلونا بالعناق والترحاب ، حدث الوضع المعاكس أيضا حيث كنت أشاهد الضباط والجنود الإسرائيليين ومسئولي الصليب الأحمر يراجعون أسماءهم ، كل يوم كان يتم تبادل عدد من الأسري بين الجانبين وكان التعامل بين الجيشين يسير بنظام واحترام حيث شعر الإسرائيليون بحجم قوتنا حين علموا بأن العديد من رجالهم سقطوا أسري خاصة كبار الضباط.

تحركت بنا اللواري حتي عبرنا القناة إلي الغرب ، كدت أصرخ أنا وباقي الأسري وكنا نهلل لما كنا نشاهده من تدمير للدبابات الإسرائيلية التي كانت منتشرة بكل مكان وقد دمر أغلبها تماما والبعض منها مازال سليما ومن الممكن استخدامه ، لقد دارت الدائرة عليهم ، وحين عبرنا القناة فوق كباري المهندسين شاهدنا إحدي نقاط خط بارليف المدمرة فتزايد إحساسي بالسعادة وشعرت بأن ما تم من نصر كبير يماثل بناء ضخما وضع كل فرد به حجرا حتي اكتمل علي أحسن صورة ، شكرت الله وشكرت رجال القوات المسلحة وقائد مصر الراحل الرئيس عبدالناصر والحالي الرئيس أنور السادات.

تم تجميع الضباط بإحدى الكليات العسكرية وأثناءها كنا نتوجه للكشف الطبي وفحص العائدين ومن منا كان يحتاج إلي علاج فيقدم إليه فوراً بإحدى المستشفيات العسكرية ؛ كما طلبوا من كل فرد منا أن يكتب تقريراً بما شاهده وما حدث له وكيفية وقوعه في الأسر ، كانت القيادة تعلم بأنني أسرت حين ظل الجهاز يعمل ولهذا قامت بإغلاق جهاز الاستقبال وألغت تلك الموجة حتى لا يتسلل إليها العدو ، 'منحت إجازة عشرة أيام بعد أن حصلت علي ملابس عسكرية مناسبة وتم حلاقة شعري وكل ما يحتاجه المرء بعد مغادرة المعسكر كما تسلمت مبلغاً من المال إلي حين توجهي للبنك لاستلام مستحقاتي عن الفترة السابقة حيث تواجد أحد رجال الفرع المالي وكان يخبر كل فرد منا بمستحقته التي أرسلت إلي البنك ، كان النظام رانعا ومرتباً ولم يكن هناك أي شيء يضايقني سوى رغبتني بالعودة إلي أسرتي ولقاتهم جميعاً.

غادرنا المعسكر في المساء ولم أبادر بالسفر إلي الإسكندرية بل رغبت بالانتظار حتي الصباح لأشاهد الدنيا من حولي بعد غياب لأكثر من أربعة أعوام ، توجهت إلي شقتي ووجدتها علي حالها وبحثت عن أي شيء ينبي عن حضور صديقي أسامة فلم أعثر علي أي شيء وبسؤال الجيران من حولي أخبروني بأنهم لم يشاهدوه منذ سفري ، كنت راغباً بالاطمئنان عليه فهو ضابط يعمل بسلاح مقاتل وهو سلاح المشاة الذي قام بالعبور منذ أكثر من ستة أشهر مضت.

جلست في القطار السريع المكيف حيث كنت أشاهد الخضرة علي جانبي القطار وأقبل علي بعض الأفراد يقدمون التحية للقوات المسلحة متمثلة في شخصي حيث مازال الحدث يشيع السعادة بين المصريين كما أن رجال الجيش لا يزالون علي أهبة الاستعداد لذا فالإجازات كانت قليلة وبالتالي لم يكن بالشارع

منهم إلا العدد القليل.

تحركت قدماي لأول الشارع الذي يقع به منزل أسرتي وشاهدي الواد عجوره القهوجي الذي أطاح بصنية طلبات الزبائن جانبا صارخا "الكابتن عابد وصل ، الله أكبر ، البطل وصل يا جدعان ، ابن إسكندرية المجدع وصل ، " وفاضل من المديح والترحاب أدى إلي أن حوصرت بالشارع ولم أعد أستطيع أنتحرك ولا أستطيع تكلمة جملة واحدة من المحيطين بي ومازالت القبلات تنهال عليّ من كل شخص يسير بالشارع كما أطلقت النساء من الشرفات وهن يقدمن التحية الواجبة من التهليل والزرغاريد ثم شاهدتها ، أمي حبيبتي التي افتقدتها سبعة أعوام لم تشاهدني خلالها إلا أياما قليلة ، خشيت أن تلقني بنفسها من الشرفة فأشرت إليها بأنني قادم إليك وتسللت من خلال الجموع وصعدت درجات السلالم برشاقة أحسد عليها فلحظات الفرحة تدفع بكل شيء غريب.

احتضنتها ورفعته لأعلي وشاهدت والدي يقف خلفها والفرحة تكاد تقفز من عينيه تكسر زجاج نظارة القراءة وشقيقي الصغري إيمان والكبري رجاء من حولنا وقد أطبقت الفرحة عليهن فمنعت الانفعالات من أن تظهر مباشرة ، بصعوبة تنازلت أمي عن باقي حقها في لأبي وباقي إخوتي ، جلست بينهم وكل واحد منهم ينظر إلي ويلاحظ ما قد طرأ عليّ من تغيير وتبديل ، هتف أبي: ألف مبروك النصر ، هذا حقك علينا كما قدمت هاجر تهنئتها لي لحصولي علي الترقية لرتبة الرائد العام الماضي حيث اتصل بهم العقيد فوزي أما أمي فقدمت تهنئتها بعودتي وشكرت الله علي عودتي سالما.

قضيت أياما سعيدة بين أحضان عائلتي الصغيرة بالمنزل ومشاعر الحب من خلال عائلتي الكبيرة بالحي وسمعت أيضا بعض الروايات من أبناء البلد بالحارة

عما حدث أثناء الحرب وبعضهم أقسم إنه شاهدي وأنا أرفع العلم فوق إحدى النقاط القوية!! وهكذا فأنت تشعر بحب المصريين رغم بعض الأحاديث التي لا تستند إلى الحقيقة والبعض ذكر بأن الكابتن عابد يستحق نجمة سينا والبعض الآخر أقر بأنه يستحق نجمتين أو أكثر!!!

مضت الأيام بسرعة وانتهت الإجازة توجهت بعدها إلى القيادة حيث التقيت ببعض القادة والزلاء الذين قدموا لي التهنئة علي شجاعتني بالعمل خلف خطوط الأعداء لأكثر من أربعة أعوام دون أن يشعر بي مما دفع بأحدهم معلقا ضاحكا قائلا:

- أنتم نسيتم أن عابد كان عامل أخرس مما دفع البعض لتذكر هذا الموقف والبعض شرح الحالة التي كان عليها العميد سواء خجلا أمام القيادات أو حزنا علي حالي خاصة حينما وصله خبر إلقاء القبض علي الدليل وقد أصبحت سجيناً هناك ثم علمه أن الكلب الذي رافقتي كانت أنثي "عشار" وليست كلباً ذكراً وهنا قال الرجل لقد قضينا علي عابد بالتلث.

دارت الحياة دورتها ، كنت في شغف إلي لقاء شخصيتين مهمتين بالنسبة لي وأشعر بحنين إليهما ، أسامة زميلي وعم شحاتة زميلي بمزلقان نكلا حيث كان الاثنان يتمتعان بطيبة قلب وإخلاص وحب لي كنت أشعر به دون حديث.

توجهت لإدارة سلاح المشاة واستفسرت من أحد زملائي عن أسامة وذكر لي له رقم الوحدة العسكرية بعد قليل أفادني بأنه بإجازة مرضية من جراء الإصابة التي لحقت به أثناء المعركة ، حصلت علي عنوانه بالشرقية لزيارته أما عم شحاتة فأعلم أين يكون ، ركبت قطار المناشي السني حتى الآن وتوجهت إلي قرية نكلا وهبطت إلي المحطة والتقيت بناظر المحطة ضعيف النظر فنهض

مصافحا لي قائلا " أهلا باليه وحين سألته عن عم شحاتة اضطرب الرجل طالبا مني العفو إذا كان قد ارتكب خطأ ما في حقي أو مديده وسرقتي فهو راجل طيب وابن حلال.

أدهشني كل هذا الذل الذي ظهر به الرجل بمجرد أن شاهد أن من يقف أمامه يرتدي ملابس أنيقة ، كنت أثناء تلك الزيارة أرتدي الزي العادي أي المدني ، أخبرته بأنني قريب له ، مما دفعه للتشكك في حديثي مؤكدا لي بأنني مباحث ، تركته وهرولت في اتجاه المزلقان فشاهدته جلسا فارادا ساقيه للأمام يرتدي حذاء بلاستيكيًا دون شراب وممسكا بعود قصب يقوم علي مصه ، اقتربت منه ملقيا عليه التحية:

- السلام عليكم يا عم شحاتة ، نظر إليّ بضع ثوان ثم قال :

- مين؟ الواد عابد ، يخرب عجلك يا وله ، إيه اللي ملمعك بالشكل ده؟ أكيد سرجت سريجه أو نهيت ؛ أعوز بالله لازم بتاجر في الممنوع "المخدرات" ضحكت لحديثه الطيب ورغم أن الرجل قد بدت عليه علامات الشيخوخة إلا أنه مازال متذكرا الأشهر القليلة التي عملت خلالها معه ، أمسك بيدي وأجلسني بجواره واستخلص عقله قصب نولها لي وطلب مني مصها فاعتذرت فضحك قائلا:

- ما هو أنت بجيت أفندي وملكش في مص الجصب ، طبعا راجل عليوي زيك ح يشرب عصير جصب مش زي الغلابا حالاتي ، كدت أصاب بإغماء من الضحك فالرجل يعتبر من يشرب عصير القصب من الميسورين ، تذكرت بأن بمصر يوجد العديد من الناس الغلابا البسطاء وكل ما أنتقي بالبعض منهم ألاحظ هذا فقد جاءوا للحياة لكي يعملوا أي عمل ويأكلوا أدني طعام ويخشوا السلطة

والحكومة حتي وصلت ثقافتهم بأن الموت أصبح راحة ولهم حق في تلك الثقافة. صمم عم شحاتة علي استضافتي بمنزله مثل سابق عهدنا حينما كان يقدم لي بعض بقايا الطعام نظرا لسوء حالتي وخشية أن يفسد الطعم فقد مضى عليه يومان وح يحمض ، اقترب مني وهو يخبرني بأن أم العيال عاملة فنة بالكوارع وشوربه ، حتبجي هيصه والله يا واد يا عابد ، ياه لك وحشه ، متسيب ياوله الشغلانة المهيبة بتاعتك وتعالى وارجع الشغل حدانا دا ربنا فتحها علينا من البجشيش اللي بأخذه كل يوم من عربيات نجل الرمل والزلط ، والله يا عابد فيه أيام بأحصل كام؟ مش ح تصدج ، ساعت ستين جرش وأيام سبعين ، ربنا مش بينسي حد.

جلست مع أسرته والتي لم تكن أقل منه دهشة ثم أخرجت مبلغا من المال وأعطيته لابنه الصغير فرفض الرجل هذا لأنها فلوس حرام حيث إنني أتعامل في الممنوع ، ضحكت من حديثه وأخبرته بأنني ضابط كبير وكنت أعمل هنا في مهمة وإنتهت ، ضرب الرجل علي رأسه وتذكر قائلا: أن عاشور أبو الجمصان ألقي القبض عليه بعد أن غادرت المكان ، شعرت بأنه من الواجب علي مغادرة المكان فالرجل مازال يحيا في عالم آخر ، شكرتني أسرته علي المنحة الطيبة والتي أدهشتهم جميعا وغادرت المكان عائدا إلي شقتي بحدائق القبة.

أصبح الآن أمامي واجب زيارة الزميل والصدیق أسامة فهو أحد أبطال تلك المعركة وحمل وسامها بتلك الإصابة التي تدل علي أنه التحم بالعدو مما أدي إلي إصابته تلك ، اليوم التالي توجهت إلي لقائه حيث ركبت القطار المتجه إلي الإسماعيلية وغادرته بمحطة الزقازيق وركبت تاكسي وأبلغته بالعنوان حتي توقف السائق مشيرا لي بأن هذا هو العنوان ، أمام باب الشقة ضغطت علي زر

الجرس ففتحت لي الباب طفلة في الثانية عشرة من عمرها سألتها : هل أسامة الصادق يقيم هنا فابتسمت لي لتخبرني بأنه شقيقها الأكبر وأنه موجود فطلبت منها أن تبلغه بأن عابد المصري يرغب بلقائه.

أقبل الفتى مسرعاً وشاهدي وهو غير مصدق بأنني عابد ، تعانقتا بكل الود وتذكرنا كل أوقاتنا العصبية ثم دخلت لأجلس معه بحجرة الجلوس كما يقول أبناء الشرقية ، قُدمت إلينا الطوي والمشروبات ولاحظت أنه مازال يضع الشاش المعقم علي رأسه من أثر الإصابة وأن يديه بها بقع من آثار الحريق الذي أصابه أيضا ، بعد أن جلست حوالي الساعة غادرت منزله بعد أن تبادلنا عناوين العمل أما السكن فاصبح كل واحد منا يعلم أين يقيم صاحبه.

طلبني مدير الإدارة للقاءه بمكتبه وهناك أخبرني بالخبر السعيد بأن الرئيس أنور السادات رئيس الجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة منحني "النجمة العسكرية" تقديرا لما قمت به ، أهم ما أسعدني هو أن قيادتي تذكرتني ولم تنسني وبأنني أعمل رغم بُعدي عنهم لكنهم كانوا دائما متذكرين خطورة العمل وخبائاه والفائدة المرجوة منه.

اليوم التالي اتصل بي رئيس شعبة التدريب بالإدارة يبلغني بأنني مرشح لدخول كلية القادة والأركان وتلك الدورة أمر من وزير الحربية وقد خصصها للضباط المصابين خلال المعارك والأبطال نون اختبار قبول.

هذا ما يتمناه أي ضابط بالقوات المسلحة أن يُسلح بالعلم علي هذا المستوي الرفيع ودورة كتلك تساعد وتدفع بالضابط إلي الأمام للعمل بعد الحصول عليها في القيادات الوسطي والعليا التي سوف يتقلدها كما أن الإعفاء من اختبار القبول يعتبر شيئا مهماً لأن اختبار القبول أصعب من الدورة نفسها والتي تستمر عاما

كاملاً.

لم يتبق علي موعد بداية النورة سوي اسبوع واحد ، خلال هذا الأسبوع تلقيت اتصالا من العميد فوزي يطلب مني أن أستعد صباح الغد لمرافقته إلي سيناء بالمنطقة التي حررتها قواتنا حتي نشاهد المواقع علي الطبيعة ، في الموعد المحدد تحركنا أنا والعميد فوزي إلي الإسماعيلية ثم انحرفنا يسارا إلي طريق القنطرة حتي وصلنا جنوب مدينة القنطرة غرب وهناك عبرت بنا السيارات كوبري المهندسين وواصلنا تحركنا إلي منطقة محددة ثم جلست مجاورا للعميد فوزي الذي سأل من حوله عن تلك المنطقة وقد أكدوا له أنها تتبع الإدارة ثم تساءل عن موعد وصول البعثة وقد أفاده احد الضباط بأنها وصلت منذ ساعة وسوف ننتظر حتي حلول الظلام ، بعد أن حل الظلام نظر إلي العميد فوزي وطلب مني أن أصدر إشارة إلي كلاب الحرب كالتي كنت أصدرها أثناء فترة البكم التي لحقت بي ، نظرت إليه باسماء ونفذت أمره " إيه إيه .. أأ .. آه .. أأ .. آه .. أبا أباه" لم تمض لحظات إلا وشاهدت كلبا كبيرا الحجم قادما من جهة الشرق في اتجاه موقعي وما أن اقترب مني حتي هتفت قائلا " روز حبييتي ولكنها لم تنبح حيث وضعت كمامة علي فمها ، قفزت علي وهي تداعبني بأرجلها ، نزعنت عنها الكمامة فلعقت وجهي كعادتها ثم نظرت إلي خارج الموقع ونبحت نباحا معينًا فشاهدت الكلاب قادمة مسرعة في اتجاهنا وقد تنبه الإسرائيليون بأن شيئا يحدث فسلطوا الإضاءة في كل مكان مما دفعهم للاعتقاد بأن تلك الكلاب ضالة فلم يتدخلوا ضدها بإطلاق النار ، توالي وصول الكلاب حتي وصل عددهم إلي ستة وثلاثين كلبا انتهت بحضور الأب سحاب وقد جلست الكلاب تحيط بي من كل جهة وأسمع نباحهم وأنا بدوري أصدر 'نباحا مثلما كنت

أفعل أثناء فترة العمل معاً ، حملتهم السيارات المجهزة عائدة بهم إلي كتيبة كلاب الحرب بقوات الصاعقة حيث قال العميد فوزي: لقد ساعدت في إمداد الجيش بهذا العدد الهائل من الكلاب المدربة.

كنت في دهشة من عودة تلك الكلاب من منطقة الشيخ زويد ولكن العميد فوزي أخبرني بأن رجاله هناك خاصة زلطة قاموا بكل جهدهم لإعادة تلك الكلاب إلينا وتم تدريبهم علي الهدوء وعدم إحداث حركات عنيفة وهذا هو السبب بوضع كامات علي أفواه الكلاب حتي لا تتبجح طوال الطريق وتلفت نظر الأعداء.

انخرطت في الدراسة والتقيت بالعديد من زملائي في العمل وبعض أصدقاء الدراسة بالكلية الحربية والرائد فتحي الذي قام بتسليم تظلمي إلي الرئيس جمال عبدالناصر ، أثناء الدراسة بتلك الدورة تم ترقيتي مع زملائي إلي رتبة المقدم وبعد انتهاء الفرقة عينت قائدا لإحدي كتائب المشاة الميكانيكي والتي لم أخدم بها من قبل سوي شهر واحد لكي يقوم قائد تلك الكتيبة بكتابة تقرير عني قبل العرض علي اللجنة العليا للضباط والتي انتهت بفصلي من العمل ، الآن أصبحت المقدم أركان حرب عابد المصري.

بداخل الكتيبة كان انعكاس الانتصار العسكري الذي حدث بالعام قبل الماضي واضحا علي الضباط والجنود ، أثناء تفقدي ومشاهدة تدريب القوات والقيام بالتعارف بيني وبين الضباط والجنود لفت انتباهي ضابط برتبة ملازم أول أنيق يقوم بعمله خير قيام وحين أخبرني باسمه شعرت بأنني أعرف والده فسألته هل أنت ابن العميد ... ابنتم مؤيدا استنتاجي شكرته علي حسن أدائه لعمله وغادرت موقع التدريب ، لقد كان هذا الضابط ابنا لقائد الكتيبة الذي أساء إلي بشدة لسوء

معاملته وكتب عني تقريراً أدي إلي إصدار قرار بالاستغناء عن خدماتي والتي كاد أن يضيع خلالها مستقبلي.

علمت بعد هذا بأن المقدم سابقاً أو العميد حالياً أحيل إلي التقاعد منذ عامين وأصبح يجلس بمنزله يجتر أيام عمله وشدة بطشه علي من هم أقل منه رتبة ، كنت راغبا بأن أسأله ما شعورك الآن لو تصرفت مع ابنك بمثل ما تصرفت به معي؟ البعض تُعمي أبصارهم وتُصم أذانهم عن الرحمة بالآخرين بسبب السلطة والجاه ولا ينتبهون إلا بعد أن يتركوا أعمالهم ويفقدوا تلك المناصب لكن بعد أن يكونوا قد أصابوا العديد من صغار الموظفين بالضرر البليغ بمستقبلهم وبذروا بنفوسهم حب الانتقام وضرر الآخرين رغم أن ديننا السمح يأمرنا بالالتزام والعدل والعدل والعدل.

امضيت عاماً تدريبياً أخدم بالوحدات المقاتلة والتي يجب علي كل ضابط يصل إلي مرحلة الترقى إلي الرتبة الأعلى بأن يقوم بها وسلاحه الأساسي هو سلاح المشاة الأشد فاعلية في أمور شتي وكل ما حصلت عليه خلال هذا العام هو تدريب وتعليم الضباط والجنود بأخر المستجدات في العلوم العسكرية وخلال الخدمة بهذه الوحدات يتعلم الضباط والقادة الكثير من أمور القيادة والسيطرة وحل المشاكل الناجمة أثناء العمل ، لقد كان التعليم والتدريب في كلية القادة والأركان ثم ما تبعه من قيادة كتيبة مشاة ميكانيكي من أعظم الأمور التي حدثت لي بعد نهاية حرب أكتوبر.

لقاءات غير متوقعة

اتصل بي العميد فوزي بعد نهاية دورة أركان الحرب وكان هذا في نهاية عام ١٩٧٦ وأخبرني بأنه يطلبني لمرافقته إلى جبهة القتال مثل العام الماضي ، اليوم التالي توجهت معه حيث كنا نرتدي الملابس العسكرية الخاصة بالعمل بالمكتب وليس لباس الأفروال الخاص بالتدريب والقتال ، بمدينة القنطرة شرق كانت تتواجد هناك قوات الطورائى الدولية للفصل بين الجيشين المصري والإسرائيلي وتلك المنطقة يتم العبور إلى مصر أو مغادرتها إلى سيناء وقطاع غزة ، أي من يرغب بالدراسة أو الزيارة ويرغب بدخول مصر فتلك هي البوابة التي يأتي منها بعد أن يحصل علي موافقة الجهات الرسمية علي الجانبين المصري والإسرائيلي.

جلست بجوار العميد فوزي بداخل خيمة متواضعة بينما كان بالجانب الإسرائيلي خيمة كبيرة ومزودة بالمرآح لتقليل درجة الحرارة الشديدة ، بدأ رجال المخابرات المصرية وبمعاونة رجال الصليب الأحمر الدولي في مراجعة كشوف القادمين إلى مصر قبل عبور البوابة كي يتأكدوا من عملية مراجعة بيانات كل شخص ، مجرد أن بدأ القادمون لمصر في مغادرة الخيمة والوقوف صفا حتي اعتراني التوتر حيث شاهدت سيدة صغيرة تشبه زوجتي رقية ، نظر إلي العميد فوزي وطلب مني كبت مشاعري إلي حين.

بالفعل كانت رقية ومعها طفل تجاوز الأربعة أعوام وتمسك باليد الأخرى فتاة صغيرة يقارب عمرها الستة أعوام ، عبرت السيدة بالأطفال مع جموع القادمين من مختلف الأعمار فتقدم منهم العميد فوزي بعد أن أشار إليّ بالا

أتحرك وصافحهم ورحب بهم ووقف معهم حتي ركبوا الأتوبيس المنتظر لنقل القادمين إلي مصر ، طلب من السائق أن تهبط تلك الأسرة أمام نادي الضباط بالإسماعيلية ، أدي السائق العسكري التحية لقائده الأعلى حيث إن كل من يعمل من حولنا يتبعون الإدارة.

ركبت بجوار العميد فوزي وتحدث معي في أمور شتي دون التطرق إلي الزوار القادمين التابعين لي ، توقفت بنا السيارة أمام باب نادي الضباط بالإسماعيلية والمطل علي بحيرة التمساح ، غادرتها مرافقا له وتوجهنا إلي مكتب مدير النادي الذي رحب بنا وطلب منه العميد فوزي ترك المكتب بعض الوقت ، غادر الرجل المكتب وظللت بمفردي مع العميد فوزي الذي قال لي:

- عابد .. أنت تعرف معزتك عندي وتقديري لك إزاي ، أنا عملت كل اللي أقدر عليه علشان أخذ موافقة إنني أجيب لك عيلتك هنا ومش معقول ح تفضل كل السنين اللي فاتت والسنين الجاية اللي مش عارفين ح تستمر قد إيه وأنت بعيد عنهم وهما بعيد عنك وكفاية غربتك اللي عدت سبع سنين قبل الحرب ، علشان كده بعث لرجالي في سيناء وراحوا للشيخ رمضان وأخدوا رقية ثم راحوا بيها لمنطقة الشيخ زويد وقابلوا أبو السعادات وجابوا عيلتك كلها بكل إحترام وده أقل حاجة تقدمها مصر لأحد رجالها اللي خدموها بكل ما يملك ، أخي وزميلي عابد ، حجزت لك جناحا بالنادي شامل الطعام وكل شيء وبعد خمس تيام ح أبعث لك عربية ملاكي من الإدارة عليها أرقام مدنية وحتقوم بتوصيلك مع عيلتك لحد شفتك بكوبري القبة ، أي حاجة اتصل بيا سواء بالشغل أو بالبيت.

غادرني العميد فوزي حيث كنت ومازلت غير مستوعب تلك المفاجأة المذهلة وغير المتوقعة ، توجهت مسرعا بصحبة أحد الجنود الذي كلفه مدير

النادي باصطحابي إلي الجناح الخاص بي ، تركني الجندي أمام باب الجناح وطرقت الباب ، بعد قليل شاهدت باب الجناح يُفتح فشهدت زوجتي الحبيبة رقية ومجرد أن شاهدتني القت بنفسها علي صدري بينما وقف الطفلان بجوارها راغبين بالتعلق برقبتي ومشاهدتي وتقبيلي حيث أبلغتهم رقية بأنهم متجهون لزيارة الأب عابد ، انتهى لقائي بالأحباب وتلاشت الدموع وحل محلها الثغر الباسم والفرحة طلت علي وجه كل أفراد أسرتي ، أمضيت معهم اليوم الأول بسعادة لن تتكرر في حياتي خاصة أنني أجلست الطفلين علي جانبي ساقى وكل بضع دقائق أحصل علي العديد من القبل من نعمة الله من هؤلاء الأطفال الذي منحها إيانا نحن الآباء والأمهات.

اليوم التالي طلبت مني رقية زيارة جدتها والخالات ، توجهت بأسرتي الصغيرة مسترشدا بالعنوان إلي زيارة عائلة الخالة زهرة وأثناء التعارف بيننا طغت العواطف المؤثرة علي هذا اللقاء كما تلي هذا بعض الاتصالات التليفونية لتخبر باقي أفراد العائلة بزيارة رقية ابنة شقيقتهم الكبرى زهرة التي لم يشاهدها أي فرد من عائلتها منذ خمسة عشر عامًا ، أمضيت معهم وقتًا جميلًا وأثناء ذلك عرض علي أحد أخوال رقية إقتراحًا بأن أشتري شقة بحي الشيخ زايد حديث الإنشاء حيث أخبرني بأن الأسعار في متناول الجميع معيدين أقوله "بأنها ح تفيدك أنت وأولادك وكمان لما تيجي زهرة تزور الإسماعيلية تبقى تنزل فيها " أمدني الرجل بكل البيانات اللازمة مثل أماكن تلك الشقق وأسعارها وكيفية الحجز.

اليوم الثالث توجهت إلي قرية أبو عطوة حيث التقيت هناك بزميل الأسر والسجن بإسرائيل بديع بعد أن تجولت بحواري القرية بعض الوقت ، كان الرجل يجلس أمام بيته علي كرسي وأمامه منضدة صغيرة من الحديد وقد وضع فوقها

شباك حديد يقوم بصناعته ، مجرد أن شاهدني هب واقفا ولكنني طلبت منه أن يظل جالسا ورحب بي بعد أن التفت حولنا العديد من الجيران وهو مازال يرحب بي قائلا "أهلا أبو روز!!"

جلسنا نتحدث معا وأخبرني بأنه بعد عودته من الأسر توجه إلي عمله حيث كان الجميع يعتقدون بأنه لاقى ربه نظرا لفقده خلال الفترة السابقة منذ بداية حرب عام ١٩٦٧.

كما طلبت إدارة شؤون العاملين عرضي علي مستشفى الهيئة والتي قررت بأن إصابتي أستحق عنها عجزا وصلت نسبته إلي ٤٠% وتم صرف التعويض المناسب لي بناء علي تعليمات الدولة بخصوص هذا الشأن وقد خيرت بين مواصلة عملي بعمل إداري أو أحال إلي المعاش بقوة القانون فتخيرت أن أترك العمل لأنني لا أستطيع السكن والجلوس فوق المكتب أيام نصف نهاره فوقه ، "ضرب بيده علي صدره قائلا":

- أنا باحب الشغل والحركة.

سعدت بلقاء بديع وأخبرته بأنني سوف أقوم علي زيارته ومن المحتمل أن أشتري شقة بالمدينة وأقيم بها حين بلوغ سن المعاش وثلثي سويا فأسعده هذا ، تركته مع أصدقائه وغادرت العزبة وأنا أستعيد كل ما شاهدته منذ قليل وقد إلتفت حوله أهله وأصدقاءه يقدمون حبهم وعطفهم له بعد أن فقدها لمدة سبعة أعوام منذ عام ٦٧ وحتى نهاية عام ١٩٧٤ وقد ظل يحيا بين الصخور والجبال يقدم واحدة حيث كانت حياته بدائية لكن جسارة الرجال كانت هي وسيئته لكي يظل علي قيد الحياة يعطي خلالها لوطنه كل يوم المزيد من الدعم والعون خلف خطوط الأعداء رغم قسوتهم وشدة بأسهم وعدم رحمتهم لمن تطولهم أياديهم.

منتصف عام ١٩٨٠ شعرت ببعض الآلام قريبا من المعدة وقد تكرر هذا الألم خلال الأيام الماضية ، توجهت للمستشفى العسكري وبعد إجراء الفحوصات الطبية أخبرني الأطباء بأنني غير قادر علي مزاولة العمل بالوحدات القتالية وعلي أن أحصل علي عمل بوحدة إدارية ، تذكرت حديث بديع ورفضت هذا وتوجهت إلي العميد فوزي وأبلغته بما أخبرني به الأطباء حيث إن عملية استئصال الطحال أثناء وجودي بقبرص أثرت علي حالي الصحية بالإضافة إلي ما قاسيته طوال السنوات الفائتة من العمل خلف خطوط الأعداء وعدم العناية الصحية والنوم أرضا لمدة أربعة أعوام وتحمل لساعات البرد القارس ليلاً .

نصحتني العميد فوزي بأن أنتظر حتي أحصل علي الترقية للرتبة التالية والتي لم يبق علي نهايتها سوي عدة أشهر ، إنتظرت حتي هذا الموعد وعملت بمكاتب الإدارة حيث أصبحت مثل العصفور الذي وُضع بققص وأصبح سجيناً بعد أن كان حراً طليقاً ، خلال ذلك كنت أقيم مع أسرتي بشقتي الصغيرة بحدائق القبة وتفننت رقية في اسعادنا وتقدمت بأوراق ابنتي رقية إلي المدرسة بعد أن استخرجت شهادة ميلاد لها كما سلكت نفس المسلك مع ابني فتحي واستخرجت شهادة زواج لي ولزوجتي رقية حيث لم تكن نملك شهادة زواج ، كل تلك الإجراءات تمت بسرعة دون عوائق نظراً لأنني كنت أسلمهم خطاباً من الجيش تفيد عدم وجودي مع أسرتي بداخل البلاد خلال تلك الفترة ويجب عليهم استخراج كل الشهادات والوثائق المطلوبة.

سارت بنا الحياة سيراً حسناً وخلال تلك الفترة كررت الزيارة لعائلة رقية بالإسماعيلية وفي إحداها توجهت بطلب لشراء شقة بنظام القسط حيث كانت الشقة كبيرة المساحة وتقع في منطقة حديثة الإنشاء ولم يكن الناس بالإسماعيلية

في حالة من الاندفاع للشراء مما جعل أجهزة الدولة تعمل علي تقديم تسهيلات في الثمن وطريقة الدفع ، تسلمت شقتي بعدها بعدة أشهر وشاهدتها مع أسرتي حيث كنت أتوقع انتهاء خدمتي بعد شهرين كما وعدني العميد فوزي الذي صدق وعده وقوله لي حيث أضاف إلي التقرير الطبي تقريراً آخر مقدماً منه كرئيس مباشر لي موضحاً فيه أعماله وبطولاته راغباً بأن يترك هذا الضابط العمل تجنباً لأثار جانبية حدثت له بجمهورية قبرص.

صدرت النشرة العسكرية رقيت فيها لرتبة العقيد والإحالة إلي التقاعد ابتداء من عام ١٩٨١ وأصبحت خارج العمل العسكري وأثناء حفلة الوداع بالإدارة تباري الجميع للثناء علي ما قمت به من أعمال كما عرض علي رئيس الإدارة أن ألتحق بعمل مدني بإحدى الوظائف الإدارية في مجال الحكم المحلي ولكنني شكرته معتذراً عن قبول تلك الوظيفة مبرراً بأن هذا لن يجدي معي وسوف أصاب بضيق لاختلاف نمط العمل المدني عن العسكري كما أن العاملين معي سوف يشعرون بأنني دخيل عليهم بهذا العمل ولهذا فأنا أميل إلي السكن والراحة بعد تلك الحياة الحافلة بالأعمال الطبية لبلدي وما قاسيته وعانيته خلال الفترة الماضية.

غادرت مبني الإدارة ووقفت أمامها وانهمرت الدموع من عيني علي ذكريات الماضي وتذكرت أنه منذ أكثر من عشرين عاماً حين قدمت إليها وأنا شاب صغير راغباً بالعمل خارج المكاتب وقد أجابني الله إلي طلبتي فظللت لأكثر من سبعة عشر عاماً أعمل خارج المكاتب بل بالصحراء والجبال وأحياناً بين الكلاب والماعز والأغنام وتجاورني كلا من الذئاب والضباع بالإضافة إلي الثعالب والقاتل والنسور الجبلية المقترسة.

اليوم التالي رغبت بأن أقوم علي زيارة مهمة قبل أن أتخلي عن الزي العسكري ، صحبني سائق العميد فوزي بعربته الجيب إلي قيادة قوات الصاعقة ، توجهت مباشرة إلي كتيبة كلاب الحرب وهناك لم أجد الكلاب وبالسؤال أخبرني أحد الجنود بأن الكتيبة تقوم بعمل بيان بأرض الطابور الرئيسي يحضره كبار الضباط بالصاعقة وبحضور قائد القوات هناك ، أسرعت إلي هناك وشاهدت العديد من تلك الكلاب فوقفت مجاور المنصة الحاضرين ، بعد مضي لحظات قليلة ترك أحد الكلاب تعليمات مشرفه ونظر إليّ من علي مسافة مائة متر تقريبا أتبعها بنجاح معين لا يعلمه أحد إلا أنا كأنه يخبر زملاءه بأن عابد حضر ، أسرع الكلب يعدو في اتجاهي وتبعته جميع الكلاب الذي تجاوز عددها أكثر من خمسين كلبا أكثر من ثلثهم ولد علي يدي بسيناء.

أثار هذا دهشة الحاضرين ، حاولت الفرار من المكان لكن الكلاب السريعة لحقت بي وأنا أعدو أمام منصة الحاضرين مخترقا أرض العرض ، لحقت بي الكلاب وقفزت عليّ حتي اختفيت أسفلهم حيث كانت جميع الكلاب تلعق وجهي وتجذب ملابسني والتي كنت أسمع تمزق البدلة العسكرية التي كنت أرتديها ، جلست محاولا إعادتهم لأرض الطابور ولكنني فشلت والتفت جميع الكلاب من حولي علي هيئة دائرة وأنا أشاهد الأم روز المميزة بفقد جزء من ذيلها وسحاب و عطارد وقطبي والمشتري والزهرة وحنجل وأبو سريع والعفش وغيرها من الكلاب ، تنبعت إلي أنني كنت أضحك أو أتحدث وينتهي مقطع حديثي بأحرف "هاو" وفي بعض الحالات أردد في حديثي كلمات " ها .. ها .. هو .. ها " وكل ما يصدر عن الكلاب ، تذكرت بأنني كنت ألاحظ أن بعض الضباط بكتيبة المشاه ينظرون إليّ حين أتحدث إليهم بدهشة من تلك التعبيرات ولكنني لم أكن

الوطن وهم جلوس في منازلهم وبين أسرهم وأصدقائهم ، أنهم الأبطال الحقيقيون بجوار الشهداء والمصابين ، كما لاحظت تقدم السن بكل من سحاب وروز فقد تعدت أعمارهم الست سنوات.

جمعت بعض أغراض أسرتي وتوجهت إلي مدينة الإسماعيلية بصحبة رقية ورقية الصغري وقتحي وومت علي تأثيث الشقة بذوق مشترك بيني وبين رقية فلو تركتها بمفردها فلن تستطيع تأثيثها لأنها لن تعثر علي أعطية من وبر الجمال فكل شئ هنا مخالف للحياة البرية الجميلة التي كانت تعيش بها ، كانت مكافأة نهاية الخدمة مناسبة لوقت خروجي إلي التقاعد فقد حصلت علي اثني عشر ألف جنيه ، دفعت منها ثمنا للأثاث حوالي ألفي جنيه واشترت سيارة فيات قديمة من طراز ١٣٠٠ موديل عام ١٩٦٥ وأبقيت ما معي بالبنك لزوم الزمن أما المعاش فلم يكن يتعدي مائة وعشرين جنيها وهو أقل من راتبتي بحوالي ثمانين جنيها ، أيقنت بأن رقية وأنا من خلفها سوف نسير حياة المنزل بتلك النقود المتواضعة.

تحركت بسيارتي في إتجاه قرية أبو عطوة حيث التقيت بزميلي الأسير بديع الذي وقف محبباً وجلست مجاوراً له وتحدثنا بأمر شتي وأخبرته بما طرأ علي حياتي وتركني للخدمة لظروف صحية ، ربت علي يدي قائلاً إن الله لا ينسي عباده وحين علم بأنني بلغت الأربعين عاماً من عمري منذ عدة أسابيع قال: مازال أمامك باقي العمر ولنبدأ حياة الكفاح ثم عرض علي فكرة اعتقدت أنها كانت طيبة حيث قال ما المانع أن ندخل شركاء في إقامة ورشة لصناعة حديد الكريстал نقوم خلالها بصناعة البوابات الحديد والشبابيك وقد زاد العمران بالمحافظة ، حين علمت منه التكلفة وجدتها متواضعة فلا تزيد عن ١٥٠٠ جنيه

لشراء مقصر لقطع الحديد ومتقاب كبير وماكينة لحام وطن من الحديد الخاص بهذا النوع من النشاط من مختلف الأحجام ، توجهت برفقته إلي ميدان الجمهورية وشارع السبئية بالقاهرة وتم شراء كل تلك الأغراض وأفانني بأن أحد جيرانه بالقرية يمتلك مبني كبيرا يرغب بإيجاره بسعر زهيد حيث إن العمران مازال بعيداً عنه رغم وصول المرافق من كهرباء ومياه وصرف صحي ، تم كل شئ بيسر وسهولة.

قسمنا العمل بيننا بحيث يتولي هو الصناعة والعمل الفني الذي يجيده وفي المستقبل يستعين ببعض الشباب للعمل وأنا مسنول عن الحسابات والمشتريات والاتفاق مع العملاء وأخذ مقاسات البوابات والشبابيك المراد صنعها ، كنت سعيدا بهذا العمل الحر ، مضي علي شراكتنا ستة أشهر لم نقم خلالها بعمل سوي بوابة واحدة وأربعة شبابيك صغيرة ، كنا نقضي وقت فراغنا الطويل في الحديث الباسم عن نكريات الحرب فلا زبان والحالة نائمة ، في أحد الأيام ونحن نتناول الشاي أقبل علينا رجل بدين يركب سيارة فارهة وتعرف علينا وأخبرنا بأنه مقاول ويقوم ببناء مدرسة للحكومة ويرغب بأن نقوم بعمل كل ما يخص البوابات والشبابيك الحديدية ، كانت المقابلة كبيرة وصلت وقتها إلي ستة آلاف جنيه دفع النصف مقدما والنصف الآخر حين الانتهاء ، حررت عقدا معه بالمطلوب والمقدم والمؤخر وموعد الاستلام ، غادر الرجل الورشة وبدأت حركة النشاط تدب فيها ، استمر العمل لمدة شهرين متواصلين حتي انتهينا مما طلبه وقبل موعد التسليم بأسبوع شاهدناه مقبلا وتوتر كل منا بأن الرجل خالف الموعد لكنه أقبل لكي يقوم بتعاقد جديد أكثر قيمة من الأول وحينما علم أن ما طلبه قد انتهينا منه اشاد بنا خاصة بعد أن شاهد إنتاجنا ، دفع الرجل المبلغ

المتبقي وجزءاً من العقد الجديد ، في الموعد المحدد توجهت برفقة بديع ومعى أحد الشباب لنقوم بتركيب ما انتهينا منه ، كنا نضع تلك المنشآت فوق السيارة الفيات وننقلها على دفعات توفيراً لنفقات استجار سيارة نقل ، تم تركيب منشآت العقد الأول وبدأنا في إنجاز العقد الثاني.

زادت شهرتنا وأثناء ذلك كانت رقية تقوم بكل شيء داخل المنزل موفرة لى ولأبنائي حياة هادئة هائلة وأصبحت مضرب الأمثال للأومة الطيبة الصادقة حيث سارت على نهج الخالة زهرة ، خلال تلك الأيام لقي الرئيس السادات مصرعه وقد انتابتي حالة من الحزن الشديد ؛ لأن هذا الرجل كان ذكياً لأقصى درجة وشجاعاً ولا يخشى العدو خاصة ما قام به خلال حرب أكتوبر وجيشنا أقل تسليحاً من الجيش الإسرائيلي سواء في العدد أو النوعية ورغم هذا لم يخش ويتردد وقام بأول هجوم تقوم به دولة عربية على هذا الجار سيئ السلوك ، كانت آماله كبيرة لتحسين حال مصر ولكن كل شيء بقدر.

الأبناء في تحسن مستمر سواء في الدراسة أو مع أصدقائهم وقد كونوا صداقات عدة وأخبرتني رقية أنها حامل وقد أسعدني هذا فقد أقبل رزق المولود القادم وتنبهت إلى أنني سوف أصبح سحاب آخر ورقية أصبحت روز أخري ولكنني لم أكن قد أنجبت سوي طفلين فقط بعكس هذا السحاب المزواج الذي كانت زوجاته قد أنجبت أكثر من خمسة عشر جروا في كل لقاء.

عام ١٩٨٢م جلاء الجيش الإسرائيلي عن سيناء وأقبلت الخالة زهرة بأسرتها لزيارة عائلتها وقد لاقت أمها ربها بعد أول زيارة قامت بها ، في بداية كل شهر كنت أقوم على زيارة أسرتي بالإسكندرية وأصبح والدي غير قادر على الحركة وكان يأتي للإقامة بصحبة أمي يقضيان بعض الأيام بمدينة

الإسماعيلية الجميلة الهادئة وقد تزوجت شقيقتي وشقيقات رقية منذ فترة. أحد الأيام أقبلت سيارة يجلس بداخلها شاب يسأل عن الأسطي المختص للتوجه معه لفيلا مشيدة علي شاطئ البحيرات المرة قريبا من مدينة فايد ، طلبت منه العنوان وسوف ألحق به ولكنه طلب مني مرافقته وسوف يعيدني بعد أن أقوم بالحصول علي جميع المقاسات المطلوبة ، بالفعل توجهت مع هذا الشاب وحصلت علي المقاسات المطلوبة والتي كانت كمية العمل بها كثيرة ، أعادني الشاب إلي الورشة واستفسر مني عن التكلفة فأخبرته بكلفة كل قطعة والمجموع النهائي لها وسلمته كشفا بهذا يحمل اسم ورشة بديع وعابد المصري ورقم التليفون.

اليوم التالي اتصل بي الشاب وأخبرني بأن صاحبة الفيلا وافقت علي التكلفة وسوف تأتي إلي عصر الغد للقائي بالورشة ورجاني أن أنتظرها ، أثناء العمل اليومي أخبرني المعلم بديع بأن الأشية بقت معدن والحمد لله خلال العام الماضي والذي كان البداية لنشاطنا حيث حققنا ربحا صافيا حوالي أربعة آلاف جنيه ، كانت الأرباح طيبة ولم تكن نغالي في أسعارنا مقارنة بالآخرين بالإضافة إلي احترام مواعيد التسليم لذا زاد الإقبال علي الورشة بالإضافة إلي حالة الرواج التي كانت سائدة في نهاية عصر الرئيس السادات.

عصر هذا اليوم أقبلت السيارة الفارسة وهبطت منها سيدة أنيقة علي جانب كبير من الجمال والفتنة ، اقتربت مني وهي تقدم تحيتها:

- أهلا بيك عابد ... كيفك؟ تنبهت إلي نبرة الصوت واللهجة الشامية
- الحمد لله .. قدمت لها أحد الكراسي لتجلس عليه والذي كانت القانورات والأترية تغطيه ولكن أحد العاملين أسرع بإحضار كرسي أكثر راحة من منزل

الأسطي بديع ، جلسنا معًا كنت خلالها أقلب في صفحات دفتر الحسابات كي أعرض عليها كلفة ما سبق وأن طلبته ، نزعنا عنها نظارة الشمس والبرنيطة التي كانت ترتديها وحين شاهدتها نهضت واقفا وكدت أصرخ وأصابني الذعر الصامت وتساءلت:

- أنتي تاني .. بت يا زينه يخرب عقلك ح تروحي في داهية .. ضحكت لحديثي بصوتها الفاتن وضحكتها المثيرة وأمسكت بيدي كأنها تطلب مني الجلوس ، جلست وأنا أتلفت يمنة ويسرا معتقدا بأن المخبرات أو المباحث سوف تُقبل وتلقي القبض عليّ وتبقي مشكلة كبيرة مثل ما حدث بالمرّة الأولى بعد عودتي من قبرص ، همست بأذني:

- عابد ، أنا اسمي الحديجي كارولين وزينه ده اسم مستعار ، مش تخاف مني ، أنا خلاص خلصت مهمتي ودلوجتي يا زلمه باشتغل في هيئة جناة السويس وعندي شجه مليحه في الحي الأفرنجي ولما شفت اسمك جلت أكلك بالعمل ، تعرف مين عايش معايا؟ بنتي جوزفين

- ايوه يا زينه ، قصدي يا كارولين ، أنا عارف أنك جاسوسه وعميله للإسرائيليين وممكن يتقبض عليك

- اسمع مني يا زلمه ، أنا كنت بأجدم خدمه للمخابرات المصرية ، والزلمه الله يرحمه صلاح نصر كان زلمه جوي وجدع ، كان ملخبط الموساد الإسرائيلي والمخابرات الأمريكية ، كان له عميل في كل مكان وكان شجاع - بس الناس بتتكلم عنه بكلام وحش

- دي ضربيه المخلص ، شفت الهجوم إللي إتعرض له الرئيس عبدالناصر ، والرئيس السادات اللي مكمنشي سنه بعد وفاته بيجولوا عليه إيه؟ ده عيب الشعب

المصري يحب العايش ويبهذل اللي مات ليه لأنه عايز يفضل علشان يطبل للي موجود ، أنا بأشتغل في الجناة مكافأة من الحكومة المصرية وبأجوم بالترجمة للغة اليونانية ، شفت كيف يا زلمه؟

- شيء عجيب وغريب

- لكن أنا ملاحظه أنك يا زلمه لسه مصصح وعندك جوه ، تفكر إننا نجوز

- إبعدي عني ، أنا مجوز وعندي ست عظيمة وتلات عيال

- والله أنت زلمه حلو ومش بأنسي الكام يوم اللي كنا فيه بالمركب أو بالمستشفى

، علي فكرة أنا اللي عرفت المخابرات أنك بالمستشفى و عملوا كل طريقه

لتهريبك إلي مصر وأنا جمت بالحكاية دية أكثر من مرة بعد حرب ٦٧ كانت

دي مهمتي مع مزراح المجرم يجيب ليا كل أسبوع كام ضابط من الرتب

الأسيرة وأهريها وأنوله جرشين لكن حظك أنك كنت موجود يوم المخدرات بدل

ما ناوله مصاري كان عايز المخدرات وأنت فاكرك كل الحكاية اللي حصلت.

انتهى اللقاء بتعارف تم بيننا ومضي عليه أكثر من ثلاثة عشر عاما وقامت

كارولين بدفع تكلفة ما طلبته بالكامل.

هكذا أستمرت حياتي انا وهذا الصديق الأسير بديع وكانت الحياة رغبة حيث

زاد حجم التعامل معنا وبالتالي زادت أرباحنا وكنا ننقل من نجاح إلي نجاح

حتى تطور العمل وأضفنا قسما لأعمال الألموتيال لمسيرة ركب التطور

ورغبات العملاء.

ازدادت حالتنا المالية رواجاً وأرسل الله لنا بالخير من كل اتجاه وأصبح بديع

أسطي كبيراً يجلس بداخل المكتب بالورشة ويجواره التليفون ويعمل معه خمسة

عشر شاباً يحصلون علي رزقهم وقد تزوج بعضهم وكون أسرة ، خلال هذا

اشتريت قطعة أرض مخصصة للبناء وكل عام أشيد دورا حتي وصل عدد الأدوار إلي خمسة طوابق بكل دور شقتان ، انتقلت إلي إحدي الشقق بهذه العمارة كما أن أبنائي الثلاثة يواظبون علي دراستهم تعاونهم أمهم بكل ما تستطيع ، رقية ابنتي الكبرى تدرس بكلية التربية جامعة قناة السويس وأصبحت بالسنة النهائية وفتحي يدرس بكلية الزراعة بالسنة الأولى أما الصغري إيمان فتدرس بالمرحلة الثانوية.

وقفت في أحد الأيام علي الشاطئ الغربي لقناة السويس أنظر إلي الشاطئ الآخر وأعود بالذاكرة بأنه خلال الفترة من حرب عام ٦٧ إلي حرب عام ٧٣ لم يكن أحد يستطيع أن يقف يتمتع نظره بمياه القناة بل كانت الإسماعيلية وباقي مدن القناة مدن أشباح وأبناء تلك المدن هجروها إلي داخل الجمهورية وتحمل الذين هاجروا والذين استضافوهم بعضا من المشاكل التي تنتج أثناء ذلك ، أعود أيضا بالذاكرة للزعيم جمال عبدالناصر وأنور السادات اللذين بذلا كل ما في وسعهما من أجل الحرب والنصر وطرد العدو وبعد أن شعر العدو بالعين الحمراء لجيش وشعب مصر تنازل عن أطماعه وصاغها في صورة اتفاق.

كان اللواء فوزي يقوم علي زيارتي من حين لآخر خاصة بعد أن أحيل إلي التقاعد وقد التقي بالصديقة زينه وتبين أنهما معرفة عمل من قبل ، كما كانت أسرتي تلتقي مع زينة أو كارولين بل حضرنا جميعا حفل زفاف ابنتها جوزفين التي انتقلت للعمل والحياة مع زوجها بالعاصمة اليونانية أثينا.

مازلت قادرا علي العمل وقد قارب عمري من الثامنة والستين وقد تخرج الأبناء والبنات وتزوجوا جميعا ومازلت أنعم بالحياة مع تلك القيثارة الجميلة رقية حيث تبثني من حين لآخر بالسعادة والنعيم والحب الهادئ وأستمع لصوتها

الشجي أثناء انشغالها في المطبخ وأنا جالس بالصالة أقرأ الجريدة.
في إحدى المرات التقيت بصديقي القديم أسامة الذي حاول أن يدفع بي
لكتابة تلك الأحداث فاكثفت بأن أقص عليه كل ما قمت به وساعدته بلقاء بعض
الأشخاص الذين ذكرت أسماءهم وما زالوا علي قيد الحياة وها أنا في انتظار ما
سوف يكتبه وأرجو إذا خرج هذا الكتاب إلي النور أن يفيد من يقرؤه ليعلم كل
شاب وفتاة بمصر بأن بها رجال صدقوا وعد الله وعاهدوه علي النصر وتقديم
حياتهم فداء للوطن وما زال مشهد رجال الصاعقة ماثلا أمامي ولنقرأ عليهم
وعلي جميع الشهداء الفاتحة.

تمت

تعليق من الكاتب

مساء أحد الأيام اتصل بي عابد وسمعت صوته علي غير عادته حيث كان الإرهاق باديا عليه ، استوضحت منه عما يعانیه فقال بنفس طريقته المرحه " يظهر عليّ ح أودع الدنيا ، خلاص معادي قرب ، باقي شهرين وكمل سبعين سنة لكن يظهر مش ح أستني الشهرين دوول " مازحته ولكنه كان جادا حيث أخبرني بأنه تردد علي طبيب مشهور وعرض عليه ما يعانیه من الآم فأوضح له بأن تلك الآلام ناتجة من تعرضه للطقس السيئ والبرودة الشديدة فترة عمله بجبل كاترين كما أن بئر المياه التي كان يشرب منها بها نسبة مرتفعة من الأملاح وكل هذا أثر علي وظائف الجسم وعاني منها ولهذا السبب أصبح غير قادر علي النشاط والحركة من أثر البرودة التي ألهبت الكلي وتأثير الأملاح أيضا.

برجاء رقيق طلب مني زيارته ووافق علي هذا وأخبرته بأنني سوف أقوم علي زيارته بعد عدة أيام لأعرض عليه أصل الكتاب بعد أن انتهيت منه تماما ولكنه قالها واضحة " أسامة أنا مش ح أكمل أربعة وعشرين ساعة ، ياريت تيجي بكره الصبح ولو كنت تقدر كنت خليك تيجي دلوقتي والإسماعيلية مش بعيدة ، يعني ساعة وربع تكون عندي لكن أنا عارف أنك بتتعب في السواقة بالليل ، خليها للصبح واعمل حسابك تفضل كام يوم معايا ، واد يا أسامة ، أنت شرقاوي جدع وأنا إسكندراني أجدع" تبادلنا الضحكات بوعد علي أن أقوم علي زيارته باكر لأعرض عليه النص النهائي للكتاب.

لم أستطع النوم براحتي تلك الليلة ، كنت أشعر بشيء ما نتيجة حديثه ، عاد إلي شعوري الذي شعرت به منذ اثنتين وأربعين عاما حينما كان متجها في

الصباح للعرض علي لجنة الضباط والتي انتهت إلي قرار فصله من الخدمة العسكرية ، كان صوته به نفس رنة الحزن والألم وتبين لي أن هذا الرجل كانت لديه حاسة سادسة لبعض الأحداث التي حدثت له.

في الصباح تحركت بسيارتي إلي الإسماعيلية مودعا زوجتي وأخبرتها بأنني سأمضي باقي الأسبوع مع عابد مثلما كان يحدث في بعض الأحيان ولهذا زودتني بملابس وبعض الأغراض لهذا الحدث كما زودتني بعدد من القمصان المكواة وبدلة إضافية حيث الوقت نهاية شهر مارس من هذا العام ٢٠١٠ تحركت وأنا مازلت أفكر كيف سيستقبل عابد كل ما كتبتة ، كنت راغبا بأن يشعر بسعادة تجعله يعود لابتهامة الطيبة عوضا عن حديثه الحزين بالأمس ، ظلت الأحداث التي رواها لي والذي كتبتها بالكتاب تتحرك أمام عيني مرانفة لتحرك الأشجار والسيارات علي الطريق حتي وصلت إلي الشارع وقد جاوزت الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم ، كنت أثناء القيادة قد أغلقت التليفون المحمول حتي لا تأتي إلي مكالمة تشغلني أثناء الطريق.

فتحت التليفون المحمول فشاهدت رقم تليفون عابد المنزلي وقد اتصل بي أكثر من مرة كما شاهدت رقم تليفون منزلي الذي تعدد رقم اتصاله بي مرات عدة ، ضحكت بداخلي علي هذا الصديق المتعجل اللقاء مما دفعه للاتصال بالمنزل وهذا دفع بزوجتي للإتصال بي ، هبطت من السيارة ولم أحمل معي سوي الدوسيه الذي به أصل رواية عابد المصري ، تحركت جهة العمارة الخاصة به ، بداخل العمارة شاهدت ابنه فتحي فأقبل علي مسرعا قائلاً حمد لله بالسلامة يا عمي أسامة ، من الصبح بنتصل بيك ، قطع حديثه معي رجل يرتدي الملابس البلدية والذي وجه إلي الشاب السؤال التالي:

- الصوان فنصبه قدام العماره وإلا بالشارع الجانبى؟

لم أع ما أجاب به الفتى ولكننى دقت النظر فى عيون الشاب والذى كان بها أثر للون احمرار ناتج من الحزن والبكاء ، تساءلت مسرعا:

- فىه إيه يا فتحتى؟

- بابا .. تعيش أنت .. لا أعلم ماذا حدث لى ولكن المؤكد أننى كدت أن أفقد النطق من هول الصدمة مثلما حدث لعابدى منذ أربعين عاما بعد حادث السجن الحربى ، شعرت بإختناق فى التنفس وأسرع أحدهم بإحضار كرسي من كراسى الفراشة وأخر فتح زجاجة مياه معدنية وقدمها لى للشرب ، لا أعلم هل شربت أم لا لكننى أشرت إليه بأن يصطحبنى كى أشاهد المرحوم ، دمعت عيناى من لقب المرحوم الذى أصبحت بديلا عن لقب الصديق ، سرت مع فتحتى ودخلت الشقة وكانت الأبواب مفتوحة على مصراعها ، توجه بى إلى حجرة جانبية كنا دائما ما نجلس بها بعض الأوقات والذى كانت مزودة ببعض الأثاث البسيط ، قبل الدخول أخبرنى بأن الرجل المسئول عن غسل الموتى بالداخل يستعد للقيام بعمله ، أسرعت بالدخول إلى الحجرة وألقيت بالدوسيه جانبا ونظرت إلى عابدى.

لم يكن الرجل قد بدأ يشرع فى عمله بل كان يعد أدواته من صابون وإيفه وباقى الأشياء وبجواره الكفن المعد للمرحوم ، أقبلت على عابدى وهو مسجى ، كنت أريد التأكد بأن ما أشاهده هو عابدى الذى كان ينام معى بنفس الحجرة ونحن ضباط صغار ، شاهدت عابدى الرقيق والذى شاهدته لأول مره صارخا بى بأن أترك السرير لرغبته فى النوم ، نظر إلى مسئول الغسل متسائلا:

- نبدأ يا بيه؟

أشرت إليه بأن يبدأ فى عمله ، أزاح عن صديقى ملبسه وطلبت من فتحتى

مغادرة الحجرة إذا كان يرغب في ذلك ، رفض وظل معي رابط الجأش مثل والده ، شاهدت وعانيت آثار إصابة عام ١٩٦٧ سواء من الرصاصات التي أصابته من زورق البحرية الإسرائيلي أو محاولة الأسماك التهام جسده أثناء السباحة أو الشق الطولي من اصطدامه ببرميل صاج قبل بلوغه الشط قبل منزل أبو السعدات ، بل شاهدت مناطق الكي بالنار التي تعرض لها أثناء فترة أسره بسجون الجيش الإسرائيلي خلال حرب عام ١٩٧٢ كان بجسده من الثقوب وآثار الجروح الكثير والتي تدل علي ما عاناه ولاقاه.

ظلت بجواره طوال فترة الغسل إلي أن انتهى الرجل من عمله وأنا أستعيد كل ما جال بذهني عنه وعن لمحاته الإنسانية التي لا يعلم عنها أحد سوي العدد القليل لأنه لم يكن اجتماعيا بل كان رجلا يقوم بعمله ويتجنب الناس خشية تكرار ما سبق من التعدي عليه أو فصله ، لقد أصيب بما يسمى الصدمة من الناس حيث كان يشعر بأن الكثيرين راغبون في إلحاق الأذى به كما أن فترة عمله لسنوات طوال فوق قمة جبل كاترين أو شمال سيناء بصحبة الكلاب وباقي الحيوانات بالصحراء الشاسعة والتي يتندر بها الناس قد دفعته بأن يصبح سعيدا حينما يتحرر من قيود العلاقات الإنسانية.

كنت أشعر بأن عابد لا يشعر بوجود بشر حوله سوي اللواء فوزي ورقية وبديع شريك الورشة وأنا بالطبع ، هذا هو عالم عابد.

قمت بتقديم يد المساعدة وبمشاركة فتحني في وضع "الكفن" حول عابد ، لقد قمنا بتقديم يد المساعدة علي أن يرتدي زي مغادرة الدنيا إلي الآخرة ، قمنا بإعداده بتلك الملابس التي سوف تخبر أهل البرزخ بأن عبداً من عباد الله الصالحين بعد أن أنهى حياته يعود إلي خالقه حاملا تلك الأوسمة وعليها التوقيع

دون قلم أو ختم بل ختم الكفاح والرجولة والبطولة.

سارت الإجراءات المتبعة سريعا وشاهدت رقية والبننتين بازواجهن وأبنائهن ، كنت أتلقى العزاء في الراحل ، أقبلت رقية الصغرى ابنته تشد علي يدي قائلة: - البقية في حياتك أو نكل أسامة وأعقبها إيمان .. بعد قليل شاهدت سليم وبصحبته كاملة وحذا حذو الآخرين ، لم أعرف السبب في أن الجميع يقدم لي التعازي في الفقيد وبعدها علمت بأن هذا الرجل كان يخبر أفراد أسرته بأن يستوصوا بي خيرا بعد رحيله وأنني الأب البديل لهم ويجب أن يتقبل عزائي لو لاقى الله قبله ، لقد أوصي بهذا وقام الأبناء والأقارب بل والزوجة بتنفيذ الوصية. قمنا بالصلاة علي الفقيد بالمسجد القريب من موقع سكنه وبعد الانتهاء من صلاة الظهر توجه الجميع إلي المقابر ، هناك بدأت إجراءات الدفن وقبل أن يُنهي الحانوتى آخر خطوة سلمته الدوسيه ليضعه بجانب جثة المرحوم ، نظر إلي الرجل بدهشة فأعدت عليه رغبتي ، أمسك بالدوسيه فشاهدت زوجته تخرق جموع المشيعين صارخة بالحنوتي وبني ، هذا من أملاكنا وأملاك أبنائي وأحفادي وليس لك الحق فيما تقوم به ، خطفت الدوسيه من الرجل وعادت لتقف بجوار النساء وقد تسلمت إحدى قريباتها الدوسيه منها.

أغلقت المقبرة وبدأت وفود المعزين تغادر المكان وظللت ساكنا وبجواري فتحي الذي طلب مني أن أرافقه في سيارته حيث أخبرني بأنه كان يشفق علي أثناء الجنازة وأنا أحاول من حين لآخر بأن أساعد في حمل نعش والده ، هددت علي كتفه طالبا منه مغادرة المكان وعليه أن يتركني بعض الوقت بجوار المقبرة ، بعد جهد تحرك الشاب حتي يعود إلي المنزل حاملا نساء العائلة استعدادا لتقبل العزاء ولضيافة المعزين القادمين من جنوب وشمال سيناء والإسكندرية.

خيم السكون والهدوء علي المكان وكدت أسمع أصوات الملائكة التي هبطت لتقوم بحساب هذا العبد الذي عاد إلي ربه ، لقد كانت وصية عابد لي دائما بأن أظل بجوار قبره بعد انصراف المشيعين فترة الساعة التي يأتي خلالها الملائكة لحساب الإنسان المتوفي حتي يطمئن حينما يشاهد أحدا من أحبائه أو أهله يجلس قريبا من المقبرة ، تلك الوصية طلبها مني حينما تحدثت معه في أحد اللقاءات وأخبرته بأن تلك كانت وصية والدي قبل وفاته لي وقد نفذتها ولهذا طلب مني أنفذ تلك الوصية مداعبا بأنني لست في مقام والدك لكنك حبيبي وأخويا يا أسامة . كنت أتلو القرآن طالبا له الرحمة والمغفرة مشجعا له بأن يخبر من يسأله بأنه مسلم وأن دينه الإسلام وكتابه القرآن ونبيه محمد صلي الله عليه وسلم ، هرب مني التوقيت وقد تعدي العصر وقارب من المغرب وشعرت بمن يهمس قريبا مني محدثا:

- قوم معايا يا عمو أسامة ، شغلتنا عليك .. لقد عاد فتحي ابن الراحل للقائي والعودة بي ثانية إلي المنزل

عدت وقمت بأداء صلاة العصر وتناولت الطعام بصحبة سليم وفتحي وبديع شريك المرحوم في ورشة الحديد وابن قرية أبو عطوة ، تبادلنا الحديث والذي دار بالطبع حول أخلاق وسمات وصفات المرحوم ونوادره ، لقد عشنا ثلاثتنا معه وكل يعلم بعض خفاياه ولم نفقد أحدا ممن عاصره سوي اللواء فوزي الذي استقبل عابد في أول أيام عهده بالخدمة وكان له بمثابة المرشد والمعلم والأب الروحي له ، لقد توفاه الله منذ شهرين وأخبرني وقتها عابد حيث توجهنا لحضور القداس عليه بإحدى الكنائس بمصر الجديدة أما الشخص الثاني والذي لم يحضر ولم نعره انتباها هو عم شحاتة وقد التقيته بقرية نكلا منذ عام وقد أصبح غير

قادر علي الحركة ، لقد عرفني عابد بكل من التقى بهم والذين هم علي قيد الحياة.

أقبلت رقية أرملة عابد وجلست بجواري تقدم لي اعتذارها عن تصرفها أمام المقبرة طالبة مني أن أغفر لها ما حدث ، كانت توضح للجميع مدي ما كان ينتظره عابد من وراء هذا الكتاب طالبة مني بحق الصداقة والحب أن أكمل ما قمت به وأنها مستعدة لتحمل نفقات الطبع والنشر ، شكرتها علي مشاعرها وأخبرتها بإتفاق الأمس مع المرحوم تليفونيا حين أخبرني بأنه لو قابل ربه قبل أن يشاهد أصل الكتاب فسوف تقوم أنت يا أسامة بتحمل نفقات نشره ، لهذا فأنني ملزم بتنفيذ ما إتفقنا عليه معا ، حاولت إقناعي بأن هذا كان نوعا من المزاح ولكنني أصريت علي هذا وأن الوعد والعهد هما أساس الصداقة مع هذا الرجل صاحب البطولات والذكري الطيبة.

قضيت الأيام الثلاثة أقوم علي زيارة قبر عابد كل يوم حيث كنت أحادثه وأقرأ عليه عدداً من فصول الكتاب وفي أحد تلك الأيام أقبل أحد الرجال الذين يقومون بتلاوة القرآن بالمقابر يحدثني ويخبرني بأن ما أقوله ليس بقرآن وجلس يتلو بعض آيات من الذكر الحكيم ، ظلت تلك الأيام أقوم علي زيارة قبر عابد وأقرأ عليه ما كتبت حتي انتهيت من الكتاب ، ودعت أسرته وعدت إلي شقتي وقامت زوجتي تطيب من خاطري حيث سبق لها أن قدمت عزاءها تليفونيا لزوجة المرحوم ولم تستطع أن تتوجه إلي الإسماعيلية نظرا لقيامها برعاية والدي المسنة.

بعد أن استعدت جزءا من اتزانتي قررت بأن أتوجه لنشر الكتاب ، في نفس تلك الليلة شاهدت عابد في المنام ينظر إليّ باسمًا وسمعت صوته للمرة الثالثة

ولكن تلك المرة كان من العالم الآخر قائلاً:

- مش بأقولك أنت شرقاوي جدع .. لكن سيبك أنا إسكندراني أجدع!!!
نهضت من نومي سعيداً ومازالت أصداء ضحكته من العالم الآخر ترن في
أذني.

رقم الإيداع بدار الكتب
والوثائق الرسمية
٢٠١٠/٨٧٣٢

من مؤلفات الكاتب:

- * الناس والحرب .. الطبعة الثانية مايو ٢٠٠٩
- * رسالة إلى الرئيس ..
- * "عائلة الحنوني" .. الطبعة الثانية يونيو ٢٠١٠
- * مصر التــــي .. الطبعة الثالثة يناير ٢٠٠٩
- * نص نقل .. الطبعة الثانية يوليو ٢٠٠٩
- * "مسافر" زاده الخيال
- * "حورية بين النخيل" .. الطبعة الثانية يوليو ٢٠١٠
- * الحب والحرمان
- * همسات مصرية
- * صوت الملاك
- * بنت الباشا
- * "بثينه" .. تحت الطبع

